



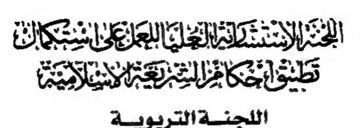
اللجنة التربوية

موسوعة الأسرة

الجزء الثالث





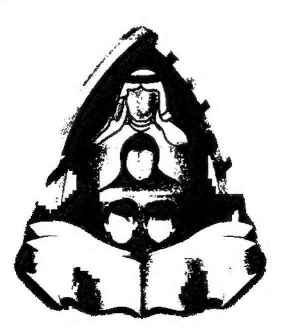




اللجنة التربوية

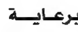
موسوعة الأسرة

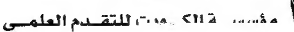
الجزء الثالث

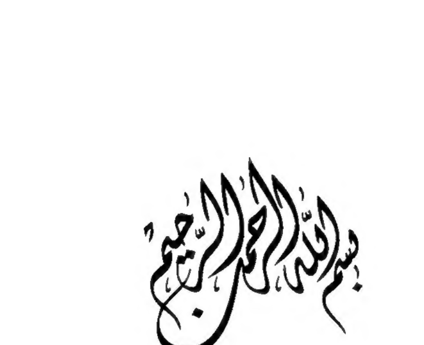











بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

٣٠١,٤٢ موسوعة الأسرة، الجزء الثالث/ مجموعة من الباحثين. - ط ١. - الكويت
الديوان الأميري. اللجنة الاستشارية العليا، ٢٠٠٥م.
ص: ٢٤ × ١٧سم.
ج ٣ (٧٣٥ ص).
رقم الإيداع: ٢٠٠٤/٠٠٢٥٧
ردمك: ٤ - ٢٧ - ٣٣ - ٩٩٩٠٦ (مجموعة)

١. الأسرة. ٢. العلاقات الإدارية. ٣. الأسرة والمجتمع.
أ - اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية (ناشر).
ديوي ٢٥٤,٠٣

ردمك (مجموعة): ISBN: 99906 - 33 - 27 - 4
ردمك (ج 3): ISBN: 99906 - 33 - 36 - 3
رقم الإيداع: Depository Number : 2005/00257

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
أعضاء هيئة التحرير والمشاركون في تحرير الجزء الثالث	٩
بين يدي الجزء الثالث	١١
عناصر الجزء الثالث ومضامينها	١٣
عناصر الجزء الثالث لموسوعة الأسرة	٢٥
الباب الثالث: «التطور التاريخي للأسرة»	٢٧
الفصل الأول: التطور التاريخي لأدوار الأسرة	٢٩
١ - دور الأسرة في مطلع نشأتها	٣١
٢ - تباين أدوار الأسرة (ماضياً وحاضراً)	٥٢
٣ - تطور أدوار الأسرة في المناسبات العامة	٧٧
٤ - تطور دور الأسرة في المناسبات الخاصة	١٠٩
الفصل الثاني: التطور التاريخي لأنماط الأسرة	١٢٩
٥ - الأنماط الحادثة للأسرة مع تغير الدور في القرن الماضي ...	١٣١
الفصل الثالث: التطور التاريخي لسكن الأسرة	١٤٣
٦ - طبيعة سكن الأسرة	١٤٥
٧ - التغير التاريخي للسكن الأسري	١٦٢

الفصل الرابع: التطور التاريخي للباس الأسرة ١٧٧
٨ - مفهوم اللباس في الأسرة ١٧٩
٩ - التغير التاريخي للباس الأسرة ١٩٧

الفصل الخامس: دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث الطارئة ٢١١
١٠ - دور الأسرة في الكويت إبان الكوارث البيئية ٢١٣
١١ - تطور دور الأسرة الكويتية ٢٣٧
١٢ - دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث ٢٦٨
١٣ - دور الأسرة الكويتية أثناء العدوان على الكويت ٢٨٧

الفصل السادس: التطور التاريخي لدعم المؤسسات الاجتماعية للأسرة ٣١٥
١٤ - العلاقة التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني (الأهلي) والأسرة ٣١٧
١٥ - تطور العلاقات التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني والأسرة الكويتية (في الوقت الحالي) ٣٣٠

الباب الرابع : الأسرة والجوانب الاجتماعية : ٣٥٥

الفصل الأول: الآداب الاجتماعية في الإسلام ٣٥٧
١ - الآداب الاجتماعية في الأسرة ٣٥٩
٢ - آداب الطعام والشراب ٣٧٢
٣ - آداب السلام ٣٨٥
٤ - آداب الإستئذان ٣٩٨

الموضوع	الصفحة

٥ - آداب المجلس ٤٠٩
٦ - آداب الحديث ٤٢٠
٧ - آداب المناسبات الخاصة ٤٣٤
٨ - آداب حياتية ٤٤٣

الفصل الثاني: الألعاب والتسالي لدى الأسرة ٤٥٥
٩ - الوظائف التربوية للألعاب داخل الأسرة ٤٥٧
١٠ - البُعد الديني للألعاب ٤٦٥
١١ - الألعاب الشعبية في الأسرة الكويتية ٤٧٥
١٢ - صور من الموروثات الشعبية في الأسرة الكويتية ٤٨٦

الفصل الثالث : الأدب الشعبي المتعلق بالأسرة وموقعه من الدين ٤٩٥
١٣ - الأدب الشعبي لدى الأسرة ٤٩٧

الفصل الرابع : التفاعل الأسري ٥٢٣
١٤ - التواصل الأسري ٥٢٥
١٥ - التفاعل الأسري واستقرار الأسرة ٥٣٥

الفصل الخامس : مقومات الاستقرار الأسري في الإطار العقدي ٥٤٥
١٦ - التوافق الأسري والاستقرار الأسري ٥٧٣

الفصل السادس : الأدوار الاجتماعية لأفراد الأسرة ٥٧٣
١٧ - الأدوار الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والصبا ٥٧٥
١٨ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشباب ٥٩٠
١٩ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الرشد ٦٠٩

٢٠ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الأشد (٤٠-٦٠ سنة) ٦٢٧
٢١ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشيخوخة ٦٥٢

الفصل السابع : الخلافات الأسرية والمشكلات الاجتماعية ٦٦١
٢٢ - الخلافات الأسرية: المنشأ والاستدامة ٦٦٣
٢٣ - الخلافات الأسرية: الوقاية ٦٧٢
٢٤ - الخلافات الأسرية: العلاج ٦٨٥
ختام وصلة ٧٠١
كشاف المفاهيم ٧٠٣
قائمة المراجع والمصادر ٧٠٥

أعضاء هيئة تحرير موسوعة الأسرة

١ - د. عبدالمحسن الجارالله الخرافي رئيس هيئة التحرير
٢ - د. محمد المأمون محمد علي المحرزي عضو هيئة التحرير
٣ - د. بهير أحمد ناصر عضو هيئة التحرير
٤ - أ. عصام عبداللطيف الفليج عضو هيئة التحرير والمقرر

المشاركون في تحرير مادة الجزء الثاني

١ - د. أحمد عبدالغني الجمل
٢ - أ. إكرام أحمد الأهواني
٣ - أ. أماني حسن العشماوي
٤ - أ. إيمان زغلول محمد القدوسي
٥ - أ. بدرية عبدالكريم العزاز
٦ - د. بسامة خالد عبداللطيف المسلم
٧ - د. بهير أحمد ناصر
٨ - د. حصة سيد زيد الرفاعي
٩ - د. حصة عبدالرحمن الناصر
١٠ - أ. خالد حسين البهنساوي
١١ - د. خالد شجاع العتيبي
١٢ - م. خلود يوسف المرزوق
١٣ - د. صلاح الدين محمد عبدالمتعال
١٤ - أ. عصام عبداللطيف الفليج
١٥ - أ. فرحان عبدالله أحمد الفرحان
١٦ - د. فريح عويد العنزي
١٧ - د. فهد عبدالرحمن الناصر
١٨ - د. كمال إبراهيم مرسي
١٩ - د. كمال السعيد حبيب الدسوقي
٢٠ - د. محمد السعيد إدريس
٢١ - د. محمد المأمون محمد علي المحرزي
٢٢ - د. محمد رفقي محمد عيسى
٢٣ - د. محمد عيد محمود الصاحب
٢٤ - د. نادرة أحمد محمد شنن
٢٥ - د. نورية مشاري الخرافي
٢٦ - د. يعقوب يوسف محمد الكندري

* كان يشارك في هيئة التحرير أ. د. محمد رفقي محمد عيسى حتى يناير ٢٠٠٥م

بين يدي الجزء الثالث

نحمد الله تعالى على أن يسر تواصل أعداد الموسوعة وظهور هذا الجزء الثالث منها - وندعوه عز وجل أن يوفق الجميع في مواصلة هذا العمل مع الأجزاء التالية خدمة لمقاصد شريعته الغراء وتمكيناً للأسرة المسلمة من أداء واجباتها على أكمل وجه من الناحية الشرعية وفي أنسب الصور من حيث متطلبات الحياة المعاصرة.

وهذا الجزء الثالث يلقى الضوء على أدوار الأسرة المسلمة ووظائفها عبر مراحل التاريخ حتى عصرنا الحالي.. ويؤصل للمبادئ والقيم التي تقوم عليها في نشأتها وفي تربية أبنائها وفي إدارة شؤونها وحياتها وفي أداء وظائفها في المجتمع.

وقد ركّز هذا الجزء على التطور التاريخي للأسرة منذ بدايات تكوينها حتى الآن في مجالات القيام بمناشطها المختلفة وما يقابل هذا ويكافئها من وظائف متعددة، تناولت كافة التغيرات الحادثة سواء في مجال السكن أو اللباس أو غيرهما، مروراً بدور الأسرة في الأحداث الجسام التي تعرض لها المجتمع سواء على الصعيد المحلي أو العربي.

كما ركّز هذا الجزء على الجوانب الاجتماعية المصاحبة لمسيرة

الأسرة، وهي جوانب يغفل عنها بعض أولياء الأمور - رغم أهميتها - ومن ثم يأتي هذا الجزء ليذكّر القارئ - حيثما كان - بالزاد الفكري الذي كان آباؤنا وأجدادنا يعيشون تحت ظلاله، فإذا كل حركة أو سكنة تهتف بمفردات هذا الزاد على طرف ألسنتهم وواقع حياتهم سواء بسواء.

إن ما يميز ما سطّره المستكتبون في هذا الجزء - جزاهم الله خيراً - أنه يقوم على سمات ثلاثة رئيسة وهي: -

١ - المنهج العلمي في البحث والاستدلال.

٢ - الالتزام بمصادر الشريعة الإسلامية من القرآن الكريم والسنة المطهرة النبوية.

٣ - التنوع الفكري الذي يعكس تنوع شرائح مجتمعاتنا المسلمة في أيامنا هذه.

وختاماً، نعود ونحمد الله عز وجل ونسأله تعالى أن يعيننا وزملاءنا المستكتبين على مواصلة العمل في الأجزاء التالية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. عبدالمحسن الجارالله الخرافي

رئيس هيئة التحرير

عناصر الجزء الثالث من موسوعة الأسرة ومضامينها

الباب الثالث : التطور التاريخي للأسرة

م	العنصر	المضامين
		الفصل الأول: التطور التاريخي لأدوار الأسرة :
١	دور الأسرة في مطلع نشأتها	١ - نشأة الأسرة كتنظيم فاعل (الحاجة - الدور). ٢ - تباين الأدوار مع تطور أنشطة الأسرة البدائية. ٣ - نمو دور الأسرة مع اتساع دائرة العلاقات بين أسرية. ٤ - الأسس الحاكمة لتطور أدوار الأسرة (القيم والممارسات).
٢	تباين أدوار الأسرة (ماضياً وحاضراً)	١ - الأدوار الفردية والجماعية للأسرة في الماضي. ٢ - الأدوار الفردية والجماعية للأسرة في الحاضر.
٣	تطور أدوار الأسرة في المناسبة العامة	١ - دور الأسرة في المناسبات الدينية والوطنية. ٢ - أمثلة وشواهد من المجتمعات المسلمة.
٤	تطور دور الأسرة في المناسبات الخاصة	١ - الزواج. ٢ - المولود الجديد. ٣ - العقيقة. ٤ - الختان. ٥ - ختمة القرآن الكريم. ٦ - الوفاة.

م	العنصر	المضامين
الفصل الثاني : التطور التاريخي لأنماط الأسرة		
٥	الأنماط الحادثة للأسرة مع تغير الدور في القرن الماضي	١ - أنماط الأسرة في القرن الماضي (بدايته - نهايته). ٢ - تفاعلات الأنماط المستحدثة في السياسات العامة للمجتمع
الفصل الثالث: التطور التاريخي لسكن الأسرة		
٦	طبيعة سكن الأسرة	١ - الأبعاد النفسية والاجتماعية والبيئية للمفهوم المعماري والإنشائي لسكن الأسرة. ٢ - العلاقة بين المكان والمكين (تطور سكن الأسرة مع تطور نمطها). ٣ - الارتباط بين الوظيفة والشكل لسكن الأسرة في البادية، والقرية، والمدينة، ومخيمات اللاجئين.
٧	التغير التاريخي للسكن الأسري	١ - أشكال السكن الأسري السائد في الماضي (مع الإشارة إلى قواعد التوافق بين السكن والسكان). ٢ - أشكال التحول في السكن الأسري في المجتمع المعاصر (مع مراعاة الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية). ٣ - إستشراف مستقبل السكن الأسري في ضوء المعطيات السائدة

م	العنصر	المضامين
الفصل الرابع: التطور التاريخي للباس الأسرة		
٨	مفهوم اللباس في الأسرة	١ – الأبعاد النفسية والاجتماعية والبيئية للباس في الأسرة. ٢ – الارتباط بين الوظيفة والشكل للباس الأسرة في البادية والقرية والمدينة. ٣ – المرجعية العقدية في شكل اللباس.
٩	التغير التاريخي للباس الأسرة	١ – أشكال اللباس الأسري السائد في الماضي. ٢ – أشكال التحول في اللباس الأسري في المجتمع المعاصر مع ردها إلى المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.
الفصل الخامس: دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث الطارئة:		
١٠	دور الأسرة في الكويت إبان الكوارث البيئية	١ – دور الأسرة في الابتلاء. ٢ – دور الأسرة الكويتية في الكوارث البيئية (الطبعة – الهدامة – الطاعون..).
١١	تطور دور الأسرة الكويتية	١ – دور الأسرة الكويتية في الماضي (ما قبل النفط). ٢ – دور الأسرة الكويتية في عصر النهضة والاستقلال (الخمسينيات والستينيات والسبعينيات). ٣ – دور الأسرة الكويتية في الثمانينيات وما بعدها. ٤ – دور الأسرة الكويتية بعد التحرير وفي الألفية الثالثة.

م	العنصر	المضامين
١٢	دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث	١ - القلاقل الداخلية في الدول المجاورة. ٢ - الحروب العالمية والإقليمية.
١٣	دور الأسرة الكويتية أثناء العدوان على الكويت	١ - تحول المسؤولية الاجتماعية من الخارج إلى الداخل في إطار التبعات الحادثة. ٢ - التساند بين الأسر في مواجهة الكارثة. ٣ - تداخل الأدوار في الأسرة (المقاومة - مترتباتها). ٤ - العلاقة بين الأسرة والدولة في مقام الحقوق والواجبات.
الفصل السادس : التطور التاريخي لدعم المؤسسات الاجتماعية للأسرة :		
١٤	العلاقة التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني (الأهلي) والأسرة	١ - مفهوم المجتمع المدني ومؤسساته. ٢ - الفلسفة - النشأة - التطور (للمفهوم والمؤسسة). ٣ - نماذج معاصرة من العلاقة التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني والأسرة، مع الإشارة لمتغيرات العولمة وانعكاساتها على النظم الاقتصادية والاجتماعية. .
١٥	تطور العلاقات التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني والأسرة الكويتية (في الوقت الحالي)	١ - المؤسسات المجتمعية الكويتية: نشأة ومساراً (نماذج). ٢ - تطور الدلالات الاجتماعية والسياسية للمؤسسات المجتمعية الكويتية وانعكاساتها على الأسرة. ٣ - الدور المستقبلي للعلاقة بين تلك المؤسسات والأسرة.

الباب الرابع : الأسرة والجوانب الاجتماعية

م	العنصر	المضامين
الفصل الأول: الآداب الاجتماعية في الإسلام :		
١	الآداب الاجتماعية في الأسرة	١ - مفهوم «الآداب» في اللغة، في الدين، في الحضارات. ٢ - مفهوم «الآداب» في الإسلام والمدنيات الحديثة. ٣ - مجالات هذه الآداب ومظاهرها في الفرد والجماعة. ٤ - موقع «الآداب» في الأسرة بعامة في إطار الفلسفة التربوية للمجتمع.
٢	آداب الطعام والشراب	١ - المقصود بآداب الطعام والشراب. ٢ - الإطار النفسي والاجتماعي لآداب الطعام والشراب وثمارها. ٣ - آداب الطعام في السيرة (من السنة القولية والفعلية والتقريرية). ٤ - آداب الشراب في السيرة. ٥ - أمثلة وشواهد.
٣	آداب السلام	١ - مفهوم «السلام» في الحضارات القديمة والمدنيات الحديثة. ٢ - مفهوم «السلام» في الإسلام. ٣ - آداب السلام في المجتمع والأسرة. ٤ - آثار آداب السلام في التربية الأسرية. ٥ - موقع المفهوم الاجتماعي للسلام لغير المسلمين. ٦ - أمثلة وشواهد.

م	العنصر	المضامين
٤	آداب الاستئذان	١ - مفهوم «الاستئذان» شرعاً. ٢ - موقع الاستئذان في النسق التربوي للطفل خلال مراحل النمو. ٣ - تباين أنماط الاستئذان في الدوائر الاجتماعية (الأسرة - الجماعة - الديوانية... إلخ). ٤ - ارتباط أنماط الاستئذان بالمجالات المستجدة على النمط الرسمي (البروتوكول) - السفر - الغياب - القيام بالمهام.. إلخ (الكيفية - الدلالة - الأثر). ٥ - أمثلة وشواهد.
٥	آداب المجلس	١ - الدلالات التعريفية والضمنية لآداب المجلس بأنواعه. ٢ - آداب المجلس في الحضارات القديمة. ٣ - آداب المجلس في الإسلام. ٤ - آداب المجلس في ظل المستجدات المعاصرة. ٥ - أمثلة وشواهد.
٦	آداب الحديث	١ - مفهوم الحديث وأشكاله (لفظ - غير لفظي): أ - من العلوم الإنسانية. ب - في الإسلام. جـ - في الحضارات القديمة. ٢ - أنواع الحديث (تحدث - حوار - مناجاة). ٣ - ضوابط الحديث وفق مجالاته: أ - مع (الإله - الرسول ﷺ - العلماء - أولي الأمر). ب - مع (الذات - الجار - الآخرين...).

م	العنصر	المضامين
تابع ٦	(تابع) آداب الحديث	جـ - في (المناسبات - الحاجات...). ٤ - آداب الحديث في الأسرة تعليماً وممارسة في مقامات الاتفاق والاختلاف: أ - بين الزوج وأهله. ب - بين الكبير والصغير. جـ - مع الخدم.
٧	آداب المناسبات الخاصة	١ - خصوصية المناسبة (عيادة المريض - التهنئة - التعزية - الضيافة..). ٢ - الأحكام والممارسات لكل مناسبة. ٣ - دلالات عقدية واجتماعية ونفسية. ٤ - المترتبات.
٨	آداب حياتية	١ - سلوكيات حياتية لها ضوابط (اللعب - النوم - الاستيقاظ - التثاؤب - العطاس... إلخ). ٢ - الأحكام. ٣ - دلالات تعبدية واجتماعية ونفسية. ٤ - المترتبات.
الفصل الثاني: الألعاب والتسالي لدى الأسرة:		
٩	الوظائف التربوية للألعاب داخل الأسرة	١ - الألعاب الأسرية (ماهيتها - طبيعتها - أنواعها). ٢ - الأبعاد النفسية وتوظيفها. ٣ - الأبعاد الاجتماعية وتوظيفها. ٤ - الأبعاد التعليمية وتوظيفها. ٥ - الدور الأسري في تفعيل الأبعاد السابقة. ٦ - أمثلة وشواهد.

م	العنصر	المضامين
١٠	البعد الديني للألعاب	١ - علاقة الألعاب بالتراث الديني قبل الإسلام. ٢ - التأصيل الشرعي للألعاب في الأسرة. ٣ - ضوابط وأحكام. ٤ - صور ونماذج.
١١	الألعاب الشعبية في الأسرة الكويتية	١ - ١ - مفهوم الألعاب الشعبية. ٢ - الأهداف. ٣ - مبررات التمسك بالألعاب الشعبية. ٤ - ممارسات من المجتمع الكويتي.
١٢	صور من الموروثات الشعبية في الأسرة الكويتية	١ - عناية التراث الشعبي بأواصر القوة في المجتمع. ٢ - صور من العادات والتقاليد في حياة الأسرة الكويتية.
الفصل الثالث : الأدب الشعبي المتعلق بالأسرة وموقعه من الدين :		
١٣	الأدب الشعبي لدى الأسرة	١ - مفهوم الأدب الشعبي الأسري قديماً (النشأة - المسار). ٢ - نماذج وصور من الأدب الشعبي الأسري في الحضارات: المصرية القديمة - الصينية - اليونانية.. ٣ - علاقة الأدب الشعبي بالقصص الديني. ٤ - توجهات الأدب الشعبي وفق المنظور الديني. ٥ - الضوابط الحاكمة للأدب الشعبي. ٦ - أمثلة وشواهد.

م	العنصر	المضامين
الفصل الرابع : التفاعل الأسري :		
١٤	التواصل الأسري	١ - مفهوم التواصل الأسري وأسسه. ٢ - مجالاته ومظاهره. ٣ - دور التواصل الأسري في استقرار المجتمع. ٤ - أثر المستجدات الثقافية والتكنولوجية في التواصل الأسري. ٥ - أساليب دعم التواصل الأسري. ٦ - دور التوجيهات الدينية في تنمية التواصل الأسري
١٥	التفاعل الأسري واستقرار الأسرة	١ - مفهوم «التفاعل الأسري» وأسسه. ٢ - مجالات التفاعل الأسري ومظاهره. ٣ - دور التفاعل الأسري في استقرار الأسرة. ٤ - أساليب تنمية التفاعل داخل الأسرة. ٥ - التفاعل الأسري وفق التوجيهات الدينية. ٦ - أمثلة وشواهد.
الفصل الخامس : مقومات الاستقرار الأسري في الإطار العقدي :		
١٦	التوافق الأسري والاستقرار الأسري	١ - مفهوما «التوافق الإيجابي» و«سوء التوافق». ٢ - عوامل التوافق الأسري. ٣ - معوقات التوافق الأسري. ٤ - سبل تحقيق التوافق الأسري. ٥ - الأسس العقدية في تحقيق التوافق الأسري.

م	العنصر	المضامين
الفصل السادس : الأدوار الاجتماعية لأفراد الأسرة :		
١٧	الأدوار الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والصبا	١ - سمات الجانب الاجتماعي للفردفي المرحلة. ٢ - مجالات التفاعل في المرحلة، ومعاييره وفق تعاليم الدين والنظريات التربوية. ٣ - المتغيرات المرتبطة بالتباين في الأدوار الاجتماعية في المرحلة (التنشئة الاجتماعية - تركيبة الأسرة - الأعراف). ٤ - توجهات العولمة وأثرها في الأدوار الاجتماعية في المرحلة. ٥ - نماذج من التراث الإسلامي في المرحلة.
١٨	الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشباب	١ - سمات الجانب الاجتماعي للفرد في المرحلة. ٢ - مجالات التفاعل في المرحلة، ومعاييره وفق تعاليم الدين والنظريات التربوية. ٣ - المتغيرات المرتبطة بالتباين في الأدوار الاجتماعية في المرحلة (التنشئة الاجتماعية - تركيبة الأسرة - الأعراف). ٤ - توجهات العولمة وأثرها في الأدوار الاجتماعية في المرحلة. ٥ - نماذج من التراث الإسلامي في المرحلة.
١٩	الأدوار الاجتماعية في مرحلة الرشد	١ - سمات الجانب الاجتماعي للفرد في المرحلة. ٢ - مجالات التفاعل في المرحلة، ومعاييره وفق تعاليم الدين والنظريات التربوية.

م	العنصر	المضامين
تابع ١٩	(تابع) الأدوار الاجتماعية في مرحلة الرشد	٣ - المتغيرات المرتبطة بالتباين في الأدوار الاجتماعية في المرحلة (التنشئة الاجتماعية - تركيبة الأسرة - الأعراف). ٤ - توجهات العولمة وأثرها في الأدوار الاجتماعية في المرحلة. ٥ - نماذج من التراث الإسلامي في المرحلة.
٢٠	الأدوار الاجتماعية في مرحلة الأشد (٤٠ - ٦٠ سنة)	١ - سمات الجانب الاجتماعي للفردفي المرحلة. ٢ - مجالات التفاعل في المرحلة، ومعاييره وفق تعاليم الدين والنظريات التربوية. ٣ - المتغيرات المرتبطة بالتباين في الأدوار الاجتماعية في المرحلة (التنشئة الاجتماعية - تركيبة الأسرة - الأعراف). ٤ - توجهات العولمة وأثرها في الأدوار الاجتماعية في المرحلة. ٥ - نماذج من التراث الإسلامي في المرحلة.
٢١	الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشيخوخة	١ - سمات الجانب الاجتماعي للفرد في المرحلة. ٢ - مجالات التفاعل في المرحلة، ومعاييره وفق تعاليم الدين والنظريات التربوية. ٣ - المتغيرات المرتبطة بالتباين في الأدوار الاجتماعية في المرحلة (التنشئة الاجتماعية - تركيبة الأسرة - الأعراف). ٤ - توجهات العولمة وأثرها في الأدوار الاجتماعية في المرحلة. ٥ - نماذج من التراث الإسلامي في المرحلة.

م	العنصر	المضامين
الفصل السادس : الأدوار الاجتماعية لأفراد الأسرة :		
٢٢	الخلافات الأسرية : المنشأ والاستدامة	١ - مفهوم الخلافات الزواجية . ٢ - أسباب الخلافات الزواجية . ٣ - عوامل استدامة الخلافات الزواجية .
٢٣	الخلافات الأسرية : الوقاية	١ - دور الزوجين في درء الخلافات الزواجية . ٢ - أساليب درء الخلافات . ٣ - التنشأة الوالدية الصحيحة . ٤ - دور المجتمع في درء الخلافات .
٢٤	الخلافات الأسرية : العلاج	١ - الخلافات الزواجية ودور الزوجين . ٢ - الأساليب المتبعة . ٣ - دور الأهل في التعامل مع الخلافات الزواجية .

عنـاصـر
الجـزء الثالث
لموسوعة الأســـرة

الباب الثالث

« التطور التاريخي للأسرة »

الفصل الأول
التطور التاريخي لأدوار الأسرة

١ - دور الأسرة في مطلع نشأتها.

٢ - تباين الأدوار للأسرة (ماضياً وحاضراً).

٣ - تطور أدوار الأسرة في المناسبات العامة.

٤ - تطور دور الأسرة في المناسبات الخاصة.

دور الأسرة في مطلع نشأتها

محور الوجود الإنساني

الأسرة هي المحور الأساسي للحياة الإنسانية، فبدونها لا تستقيم الحياة الاجتماعية، وإذا كانت الأسرة سواء، وحدة اجتماعية صغيرة أو ممتدة أو شبكة قرابة؛ فإنها في آن واحد، هي المنبع المتدفق والمصبّ الأرحب المتميّز الذي يجمع ويلخّص كافة النظم الاجتماعية المحورية لأي مجتمع..؛ إذ تشارك في تشكيلها وتتأثر بها في نفس الوقت، فهي أشبه ببوتقة ينصهر ويتفاعل فيها أنساق الفكر والدين وأساليب التنشئة والثقافة والتقاليد والأعراف والآداب والقيم وأنماط السلوك الإنتاجية والاستهلاكية ومشاعر المودة والصحبة في العلاقات الزوجية ووشائج القرابة، والأسرة بعبارة أخرى هي مرآة صادقة تعكس في الغالب الأعم الواقع الكلي الشامل للحياة الاجتماعية سواء في البيئات الصحراوية أو الريفية أو الحضرية أو بين بسطاء الناس وأوسطهم وأعلاهم في سلم التدرج الطبقي.

إن الحياة الإنسانية بجلّها لا تخضع لعشوائية التطور أو الصدفة بل تسيرها سنن وقوانين مثل تلك التي تسير الوجود الكوني الطبيعي، وإن بدا اختلاف مكونات الوجودين الطبيعي والإنساني، إلا أن قصة الخلق الرباني لهما تجمعهما في إطار واحد.

ومن ثم فإن الأسرة كمنظومة إنسانية واجتماعية لها مكانتها منذ بدء الخليقة حيث تم تكليف الإنسان بحمل أمانة الدعوة إلى عبادة الخالق والامتثال لمهمة الاستخلاف لإعمار الكون الطبيعي والاجتماعي.

ولم يدع الله سبحانه، الإنسان للاعتماد على ذاكرته التاريخية للالتزام بالوحدانية والبُعد عن الشرك والكفر، بل حصّنه منذ خلقه بفطرة الإيمان به، وبعث الرسل والأنبياء والمصلحين لإعادته لواحة الإيمان به كلما أنسته الشياطين أو ضل الطريق حيث ينحرف البشر في مسارهم ويخضعون لأهوائهم وغرائزهم فيزداد الضلال وينتشر الفساد والإفساد، ويمتد ذلك إلى حياة الأسرة فتهتز أركانها وتتعرض للتفكك والانهيار، وإذا حدث ذلك فسدت العلاقة بين الأزواج وذهبت الرحمة بين الأبناء وانقضى برّ الوالدين[١].

أدوار الأسرة:

الدور لأي فرد أو جماعة يرتبط بالموقع الذي يشغله أيٌّ منهما في البناء الاجتماعي؛ وبذلك يقترن الدور بالمكانة أو المركز[٢]. والأسرة كنظام اجتماعي أسبق دائماً من الفرد الذي وجد نفسه منذ نعومة أظافره عضواً فيها بشكل تلقائي بحكم الطبيعة الحيوية والانتساب العصبي

(١) انظر مادة بر الوالدين في موسوعة الأسرة.

(٢) Giddens, Antony, Sociology, Polity Press, 3d ed. K. Oxford, 1997.

للأب والدموي للأم. وتخضع الأسرة كظاهرة لمبدأ الفطرة الاجتماعية، مثل طبيعة التجمع البشري أو الإنساني منذ بدء الخليقة أو لمقولة: «إن الإنسان مدني أو اجتماعي بطبعه».

وتتسع دائرة العضوية في الأسرة وتضيق طبقاً لحجمها؛ فهي طبقاً للدراسات التاريخية والأنثروبولوجيا الاجتماعية الكلاسيكية؛ اتجهت منذ نشأتها التاريخية من الضيق في الحجم إلى الاتساع ثم إلى الضيق مرة أخرى، إذ كان عدد أعضائها لا يتعدى الزوجين وأبنائهما البيولوجيين ثم تطور التكوين إلى المعشر ثم العشيرة فالبدنة إلى القبيلة، ثم أدت عوامل الانقسام مرة أخرى إلى انشطارها إلى وحدات أصغر حتى وصلت تحت أسقف التمدين والتحضّر إلى حجم الأسرة الزوجية الصغيرة هي بدء التكوين الاجتماعي منذ التاريخ السحيق، فهي توصف في القواميس الاجتماعية بأنها الأسرة النووية المنعزلة في المجتمعات الحضرية والصناعية[١].

الدور والحجم:

ويرتبط عدد الأدوار في الأسرة ووظائفها حسب دائرة اتساع دوائر الانتساب والقرابة وذلك داخل هذه الدوائر القرابية[٢]؛ وأيضاً خارجها

(١) علي عبدالواحد وافي، الأسرة والمجتمع، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧.

(٢) نفس المرجع السابق (ن. م. س) انظر في مفاهيم الدور والمكانة قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٩.

انظر أيضاً: Johnson, allan G., The Blackwell Dictionary of Sociology, Blackwell Pub UK 1997

نحو المجتمع المحلي الذي يحيط بها مباشرة أو المجتمع العام الذي تنتسب إليه، سواء كان وطناً أو إقليماً كالمجتمع العربي أو إنسانياً كالمجتمع الدولي.

إذ إن دور الأسرة ووظائفها تواكبت مع إطار الحجم أيضاً، فقد كانت محدودة ثم اتسعت حيث كانت تتولى كافة الوظائف طبقاً لقانون تقسيم العمل الاجتماعي في المجتمعات التقليدية التي تعتمد على التماسك الآلي، فالأسرة تقوم بكافة الوظائف الإنتاج والتوزيع والسلطة والقوة والتربية والتعليم والتنشئة وضبط السلوك بتوقيع الجزاء مثوبة كان أو عقاباً؛ ومع تطور المجتمعات من التقليدية إلى الحديثة التي اعتمدت على التضامن العضوي والأخذ بمبدأ التخصص وهو التطبيق العملي لقانون تقسيم العمل الاجتماعي في المجتمعات الحديثة المعاصرة[١]. وقد أدى ذلك إلى سلب الوظائف التقليدية من الأسرة تدريجياً مع تطور المجتمعات البشرية من عهود ما قبل الصناعة إلى الصناعية والحداثة وما بعد الحداثة أيضاً.

لم تخل المجتمعات البشرية على مدى التاريخ منذ بداية الخلق الإنساني من جماعة الأسرة وما اقتضته العلاقات الاجتماعية المنظّمة لها من إرساء قواعد للسلوك بين الأزواج وبينهم وبين ذريتهم للرعاية

(١) إميل دوركيم قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم؛ وتقسيم العمل الاجتماعي Division of labor.

المتبادلة التي تحيط بأطرافها مشاعر المحبة والمودة والالتزام المتبادل في حالة استمرار الزواج والتوافق بين الزوجين، وأيضاً في حالة الفراق إذا استحال استمرار المعاشرة وعدم التوافق، وإذا كانت هذه القواعد لها قواسم مشتركة على مستوى تباين الحضارات الإنسانية[١] مثلما وردت في الحكم والأقوال المأثورة في التاريخ المصري القديم وغيرها من حضارات الشرق القديم[٢]، وكما ورد في كتاب فجر الضمير ص ١٣١. أن حق كل فرد بالتحلي بالأخلاق الفاضلة، يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما لأفراد أسرته، وقد كان الأشراف في عهد الأهرام يجمعون صفاتهم الحسنة في العبارة الآتية: «كنت إنساناً محبوباً من والده وممدوحاً من أمه محبوباً من إخوته وأخواته»، وكان برّ الوالدين من أهم الفضائل في ذلك العصر، فإن ذلك إن دلَّ فإنما يدلّ على أن مكونات نسق القيم والأخلاق في الأسرة لها أصول واحدة منذ النشأة الأولى التي أشارت إليها أدبيات الأمم التاريخية الأولى، ووردت في قصص الأنبياء التي ذكرت في الكتب المقدسة والتي فصلها القرآن الكريم في محكم آياته.

---

(١) Murdock, G. P. Social Structure, Macmillan Co. N. Y. 1949.

انظر قصة الحضارة/ ويل ديورانت.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة، ج ٢، الطبعة الأولى، مطبعة كوثر، القاهرة. انظر أيضاً جيمس هنري برستيد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب.

دور الأسرة في العمران والاستخلاف:

إذا كان دور الإنسان الكوني هو استخلاف الله سبحانه له لإعمار الأرض فليس هو بمستخلف فرد؛ بل بمستخلف جماعة، بدءاً بأسرته إلى مجتمع الأمة التي ينتمي إليها، ويبدأ العمران أو التنمية[١]، كمصطلح مستحدث، بجماعة الأسرة، فهي ليست مجرد وعاء لإشباع الحاجات الحيوية لأعضاء الأسرة، بل منظومة من العلاقات المباشرة والمواجهة فيما بينهم، يتواصلون من أجل تحقيق أهداف النشأة والتأسيس، بتوثيق الرابطة الزوجية ومشروعية العلاقة الجنسية وكفالة الأبناء وممارسة أساليب التنشئة والتربية الملائمة؛ هذا فضلًا عن تعزيز وشائج القرابة المباشرة أو غير المباشرة بين الأعضاء المنتسبين للأسرة، وهذا ما أشار إليه علماء الاجتماع منذ ابن خلدون في مقدمته حتى وقتنا الراهن بأن الأسرة جماعة من الأشخاص تربط بينهم مباشرةً علاقات قرابة، حيث يفترض أن يقوم أعضاؤها بتحمّل مسؤولية رعاية الأطفال، وقد تأسست علاقات القرابة هذه من خلال رابطة زوجية بين رجل وامرأة أو عبر خطوط الانتساب والقرابة التي تحكمها صلة الدم[٢].

(١) صلاح عبدالمتعال، مستقبل التنمية «نحو منظور إسلامي» دار الشرق الأوسط ١٩٩٠ القاهرة.
(٢) أنتوني جيدينز مرجع سابق ذكر (م. س. ذ).

أدوار الأسرة من المنظور الإسلامي:

وتتعدد أدوار الأسرة كوحدة اجتماعية أساسية في المجتمع شأنها شأن الخليّة في الكائن الحي، حسب التعبير الشائع بأنها الخلية الأولى في المجتمع، فثمة أدوار داخلية تقوم بها لبناء كيانها وحماية ورعاية وكفالة أعضائها؛ وأدوار أخرى خارج نطاقها لأداء مسؤولياتها للمجتمع الخارجي ومؤسساته ونظمه الإنتاجية والسياسية والثقافية والتربوية وسياسته السكانية، ومن ثم فإن أولوية التناول تحدد في الأدوار والوظائف داخل نطاق الأسرة، وهي تتشعب في نماذج الأسر التقليدية الريفية والبدوية وتنحسر في نماذج الأسر الحديثة والحضرية كما ذكرنا سلفاً.

الأسرة والدائرة القرابية:

ويمكن الانطلاق لمعالجة أدوار الأسرة من داخلها بالمنظور الإسلامي، إذ إنه حددها في الإطار القرابي المتسع أكثر من مجرد العلاقة بين الزوجين والأبناء وتناولها كنظام اجتماعي له تفصيلات كثيرة أوردها القرآن الكريم، فقد بيّن القرآن تفصيل إنشاء الزواج ومتى يكون الطلاق، والعلاقة بين الزوجين، والعلاقة بين الأبناء وآبائهم، والأبناء بعضهم ببعض، وبين العلاقة بين القرابة جميعها ثم بين نظم الاقتصاد والتعاون في الأسرة. لقد ارتكز الإسلام إلى ثلاث قيم في العلاقات الأسرية الأولى قيمة المودة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] والثانية: قيمة التعاون

المتبادل بالرعاية «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وثالثها قيمة العدالة في الحقوق والواجبات؛ وللرجال درجة فإنها تكليف بالرعاية؛ فليست الدرجة حقاً مجرداً إنما هي حق مرتبط بواجب[1].

الأسرة ونظام الزواج:

لا تقتصر وظيفة الأسرة على أنها مجرد وعاء للإشباع الجنسي بين الزوجين؛ فبالرغم من أهمية ذلك للوفاء بالاحتياجات الفطرية إلا أن ثمة فرقاً بين ذلك والزواج كنظام اجتماعي الذي يحقق هذه الحاجة بطريقة مشروعة، فالزواج هو نواة المجتمع وأصل وجوده وهو القانون الطبيعي الذي يسير العالم على نظامه، والسنة الكونية التي تجعل للحياة قيمة وتقديراً، وأنه هو الحنان الحقيقي والحب الصحيح، وهو التعاون في الحياة والاشتراك في بناء الأسرة وعمار العالم.

وقد اتخذ العالم عبرة من محاولة النظام السوفيتي السابق بعد نشوب الثورة البلشفية ١٩١٧ ومحاولته إلغاء دور الأسرة في ضوء آراء (ماركس وانجلز) عن علاقة الأسرة بالملكية باعتبار أن الأولى هي المنشأ الأول لشرور الملكية وبذرة المجتمع الرأسمالي. وعندما بالغ المتطرفون من الحزب الشيوعي في تهميش دور الأسرة في المجتمع الاشتراكي الجديد خلال العقد العشرين من

(١) محمد أبو زهرة، الأسرة في الإسلام، حلقة الدراسات الاجتماعية (البيت العربي) جامعة الدول العربية.

القرن الماضي والسعي إلى إلغائها واعتبار الأطفال هم تحت حضانة الدولة؛ تمخضت التجربة إلى عديد من المآسي الاجتماعية والمزيد من انحراف الأطفال واليافعين والجرائم مما اضطر النظام الشيوعي إلى عقد مصالحة مع الأسرة ورد الاعتبار القانوني لها سنة ١٩٣٦[(١)].

الفطرة الاجتماعية للنشأة:

إن محاور النظم الاجتماعية الأساسية في كل المجتمعات على مدى الزمان والمكان لا يشترط لنشأتها أو الاعتراف بها، إبرام مواثيق أو عقود أو اتفاقات مسبقة شفاهة أو محررة. إن نشأة الظواهر الاقتصادية والسياسية والمعرفية وغيرها هي التي أفرزها الوجود الاجتماعي بشكل تلقائي، ساير فيها حركة التغير والتطور لمراحل نمو الحياة الاجتماعية، ولم يرد أن اجتمع قوم من الأقوام لتقرير إنشاء ظاهرة اقتصادية أو سياسية إلا في خيال الفلاسفة الاجتماعيين كجان جاك روسو بالنسبة للعقد الاجتماعي على أساس التاريخ الظني للاجتماع الإنساني، إنما اقتضت أحوال التنظيم الاجتماعي تحت وطأة التغير الاجتماعي لكل ظاهرة ابتداع العهود والمواثيق لضبط ممارسة الالتزامات المتبادلة في الحقوق والواجبات، كالاتفاق العام على دستور للأمة يخضع إقراره

(١) صلاح عبدالمتعال، أثر التغير الاجتماعي في البناء الاجتماعي للأسرة المصرية)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، غير منشورة، ١٩٧١.

للاستفتاء الشعبي، أو تشريع القواعد القانونية لإبرام العقود في مختلف المعاملات المدنية.

أما في حالة الأسرة فإنها توحدت منذ نشأة الظاهرة مع تنظيم العلاقات بشكل فوري ومباشر على أساس العقد الشفاهي أو المحرر بين الأزواج كشرط لصحة الزواج واعتراف المجتمع وشرائعه به. إن الميثاق الغليظ هو شرط تكوين الأسرة بين الزوجين كما ورد في التعبير القرآني المجيد، وشرط صحة العقد رضاء الأطراف المعنية مقدماً وإلا فسد الزواج، إذ لا يمكن تقديم أو تأخير خطوات الزواج وتأسيس الأسرة، فلا يمكن الدخول بالعروس قبل إتمام العقد وإلا أصبحت العلاقة مجرد معاشرة جنسية غير مشروعة وما يترتب على ذلك من التفريط والإخلال بنظام الأسرة فتختلط الأوراق وتختل المعايير وتضطرب العلاقات الاجتماعية وتختلط الأنساب وتضيع وتفسد المنظومة التربوية للأبناء.

أركان التأسيس والنشأة:

ومن ثم كانت نشأة الأسرة وتأسيسها لم يترك لأهواء الأفراد بل فرضته سنن الوجود الاجتماعي وتعاليم الأديان وطقوسها العملية وكان أبرزها وأكثرها تفصيلاً، وأشدها حسماً هي أحكام الأسرة والزواج في الإسلام حيث إن الالتزام بها من طاعة الله تقتضي المثوبة في الآخرة والحياة الطيبة في الدنيا؛ بينما تؤدي مخالفتها إلى تفكيك الوحدات الأساسية في المجتمع والإخلال بدرجات

متفاوتة في النظم الاجتماعية والوقوع في مهابط الفساد والانحلال الاجتماعي؛ لذلك لا تثار أية دعوى للإصلاح إلا إذا أشير تأكيداً إلى أهمية البدء بالأسرة حتى لو سبق ذلك الإصلاح في نظم محورية أخرى كالنظامين السياسي أو الاقتصادي.

من لهم حق تأسيس الأسرة؟

وقبل العزم على تكوين الأسرة فإن المجتمعات الإنسانية درجت على إقصاء الأشخاص الذين لا يحق لهم ارتباط بعضهم بالبعض أو ما يطلق عليه نظام المحارم الذي كان للأديان خاصة الإسلام تعاليم خاصة تحدد تحديداً دقيقاً من هو المحرم وذلك في الآية ٢٣ من سورة النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ... ﴾ إلى آخر الآية. إن التحريم على صعيد المجتمعات الإنسانية كان الأساس لبقاء الجماعة وقوتها، فبمنعه الزواج من داخل الجماعة، اضطر أفرادها إلى الزواج من خارج عائلتهم المباشرة مما أوجد روابط بين سائر الجماعات حيث قضت بما أوجدته من التزامات على العداوات والخصومات التي كانت سائدة بينهم، كما أن ذلك التحريم قد زاد من قوة الجماعة بما أوجده من تعاون بينها، ومن ثمّ فإن حق النشأة والتأسيس يؤول للأشخاص الذين لا ينطبق عليهم قواعد التحريم[1].

(١) بيث هس وآخرون، علم الاجتماع ١٩٨٢، تعريب محمد مصطفى الشعيبي، دار المريخ - الرياض - فصل ١.

نظام الخطبة ومعايير اختيار الزوج

ومن هنا كانت أهمية التدقيق في إجراءات النشأة والتأسيس التي تسبق مشروع الزواج والاقتران بشريكة الحياة، إذ إن معيار اختيار الزوجة أو الزوج هو جوهر النجاح في النشأة أو التأسيس، ويبدأ الأمر بعملية الاختيار طبقاً لمعايير الجمال أو القرابة والنسب أو القوة أو المال أو الجاه أو الدين والأخلاق، ووضع نظام الخطبة كمقدمة تسبق عقد الزواج وتتباين نماذجها من مجتمع لآخر أو من ثقافة لأخرى سواء في أساليب التفاهم أو التفاوض حول مستقبل علاقة المصاهرة وقيمة المهر والجهاز ومقر السكن فضلاً عن تقاليد تقديم الشبكة والهدايا وإعلان الخطوبة، وقد قدمت دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية العديد من النماذج المختلفة لتقاليد الخطبة وأعراف الزواج في المجتمعات التقليدية في مختلف القارات كأفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا الجنوبية (انظر: ميردوك، البناء الاجتماعي؛ وويل ديورانت في قصة الحضارة) وتذخر كتب الفقه الإسلامي بتفاصيل تتعلق بمبادئ اختيار الزوجة والزوج وأخلاقيات الخطبة وآدابها في المباح وغير المباح كعدم الخطبة على الخطبة بأن يحرم على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه، وحظر الخلوة بالمخطوبة وحق التعرف على صفات كلا منهما للآخر، وآداب العدول عن الخطبة وحق إعادة هدايا الخاطب لمخطوبته على أساس أن الخطبة كانت مجرد وعد بالاقتران.

وإذا كانت الخطبة يحكمها في الغالب التقاليد والأعراف

الاجتماعية باعتبارها سابقة لعقد الزواج، فإنه ذاته - أي العقد - تقيده الأحكام والشروط الشرعية والقانونية التي يجب الالتزام لما يترتب عليها جملة من الحقوق والواجبات التي يتقيد بهما الزوجين منذ نشأة وتأسيس أسرتهما.

أركان الزواج:

والركن الحقيقي للزواج هو رضاء الطرفين وتوافق إرادتهما في الارتباط كشرط أساسي للعقد، ويتمثل التعبير عن الإرادتين بعبارات تدل على الإيجاب من طرف والقبول من الطرف الآخر، كما يجب توافر شروط الولاية للزوجة البكر والإعلان وتوافر الإشهاد على الزواج، وهناك من يشترط الكفاءة؛ أي أن يكون الزوج كفوءاً لزوجته في المنزلة والمركز الاجتماعي والمستوى الخلقي والمالي؛ إذ إن ذلك أدعى لنجاح الحياة الزوجية، وهناك من يرى غير ذلك كابن حزم وذهب آخرون كالمالكية أن الكفاءة تنحصر في الاستقامة والخلق[1]، وتشير الخبرات الاجتماعية في الثقافات المقارنة أن اعتبارات التناظر أو التماثل في تقارب المستويات الطبقية والثقافية تفرض نفسها على الواقع الاجتماعي المعاصر.

عقد الزواج والحقوق والواجبات:

ويترتب على صحة عقد الزوجية وإتمام نفاذه عدد من الحقوق

(١) السيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب الإسلامي.

والواجبات[1] من دونها تفشل الحياة الزوجية وتهددبعدم الاستمرار، كحق المعاشرة والاستمتاع المشترك وثبوت التوارث ونسب الولد والمعاشرة بالمعروف، هذا بالنسبة للزوجين، أما الحقوق الواجبة للزوجة على زوجها؛ فمنها الحقوق المادية فهي كالمهر والجهاز والنفقة؛ والحقوق غير المادية كحسن المعاشرة والمعاملة بالمعروف وحفظها وصيانتها ومباشرتها، أما حق الزوج على زوجته فطاعته في غير معصية، وتزيّنها له، وعدم إدخال من يكره الزوج في بيته، وخدمة زوجها إذ إن الرجل أقدر على العمل والكدح والكسب خارج المنزل، والمرأة أقدر على تدبير المنزل وتربية الأولاد، هذا على أساس أن العلاقة بين الزوج وزوجته هي المساواة في الحقوق والواجبات ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ...﴾ [البقرة: ٢٢٨].

نسق القيم الأخلاقية في الأسرة:

إن منطلق نشأة الأسرة وبنائها يرتكز على نسق قيمي أخلاقي[2] تمتد جذوره إلى الدين والذاكرة التاريخية والتجربة الإنسانية. وكما ذكرنا آنفاً، فإن قيم المودة والتعاون والعدالة من القيم الجوهرية الأساسية التي تطوي تحتها قيم فرعية يحتكم إليها في إرساء قواعد

(١) السيد سابق (ن. م. س.) وانظر أيضاً: وافي (م. س. ذ).

(٢) انظر: محمد عبدالله دراز، دستور الأخلاق في القرآن ١٩٥٠. تعريب عبدالصبور شاهين «مؤسسة الرسالة» بيروت، ١٩٨٢ (باب ٥، فصل ٢).

للسلوك والمعاملات تجمعها أساليب الضبط الاجتماعي لكل مجتمع في تقاليده وأعرافه وقوانينه وقواعده التشريعية.

قيمة المودة في التنشئة الاجتماعية:

وينطوي تحت قيمة المودة قيم فرعية أخرى توجه أنماط السلوك للأسرة مثل قيمة «السكن والرحمة» ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً..﴾ [الروم ٢١]، إن الوفاء بالحاجة إلى الحب والمودة لكفيل ببسط جناح التسامح والتعاطف والرحمة مما يوفر السكن النفسي والاجتماعي بين الزوجين في المقام الأول، وانعكاس ذلك بالضرورة غالباً على العلاقة بالأبناء فتسود بينهم، ذكراناً أو إناثاً، حالة الوفاق والتواؤم فيما بينهم وبين والديهم؛ ومن ثم تقل مساحة التسلط التقليدي الذي اشتهرت به السلطة الأبوية القهرية وينساب بين أنسجة العلاقات الأسرية الوالدية والأخوية علاقات التعاطف والمحبة؛ مما يثري عملية التنشئة الاجتماعية التي تعتبر الوظيفة الأساسية للأسرة في سائر العصور والأزمنة والمكان، والتنشئة الاجتماعية عملية واصلة بين الأجيال والجسر الرئيسي لنقل التراث الاجتماعي والثقافي من وإلى الأسرة، سواء كانت المدرسة أو المجتمع المحلي للجوار على سبيل المثال لا الحصر، وتختلف العلاقة الوالدية التسلطية أو الأدائية عن مقابلتها العلاقة التعاطفية الوجدانية، وتتصف الأولى التسلطية بالاستعلاء على باقي أعضاء الأسرة وكثرة وتكرار المنّ بالفضل والإنفاق والغلظة في الفعل

والقول، بينما يبسط التسامح ظله على العلاقة الوجدانية والعاطفية والتواضع وعدم الاستعلاء والمنّ والقول بالمعروف.

قيمة التعاون في التماسك والرعاية المتبادلة:

وإذا كان التعاون عملية اجتماعية تتوسط عمليتي التنافس والصراع على المستوى الاجتماعي العام[1] فإنه بدونها لا تستقيم الحياة في الأسرة وتتهدد بعدم الاستمرار، ويغلب عليها التفكك النفسي وتتنامى فيها مشاعر العداوة ومقدمات الصراع خاصة بين الزوجين؛ وقد يحل عليها ضرورة الفراق بين الزوجين إما بالهجر أو الطلاق. إن الركن الأول في عملية التعاون بين أعضاء الأسرة هو تمثل قيمتي المسؤولية والرعاية بالنسبة للزوج في كفالة الأسرة والالتزام بالإنفاق «**فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته..**» والزوجة والأم مسؤولة عن رعيتها «الزوج والأبناء..» والأبناء مسؤولون عن والديهم في كبرهم وعند عجزهما عن رعاية الأسرة.. بمقتضى برّ الوالدين الذي أوصى به الخالق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا...﴾ [الإسراء: ٢٣].

إن علاقات البناء الأسري كتب عليها الاستمرار حتى تزول حياة مؤسسيها؛ فالأجيال في الدائرة القرابية الممتدة تتواصل بالرابطة العصبية، وصلة الرحم وأحكام الميراث التي حددتها الشريعة

(١) Biesanz, M H & Biesanz J. Introduction to Sociology, Printice-Hall, N. J 19 pp. 156 - 164.

الإسلامية تحديداً قاطعاً، فهي من الثوابت الشرعية التي لا يسمح للتفريط فيها؛ وإن حدث التجاوز أو التحايل أو الظلم لوقع في دائرة الإثم والعدوان وتعدّى حدود الله في أحكام الميراث ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وإذا نزلنا إلى أرض الواقع العربي والإسلامي في المجتمعات التقليدية الريفية والبدوية لوجدنا البعض من الأسر ما زالت على عهد إساءة التطبيق لأحكام الميراث بالنسبة للمرأة، فبالرغم من استحقاقها لنصيبها الموروث لها فإنه أقرب إلى الابتلاع من الأخ الأكبرأ و الوصي من الأعمام على اعتبار أنه؛ لاحتمال طلاقها أو وفاة زوجها، مصيرها في المستقبل العودة إلى الدار الكبيرة التي خرجت منه إلى بيت الزوجية. ولذرّ الرماد في العيون يكتفي بإرسال بعض الهدايا والأموال في المناسبات أو عند الحاجة، كالمرض مثلاً، أو المشاركة في تجهيز بناتها عند الزواج، واستقر مع الزمن قاعدة العيب أن تطالب الأخت الوارثة بنصيبها في الميراث، لذلك كانت الأفضلية للزواج الداخلي في دائرة القربى العاصبة مثل تفضيل أبناء العمومة لضمان عدم تفتيت الملكية الزراعية، حيث إن التقسيم والتفتيت يقلل من حجم حيازة الأرض فتتدنى المكانة الاجتماعية المرتبطة بمقدار الملكية الزراعية.

ولكن الواقع سريع التغير فرض نفسه على المجتمع والأسر

التقليدية الممتدة فضلاً عن ارتفاع صوت حقوق الإنسان إزاء المرأة، وبدأت تنحسر تقاليد الأسرة الأبوية التسلطية في تجاوز أحكام الميراث، وذلك بفضل المصاهرة خارج نطاق القرابة العاصبة وارتفاع المستوى التعليمي للمرأة وانضمامها، إلى صفوف القوى العاملة وتمكينها من استقلالها الاقتصادي الذي يجد تعزيزاً من الشريعة الإسلامية بحقوق المرأة قبل ارتفاع أصوات الحركات النسائية بالمطالبة بإنصاف المرأة والمطالبة بحقوقها التي أهدرها المجتمع الذكوري في أغلب بقاع العالم.

والتعاون كعملية اجتماعية داخل الأسرة والمجتمع؛ قيمة اجتماعية وأخلاقية ودينية في حد ذاته، يتضمن عدداً من القيم الفرعية يحتكم إليها ويسترشد بها في توجيه السلوك. فالتعاون يعني بالضرورة قيم العطاء أكثر من الأخذ، والإيثار أفضل من الأثرة والأنانية، والتسامح إلى درجة التنازل عن بعض أو كثير من الحقوق كتنازل الوالدين خاصة الأم لحقوق أساسية للحياة والاستمتاع بزينتها من أجل توفير زاد الطعام أو الكساء أو الدواء أو التعليم من أجل أبنائهما، ومن هنا تتجلّى قيمة التضحية التي تجمع أيضاً قيم العطاء والإيثار والتسامح والتنازل عن الحقوق لأقصى درجة مما يجعلها تتجسّد في أنواع من الخدمات الطوعية لا يكتفي بأدائها فقط، بل بتطبيق قيمة الإحسان أو الإتقان.

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي (الأنساق) ج ٢، دارالكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧. انظر أيضاً عبدالمتعال، أثر التغير الاجتماعي.. (م. س. ذ).

قيمة العدالة في الحقوق والواجبات:

وتعتبر قيمة العدالة ركناً أساسياً في البناء الأسري حيق تقوم أيضاً على قيمة المساواة واستبعاد ازدواج المعايير عند معاملة الأبناء أو الزوجات في حالة التعدد، وما زال العديد من التقاليد الذكورية المتوارثة تجثم على صدور الآباء والأمهات لتفضيل ذرية الأولاد عن البنات، حيث ظلّت رغم أن الإسلام قد نبذ المسحة الجاهلية للتفضيل النوعي، فالواقع الاقتصادي الاجتماعي يقف عقبة لإزالة ذلك التفضيل. فالعزوة العائلية العاصبة هي الدافع وراء تفضيل الذكور والنظر إلى الأولاد الذكور كإضافة للقوى العاملة في الأسرة التقليدية الممتدة في المجتمع الزراعي والبدوي من مبررات التفضيل، فرغم زوال الكثير من تلك المبررات فإن امتدادها كموروث ثقافي ما زال يعمل آثاره.

لقد وضع الإسلام مبدأ العدالة والمساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، إلا أنه قد نصّ على إضافة درجة للرجال من أجل التكليف بالرعاية؛ فليست الدرجة حقاً مجرداً إنما هي حق مرتبط بواجب. إن تقسيم العمل بين الزوجين اعتمد على أساس التمايز لا التمييز بين الرجل والمرأة، وذلك ما شهدت به الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية المقارنة على مستوى المجتمعات التقليدية والحديثة، فقد لعب النوع (ذكوراً وإناثاً) دوراً طبيعياً وفطرياً في تقسيم العمل في المجتمعات البسيطة كذلك التقسيم العمري (أطفالاً ويافعين وشباباً وكهولاً وشيوخاً) في تحديد الواجبات والحقوق لكل فئة عمرية (أبو زيد؛ البناء الاجتماعي وميردوك).

وقد يقول قائل إن مبدأ العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات إن أمكن تحقيقه بين الوالدين والأبناء فإنه يستحيل بالنسبة للأسرة متعددة الزوجات التي تضاءلت نسبتها في المجتمع الإسلامي المعاصر، حيث تغيّرت الظروف الاجتماعية التي كان عليها المسلمون في الأزمنة السابقة التي كان التعدد فيها أمراً شائعاً، فالبرغم من استخدام البعض لهذا الحق إلا أن الضغوط الاقتصادية الراهنة شكّلت عقبات أمام الأزواج الراغبين في التعدد لاستحالة تحقيق ذلك بالنسبة للغالبية منهم، فلم تعد القدرة على الإنفاق في الأسرة المتعددة الزوجات قاصرة على الإطعام والكساء، بل تعدى ذلك إلى نفقات التعليم والصحة والسكن الملائم بمستوى يختلف تماماً عما كان من قبل، ولذلك أقحمت بعض النظم الاجتماعية والسياسية أنفها بقصد ضبط الاتجاه نحو التعدد وإصدار بعض التشريعات التي تبغي تنظيم هذه النوعية من العلاقات نظراً لإساءة البعض في استخدام هذا الحق وإلحاق الظلم على الزوجة الأولى في حالة التعدد، وهناك من وضع في تشريعاته المستحدثة والمستندة إلى رأي الفقهاء إمكانية وضع شرط عدم التعدد في وثيقة عقد الزواج.

لقد قيد الإسلام التعدد بالقدرة على العدل، وقصره على أربع، فقد جعل من حق المرأة أو وليها أن يشترط ألا يتزوج الرجل عليها، فلو اشترطت الزوجة على زوجها صحّ شرط العقد ولزم، وكان لها حق فسخ الزواج إذا لم يف لها بالشرط، ولا يسقط حقها

في الفسخ إلا إذا أسقطته[1]. وهذا مذهب الإمام أحمد ورجحه ابن تيمية، وابن القيّم. واستناداً إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ [المائدة: ١]، وقول الرسول ﷺ: «**المسلمون على شروطهم**». وهذا مذهب عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز والأوزاعي وإسحاق والحنابلة.. ويعني بالقدرة على العدل والوفاء بالاحتياجات الأساسية للحياة والمعاشرة، فإن خاف الرجل الجور وعدم الوفاء للزوجة الجديدة حرم عليه الجمع أو التعدد سواء كانت ثانية أو ثالثة أو رابعة، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾ [النساء: ٣]، [﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ [النساء: ١٢٩]، إن العدل المطلوب هو العدل الظاهر المقدور عليه، وليس هو العدل في المودة والمحبة، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» والمقصد هنا القلب فيما رواه أبو داود[2]...

* * *

(١) سيد سابق، (م. س. ذ) ج ٢، ص ٧٧.
(٢) سيد سابق (ن. م. س) ج ٢، ص ٣٥ - ٣٦.

تباين أدوار الأسرة ماضياً وحاضراً

البعد الزمني في تباين الأدوار

إذا حاولنا عقد مقارنة لأدوار الأسرة بين الماضي والحاضر، فإن ذلك يعني أن البعد الزمني قد فرض نفسه على هذه المعالجة المنهجية، مما يشير إلى التساؤل عن مدى تأثير عملية التغير الاجتماعي على الأسرة كوحدة أولية في التكوين الاجتماعي وكنظام اجتماعي أساسي تدور حوله كافة النظم الاجتماعية بكافة أشكالها المحورية في المجتمعات التاريخية والمعاصرة (الدينية والاقتصادية والسياسية والمعرفية والتربوية..).

لقد وصفت الأسرة العربية بأنها أسرة تقليدية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ووصف (بليس Bliss) النساء والزواج والأسرة في لبنان وسوريا وفلسطين سنة ١٩١٧. كما تناول (وليم لين Lane) حياة المصريين وعاداتهم منذ أكثر من قرن مضى. وتعتبر هاتان الدراستان على صلة وثيقة بدراسة (شتيرن Stern) سنة ١٩٣٩ التي ناقشت مسائل الزواج في القرون الأولى من الإسلام.

كما تناول (روفائيل باتاي Pataai, Raphael) ١٩٦٩ في وصفه للأسرة العربية في تلك الفترات بأنها أسرة ممتدة أبوية الإقامة والنسب والسلطة؛ يفضل فيها الزواج الداخلي أي بين الأقارب ويوجد نمط تعدد الزوجات، وتتدنى فيها مكانة المرأة، وللشرف

والعفة أهمية كبرى، والتزام المرأة لبيتها ولبس الحجاب هو السائد، والطلاق بيد الزوج ميسور وهو شائع. كذلك الزواج المبكر وولايته للأبوين والأولاد الذكور مفضلون. لقد حدثت التغيرات في حياة الأسرة، في العالم العربي ببطء شديد. وقام عدد من الكتّاب منذ نهاية القرن التاسع عشر، ونتيجة لاحتكاكهم بفرنسا والدول الأوروبية باكتشاف نقاط الضعف في البناء الاجتماعي للمجتمع العربي في تلك الحقب الزمنية (بروثرو ودياب ١٩٧٤).

لقد حدث في منتصف القرن العشرين تغيرات هائلة في حياة الأسرة تجاوزت فيها الإيقاع البطيء للتغير الذي أشارت إليه الدراسات السابقة. لقد لحق التغير حجم الأسرة ونمطها البنائي وآداءها الوظيفي، والسلطة الأبوية وشدة الرقابة على الأبناء وضبط سلوكيات الشباب، ومكانة المرأة وتنظيم الزواج. ووصل التغير مداه في (أيديولوجية) الأسرة أي منظومة الأفكار السائدة في المجتمع التي تسترشد بها الأسرة كنموذج للحياة. إذ حدث التحول من الاجتماعية إلى الفردية ومن التسلطية إلى المشاركة ومن التمييز النوعي بين الأبناء الذكور والإناث إلى المساواة.

ومما ساعد في انتشار وتشجيع التغيرات الأيديولوجية في الأسرة العربية؛ هي وسائل الاتصال الجماهيري والإعلامي والتحولات السياسية والتحرر من الاستعمار، وانتشار وارتقاء التعليم خاصة بين الإناث. وكان للتصنيع والتحضر من العوامل المساندة للتغيرات التي وقعت في الأسرة العربية مما اضطر الأسرة التقليدية الممتدة أن

تسمح لنفسها بالانشطار إلى أسر زوجية صغيرة (نووية) تنفصل مكانياً عن الشبكة القرابية الأم؛ حتى تواكب وتلائم التغيرات في المجتمعات الحضرية والصناعية المستحدثة. ولكن هذا التغير الذي حدث بانتشار الأسرة النووية المنعزلة في المجتمعات المتقدمة الصناعية الكبرى لم يحدث بنفس الدرجة من النمطية في الغرب بل استطاعت الأسرة العربية أن تتوافق مع المستحدث الصناعي الحضري مع أنساق القيم العائلية الراسخة في مفهوم الأسرة في الإسلام بأنها لا تنحسر في نطاق الإطار العددي للأسر الصغيرة فقط بل تشمل الدائرة القرابية الأوسع. فتغير نمطها التقليدي الممتد إلى نمطها الممتد المعدّل Modified Extended Family (أبو زهرة)، (عبدالمتعال ١٩٧١).

لقد تعرضت الأسرة مثل غيرها من النظم والعمليات الضابطة للسلوك الاجتماعي إلى وطأة التغيرات الديموجرافية والثورات الإنتاجية الصناعية التكنولوجيا والابتكارات والاختراعات مما أحدثت بالتالي تأثيرات في الهياكل البنائية للمجتمع وتركيباته الطبقية ونظمه الاقتصادية والسياسية فضلاً عما حدث من تغيرات في منظومات القيم وأنساق الأخلاق بالإيجاب أو السلب كما في التباين الفارق بين سرعة التغير المادي في مستحدثات الإنتاج والاستهلاك أو الآخر غير المادي في أنساق التربية والتعليم والقوانين والعادات والثقافة والأخلاق بما اصطلح عليه في علم الاجتماع بالتخلف الثقافي {Ogburn} (Cultural lag).

لقد انعكست تلك التغيرات على الفور في الحياة الأسرية من حيث

التغير البنائي والوظيفي والتطور في مكانة وأدوار أعضاء الأسرة وعلى رأسها الزوجين أو الوالدين وعلاقاتهما بالأبناء. وعلاقة الأسرة النووية الصغير بدائرة وشبكة القرابة العائلية، ثم علاقة الأسرة كوحدة اجتماعية بالوحدات والنظم الاجتماعية الأخرى.

الأسرة كجماعة أولية

والنظم الاجتماعية هي عصب البناء الاجتماعي وقنواته التي تحقق به وظائفه وأهدافه، ويندرج تحت البناء الاجتماعي تقسيم الجماعات إلى أولية وثانوية. . .

أما الجماعة **الأولية**. . والأسرة هي النمودج الأمثل لها إذ أن أهم خصائصها صغر حجمها والتعاملات المباشرة بين أعضائها أو علاقات المواجهة بتعبير آخر، والتميّز بالتماسك الاجتماعي ونشوء العلاقات الحميمة وانتشار الصداقة بين أعضائها مع توالي الزمن؛ كما يحدث، في الأسرة الحديثة الآن، في تغير العلاقة التسلطية الوالدية إلى تنامي الصداقة بين الأب والأبناء أو بين الأم وبناتها.

وهذا يختلف عن الجماعة الثانوية. . في كثير من السمات من أبرزها أنها كبيرة الحجم في الغالب ويسودها العلاقات الرسمية والتعاقدية والتي تحكمها معايير واضحة وصريحة. وتختلف قوّة النفوذ والتأثير على الأعضاء في الجماعة الأولية عن الجماعة الثانوية حيث أنها أكثر من الأولى عن الثانية وذلك في إطار تصوّر أو فهم الذات، ومدى فعالية نسق القيم والمعتقدات الموجّهة للسلوك

والضابطة له. هذا فضلاً عن دفء المشاعر والعواطف في الجماعات الأولية أكثر منه في الثانوية.

الأسرة جماعة مرجعية

وإلى جانب العلاقة الأساسية للأسرة بالبناء الاجتماعي وهي عصب محوري لسائر النظم الاجتماعية الأخرى كالاقتصادية والسياسية التربوية.. فهي جماعة محورية رئيسة من الجماعات المرجعية REFERENCE GROUPS وجماعات المواجهة Facing Groups كالأسرة والزمالة والأصدقاء وزمر الرفاق، والروابط المهنية والأحزاب السياسية والجماعات الثقافية والدينية... إلخ.

والأسرة كجماعة مرجعيّة تزوّد أعضاءها كالأبناء غالباً بمنظور معين يوجّه أفكارهم وأفعالهم، وهذا من شأنه أن يدعّم طبيعة العضوية في الجماعة. ومما لاشكّ فيه أن تأثير الجماعات المرجعية كامن إلى درجة العمق ولكنه حاضر دائماً بالرغم أنه قد لا يبدو بالنسبة للبعض ظاهراً على مسطّح الشخصيّة (كارلوس م.س).

التماسك والتضامن الاجتماعي

وتعتمد الأسرة كنموذج للجماعات الصغيرة الحجم في جوهر تنظيمها البسيط على آلية التماسك بين أعضاء الجماعة؛ بينما تستند الجماعات الكبيرة والمجتمعات الحديثة على منظومة التضامن

العضوي القائم على مبدأ التخصص وتقسيم العمل الاجتماعي كما أشار إلى ذلك (أميل دوركايم) في نظريات علم الاجتماع (دوركايم، تقسيم العمل الاجتماعي).

وقد نجد في كلا النموذجين أن المودّة بين الناس تختلف تجاه أحدهم نحو الآخر حسب توافق هذا التماسك أو ذاك التضامن مع معايير الجماعة ونسق القيم الكائن الذين يمكن الاحتكام إليه لضبط وتوجيه سلوك الأفراد، كما أن الإقرار بعضوية الفرد في أي نمط من الجماعات أو المجتمعات في حدّ ذاتها هي أحد أنواع المثوبة والمكافأة التي تمنح له، وهي إحدى روابط التنظيم الاجتماعي مهما كانت درجة بساطته أو تعقّده.

المكانة الاجتماعية والدور:

وعند المقارنة بين الأسرة كجامعة أولية وبين غيرها من الجماعات يوضع في الاعتبار دائماً أهميتها حسب المنزلة والمكانة التي تحتلها في المجتمع وأيضاً حسب أهمية وظيفتها التي تؤديها لبقاء المجتمع واستقراره واستمراره فضلاً عن ذلك فإنها تتميز طبقاً لكثافة العلاقات الكائنة بين مراكز أعضائها الاجتماعية، وتوقّعاتهم الثقافية تجاه ضروب السلوك المتنوعة (كارلوس وكافازوس).

إن الذي يحدد أهمية وظيفة الأسرة الدور الذي تقوم به في المجتمع والأدوار التي يتعين عليها وعلى أعضائها القيام بها حسب توقعات الآخرين لها سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو مجتمعاً قائماً

بذلك ككل. وترتبط التوقعات هذه بالثقافة السائدة في المجتمع سواء كانت ثقافة يغلب عليها الطابع الأسطوري أو الديني أو الأخلاقي الذي يتمثل في التقاليد والأعراف والأقوال المأثورة، المحفوظة في الصدور التي روتها الشفاه على ألسنة الحكم الشعبية أو تناقلتها الأقلام في تسجيل الأمثلة الشعبية ومنظومات الزجل ورباعيات الشعر.

التوقعات والدور:

وإذا كان الإقرار بعضوية الفرد في الجماعة والاعتراف به عنصراً من مكونات التنظيم، فإن الاعتماد المتبادل بينه وبين الأعضاء الآخرين هو المدخل الرئيسي للقيام بأدوارهم في المنظومة الاجتماعية، وتحدد هذه الأدوار نوعية المكانة الاجتماعية خاصة في الجماعات التقليدية، فلا شكّ أن خصائص العمر أي فئاته (طفولة ويافعين وشباب وكهولة وشيخوخة) وكذلك التقسيم النوعي إلى ذكور وإناث، فإن كل ذلك يؤثر بشكل أو بآخر في أحوال وظروف المجتمع من حيث التقسيم الفطري للعمل وتحديد كمية الحقوق والواجبات والتوقعات للأدوار التي يمكن أن تسند لأعضاء الجماعة (ميردوك وأبو زيد).

إذ أن حقوق الأطفال والمسنين أكبر حجماً من مسؤولياتهم في حين تتضاءل الحقوق كلما تقدم بالإنسان العمر، كما هي بين فئات اليافعين والشباب والكهول التي تقع على عاتقهم مسؤوليات وواجبات أكبر في حاضرهم ومستقبلهم حتى مرحلة الشيخوخة، كما قام التقسيم النوعي إلى ذكور وإناث إلى توزيع فطري مماثل

للتقسيم العمري لأدوار الرجال والنساء خلال مراحل نشأة الأسرة وتكوينها. لقد فرضت الفطرة الاجتماعية على الزوج أن يسعى بجهده البدني والذهني لتوفير احتياجات الزوجة والأطفال؛ في حين فرضت نفس الفطرة الاجتماعية على الزوجة رضاع الأطفال ورعايتهم وتربيتهم دون تعقيد في تقسيم عمل تحاول كثير من المجتمعات الحديثة التحرر منه باسم المساواة بين الرجل والمرأة. خاصة عندما خرجت المرأة إلى العمل في عصر الصناعة وما بعدها؛ في حين أن المرأة في المجتمعات الزراعية قد تشارك في النشاط الزراعي مع زوجها وأبنائها دون افتعال إذا كانت ثمة حاجة ملحة إلى ذلك بجوار مهامها المنزلية.

ويتكرر نفس الشيء ولكن بصورة مختلفة تحت إلحاح الحاجة في المجتمعات الانتقالية، من الزراعة إلى التصنيع والتحضر، إلى تضخم ظاهرة المرأة المعيلة لأسرة تعطل زوجها عن العمل أو ترملت أو طلقت؛ لقد دفعها إلى ذلك الخاصية الاجتماعية المكتسبة من العوامل والضغوط الاقتصادية المستحدثة.

الدور وكثافة العلاقات في الأسرة :

ولم تشذ الأسرة عن غيرها من الجماعات من فعالية التأثر بزيادة حجم أفرادها على منظومة توزيع الأدوار على أعضائها، فكثافة العلاقات في الأسرة النووية Nuclear Family أو الزوجية Family Conjugal الصغيرة في المجتمع الحديث أقل بكثير عن نظيراتها في

الأسرة التقليدية الممتدة Traditional Extended Family أو الجماعة القرابية الكبرى للأسرة كالبدنة والعشيرة والقبيلة.

لقد أشير في موقع آخر إلى أنه كلما طرأ على الجماعة أو المجتمع زيادة في حجم أعضائها كلما ازدادت كثافة العلاقات بمتوالية مثلثية بمقتضى قانون (بوسارد) BOSSARD مما يعني ازدياد الحاجة إلى التنظيم فيتحول التنظيم البسيط في المجتمعات التقليدية إلى تنظيم مركّب ومعقّد في المجتمعات الحديثة حيث يدعو تقسيم العمل فيها إلى وجوب التخصص المهني مع ارتباط هذه الأعمال المحددة بشكل متضامن مع غيرها من أعمال الجماعات الأخرى وهنا تختلف الأدوار طبقاً لكثافة العلاقات (بوسارد وعبدالمتعال).

ويتأكد ذلك باستقراء التطورات التي طرأت على الجماعات البشرية منذ ١٠ - ١٢ قرن مضت. فقد كانت الجماعات البدائية للالتقاط والصيد ثم جماعات الرعي والزراعة أي ما قبل الصناعة ثم مجتمعات الصناعة وما بعد الصناعة..

كما تطورت شبكة القرابة من أسر زواجية صغيرة إلى معاشر وعشائر وبدنات وقبائل، ثم تجمعات سكانية في القرى والحضر.

وقد ترتّب على زيادة حجم المجتمع أيضاً تطوّر مطرد في تعدد الاحتياجات مما يوجب مزيد من التنظيم والتغير في الأدوار للوفاء بهذه الاحتياجات فضلاً عن أهمية الحاجة إلى مزيد من الاجتهاد لتحقيق كفاءة أكبر على مستوى القدرات البشرية والتكنولوجية، وقد أدى ذلك إلى وجود نماذج مركبة من التنظيم الاجتماعي.

* يستخلص مما سبق أن العلاقات الأسرية والقرابية تتناسق في شكل تنظيم اجتماعي له أهداف تختلف عن أهداف نظم الاقتصاد والحكم والإعدام وغيرها الذي تتعاتمل مع المجتمع ككل، إذ تضم منظومة العلاقات الأسرية العلاقات المتبادلة بين الزوجين أو الوالدين وبين أبنائهما وقد تمتد إلى جيل آخر في الأسرة الممتدة أو إلى شبكة القرابة العاصبة للأب أو القرابة الرحمية للأم. ولما كانت الأدوار ترتبط بمكانة الشخص كما أسلفنا عليه القول فإن المقارنة بين الأدوار بين الماضي والحاضر تستوجب الاعتماد على التحليل والمقارنة الجيلية Genealogical بين أدوار الزوجين والأبناء في الأسرة الزوجية الصغيرة وأدوار والدي الزوجين أو أحدهما في الأسرة الممتدة، ومن ثم فإن توزيع الأدوار يرتبط يتم طبقاً للتوقعات التي أرستها الثقافة السائدة في المجتمع لذلك لزم التعريج على المفهوم الإجرائي للدور.

المفهوم الإجرائي للدور Role

مفهوم الدور الذي تتبناه الدراسة الراهنة هو مجموعة متآلفة من المعايير والتوقعات التي يتضمنها الوضع الاجتماعي لأي عضو في الجماعة، فأنماط السلوك التي تصدر من الأب، على سبيل المثال، قائمة على توقعات الأم والأبناء للقيام بمسؤولياته نحوهم في التربية والإنفاق، وبعبارة أخرى يستند الوضع الاجتماعي لعضو الأسرة إلى مجموعة معايير وتوقعات اصطلح عليها المجتمع للاحتكام إليها.

وكذلك دور الزوجة للقيام بمسؤولياتها إزاء زوجها ورعاية أبنائها كأم وأيضاً مُثُلْ وتوقعات الآباء من أبنائهم بالطاعة والبر والإحسان في المعاملة خاصة عند كبرهما (روجرز ١٩٨٦).

وتحيط بشاغلي الأدوار إطار من القيود الاجتماعية تمنعهم أن يذهبوا بعيداً عن توقعات أعضاء الجماعة للقيام بدورهم، وإلا فالجزاء الاجتماعي متربص لمن لا يلتزم بمعايير الدور في صورة نبذ أو حرمان من مزايا الوضع الاجتماعي، ويعتبر الوضع Position هو مركز عضو الجماعة النشط في منظومة العلاقات الاجتماعية (جروس ١٩٥٨)، وغالباً ما يلعب الزمن دوره في تغيير المعايير المرتبطة بدور معين (روجرز ١٩٨٦).

ويتطور في كل مجتمع مجموعة واعية من التوقعات سواء صواباً أو خطأً كالتوقعات الاقتصادية مثل وجوب توفر القدرة المالية قبل التفكير في مشروع الزواج (أيها الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، أو كالزواج المبكر في بيئة منخفضة الدخل أو اشتغال المرأة من الطبقة المتوسطة؛ وهناك التوقعات الثقافية مثل ضرورة وجود أجهزة كهربائية وإلكترونية حديثة في جهاز العروس أو كالتوقعات التفضيلية لإنجاب الأبناء الذكور في الأسرة الأبوية، أو توقعات الانفصال بين الزوجين في حالة عدم الإنجاب.

ويستلزم القيام بنوع من التأهيل الاجتماعي لأعضاء الأسرة للقيام بأدوارهم ومسؤولياتهم مثل التأهيل التي تقوم به الأسرة لأبنائها للقيام

مستقبلاً بدور الأب وبناتها للقيام بدور الأم، أو تأهيل الأبناء الكبار للمشاركة في المسؤولية بالنسبة للأخوة والبنات الصغار، وهذا من الأدوار الرئيسة التي يفترض أن تقوم بها الأسرة التوجيهية Orientation Family تجاه أعضاء الأسرة المنجبة Procreation Family أو كتوقعات تأمين الرعاية للأطفال في جالات انفصال (روجرز مرجع سابق).

الأدوار الوظيفية داخل الأسرة:

أدوار الزوجين:

إذا كان الدور يرتبط بالوضع أو المكانة التي يشغلها عضو الأسرة فإن الانتباه يتوجّه بالضرورة إلى مؤسسيها، الزوج والزوجة أو الأب والأم، ذلك من حيث قيام كل منهما بدوره المتوقع منه سواء في إسداء حق الزوجين المتبادل في الوفاء بالاحتياجات الحيوية والمعيشية والمساندة النفسية والمعنوية لتوفير السكن والأمن والطمأنينة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وتتسم تلك الرابطة بين الزوجين بسياج من القدسية منذ أن وعى الإنسان بكيانه الاجتماعي في مختلف الحضارات الإنسانية، ولذلك نجد احتضان الأديان للأسرة كمؤسسة ونظام اجتماعي أكثر من كونها إحدى الجماعات المكونة للبناء الاجتماعي، وذلك ما حدث الغالب في القديم والحديث من المجتمعات في توثيق الرابطة

الزوجية تحت مظلة التعاليم الدينية وفي أماكن العبادة وترديد عبارات موافقة الزوجية وراء رجال أو علماء الدين المخول لهم سلطة التزويج ومباركته.

معوقات الأداء في الوظيفة والدور:

وتعتمد أدوار ومسؤوليات الزوجين على حقوق وواجبات ترتبت على توثيق الرابطة دينياً أو مدنياً، من أهمها دفع مقابل لأحد الزوجين كان يطلق عليه في القديم من العصور (بالثمن) ثمّ (المهر أو الصداق) بعد ارتقاء الوعي الحضاري والديني للأسرة، ويختلف المهر أو الصداق حسب المكانة الاجتماعية للمرأة أو عائلتها، ويحدد طبقاً لاتفاق الطرفين حسب مكانتهما، وهو في حقيقته رمز من رموز الزواج؛ ولكن شأن أي قيمة اجتماعية أخرى قد يطرأ على جوهر معناها قدر من الانحراف ما لبث أن تفاقم حتى فقد رمز المهر معناه فارتد على عقبيه إلى قيمة الثمن مرة أخرى، وذلك عندما يبالغ في قيمة المهر لا لشيء إلا للتفاخر أو للادعاء بمكانة اجتماعية أعلى مقاماً أو طبقة مما هو في الواقع، وقد تحول الأمر الآن إلى ما يشبه المباراة حتى بين البسطاء من أهل الريف كأن يشترط مائة جرام وزن الشبكة التي تقدم قبل المهر في الوقت الذي يمكن الاستفادة بمثل هذه القيمة في إعداد سكن أو جهاز العروسين. لقد كان هناك أو مازال مبالغات في بعض مجتمعات الخليج يصل إلى التزام العريس بتقديم الشبكة من حليات ذهبية وهدايا تحملها عربة الشيا إلى العروس

وأمها وأخواتها وعماتها، وفضلاً عن المبالغة في قيمة المهر فوق طاقة أهل العريس، فإن التراكمات لمثل هذه التقاليد غير المنطقية؛ البعيدة عن روح الدين الإسلامي، قد أدت إلى ظاهرة عزوف الشباب عن الزواج والاتجاه إلى الزواج من خارج البلاد، وما يترتب على ذلك من نتوء مشكلة العنوسة بين الفتيات العربيات.

شواهد إحصائية:

أشارت دراسة أعدتها وزارة التخطيط السعودية مؤخراً ونشرتها بعض الصحف إلى أن عدد الفتيات اللواتي لم يتزوجن مما بلغن سن الزواج (١،٥٢٩،٤١٨) فتاة وكانت مكة المكرمة قد شكلت النسبة الكبرى بوجود (٣٩٦٢٤٨) فتاة ثم منطقة الرياض بوجود (٣٢٧٤٢٧) فتاة وكانت المنطقة الشمالية بها العدد الأقل من الفتيات ويبلغن (٢١٥٤٣) فتاة، ووفقاً لآخر إحصائيات وزارة التخطيط فإن عدد الفتيات اللواتي لم يتزوجن بعد هو مليون ونصف المليون فتاة، بينهن (٦٣.٩) ألف فتاة تجاورن سن الثلاثين عاماً ولم يوفقن في الزواج لأسباب مختلفة.

نشرت جريدة «الشرق الأوسط» في العدد الصادر في ٢٧/آب/ ٢٠٠٢م تقول (إن هناك ٧٠٪ من الفتيات السعوديات قد تأخرن عن الزواج بسبب الإقبال على التعليم، وأيضاً انشغال المرأة بالوظيفة شكل نسبة عليا حيث إن الموظفات السعوديات غير المتزوجات واللواتي تزيد أعمارهن عن ٢٨ سنة كن حوالي ٤٤٪).

سلبيات اجتماعية:

لقد بدأت بالفعل انتشار ظاهرة تأخر سن الزواج والعنوسة في أغلب البلاد العربية الأخرى التي أحاطتها الضغوط الاقتصادية، بسبب التبعية الاقتصادية وسوء الإدارة في الإنتاج والتوزيع واتساع الفروق الطبقية للبون الشاسع في تفاوت الدخول واستحكام أزمة الإسكان وانتشار الرشوة والفساد واستشراء ظاهرة البطالة؛ مما أدّى إلى نفس النتيجة في دول الرفاه الخليجية أقلها التأخر في سن الزواج بين الشباب والتهديد بظاهرة العنوسة بين الفتيات، لقد أدّت مثل هذه المتغيرات إلى التجاء بعض الشباب والفتيات إلى الزواج العرفي وإلى نمط مستحدث وهو زواج (المسيار) في بعض دول الخليج حيث تتنازل الزوجة عن حقوقها إزاء المهر وقوامة الرجل في الإنفاق والاقتصاد على المتعة والمؤانسة.

وحاول أحد المجتهدين تسويق فكرة إتاحة الفرصة للشباب الذين سدت أمامهم السبل؛ إلى ابتكار صيغة زواج الفرند أو الصداقة (Friendship) ذلك بإسقاط شرط توفير السكن لأنه ليس من أركان صحيح العقد وبقاء الزوجين عند الأهل وتوفير فرص المعاشرة بينهما إلى أن تتحسن الظروف وأحوالهما الاقتصادية والحصول على سكن. وقد نضحت مثل هذه الأفكار نتيجة صعوبات الزواج واستحالته تقريباً عند الغالب من الشباب وازدادت معدلات الانحراف الجنسي وجرائم الاغتصاب وزنا المحارم والسقوطي في أوحال الفساد الأخرى كإدمان الخمور والمخدرات، لقد أسهم

الكثيرون فهم إباحة الإسلام (لعدم وضع سقف للمهور)، ولكنهم تناسوا تحريم الإسلام للإسراف والتبذير ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ. . .﴾ [الإسراء: ٢٧]. وعدم تكليف الزوج وأهله بما لا طاقة لهم به في المهر وتجهيز العروس والإنفاق على الأسرة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ . . .﴾ [الطلاق: ٧] (انظر وافي).

الإنفاق ورئاسة الأسرة:

إن التوقعات الاجتماعية لدور الزوج للإنفاق على الأسرة في المجتمعات الإسلامية وأغلب المجتمعات البشرية؛ إنه وحده المسؤول على الإنفاق وذلك في حدود مقدرته المالية كما ورد سلفاً في سورة الطلاق آية ٧. وليس في دور الزوجة أو مسؤوليتها واجب الإنفاق حتى لو كانت موسرة، إلا إذا تنازلت برضائها. . «فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً، ويمكن في حالة عدم القدرة على الإنفاق أن يكون ذلك مبرراً كافياً للتفريق، ومن ثم كان الارتباط وثيقاً بين مسؤولية الإنفاق على الأسرة ووضع ومكانة الزوج أن يكون راعياً للأسرة ورئيساً لها؛ والزوجة راعية لبيتها ومدبرة له دون إنقاص من مكانتها ومساواتها مع رجلها في الحقوق والواجبات مع التمايز لا للتمييز» وللرجال عليهن درجة بما أنفقوا.

وقد اختلف الحال عن ذلك في نمط الأسرة الأمية Maternal Lineage التي يرجع فيها الانتساب إلى شبكة القرابة إلى الأم وذلك

في بعض المجتمعات التاريخية ومثل قبائل الطوارق في شمال أفريقيا فالعلاقات الآدائية التسلطية التي اشتهرت بها الأسرة الأبوية التقليدية تجد مثيلًا لها في أسرة الانتساب الأمّي إذ تنزوي فيها العلاقات العاطفية وتتسع فيها مساحة العلاقات الآدائية أو التسلطية من ناحية الأم ودائرة شبكة قرابتها (أبو زيد، البناء الاجتماعي).

رئاسة الأسرة وإنفاق المرأة العاملة:

وبالرغم من الارتباط الوثيق بين الإنفاق والرئاسة في الأسرة أبوية الانتساب، وهي الطاغية في كافة المجتمعات البشرية فإن عمالة المرأة وانتشار ظاهرتها في المجتمعات الحديثة والمعاصرة قد غيّرت مكانتها في المجتمع وفي الأسرة عندما انتشرت ظاهرة عمالتها في المجتمعات الحديثة.

لقد شهدت العشرون عاماً الماضية على سبيل المثال في مصر، إسهام المرأة في كافة قطاعات العمل في الدولة حيث ارتفعت قوة العمل من ٧١٩ ألفاً في ١٨٩١ إلى ٤.٢ ملايين عام ٢٠٠٠ بمعدل نمو سنوي يصل إلى ٨٪ وليس المقصود هنا العمالة التقليدية كالمشاركة في أعمال الفلاحة أو الزراعة وتربية الطيور والإنتاج المنزلي المحدود في المجتمعات التقليدية كالريفية والبدوية، حيث لا ضابط لحق المرأة أو الزوجة في عائد إنتاجها إلا التقاليد والأعراف السائدة في المجتمع المحلي؛ بينما في العمالة الحديثة تختلف المنظومة عن سابقتها التقليدية في الضمانات القانونية

للحقوق العاملين ومسؤولياتهم رجالاً ونساءً على السواء. ومن هنا ظهرت بوادر انتقاص مساحة السلطة الأبوية أو سلطة الزوج حيث أن المشاركة الاقتصادية في تسيير وإدارة شؤون الأسرة الحديثة قد أضفت على السلطة في الأسرة والمشاركة في صناعة القرار تغييراً ملحوظاً له إيجابياته في الاستقرار الاقتصادي والنفسي؛ أما إذا أسيء فهم المشاركة في الإنفاق والتعاون من الزوجين أو أحدهما من الناحيتين الاجتماعية والشرعية فإن السلبيات والمشكلات ستظل واقفة على أعتاب الاستقرار الأسرى.

المنظور الإسلامي:

إن تخويل الزوج حق رئاسة الأسرة في الإسلام لا ينقص من شخصية المرأة شيئاً، فهي لا تفقد اسمها أو اسم عائلتها ولا شخصيتها المدنية ولا أهليتها في التعاقد ولا حقها في التملك، فشخصيتها المدنية كاملة وثروتها الخاصة وذمتها المالية مستقلة عن زوجها، ورغم ذلك فدوره في الإنفاق لا ينتهي طالما كانت الرابطة الزوجية مستمرة، وإذا حدث التفريق فإن الإسلام لا يعفي الزوج أو الأب من الإنفاق بعد خصم عرى الزوجية؛ وهي أبغض الحلال عند اللّه؛ فعليه الوفاء بمؤجل الصداق والنفقة من مأكل ومشرب وملبس ومسكن مادامت زوجته في عدة طلاق البينونة الصغرى، حتى أنه احتفظ بحق الزوجة في مؤخر الصداق في حالة عدم الدخول بالعروس أي قبل المسّ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

حق المرأة في الرعاية والمشاركة:

إن طاعة الزوجة لزوجها واجبة، في غير معصية، وهذا هو المتوقع في الحياة الأسرية وإلا اضطرب الأمر، ولا تعني الطاعة الانسياق في ركاب الزوج بدون تفكير بل هي طاعة مبصرة يقابلها طاعة الزوج لأحكام التنظيم في الأسرة من حيث الوفاء بمسؤولية كفالتها في الرعاية والإنفاق والحماية والتربية لا من الجانب المادي فقط بل من الجانب المعنوي والنفسي والروحي، ببسط أجنحة الحنان والمودة والمحبة على زوجته وأبنائه، ويعتبر خروج الزوج من دائرة الالتزام الأساسية سبباً كافياً لردعه عرفاً وقانوناً وشرعاً؛ خاصة عندما يتجاوز حدود شرع الله كأن يعاقر الخمر أو يعتاد على الفساد المهدد لمصلحة أبنائه التربوية، فيكون سلب الولاية منه أحد الجزاءات التي يمكن أن تفرض عليه، ويخوّل الشرع والقانون للزوجة طلب التفريق بالطلاق أو الخلع إذا ما نضبت منابع المشاعر والحب إلى درجة الخوف من ألا يقيما حدود الله.. ﴿... وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ...﴾ [البقرة: ٢٢٩] (دراز - دستور الأخلاق).

إن المودة والسكن والرحمة بين الزوجين التي أكد عليها القرآن الكريم لتوفير المناخ النفسي والروحي لضمان استمرار واستقرار الأسرة قد لا تتحقق بمجرد الأماني والنيات الحسنة فقط بل بجهدهما المشترك في صنع القرار في أمور التربية والمعاش، لقد نوهت الآيات إلى تفضيل التشاور حتى في أبسط أمور التربية والتنشئة والفطام من الرضاعة ﴿... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...﴾ [البقرة: ٢٣٣] فمن باب أولى أن يتحقق التشاور والمشاركة في صنع القرار في أمور أكبر وأخطر من ذلك سواء في شؤون مستقبل التعليم والتربية والحياة الزوجية، وإذا امتد منهج التشاور والشورى بين الزوجين إلى أبنائهما الناضجين فإنهما قد ألقيا ببذور الشورى والديمقراطية التي إذا أثمرت ستؤدي بالضرورة إلى انحسار الاتجاه التسلطي الذائع الصيت في ربوع الأسرة العربية التي تعاني مجتمعاتها من النزعة التسلطية في تدبير شؤون الحكم والحياة وتصبح الشورى والديمقراطية منهجاً وأسلوب حياة.

دور شبكة القرابة والمجتمع الأهلي:

ونظراً لأن الإسلام يضع نصب عينيه الجماعة «يد الله مع الجماعة» كوحدة للبناء الاجتماعي فإنه أنشأ صعوبات أمام الزوجين لفصم عرى هذه العلاقة المقدسة التي وصف عقدها بالميثاق ﴿... وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] وبالرغم

من الكراهية التي قد تحدث بين الزوجين لأسباب مختلفة فإن الأسرة (كجماعة) وضعت في مقدمة الاعتبارات أكثر من (فردية) الزوج أو الزوجة فأكد أن الكراهية ليست لها الوزن الأكبر في تبرير الطلاق ﴿. . . وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

كما احتفظ الإسلام للزوجة المطلقة بحق حضانة أطفالها وتربيتهم ووجوب التزام الأب بالنفقة؛ غير أن الفجوة بين النظرية والتطبيق مازالت آخذه في الاتساع حتى تراكمت مئات الألوف من قضايا النفقة واستحقاق المطلقة وأطفالها لها، أمام محاكم الأحوال الشخصية أو محاكم الأسرة، وذلك بسبب تقاعس المطلق عن الوفاء بالحق الشرعي لمطلقته وأبنائه، وتحايلاته أمام المحاكم في إخفاء محل إقامته الجديد وغير ذلك من ادعاءات، انخفاض دخله الحقيقي حتى يحكم له بأقل مبلغ للنفقة، ويدعونا ذلك إلى أن عدم تمثّل تعاليم الإسلام في شؤون حماية الأسرة وغيرها من حيث الإيمان والعمل بأحكامها لدى الزوجين المطلقين هي التي تزيد من إحداث الفجوة بين شريعة أحوال الأسرة وتطبيقها.

ولم تترك الأسرة الزوجية الصغيرة بمعزل عن الدائرة القرابية الأكبر لكل من الزوجين فحثّ على التحكيم بين الزوجين في حالة الشقاق ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] وإذا

كانت عملية التحكيم العائلية ما زالت تمارس عرفياً بين الغالبية في حالة الشروع في الطلاق أو الخلع إلا أنها بدأ تناقصها في المجتمع المعاصر، بسبب وطأة التغيرات متناهية السرعة التي تحيط بالحياة الزوجية والأسرية، منها الانشطارات التي حدثت في العائلات الممتدة إلى أسر نووية صغيرة، وحراكها المهني بسبب العمل في مهن غير تقليدية كالمهن الصناعية أو التجارية؛ مما قد يؤدي إلى حراك جغرافي أي بالابتعاد المكاني عن الأسرة الممتدة أو العلاقات القرابية الواسعة، سواء كان هذا الابتعاد داخل الأوطان ذات الكثافة السكانية العالية كمصر أو خارج البلاد في الدول النفطية ذات الكثافة العالية للعمالة الوافدة. ويشكل ذلك صعوبة استحضار حكمين من أهل كل من الزوجين، لذلك قد يكون توكيل أخصائيين اجتماعيين للقيام بالدور البديل للتحكيم الأسري في حالة صعوبته حلّا بديلًا قد تأخذ به محاكم الأسرة في مصر على سبيل المثال. أما الحل البديل الآخر هو قيام منظمات المجتمع الأهلي (المدني) N.G.O.'S المتخصصة في شؤون رعاية وحماية الأسرة بدور الوسيط لحل المنازعات الأسرية قبل نظرها في المحاكم أو خلال المرافعات القانونية قبل إصدار الأحكام.

الحداثة وأدوار الأسرة:

لقد طرأ التغيير السريع في كل شيء منذ عصر الحداثة Modernism بالثورة الصناعية ثم إلى ما بعد الحداثة Post-Modernism بانطلاق الآليّة Automation الصناعية والإلكترونية

والفضائية والمعلوماتية، ورغم ما أدى به ذلك إلى تقدم ورفاهية فقت التصور، لأهل هذه الابتكارات إلا أنها أدّت في نفس الوقت إلى صدمة حضارية حسب تعبير ألفين توفلر Tolfer؛ مما أفقد الإنسان توازنه المعنوي والنفسي سواء في المجتمعات المتقدمة أو في المجتمعات النامية والمتخلفة باعتبارها تابعة لهذه الإنجازات وليست فاعلة أو مشاركة في اختراعها، بل إنها مجرد أسواق لمنتجات الدول المتقدمة رائدة هذه الإنجازات العصرية.

لقد أدى ذلك إلى تغيير في أساليب ونوعيات الحياة منذ أن بدأت العولمة تنشر أجنحتها Globalization على أرجاء العالم وتضع بصماتها بالفعل أو القوة على المقدرات السياسية والإنتاجية والاتجهت الاستهلاكية والمؤثرات الإعلامية، فضلًا عن منظومة الأسرة ذاتها في حجمها وبنائها وأدوار أعضائها في داخلها وخارجها لقد تأثرت الأسرة بوجه خاص بوطئة هذه التغيرات، منذ التغيرات التي حدثت في أفق التصنيع والتحضر في عصر الحداثة.

لقد تأثر **حجم الأسرة** من نمطها التقليدي الممتد إلى النووي الصغير لأسباب الحراك الجغرافي والمهني، وهو شديد الوضوح في الأسرة الحضرية. وانحسرت وظائف الأسرة بعد أن كانت متعددة في داخل شبكة القرابة الممتدة؛ واقتصرت على وظائفها الحيوية والمعيشية والتنشئة الاجتماعية المباشرة القائمة على المواجهة؛ وشاركت في التنشئة غير المباشرة مؤسسات الاتصال الإعلامية والتربوية والدينية، ولحق التغير بالتبعية لأدوار الأسرة وأعضائها.

كانت أهم التغيرات هو تجريد الأسرة من مقومات القدرة الإنتاجية خاصة بين أهل الزراعة والحرف الصناعية الوطنية؛ فبدأ التحول من طاقة إنتاجية إلى منفذ استهلاكي، مما أدى إلى نتائج سلبية على الاقتصاد والدخل القومي، فأصبحت الأسرة في مهب رياح الرأسمالية العالمية المتوحشة لا قوة لها، ومن ناحية أخرى باتت الأسرة في الطبقتين الوسطى والأقل من ذلك بين البسطاء؛ ضحية للسياسات الاقتصادية المتضاربة بين مخلفات الاقتصاد الاشتراكي الذي سارت على دربه بعض الدول والانفتاح الاستهلاكي العشوائي فوقعت ملايين منها تحت خط الفقر فأصبح همّ رب الأسرة يلهث للبحث عن موارد إضافية للدخل أو أن يسعى إلى الهجرة مما يؤثر سلباً أو إيجاباً على مقدرات الأسرة وتنشئة الأبناء.

كان للحراك المهني والجغرافي أثرهما في سلب السلطة الأبوية، هيمنتها التقليدية، وأخذت العلاقات الوالدية في الوهن، فهناك نمط من أسر الطبقة المتوسطة في الغالب شرع أبناؤها يتحررون من الضبط والرقابة الوالدية، خاصة بعد اتساع الفجوة بين جيل الآباء والأبناء بسبب ارتفاع المستوى التعليمي عن آبائهم وتراخي رابطة البرّ بالوالدين لدى البعض منهم، والإنزلاق إلى نوع من التبعية الثقافية الغربية التي أضفت على أسلوب الحياة التقليدي مباهج وألوان لتسويق السلع الاستهلاكية المستحدثة التي تنتجها الدول المتقدمة، مما شكّل نوع من الضغوط الاقتصادية والنفسية على الآباء من أجل إرضاء أبنائهم وتحسين نوعية حياتهم.

وهناك نمط آخر من أرباب الأسر التي تعيش تحت خط الفقر لا يستطيعون الوفاء بالحاجات الأساسية لأبنائهم من أطفال ويافعين، وسواء كان النمط الأول من الطبقة المتوسطة أو النمط الثاني من أسر البسطاء، فإن كلا النمطين قد يخفق آباؤهم في آداء أدوارهم فلا يستطيع آباء الأسر المتوسطة الوفاء بالمستجد من المتطلبات الكمالية التي أصبحت أشبه بالحاجات الأساسية عند أبنائهم، ولا يستطيع آباء أسر البسطاء من سد احتياجات الأسر ككل فيكون الحل البديل عمالة أطفالهم أو التسرب الدراسي لليافعين منهم والاشتغال في حرف بسيطة أو أعمال تافهة.

ومن ثم تنقلب الأدوار بالنسبة إلى الآباء وأطفالهم، فتتسع حقوق الآباء على حساب مساحة المسؤولية الوالدية، وتتضخم مسؤوليات الأطفال العاملين على حساب حقوق طفولتهم في صحة أبدانهم وتعليمهم ولعبهم وحريتهم، ويتحول الأطفال من فئة اجتماعية واعدة للمستقبل إلى فئة تشارك في إعالة الأسر الفقيرة ولكنها هامشية في غد متخم بالمعرفة والعلم والتقنية المهنية لن يقدر عليه من حرموا من حقوق طفولتهم.

* * *

تطور أدوار الأسرة في المناسبات العامة

الأسرة والمناسبات العامة:

الأسرة شأن غيرها من الجماعات والتنظيمات الاجتماعية تخضع لجبرية وجاذبية الظواهر الاجتماعية[١] التي تعيش تحت مظلتها الثقافية والحضارية. ومن مصلحتها ألا تقف أمام مسار القوة الاجتماعية للظواهر الإنسانية حيث أنها جزء لا يتجزّأ من النسيج الاجتماعي العام. وكما ذكر في مواضع أخرى فإن الأسرة بدءاً من حجمها الزوجي أو النووي الصغير إلى أنساقها القرابية الممتدة هي المصّب النهائي لمنتوج الظواهر والنظم الاجتماعية الأخرى سواء كانت إنتاجية أو تعليمية أو سياسية أو ثقافية أو ديموجرافية[٢]؛ وهي في نفس الوقت مصدراً مغذياً لتلك الظواهر والنظم، فهي التي تنتج القوى البشرية التي يقع على كاهلها مسؤوليات التنمية والعمران البشرى، هي التي تهّيئ أعضاء المجتمع لإستيعاب ثقافة المجتمع وتمثل نظمه وقيمه السائدة، والتعرف على حدود الحقوق والواجبات وذلك عن طريق التنشئة الاجتماعية في مراحل الطفولة المبكرة والمتأخرة.

(١) إميل دوركيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم.

(٢) صلاح عبدالمتعال، مقدمات في علم الاجتماع، دار الثقافة العربية (بني سويف) ٢٠٠١.

المناسبات العامة فضلًا عن كونها ظاهرة اجتماعية فإنها تعبر عن إرادة اجتماعية للتجمّع في مكان معين؛ أو الاحتفلال في زمن معين؛ أو في موقف طارئ.

أبعاد المناسبات العامة:

والمناسبات العامة لها عدة أبعاد؛ مكانية وزمنية واجتماعية (دينية أو سياسية) وهي دليل زمني لتجديد وانعاش الذاكرة التاريخية للمجتمع. (القومي أو الأقليمي أو الدولي).

البعد المكاني والبيئي:

أما البعد المكاني والبيئي فهو لا يعني الحدود الجغرافية لمجتمع أو دولة من الدول بل العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة وهو ما يطلق عليه بالعلاقة الإيكلوجية التي يهدف منها المجتمع تطويع البيئة من حيث تجنب أخطارها المفاجئة كالزلازل الموسمية والأخطار الأخرى سواء كانت كالفياضانات العارمة والأعاصير المهلكة، من أجل ذلك كانت وفرة الإنتاج الزراعي للمحاصيل الرئيسة بسبب عدم تعرضها لأضرار الطبيعة والآفات، تشكل مناسبات عامة للاحتفلال بعيد خاص للمزارعين أو على المستوى القومي. وعادة ما تشارك الأسرة الريفية بشكل إيجابي في مثل هذه المناسبات بحكم مشاركتهم في العملية الإنتاجية.

وما زال إحياء مثل هذه المناسبات قائماً في كثير من المجتمعات

والدول خاصة النامية والتي تعتمد في اقتصادياتها على النشاط الزراعي. وتبدأ مثل هذه التقاليد والطقوس الفولكلورية في الإنزواء كلما أخذ المجتمع في التحول إلى النشاط الصناعي وازدياد الرقعة الحضرية وتضخم حجم المدن. ويمكن أن يضرب مثل من أعماق التاريخ. إذ كانت الأسرة المصرية القديمة التي يحتفل لها وبها في المناسبات العامة في تلك الأزمان.

أعياد الربيع وشم النسيم:

لقد كانت للفراعنة أعياد كثيرة، منها أعياد الحصاد الزراعي التي تتصل بمواسمها، والتي ارتبط بها تقويمهم إلى حد كبير، فإن لسنتهم الشمسية التي حددوها بإثنى عشر شهراً ثلاثة فصول، كل منها أربعة أشهر، وهي فصل الفيضان ثم فصل البذر، ثم فصل الحصاد. ومن هذه الأعياد عيد النيروز الذي كان أو سنتهم الفلكية بشهورها المذكورة وأسمائها القبطية المعروفة الآن. كذلك العيد الذي سمي في العصر القبطي بشم النسيم، وكانوا يحتفلون به في الاعتدال الربيعي عقب عواصف الشتاء وقبل هبوب الخماسين، وكانوا يعتقدون أن الخلقية خلقت فيه، وبدأ احتفالهم به عام ٢٧٠٠ ق.م - طبقا لإسطورة مصرية قديمة - وذلك في يوم ٢٧ برمودة، الذي مات فيه الإله «ست» إله الشر وانتصر عليه الخير. وقيل منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.[١].

(١) عطية صقر، شم النسيم.. اليهود والمسيحيون والفراعنة، إسلام أون لاين ١٩٩٩ - ٢٠٠٥.

وكان من عادت الأسر المصرية في شم النسيم الاستيقاظ مبكرين، والذهاب إلى النيل للشرب منه وحمل مائه لغسل أراضي بيوتهم التي يزينون جدرانهم بالزهور، وكانوا يذهبون إلى الحدائق للنزهة ويأكلون خضراً كالملوجية والملانة والخس، ويتناولون الأسماك المملحة التي كانت تصاد من بحر يوسف وتملح في مدينة «كانوس» وهي أبو قير الحالية كما يقول المؤرخ «سترابون» وكانوا يشمون البصل، ويعلقونه على منازلهم وحول أعناقهم للتبرك. وإذا كان لهم مبرر للتمتع بالهواء والطبيعة وتقديس النيل الذي هو عماد حضارتهم فإن تناولهم لأطعمة خاصة بالذات واهتمامهم بالبصل لا مبرر له إلا خرافة آمنوا بها وحرصوا على تخليد ذكراها.

لقد كان الاحتفال بالربيع معروفاً عند الأمم القديمة من الفراعنة والبابليين والأشوريين، وكذلك عرفه الرومان والجرمان، وإن كانت له أسماء مختلفة، فهو عند الفراعنة عيد شم النسيم، وعند البابليين والأشوريين عيد ذبح الخروف، وعند اليهود عيد الفصح، وعند الرومان عيد القمر، وعند الجرمان عيد «إستر» إلهة الربيع.

عيد الفصح:

وأخذ احتفال اليهود به معنى دينياً هو شكر اللّه على نجاتهم من فرعون وقومه.

وأطلقوا عليه اسم «عيد بساح» الذي نقل إلى العربية باسم «عيد الفصح» وهو الخروج، ولعل مما يشير إلى هذا حديث رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - أنه قال: قدم رسول اللّه ﷺ المدينة فرأى أن اليهود تصوم عاشوراء، فقال لهم «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم، نجى اللّه فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً منكم» فصامه رسول اللّه ﷺ وأمر بصيامه. وفي رواية فنحن نصومه تعظيماً له. غير أن اليهود جعلوا موعداً غير الذي كان عند الفراعنة، فحددوا له يوم البدر الذي حل في الاعتدال الربيعي أو يعقبه مباشرة. فاحتفل أقباط مصر بشم النسيم قومياً باعتباره عيد الربيع، ودينياً باعتباره عيد البشارة، ومزجوا فيه بين التقاليد الفرعونية والتقاليد الدينية.[1]

من هذا نرى أن شم النسيم بعد أن كان عيداً فرعونياً قومياً يتصل بالزراعة جاءته مسحة دينية، وصار مرتبطاً بالصوم الكبير وبعيد الفصح أو القيامة، حيث حدد له وقت معين قائم على اعتبار التقويم الشمسي والتقويم القمري معاً، ذلك أن الاعتدال الربيعي مرتبط بالتقويم الشمسي، والبدر مرتبط بالتقويم القمري، وبينهما اختلاف كما هو معروف، وكان هذا سبباً في اختلاف موعده من عام لآخر، وفي زيادة الاختلاف حين تغير حساب السنة الشمسية من التقويم

(١) نص المرجع السابق (ن.م.س).

اليولياني إلى التقويم الجريجوري.[1]

والأمثلة كثيرة حول المناسبات العامة لأعياد الحصاد من حبوب وفواكه فهناك أعياد للقمح والأرز والكرز والعنب أو الكروم زمن أمثلة ذلك الكرنفالات التي تقام في منطقة (فورفوس) بألمانيا حيث تشتهر بجبل الكروم وفرة انتاجه[2]. ومشاركة الأسرة في هذه المناطق وغيرها في العالم في مناسبات احتفالات بأعياد الحصاد أن مشاركة الأسرة في مظاهر الاحتفلالات الفلكوروية بأزيائها التقليدية وأهازيجها ورقصاتها الوطنية تدخل البهجة والسرور على المنتجين والمستهلكين ويتواكب مع ذلك في العصر الراهن النشاط الإعلامي والإعلاني التجاري لتسويق وتصدير المنتجات فضلًا عن النشاط السياحي.

البعد الزمني:

ويتضمن البعد الزمني المناسبات بالضرورة حيث يختزن المجتمع في ذاكرته تاريخ كل مناسبة، وما تعبّر عنه من خبرات المجتمع ككل خلال مساره عبر التاريخ. فهي معالم تفصح عن الهوية الحضارية والثقافية والاجتماعية والسياسية على وجه الخصوص والتحديد.

(١) ن.م.س.

(٢) الأكاديمية الألمانية لتبادل المعلومات CAMPUS - Germany.de Arabic, Jan 2005

ولا يتناقض مع عمومية المناسبة أن تكون خاصة بفئة اجتماعية كعيد الأم أو طائفة دينية أو مهنية.

المناسبات القومية والوطنية:

أما بالنسبة للهوية السياسية، فإنها غالباً ما تعبر عن ملامح الشخصية القومية لشعب من الشعوب خاصة إذا ما كان هذا الشعب قد تعرض عبر الزمن القديم والحديث إلى تجارب سياسية قاسية، أو فتن داخلية، أو حرب أهلية أو غزو خارجي خرج من هذه المحن جميعها، أو بعض منها سالماً، أو منتصراً أو استطاع أن يكتب على سطور التاريخ صفحات مشرقة يفتخر بها دائماً عبر الأجيال ويستمد منها قوته، أو يحشد على دقات طبولها طاقته البشرية للتصدى لما يستجد من تحديات بسبب التهديد بعدوان، أو مواجهة أزمات سياسية، أو إقتصادية. وبقدر نجاح الأجهزة الإعلامية بصورتها التقليدية في الماضي أو أشكالها المستحدثة في الحضار؛ بأن تشحن دوائر الأسرة والروابط القرابية والتنظيمات السياسية، أو النقابية الأهلية بصفة عامة؛ بطاقات الرفض والمقاومة لكل ما يهدد أمنهم القومي فإن ذلك يحقق نوعاً من المساندة المعنوية لقوى الذود عن الوطن السياسية والشعبية.

وتعتبر «الاحتفلالات بالمناسبات الوطنية التاريخية، من أهم آليات تجديد الشحن للقوى المعنوية المستمرة عبر السنين؛. وهذه ظاهرة عامة في كل الشعوب والدول.

وتبيّن من خلال دراسة إحصائية[١] لـ ٥٤ دولة في العالم أن ١١،١٪ فقط يحتفلون بعيد ميلاد ملوكهم أو ملكاتهم، بينما يحتفل ٦٤،٨٪ بأعيادهم القومية بإسم العيد الوطني أو الإستقلال أو الحرية أو الجلاء؛ وهناك ١٨،٥٪ يختلفون تحت مسميات أعياد الثورة أو إعلان الدستور أو عيد العلم. الذي زادت نسبة الاحتفلال به أخيراً في بعض البلدان النامية منها مصر على سبيل المثال.

أما في الدول العربية فإن الأعياد القومية الرئيسة فيحتفل بالأعياد القومية تحت مسمى العيد الوطني كل من؛ الكويت وجيوبوتي والسعودية والصومال والجزائر؛ وبمسمى عيد الاستقلال كل من السودان والأردن وقطر ولبنان وتونس، ويحتفل بعيد الثورة كل من مصر وفلسطين وليبيا والعراق (قبل الغزو الأمريكي)؛ وتحتفل اليمن بعيد الوحدة وسوريا بالجلاء والجامعة العربية بعيد التأسيس، أما المغرب فتحتفل بعيد جلوس الملك[٢]. هناك مناسبات وطنية فرعية متعددة في البلدان العربية، كأن يحتفل بمناسبات وطنية محلية كما هو جاري، على سبيل المثال، في بعض المحافظات الإقليمية في مصر.

في دراسة كلاسيكسة إحصائية قام بها أحد رواد علم الاجتماع في فرنسا إميل دوركيم ١٨٩٧) عن ظاهرة الإنتحار في المجتمعات

(١) الدليل الإعلامي، وزارة الإعلام اليمنية yemen-info.gov.

(٢) ن.م.س.

الأوروبية دحض بها عدداً من النظريات التي سبقته لتفسير هذه الظاهرة. استخلص بها قانونه العلمي عن الانتحار الذي مؤداه أن ظاهرة الانتحار تتناسب تناسباً عكسياً مع قوة تماسك الأسرة ووحدة النظام السياسي وفاعلية التأثير للمؤسسة الدينية. فالإنتحار أقل بين المتزوجين عنه بين العزّاب وبين البلدان التي تقوي العلاقة بين شعوبها ونظامها السياسي لذلك كانت المناسبات القومية السياسية من أهم العناصر التي تربط الأفراد بروح المجتمع وعقله الجمعي. أما العلاقة بالنظام أو المؤسسة الدينية فتقل هذه الظاهرة بين الكاثوليك بينما تزداد الكاثوليك الأقوى بمنظماتهم الدينية. وبالرغم من دراسة دوركيم عن المجتمع الأوروبي فإنه نوه إلى ندرة الانتحار بين المسلمين بشكل عام باعتبار شدة التحريم على فاعله(١). ومن ثم فإن المناسبات السياسية والدينية وتماسك الأسرة وارتباطها ومشاركتها في هذه المناسبات من عوامل تعزيز القيم الاجتماعية التي تشكل قوة مناعة للفرد والأسرة والمجتمع على السواء.

---

(١) Horton, P., Hunt Ch., Sociology, McGraw-Hill.com.1976. P.157

انظر عبدالعزيز عزت، في الإحصاء وأيضاً Biesanz, M , Biesanz, J., Introduction to Sociology, Printice-Hall.Inc.1973 & Durkhiem, E, suicide.

البعد الاجتماعي:

أما المناسبات الاجتماعية العامة فإنها كظاهرة لا تخلو منها أمة من الأمم أو مجتمع على المستويات القومية أو الإقليمية أو العالمية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك عيد العمال وأعياد أخرى استنبطت في بعض المجتمعات المتقدمة، وبدأت في الإنتشار منذ مطلع القرن العشرين كعيد الأم ثم ما استحدث بعد ذلك من خلال برامج الأمم المتحدة وهيئاتها الفرعية واليونسكو كمنظمة للثقافة وهيئة اليونيسيف لرعاية الطفولة وابتداع السنوات الدولية للطفل والمرأة والشباب والمسنين وغير ذلك.

عيد العمال:

ويعتبر عيد العمال على رأس القائمة التاريخية للأعياد الدولية التي أخذت بها أغلبية الدول في العالم وذلك تكفيراً عما ارتكبته المؤسسات الصناعية الرأسمالية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي عام ١٨٦٩م تأسست في أمريكا منظمة «فرسان العمل» كتنظيم نقابي يسعى إلى تحسين الأمور وتخفيض ساعات العمل، ومع تطوّر الحركة النقابية نجحت مجموعة من القيادات النقابية في تكوين هيئة للعمال عام ١٨٨٦م، وتبنّت هذه الهيئة الدعوة لاعتبار الأول من مايو من ذلك العام يوماً للإضراب العام من أجل تخفيض ساعات العمل إلى ثمانٍ في جميع المهن والصناعات ، وقد حصلت مصادمات بين العمال والشرطة أدّت

إلى سقوط عدد من القتلى، وألقي القبض على عدد من قيادات ذلك التحرّك وحكموا، وأعدم أربعة منهم.[1]

منذ ذلك اليوم اتسع الاهتمام باليوم الأول من مايو الذي صار ذكرى تستعاد كل عام، وما لبثت أن اعتبرت يوماً عالمياً للعمال، يُحتفل به في كل أنحاء العالم بهدف لفت الأنظار إلى دور العمال ومعاناتهم، والعمل على تأمين متطلبات عيش كريم لهم. ولكن ما لبث أن تطور الاهتمام بهذه المناسبة ولبست ثوباً سياسياً استخدم في بعض البلدان، لترويج الأفكار الاشتراكية والشيوعية خلال الصراع بين القطبين الأمريكي والسوفييتي السابق أو يستخدم للتجمعات أو المظاهرات إذا كان للعمال أو غيرهم مطالب سياسية أو اقتصادية.

وبالرغم أن إحياء هذه الذكرى يمس أرباب وأعضاء أسر القوى العمالية التي تشكل عصب القوى الإنتاجية الصناعية فإن مساهمة الأسرة المعاصرة تشارك بشكل غير مباشر من خلال الهيئات الرسمية للدولة أو النقابات العمالية. ومن ثم تقلص دورها بسبب ابتلاع الدولة والنقابات والأحزاب السياسية العمالية لكثير من وظائف الأسرة[2]؛ وذلك باحتكار آليات الاحتفال بهذا اليوم

(١) مناسبات وأحداث، عيدالعمال العالمي bayyanat.org.

(٢) انظر آراء ميشيل فوكوه Foucot, Michael حول دور الدولة إزاء الأسرة ومؤسسات المجتمع المدني في أحمد عبدالغني، دولة الرفاهية وتنظيمات المجتمع المدني، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة (بني سويف) ٢٠٠٥ انظر أيضاً صلاح عبدالمتعال، تنظيم المؤسسات، دار الثقافة العربية (بني سويف).

واستخدامه لتسويق الأفكار السياسية لهذه الهيئات على المستوى الجماهيري سواء كانت أفكاراً مصادقة للواقع أو مزيّفة له، واقتصر الأمر بالنسبة لأسر العمال وكافة الأسر على أرض كل وطن مجرد إجازة يوم في السنة عن العمل يقضى للراحة أو الاستجمام. ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الإسلام، قد رفع من شأن العمال منذ مطلع الرسالة رافضاً رؤية التفضيل أو التفريق على أساس الثنائية في التمييز بين العمل العقلي والآخر اليدوي ويضيء الرسول ﷺ لنا الطريق بحديث مؤداه أنه من بات كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له.

عيد الأم:

وقد انتشرت فكرة الاحتفاء بأهم عنصر في بناء الأسرة في القديم والمعاصر من الأزمان، وهي شخصية الأمّ. وقد أسهب الإسلام في الإعلاء من شأن الأم والبرّ بها مقدمة في المرتبة والمكانة الاعتبارية عن الأب رغم تمايزه درجة بسبب مسؤوليته عن الإنفاق وليس المقصد كمّ البر بل نوعيته في الرعاية والحنان وفيض الحب والمشاعر، ولا يقتصر البرّ على الوالدين فقط بل يمتد إلى كل ذي رحم. وترتقي قامة هذا البرّ إلى قمة الأخوة في الدين لكن دون قطيعة عند الاختلاف في العقيدة. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ...﴾ [لقمان: ١٥]. إن وضع هذه الوصايا القرآنية أمام ناظري المجتمع والإنسان المسلم يجعل الاهتمام بهما خاصة الأم احتفالاً دائماً لا يحتاج إلى

تخصيص يوم بذاته للعناية والرعاية والتبجيل وإهمالها بعد ذلك في غير هذا اليوم كما يحدث في المجتمعات الصناعية الحديثة واتجاه أفراد الأسرة الغربية إلى الفردية والتمركز حول الذات ويتعامل الأبناء مع والديهم بالشفرة والبرقيات والهواتف والبريد الإلكتروني كسمة عامة من سمات العصر، بينما البرّ في الإسلام بالوالدين والأم خاصة من أمور العبادات والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

بدأت فكرة الاحتفال بعيد الأم العربي في مصر على يد الأخوين «مصطفى وعلي أمين» مؤسسي دار أخبار اليوم الصحفية.. فكتبا في عمودهما الشهير «فكرة» يقترحان تخصيص يوم للأم يكون بمثابة تذكرة بفضلها، وأشارا إلى أن الغرب يفعلون ذلك، وإلى أن الإسلام يحض على الاهتمام بالأم، وليس مجرد يوم واحد، ورفض آخرون الفكرة بحجة أن كل أيام السنة للأم وليس يوماً واحداً فقط، لكن أغلبية القراء وافقوا على فكرة تخصيص يوم واحد، وشارك القراء في اختيار يوم ٢١ مارس ليكون عيداً للأم، وهو أول أيام فصل الربيع؛ ليكون رمزاً للتفتح والصفاء والمشاعر الجميلة.. واحتفلت مصر بأول عيد أم في ٢١ مارس سنة ١٩٥٦م.. ومن مصر خرجت الفكرة إلى البلاد العربية الأخرى.. وقد اقترح البعض في وقت من الأوقات تسمية عيد الأم بعيد الأسرة ليكون تكريماً للأب أيضاً، لكن هذه الفكرة لم تلق قبولاً كبيراً، واعتبر الناس ذلك انتقاصاً من حق الأم، أو أنت أصحاب

فكرة عيد الأسرة «يستكثرون» على الأم يوماً يُخصص لها.. وحتى الآن تحتفل البلاد العربية بهذا اليوم من خلال أجهزة الإعلام المختلفة.. ويتم تكريم الأمهات المثاليات اللواتي عشن قصص كفاح عظيمة من أجل أبنائهن في كل صعيد.

إن تخصيص مناسبة عامة للاحتفال بعيد الأم أثارت جدلًا في الفقه المعاصر بين رافض لأي مناسبة عامة تخصيص كعيد دون أعياد الفطر والأضحى ويوم الجمعة الأسبوعي. فذلك من مقام الردّ والبدع، بينما ثمة آراء مازالت محدودة لا تمانع من ابتداع حسن لمناسبة تجمع الناس ولا تفرقهم فهو أمر مباح ما دام في الإطار المشروع، الذي لا ترتكب فيه معصية ولا تنتهك حرمة ولا ينبعث من عقيدة فاسدة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة : ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ...﴾ [الأعراف: ٣٢].

مناسبات وأعياد وافدة:

ويجب أن نفرق بين المناسبات العامة من أعياد ترتبط بالتربة الاجتماعية والثقافية والجذور الدينية والذاكرة التاريخية السياسية للأمة العربية والإسلامية وبين مناسبات وأعياد ليس لها جذور وطنية واجتماعية ودينية مستوردة أو وافدة من بيئات ثقافية مغايرة لثوابت

الأمة مثل ما حدث مؤخراً في صرعة الشباب العربي حول عيد الحب أو (فالنتين داي) واقتحامه للخصوصية الثقافية للأسرة الإسلامية إن اتساع ظاهرة «فالنتاين» وانتشارها لتشمل العديد من العواصم العربية كالقاهرة وتونس وبيروت ودمشق وغيرها يعكس مدى انتشار هذا النمط الجديد المغري عاطفيّاً وربحيّاً؛ باعتباره نمطاً عصريّاً متحضراً من وجه نظر المشاركين في مثل هذا العيد، خاصة اليافعين والشباب.

ومن هؤلاء الشباب من يعلم أو لا يعلم عن الموطن الغربي لمنشأ يوم فالنتين؛ وهو اسم لقسيس مسيحي تصدى للامبراطور كلايديس في عهد الوثنية الرومانية منذ ١٧ قرناً والذي حرم الزواج على جنوده المقاتلين فكان يعقد فالنتين لهم الزواج سراً ولما كشف أمره حكم عليه بالإعدام وفي سجنه وقع في غرام ابنة السجان وكان هذا سراً حيث يحرم على القساوسة والرهبان في شريعة النصارى الزواج وتكوين العلاقات العاطفية، وإنما شفع له لدى النصارى ثباته على النصرانية حيث عرض عليه الامبراطور أن يعفو عنه على أن يترك النصرانية ليعبد آلهة الرومان ويكون لديه من المقربين ويجعله صهراً له، إلا أن (فالنتاين) رفض هذا العرض وآثر المسيحية فنفذ فيه حكم الإعدام يوم ١٤ فبراير عام ٢٧٠ ميلادي ليلة ١٥ فبراير عيد (لوبركيليا)، ومن يومها أطلق عليه لقب «قديس». وبعد سنين عندما انتشرت المسيحية في أوروبا تغيرت عطلة الربيع، وأصبح

العيد في ١٤ فبراير اسمه عيد القديس (فالنتاين) إحياء لذكراه[١]؛ هذا هو ذلك اليوم الذي يحتفل به ويعظمه كثيرٌ من شباب المسلمين ونسائهم، وربما لا يدركون هذه الحقائق. وذهبت الفكرة واستبدل معنى الفداء والتضحية بمظاهر اللهو والتسيّب والتحرر في ذلك اليوم من التزامات السلوك الاجتماعي بين اليافعين والشباب. وإذا كان هذا الحدث - إن تأكد - يشكل مشروعية للاحتفال بيوم الحب حينها؛ فما مبررات استدامته وعَوْده كل سنة؟

إن المبالغة في إبداء مظاهر اللهو هو إرضاء للنزعة الاستهلاكية، إذ يشعر الرجال بضغط كبير لشراء هدايا في عيد الحب، وأن النساء يشعرن باستياء إذا لم يقدم لهن أحباؤهن هدية؛ وتُنفَق الملايين على الزهور وبطاقات التهنئة ورسائل الحب والشوكولاتة، وتربح كولومبيا - مثلًا - نحو ٦٠٠ مليون دولار سنويًا من زراعة وتصدير أكثر من ٥٠ نوعاً من الزهور، ٤٠٪ من الورد يباع في عيدي الحب والأم، وأنفق البريطانيون في عيد الحب سنة ٢٠٠٠م نحو ٣٥ مليون دولار، وترتفع نسبة بيع الورود في هذا اليوم إلى ٤٠٠٪ عنها في الأيام العادية.

إن اتجاه المبالغة في الاستهلاك هو الذي كرّسته عولمة الرأسمالية المتوحشة فكان له أثر كبير في التحولات الثقافية والاجتماعية، مما قد يؤثر في قسمات الأسرة العربية والإسلامية المعاصرة. وتصبح مثل

---

(١) هابي فالنتين، الجزيرة نت.

هذه الأنواع من الأعياد المتغربة من عوامل تفكيك الأسرة بدلًا من تماسكها التي تحققه أعياد الأمة الدينية والقومية والذي يمتد عبر الأسرة إلى آفاق المجتمع ككل هذا النمط الجديد من الحياة الذي حوّل الإنسان إلى «كائن استهلاكي» جعل لهاثه الدائم لتلبية احتياجاته يهمّش المشاعر والأحاسيس؛ لتخرج من حيز الممارسات اليومية في المجتمعات التقليدية إلى حيز المناسبات السنوية؛ ما ينم عن فقر في المشاعر الإنسانية المتبادلة، وهنا تكون المبالغة في الاحتفاء بها - في أحد جوانبها - تعويضاً عن النقص والحرمان باقي الأيام[1].

البعد الديني:

ويمكن أن نختتم بالنسبة للبعدين الثقافي والاجتماعي بتأثير المناسبات الدينية على المجتمع عامة والأسرة المعاصرة خاصة. وهذه تنقسم إلى قسمين: الأول وهي التي أقرها الشرع والسنّة النبوية في خصوص مناسبتي عيدي الفطر والأضحى ثم يوم عاشوراء العاشر من محرم الذي أوصى الرسول ﷺ ذكرى نجاة كليم اللّه موسى (عليه السلام) من بطش فرعون وقال أنه أولى بأخيه موسى من اليهود للصوم في هذا اليوم، أنه لو عاش لصام التاسع والعاشر مخالفة لهم. أما القسم الثاني وهي التي ابتدعها

(١) عد الحب. فالنتين ١٤ فبراير، شبكة الفوائد الإسلامية.

المسلمون فيما بعد كأعياد الهجرة والمولد النبوي على مستوى الأمة الإسلامية والاحتفال بموالد أولياء اللّه الصالحين على المستويات الإقليمية والمحلية وأشهرها مولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي وغيره الكثير على مستؤى القرى والنجوع في المناطق الريفية والأحياء الشعبية في المناطق الحضرية.

مناسبات رمضان وعيدا الفطر والأضحى:

أما فيما يتعلق بالقسم الأول فإن موقف الأسرة والمجتمع لا تقتصر الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى على أيامهما فقط ولكن ما يسبق ذلك من استعدادات نفسية وروحية ومادية في الملبس والمأكل وكل المظاهر المشروعة لإضفاء البهجة والسرور على الجميع وخاصة على الأطفال واليافعين. وإذا كان رمضان شهراً للصوم لشحذ الطاقة الروحية وتجديدها من خلال الصيام وصلوات القيام فإن الأسرة المسلمة لعبت دوراً على مدى التاريخ خاصة منذ عصر الفاطميين في إضفاء بهجة بين أعضاء الأسرة وامتداداتها القرابية من خلال موائد الإفطار التي لا تخلو غالباً من الحلوى؛ والدعوات المتبادلة بين الأقارب والأصدقاء مما يعيد تعزيز العلاقات القرابية وتجديد التماسك الأسري بين أعضائها الذين وقع أغلبهم فريسة لصخب الحياة اليومية والاستغراق في أنشطة عمل إضافية لمواجهة ارتفاع الأسعار ومستوى المعيشة مما انتقص من

فرص تجمعهم على مائدة واحدة في مواعيد الطعام الرئيسة كالغذاء أو العشاء. ولا شك أن تجمع الأسرة في الوجبة الرئيسة يقارب من أعضائها وتحل المشكلات والخلافات ويزيد من دفء العلاقات بين الوالدين والأبناء أو بين الأخوة والأخوات ويقلل الفجوة بين الأجيال إذا كانت أسرة ممتدة تجمع بين أكثر من جيلين كما كان يحدث في الأيام الخوالي قبل طفرة التغير الإنتاجي والصناعي والحراك الجغرافي والمهني للأبناء إلى مساكن منفصلة عن الأسرة الأم. فإذا أقبل رمضان والعيد بعده توظف المناسبة إلى صالح الأسرة ودوائر القرابة والجوار والمجتمع المحيط. ويزداد العطاء والبذل بالزكاة والصدقات النقدية والعينية. وانتشرت في العقدين الآخرين كالحال في مصر موائد الرحمن ليس للفقراء والمحتاجين بل وعابري السبيل من القادرين كسائقي سيارات النقل العام أو الخاص، ومن ثم نلاحظ أن الأسرة أضفت لنفسها دوراً كان مفتقداً بسبب متغيرات العصر الحديث وعادت للمشاركة الاجتماعية خارج نطاقها القرابي مما يعيد إليها التوازن مرة أخرى ويضعها على مسار المشاركة في تنمية الخدمات الاجتماعية مما قد يعيد لقيمة التكافل حيويتها ورونقها.

فإذا أضفنا قيمة التضحية والفداء التي يرمز إليها عيد الأضحى على صعيد الأمة الإسلامية مشاركة للحجاج في مناسكهم والارتباط المعنوي والروحي بهم فإنه على المستوى الأسري والاجتماعي يكاد يكون يوم وقفة عرفات أشبه بصوم رمضان المفروض وذلك

إحياء وطاعة لسنة رسول اللّه ﷺ بالحث على صوم يوم عرفات لمن لم يحضروا مناسك الحج طامعين في الغفران لسنة سابقة على عيد الأضحى الذي يشهده الصائمون. وتؤدي الأضحية دوراً لا يستهان به أيضاً في توثيق الروابط بين الأسرة التي قدمت أضحية لا ينال لحومها الفقراء والمحتاجون فقط بل البعض من الأقارب وأهل الجوار. والملاحظ أنه رغم غلاء أسعار الأضحيات والأعباء الاقتصادية المتراكمة، حتى على القادرين، فإن الظاهرة آخذة في الازدياد والانتشار. مما يشير أن قيمة التكافل الاجتماعي في الإسلام مازالت تلقى ظلالها على الأسرة والمجتمع والأمة الإسلامية؛ وأنها أي قيمة التكافل وغيرها من قيم الأخوة والتعاون والمؤازرة والعدل والمساواة لا ينقصها في الزمن الراهن، الذي تفككت فيه الأمة الإسلامية إلى دول ودويلات، إلا إلى مزيد من التنظيمات القانونية الحكومية والأهلية إلى تجسد هذه القيم على أرض الواقع الإسلامي بديلًا عن سلوكيات العشوائية والمصادفة التي أحياناً ما تجعل أعمال الخير تذهب إلى غير مستحقيها. ومثل ذلك بالنسبة للأضحيات التي تم تنظيم ذبحها وتجميد لحومها وتصديرها إلى بلدان يستحق فقراؤها الأنصبة من هذه الأضحيات. وهناك الكثير من الأسر المسلمة خاصة في بلاد المهجر العربية أو الأجنبية يمكنهم أن يرسلوا بمبالغ ثمن الأضحيات إلى الجهات المنظمة حيث تنوب عنهم في إعمال هذه السنة. ومن ثم لا تقف

بعد المسافة بين الأسرة المسلمة المهاجرة عن مشاركة فعلية في مناسبة دينية وعيد رئيسي من أعياد الأمة الإسلامية.

عيد الأضحى.. منذ قرن فات حسب تصوير أحمد حسن الزيات ١٨٨٥ - ١٩٦٨[١]؛ هو عيد الأسرة والأمة والملة. يُفيض المَسرّة والبهجة على البيت، ويجدد المودة والألفة في الوطن، ويُسْفر بالتعارف بين وجوه الأخوة في عرفات. فإذا رده اليوم فساد العيش في المدينة إلى ما نعرف.. فإن له في القرية صورة - لاتزال - منذ الطفولة - في ذهني: فتانة الجمال.. أخاذة السحر.. شديدة الروعة. لا يكاد القرويون يفرغون من صلاة المغرب ليلة العيد حتى ترى طريق المقبرة يسيل بالفوانيس الشاحبة الخافتة، ثم تنتشر آخر الأمر على وجوه المقابر انتشار الحباحب (ذباب يطير بالليل، له شعاع في ذنبه كالسراج).. وتنتقل القرية الحية إلى القرية الميتة، فتقضي الليل في الاستعبار والاستذكار والقراءة، ثم يعودون وقد كفاهم «الفقهاء» (الفقيه لقب كان يطلقه الناس على قارئ القرآن في المقابر) مؤونة ما حملوا من الكعك والفاكهة.. فيقطعون الهزيع الثاني من الليل في طسوت الحمام أو في دار المزين.. والاغتسال بالماء الساخن؛ لا يعرفه الفلاحون إلا ليلة العيد، وليلة الزواج، ويوم الموات! ثم يُعدُّون زينة العيد.. فيكوّرون العمائم، ويصبغون

(١) أحمد حسن الزيات، العيد أيام زمان، مجلة الرسالة عدد ٢٦ مارس ١٩٤٣.

الأحذية. ومن لا يتخلّف عن صلاة العيد من أهل القرية غير النساء. أما الرجال.. فهم صفوف وراء الإمام يؤدون الصلاة، وأما الأطفال.. فهم وقوف على الأبواب يشهدون الخطبة. ثم تُقْضَى الصلاة.. فيُقَبِّلون الإمام جميعاً، ويُقبِّل بعضهم بعضاً، ثم يذهبون رتْلًا جميل النسق إلى المقبرة، ويرجعون من طريق آخر إلى الحارات المكنوسة المفروشة، فيجلسون أمام المنازل إلى الطعام الشهي الفاخر، يتبادلون الألوان (أصناف الطعام)، ويتهادون الصِّحاف، ويتركون على موائدهم محلًا رحيباً للفقراء. هذه صورة لمشاركة الأسرة الريفية منذ قرن من الزمان، والتي تغيرت معالمها إلى حد كبير في العصر الراهن.

العاشر من محرم (عاشوراء):

أما مناسبة يوم العاشر من محرم فلم يسنّ الرسول ﷺ إلا بصومه ابتهاجاً بنجاة موسى عليه السلام من بطش فرعون وجنده ولم يرد في الأثر أن أوصى بممارسة أي مظهر من أشكال الابتهاج أو الفرح. ولكن درجت بعض الهيئات الحكومية والأهلية بتذكير الناس بخطب تلقى في بعض المساجد والأماكن العامة احتفاء بهذا اليوم. وليس في ذلك من بأس من الوجهة الشرعية. ولكن تطابقت هذه المناسبة التي أرقتها السنّة النبوية مع ذكرى استشهاد الحسين وبعض من أهله في معركة كربلاء ضد يزيد بن معاوية مما جعل طوائف الشيعة في بعض الأقطار الإسلامية يحتفلون بذكرى الاستشهاد

بممارسات شعبية تشارك فيها الأسرة المسلمة الشيعية بقدر لا يستهان به في تجديد الأحزان بدءاً من البكاء والنحيب والضرب على الصدور، كما شاهدته وعايشته في إحدى قرى سهل البقاع في لبنان أثناء دراسة قمت بها عن الأسرة العربية في مطلع السبعينيات. وتبدأ مشاركة الأسرة بتجمع نساء الحي في إحدى الدور أو البيت في حجرات مجاورة لتجمع الرجال حيث يبدأ رجل الدين الشيعي (الملّا) بسرد مأساة استشهاد الحسين (رضي الله عنه) بصوت منغّم بكّاء عن الصورة الوحشية التي أغتيل فيها وبعض ذويه ومنهم أطفال رضّع وحرمانهم قبل موته من شربة ماء، وسرد كل تفصيلات المعركة مما يثير شجون الحاضرين خاصة النساء اللاتي يولولون ويضربن صدورهن كذلك الرجال ويختتم ذلك بمائدة العشاء لكافة الحاضرين. وتتكرر هذه التجربة الشعورية مروراً بأحياء القرية يومياً من غرة شهر محرم حتى التاسع وأخيراً تتجمع أسر القرية وأهلها في المسجد أو (الحسينية) الرئيسة في القرية ويقوم الملّا الشيعي بسرد مأساة استشهاد الحسين بشكل أكثر تفصيلاً وإيلاماً للنفس ويعلو نحيب الكل وتضرب الصدور إلى أن تفرّغ الشحنة العاطفية ويعمّ السكون والهدوء على الجميع؛ ثم توزع حلوى راحة الحلقوم (الملبن) ثم ينصرف الجمع[1].

(١) Abdel-Motaal, Salah, Marriage by Elopement and Abduction, National Review of Criminology, Vol.17 Cairo 1974

جزء من دراسة ميدانية في قرية حوش الرفقة الشيعية في لبنان.

وقد لاحظت عدداً كبيراً من شباب القرية لا يشاركون في الاحتفال البكّاء داخل الحسينية ولما سألتهم لماذا عدم المشاركة؟ أجاب البعض منهم بأنهم لا يقرون اتباع منطق الشجن والأحزان فبدلًا من ذلك علينا أن نفرح لأن الحسن مات شهيداً لا قتيلًا. وقد كانت هذه القرى أقل القرى والمناطق في إبداء مظاهر الحزن وعقاب الذات؛ فكما نرى في كثير من مناطق الشيعة مثل الجنوب اللبناني يبالغون في التعبير عن تجديد أحزانهم بضرب الصدور وشق الجيوب وجرح الجباه بأنصال السيوف لا على رؤوس الكبار فقط بل يصل الأمر إلى تجريح (تشريط) جباه أطفالهم الذين لا يدركون، وقد بثّت بعض الفضائيات هذه المناظر في احتفالات عامة لبعض الطوائف الشيعية. إن مثل هذه العادات والتقاليد المتوارثة تتنافى تماماً مع مبادئ الإسلام إزاء مواجهة مصيبة الموت فلا صياح ولا ندب أو نياح أو صراخ؛ فالصبر كما أكده الرسول ﷺ عند الصدمة الأولى.. فما بالنا أن تحدث مثل هذه التجاوزات التي نهى عنها الرسول ﷺ ليس عند الصدمة الأولى بل في ذكرى الموت، فلا بأس من دمع تذرفه العيون لأنها رحمة من عند اللّه، كما حدث له إثر وفاة ولده إبراهيم.

إن مشاركة الأسرة في مثل مناسبة استشهاد الحسين واضح أشد في تعزيز الشعور الجمعي بالنسبة للطائفة الشيعية التي تمارس، في مثل هذه المناسبة، بعض الطقوس الشعبية التي لا تتصل بالعقيدة

الأساسية للإسلام ولا في جانب العبادات المفروضة ولا السنن المؤكدة. وقد يحسب ذلك من بين آليات التماسك بين أبناء الطائفة الواحدة، وأيضاً من دعائم المقاومة تجاه محاولات الإقصاء التي مرت بها خلال التجارب التاريخية لإثبات استمرارية وجودها على مستوى الصعيدين السياسي والاجتماعي. وقد تأخذ هذه الطقوس الشعبية في الانحسار والانزواء مع ارتقاء الوعي الديني والحضاري الذي يحلّ على شبابهم تحت تأثير آراء المحدثين من مفكريهم ووطأة التغيرات العالمية الراهنة والتحديات السياسية التي ألمت في المناطق التي يتكاثف فيها وجودهم، وانشغال فصائل منهم ببدائل سياسية منها على سبيل التحديد مقاومة الكيان الصهيوني في جنوب لبنان. ولم تقتصر بعض مظاهر الاحتفال بهذا اليوم والمناسبة التي جمعت بين صوم العاشر من محرم كسنة مؤكدة وبين ذكرى استشهاد الحسين على طائفة دون غيرها بل امتدت إلى أهل السنة التي ابتدع أهل منها كما في مصر تناول حلوى عاشوراء في مثل هذه المناسبة كعادة شعبية تجيبها الأسرة في كل عام.

مناسبات مستحدثة:

وإذا عرّجنا على المناسبات الأخرى المبتدعة فهي عامة على مستوى الأمة الإسلامية؛ كمناسبة رأس السنة الميلادية والهجرية والمولد النبوي؛ وأخرى خاصة لا تتعدى النطاق المحلي كموالد سيدنا الحسين والسيد البدوي والسيدة زينب وغيرهم من أولياء الله

الصالحين التي تنتشر زوايا مقابرهم في آلاف القرى والنجوع كالحال في مصر وغيرها في تونس والمغرب وبلاد الشام.

رأس السنة الميلادية:

لم يكن للاحتفال برأس السنة الميلادية أي اهتمام في بقاع العالم الإسلامي إلا بعد أن وقع أغلبيته تحت سيطرة الاستعمار منذ اتفاقية سايكس - بيكو التي جزّئ فيه العالم الإسلامي إلى دول ودويلات جثم الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي ردحاً من الزمان مما أثر في أساليب حياة شعوبها باسم المدنية والتحديث ولما تم استقلال هذه الدول كانت من بين بصماته الثقافية الاحتفال بأعياد رأس السنة الميلادية، خاصة بين طبقات النخبة الثقافية والاقتصادية المتغربة؛ وسارت أُسر هذه الطبقة على نهج أسلوب الحياة الغربية في الاحتفال بهذه المناسبة العامة طبقاً للتقاليد المستوردة في مظهر الاحتفال بليلة رأس السنة الميلادية التي يبعد أغلبه عن الالتزامات الشرعية. وبعد ذلك تنامى ذلك الاتجاه بين بعض أبناء أسر الطبقة الوسطى، اقتداء بالنموذج الغربي في الاحتفال. وتطورت مشاركات هؤلاء إلى تنظيمها داخل بيوت البعض منهم بعد أن كانت منحسرة في الأماكن العامة كالفنادق والنوادي العامة أو الخاصة. وبذلك طرأ على كثير من الأسرة العربية أنماط من السلوكيات الوافدة نشّىء عليه الجديد من الأجيال حتى نفذت إلى نسيج الحياة الاجتماعية وكأنها من أصول شخصية أوطانهم.

رأس السنة الهجرية:

قرر سعد زغلول باشا عندما تولى رئاسة الوزارة المصرية بعد رفع الحماية عن مصر نتيجة ثورة ١٩١٩ التي تزعمها أن يجعل من مناسبة رأس السنة الهجرية يوم عطلة رسمية يسرح فيه التلاميذ من مدارسهم – حسب تعبير ذلك الزمن – وكان يعني بذلك أنه رغم اعتباره عيد عام لجميع المسلمين إلا أن الاعتراف به وإعلانه رسمياً هو من معالم الاستقلال القومي للأمة أمام رأس السنة الإفرنجية التي كان لها الحساب الوحيد في عالم التقويمات[١].. وينحسر دور الأسرة إزاء تلك المناسبة في راحة أعضائها في يوم عطلة رسمية والاكتفاء باستقبال معاني العظة والعبرة التي تبثها وسائل الإعلام الجماهيرية سواء بالكلمة أو المشاهد التمثيلية والأهازيج الدينية.

المولد النبوي:

ويتميز المولد النبوي بمذاق خاص ليس في العالم الإسلامي المعاصر بل منذ عهود حكم ولاة المسلمين، وخاصة منهم الفاطميين، إذ أضاف الولاة بعض المواكب، للاشتراك مع الأهالي في احتفالات أعيادهم. وكان يسير آلاف الفرسان وصفوف من الجمال على رأس تلك المواكب؛ وكانت تحمل على ظهورها الهوادج المطرزة والمزدانة بالزهور؛ وكانت تعد الولائم. وارتبطت

(١) إسلام أون لاين.

أطباق وتقاليد معينة بالأعياد والمهرجانات المختلفة التي احتفل بها المصريون؛ ومن بينها عيد المولد النبوي الشريف، وغرة رجب، وغرة ومنتصف شعب، والعاشر من محرم، ورأس السنة الهجرية، وغرة رمضان: إضافة إلى العيدين الرئيسيين للمسلمين؛ عيد الفطر وعيد الأضحى.

ولم يمثّل الاحتفال بالمولد النبوي، إلى عهد قريب، أيّة إشكالية فكرية أو دينية في معظم البلدان الإسلامية إلا ممن راودتهم الشكوك والحذر من اعتباره بدعة لا تقرها السنة؛ غير أن بعض الفقهاء المعاصرين ومنهم الدكتور يوسف القرضاوي في مذكرات ابن القرية والكتاب(١)؛ أنهم لا يرون بأساً من الاحتفال، وسبقهم من قبل العلامة جلال الدين السيوطي في كتابه الجاوي في الفتاوي، والإمام الطرطوشي في كتابه عن البدع. وبالإضافة إلى اعتباره أنه يوم عيد تعطل فيه المصالح الحكومية عند بعض الدول فإن مظاهر الاحتفال أشد وضوحاً في الأحياء الشعبية تعرض فيه عديد من أصناف الحلوى الخاصة بهذه المناسبة ويحرص أرباب الأسر القادرين على شرائها لأطفالهم لإدخال السرور عليهم وتقريب معاني الإسلام إلى نفوسهم وتحبيبهم في رسول الله ﷺ.

وقد تطور الاحتفاء بهذا اليوم وعلى سبيل التحديد في مصر بإقامة

(١) انظر: يوسف القرضاوي، مذكرات ابن القرية والكتاب.

مؤتمر إسلامي دولي كل عام يطرح فيه قضية محورية معاصرة يناقشها المؤتمرون من كافة الدول الإسلامية والعلماء والمفكرين من الدول غير الإسلامية ويختتم المؤتمر بتسليم الأنواط والنياشيين لبعض العلماء والمفكرين الذين أسهموا في الفكر الإسلامي المعاصر هذا فضلًا عن تسليم الجوائز النقدية لحفظة القرآن الكريم وكثير منهم من الأطفال واليافعين والشباب من مختلف الأقطار الإسلامية[١].

وهنا يبرز دور متجدد لبعض الأسر الإسلامية في تكوين أجيال من حفظة كتاب الله في عصر اختفت فيه كتاتيب حفظ القرآن التقليدية بل إلغائها بدعوى تحديث التعليم. ويعتبر تشجيع كثير من الأسر المعاصرة لأبنائها لحفظ القرآن إحياء لدورها المفتقد منذ زمن بعيد. يعزز ذلك المساندة التي تستمدها من جمعيات تحفيظ القرآن التي بدأت مرة أخرى في الانتشار.

المناسبات المحلية وموالد الأولياء:

أما المناسبات على المستويات المحلية وهي الاحتفال بموالد أولياء الله الصالحين فهي ليست مجرد يوم مولد يحتفل به ثم ينصرف عنه الناس بل تحول إلى مؤسسات دينية محلية يدور نشاطها حول محور زمني وهو ليلة ويوم المولد إلا أن مركزها المكاني هو المسجد أو الجامع الذي دفن في ملحقه الولي أو الفقيه

(١) انظر: المؤتمرات السنوية للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مناسبات المولد النبوي.

كمساجد الإمام علي أبي طالب والإمام أبي حنيفة النعمان في العراق والإمامين الشافعي والليثي والإمام الحسين والسيد البدوي والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة سكينة في مصر وغيرهم الكثير في الأقطار العربية والإسلامية. وكل من هذه المساجد التي تحولت لمؤسسات دينية لها نظامها فالإدارة والإشراف والخدمات والميزانية الواردة من صندوق التبرعات التي يتصدق بها المترددون أو أصحاب النذور.

وبالرغم من الاعتراض الشرعي المحافظ على إحياء مثل هذه المناسبات وأنها من البدع التي قد تدخل تحت باب الضلالة وأنها نوع من الشرك الخفي من منظور المذهب الوهابي. فإنك لو سألت متردداً أو زائراً لهذه الأماكن عن التحفظات الشرعية فإنه سرعان ما يبادر بتأكيد الوحدانية والتوحيد للّه سبحانه وتعالى وأنه لا يتخذ من الولي وسيطاً للّه بل بركة ومكاناً طاهراً يأمل أن يقبل اللّه فيه الدعاء. وأن اللّه هيأ ذلك المكان كسبب لأرزاق الفقراء المعدمين ومعاش للعاملين عليه. وبؤرة إشعاع لأداء الشعائر والعبادات ونشر دروس الوعظ والإرشاد.

أما الجوانب السلبية في هذه الأماكن فبها عدد من البدع والمخالفات في مظاهر احتفالات ليالي الموالد حيث يختلط فيها الحابل بالنابل ويتسلل إليها ألوان من اللعب واللهو الذي لا يتناسب مع مقام أولياء اللّه ومساجدهم موطن العبادات ويبتدع فيه الأذكار

الجماعية التي يتمايل فيها الذاكرون على إيقاع منغّم لم يرد فيه نص أو أثر من الدين الخالص. والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو موقع الأسرة من ذلك وهل تطورت أدوارها على مدى الزمن إزاء الاحتفالات بمثل هذه الموالد المحلية؟ كان لأفرادها وأربابها دور هام في تغذية طقوسها فمنهم من كان يوفي بالنذور إلى ولىّ بعينه وإن بعدت عليه الشقة فيسافر في موعد الاحتفال بمولده متكبداً مشاق السفر والإقامة العشوائية بجوار المسجد على حين كان له أن يوفي بالنذر في محل إقامته دون أن يهدر من نذره شيء لبعض الوسطاء والمنتفعين المحترفين في مناطق الاحتفال بموالد الأولياء.

إن هذا الأمر آخذ في الانحسار مع ارتفاع المستوى التعليمي على العموم وارتقاء مستوى الوعي في الكثير من الأسر والاتجاه للفهم الصحيح للدين المبرّأ من البدع ومستحدثات الأمور غير النافعة في الدين والدنيا. ومما ساعد على ذلك انتشار الجمعيات الخيرية التي تطرح مشروعات الخدمات التنموية في المساجد الجديدة متكاملة الخدمات الطبية والتعليمية خاصة تحفيظ القرآن ولجان جمع الزكاة والصدقات والتبرعات. وثمة الكثير من الأسر الناشطة في مثل هذه الأنشطة التنموية، بعد أن تضاءلت أدوار أسر غيرها في تغذية الاحتفالات بموالد أولياء اللّه الصالحين التي هي أبعد ما يكون عن العقيدة والعبادات فهي لا تعدو أن تكون حفل شعبي القصد من إدخال البهجة والسرور على الناس بشكل رخيص وقليل التكاليف.

تطور دور الأسرة في المناسبات الخاصة

الزّواج:

خلق الله تعالى الخلق، وأقامه على أساس التزاوج، وبيّن ذلك في آيات كريمة من الكتاب العزيز، فقال سبحانه وتعالى: تطوّر دور الأسرة في المناسبات الخاصّة ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[1]، وقال: ﴿...وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[2]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[4].

والزّواج في اللغة: هو انضمام الشيء إلى نظيره من جنسه[5].

وفي الاصطلاح: هو اقتران الرجل بالمرأة بعقد شرعي يؤدي إلى استمتاع كل بالآخر على وجه مشروع[6].

والزواج من الأمور التي حثّ عليها الإسلام، وندب إليها، وشجّع على وجودها، وذلك من أجل عمارة الأرض، واستمرار الحياة، وبقاء الجنس البشري. ولهذا كان الانصراف عنه أمراً مخالفاً للمنهج الذي

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٨.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٠.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.
(٤) سورة النجم، الآية: ٤٥.
(٥) التعاريف لعبدالرؤوف المناوي، ١/ ٥٣.
(٦) الزواج في الشريعة الإسلامية، لأحمد الشافعي، ص ٨.

جاء به رسول الله ﷺ، وصورة مناقضة للسنة التي دعا إليها، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: **«أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**(١).

ولو دقّقنا في موضوع الزواج؛ لوجدناه سبباً للسعادة، وطريقاً إلى السكينة، ومصدراً للطمأنينة، وذلك أنّه يلبّي حاجة الفطرة، ويتفق مع التّكوين النّفسي والعاطفي للإنسان، وينسجم مع طبيعة الخلق الذي يقوم على التزاوج وينفر من الوحدة والتفرّد.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

والزواج في الإسلام فيه معنى العبادة، ويشتمل على صورة من

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ونصّ الحديث بتمامه كما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: (جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فقالوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ!؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَداً. فجاء رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا!؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).

انظر: البخاري، كتاب الكناح، باب الترغيب في النكاح، ح ٥٠٦٣، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، ح ١٤٠١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

صور القربات إلى الله، ودليل ذلك أنّه يسنّ للرجل أن يصلي ركعتين بزوجه قبل الدخول بها، كما يسنّ له أن يسمي الله تعالى عند مباشرته إيّاها، وأن يقول: (**باسْم اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتنا**)[1]. ولعل إدراج الجماع في أبواب الصدقات، ما يؤكد المعنى السابق؛ من أن الزّواج الصحيح والعشرة الحال، من صور التقرّب إلى الله، حيث جاء في الحديث قوله ﷺ: «**. . . ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ!؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْراً**»[2].

وتظهر المعاني السامية في الزواج، وأهميته، وقيمته في الإسلام، من الآتي:

١ - **ارتباط الزّوجين بميثاق غليظ هو العقد الشرعي**، الذي يجعل الرابطة بين الزّوجين رابطة قويّة، بسبب قيامه على أساس من شرع الله، قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم، ونصّ الحديث بتمامه كما رواه ابنُ عبّاس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قالَ: (لَوْ أَنَّ أَحدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: باسْم الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ).
انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، ح ١٤١، وكتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ح ٣٢٧١، وكتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله، ح ٥١٦٥، ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، ح ١٤٣٤.

(٢) الحديث رواه مسلم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
انظر: مسلم، كتاب الزكاة، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ح ١٠٠٦.

﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ**»[2].

٢ - **الاختيار المناسب لكلا الزوجين**؛ من جهة الخلق الكريم، والدِّين القويم، وموافقة كل منهما للآخر في المستوى العلمي، والثقافي، والاجتماعي، والمستوى المالي، والتّوافق الصّحي، وذلك من أجل أن يكون الانسجام التّام، الذي ينبني عليه حياة سعيدة مستقرّة، وبيئة نظيفة صالحة لوجود الأبناء وتربيتهم، وأسرة قوية مترابطة، لا يقع فيها مشاكل أو خصومات، ولا ينتج منها ضعف أو إعاقات.

وقد جعل الإسلام ركيزة الاختيار قائمة على أساس الدين، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»[3]، وقال: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا،**

(١) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٢) الحديث رواه مسلم ضمن حديث طويل لجابر بن عبدالله رضي الله عنه.
انظر: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ح ١٢١٨.

(٣) إسناد الحديث حسن لغيره. أخرجه الترمذي وأبو داود وغيرهما من حديث أبي حاتم المزني، وقال الترمذي «هذا حديث حسن غريب». والحديث ضعيف، إلَّا أنه يتقوّى بشواهده، حيث رواه أبو هريرة، وأبو أمامة رضي الله عنهما.

وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[1].

٣ - **إشهار الزّواج**: ويتمثّلُ ذلك بعدّة أمور، أهمّها:

أ - **إعلان النكاح**، والإفصاح عن اقتران الزّوجين، وذلك من أجل دفع الريبة، وإثبات النسب لما يكون من هذا الاقتران. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْلِنُوا هَذا النِّكَاحَ، وَاجْعَلُوهُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالدُّفُوفِ**»[2].

ب - **عمل الاحتفال**: الزواج من المناسبات السعيدة التي حرص الإسلام على إظهارها، وإدخال السرور على أهلها، ولهذا كان أمره ﷺ أن يضرب عليه بالدّف، وأن يصحبه الغناء.

جـ - **عمل الوليمة**: وهي مظهر من مظاهر الفرح، وسبب للاجتماع والمشاركة في مناسبة من المناسبات السارة. وأقل ما يتحقق به المقصود هو الوليمة بشاة واحدة، لقول النّبي ﷺ: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[3].

---

(١) انظر: الترمذي، الجامع، كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه، ح ١٠٨٥، وأبو داود، المراسيل، ١/١٩٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدّين، ح ٥٠٩٠، وصحيح مسلم، كتاب الرّضاع، باب استحباب نكاح ذات الدّين، ح ١٤٦٦.

(٣) الحديث رواه الترمذي وابن ماجة من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي «هذا حديث غريب حسن». والحديث وإن كان ضعيفاً بسبب ضعف عيسى بن ميمون الأنصاري، إلا أنه يتقوّى بشواهده ويرتقي إلى درجة الحسن لغيره.

انظر. جامع الترمذي، كتاب النكاح عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إعلان النكاح، ح ١٠٨٩، وسنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب إعلان النكاح، ح ١٨٩٥.

(٤) الحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وقد رواه البخاري في أبواب كثيرة منها، كتاب =

- **الحرص على النسل**: ويكون ذلك بانتفاء المرأة الولود، التي أكّد النبيّ ﷺ على ضرورة اختيارها، بقوله: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**»[1].

المولود الجديد:

جعل الإسلام للطفل حقوقاً وبخاصّة عند ولادته، ووضع له مجموعة من الأحكام يقوم بها الأهل عند استقباله، وهذه الأحكام في مجموعها، تعطي المولود قيمة كبيرة، وتجعل له مكانة خاصّة، تؤهله لأن يجد ما يلزمه من تربية وتوجيه، ورعاية وعطف، كما أنّ بعض هذه الأحكام يخصّ شخصه، ويلامس واقعه وحياته بصورة مباشرة، حيث إن لبعض هذه الأحكام حِكَماً صحية، وأخرى اجتماعية، ومن هذه الأحكام:

١ - **التأذين والإقامة**: يستحب عند ولادة المولود، أن يؤذّن له في أذنه اليمنى، وأن يقام للصلاة في أذنه اليسرى، فيكون أول

= البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾، ح ٢٠٤٨، وكتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، ح ٥١٦٧، ورواه مسلم في كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، ح ١٤٢٧.

(١) إسناده حسن أخرجه أبو داود، والنسائي، وله شاهد من حديث أنس يرتقي به إلى درجة الصحة. والحديث بتمامه كما رواه مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ قالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قالَ: لا، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فقال: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ).
انظر: أبا داود، سليمان بن الأشعث، السنن، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، ح ٢٠٥٠. والنسائي، السنن، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، ح ٣٢٢٧

شيء يطرق سمعه هو اسم الله تعالى، وتكون الدّعوة إلى الله وعبادته سابقة دعوة الشيطان وطاعته.

ودليل ذلك ما رواه أَبو رَافِع قَالَ: (**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، حِينَ وَلَدَتْهُ فَاطِمَةُ، بِالصَّلَاةِ**)[(١)].

٢ - **الدّعاء للمولود بالبركة:** ويستحب أن يتولّى ذلك إنسان صالح، فيكون أهل الخير والفضل من النّاس أول من يلقاهم المولود، فتحصل البركة بفضل دعائهم له، وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - يذهبون بأبنائهم إلى النبي ﷺ من أجل أن يسمّيهم، ويدعو لهم، ويحنّكهم[(٢)].

يقول أَبو مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**وُلِدَ لِي غُلَامٌ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ وَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ**)[(٣)].

٣ - **عمل عقيقة عن المولود:** والعقيقة، هي الذّبح عن المولود في اليوم السابع من ولادته كما سيأتي.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
انظر: أبا داود، السنن: كتاب الأدب، باب الصبي يولد فيؤذن في أذنه، ح ٥١٠٥، والترمذي، الجامع: كتاب الأضاحي، باب الأذان في أذن المولود، ح ١٥١٤.

(٢) التحنيك: هو وضع مادة حلوة من تمر ونحوه في حنك المولود عند ولادته، وهو سنة من سنن النبي ﷺ، وله فوائد صحيّة جمّة، منها منع الاصفرار، وتهيئة فمّ الصبي للرضاعة، وتنشيط الجهاز الهضمي وتهيئته ليقوم بأثره في امتصاص الغذاء بشكل كامل.

(٣) البخاري، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه، ح ٥٤٦٧، ومسلم، كتاب الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، ح ٢١٤٥.

٤ - **تسمية المولود باسم حسن**: من حقّ المولود على والديه تسميته باسم حسن، ذلكَ أنّ انتقاء الاسم الحسن ممّا حثّ النبي ﷺ عليه، ورغّب فيه، وذلك لأثره الإيجابي على صاحبه، وقد ورد في ذلك مجموعة من الأحاديث، منها:

أ - قوله ﷺ: **«إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ»**[(١)].

ب - وقوله ﷺ: **«إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ، عَبْدُاللهِ وعَبْدُالرَّحْمٰنِ»**[(٢)].

٥ - **حلق الشعر**: ورد في الأحاديث الشريفة أنّ المولود يحلق شعر رأسه، ويُتصدّق بمقدار وزنه فضّة، ودليل ذلك قوله ﷺ: **«الْغُلَامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ، يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ، وَيُسَمَّى، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ»**[(٣)]. فالحديث نصّ على أنّ الحلق يكون في اليوم السّابع، مع ذبح العقيقة، والتسمية.

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره عن أبي الدّرداء رضي الله عنه، وإسناده جيّد كما قال النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٤٠).
انظر: أبا داود، السنن، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، ح ٤٩٤٨.

(٢) رواه مسلم في الجامع الصّحيح عن ابن عمر: كتاب الآداب، باب النهي عن التكنّي بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، ح ٢١٣٢.

(٣) حديث صحيح أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» انظر: أبا داود، السنن، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، ح ٢٨٣٨، والنسائي، السنن، كتاب العقيقة، باب متى يعق، ح ٤٢٢٠، والترمذي، الجامع، كتاب الأضاحي، باب العقيقة بشاة، ح ١٥١٩، وابن ماجة، السنن، كتاب الذبائح، باب العقيقة، ح ٣١٦٥.

والحكمة من الأحكام التي شرعت للمولود، تعود إلى أمور، أهمها:

أ - التقرّب إلى الله تعالى عند ولادة المولود، والاستشعار بأنّ مجيئه ومولده نعمة من نعم الله تعالى؛ التي تستحق الشكر والحمد.

ب - تقديم الفدية عن المولود، حتى يحميه الله من المصائب والآفات.

جـ - إشعار النّاس من الأهل والأقارب بقيمة هذا المولود، وإعطاؤه قدره من المكانة والاعتبار، حيث لا يأبه كثير من النّاس بالمولود الصغير، ولا يلتفتون إليه بسبب ضعفه وعجزه.

د - ربط المولود الضعيف بالمجتمع وأفراده، وإيجاد صورة من تفاعل المجتمع القريب معه، بالدّعاء له، والإهداء إليه، والسؤال عنه.

هـ - تحقيق بعض الفوائد الصّحيّة؛ في جانب السّمع والبصر والشمّ، بإزالة شعر الرّأس وحلقه[1].

و - إشهار نسب الولد، بالصّدقة والإنفاق، وإظهار الفرح والسّرور.

---

(١) أثر الأسرة في تكوين شخصية الطفل لعبدالله محمود، ص ٣٦.

العقيقة[1] :

رفع الإسلام من مكانة المولود، وجعل له أحكاماً خاصّة به، ومن هذه الأحكام التي تصاحب ولادته، وتكون في أول أيّام مولده «العقيقة».

والعقيقة، هي ذبح الشاة عن المولود في اليوم السّابع من ولادته. وهي سنّة مستحبّة عند جمهور العلماء، وبعضهم جعلها واجبة، وهناك من شذّ فقال بكراهتها.

قال ابن قيّم الجوزية: «فأمّا أهل الحديث قاطبة، وفقهاؤهم، وجمهور أهل العلم، فقالوا: هي من سنّة رسول الله ﷺ»[2].

وممّا ورد في مشروعيّتها:

١ - قول الرّسُولِ ﷺ: «مَعَ الْغُلَامِ عَقِيقَةٌ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَماً وَأَمِيطُوا عَنْهُ

---

(١) العقيقة من العقّ وهو القطع، وأصل الاسم غير مستحب، لأنّ النبي ﷺ لمّا سُئِلَ عن العقيقة قال: (لَا أُحِبُّ الْعُقُوقَ، كَأَنَّهُ كَرِهَ الاسْمَ، وَقَالَ مَنْ وُلِدَ لَهُ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْسُكَ عَنْ وَلَدِهِ فَلْيَفْعَلْ). فالاسم وإن كان غير مستحب، لكن الفعل يبقى سُنّة، وهو من الأعمال المستحبّة التي حثّ الإسلام عليها. وهناك من قال إنّ العقيقة في اللغة هي الشَّعَرَ الذي يكون على رأس الصبي حين يولد، وإنّما سميت الشاة التي تذبح عنه عقيقة، لأنه يحلق عنه الشَّعَر عند الذبح، وهذا من باب تسمية الشيء باسم غيره إذا كان معه أو من سببه، فسمّيت الشاة عقيقة لعقيقة الشعر، وهذا المعنى الأخير أنكره أحمد بن حنبل وقال: لا وجه له. ثمّ إنّ الاختلاف وقع في جواز استخدام هذا الاسم وعدمه، فهناك من كره إطلاق العقيقة على الذبيحة، وقال تسمّى نسيكة، وهناك من قال بإباحته لاستخدام النبي ﷺ له في أحاديثه.

انظر تفصيل ذلك في كتاب تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيّم الجوزية، ص ٤٦ - ٥٠، ص ٥٣.

الأَذَى»[١].

٢ - وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: **(أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَقَّ عَنْ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ كَبْشاً كَبْشاً)**[٢].

وجمهور العلماء على أنّه يعقّ عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاةً واحدة، ودليلهم في ذلك أحاديث منها:

١ - حَديثُ عَائِشَةَ: **(أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَهُمْ عَنْ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ، وَعَنْ الْجَارِيَةِ شَاةٌ)**[٣].

٢ - وَمَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ كُرْزٍ، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الْعَقِيقَةِ؟ فَقَالَ: **«عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ، وَعَنِ الأُنْثَى وَاحِدَةٌ، وَلَا يَضُرُّكُمْ ذُكْرَاناً كُنَّ أَمْ إِنَاثاً»**[٤].

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، ص ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب العقيقة، باب إماطة الأذى عن الصبيّ في العقيقة، ح ٥٤٧٢.

(٣) إسناد صحيح أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما.
انظر: أبا داود، السنن، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، ح ٢٨٤١، والنسائي، السنن، كتاب العقيقة، باب كم يعق، ح ٤٢١٩.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: «حديث عائشة حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ».
انظر: الترمذي، الحامع، كتاب الأضاحي عن رسول الله ﷺ، باب ما حاء في العقيقة، ح ١٥١٣، وابن ماجه، السنن، كتاب الذبائح، باب العقيقة، ح ٣١٦٢.

(٥) أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
انظر. أبا داود، السنن، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، ح ٢٨٣٤ - ٢٨٣٦، الترمدي، الجامع، كتاب الأضاحي عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في العقيقة، ح ١٥١٦، والنسائي، السنن، كتاب العقيقة، باب العقيقة، ح ٤٢١٦، باب كم يعق، ح ٤٢١٨، وابن ماحة، السنن، كتاب الذبائح، باب العقيقة، ح ٣١٦٣.

قال ابن حجر: «وهذه الأحاديث حجة للجمهور في التفرقة بين الغلام والجارية، وعن مالك هما سواء فيعق عن كل واحد منهما شاة»[(١)].

وهناك أحكام تخص العقيقة نجملها بالآتي[(٢)]:

١ - استحباب توزيعها لحماً مطبوخاً وليس نيّئاً، لأن في الطبخ كفاية المساكين والجيران مؤنة الطبخ، وهو زيادة في الإحسان وشكر النعمة.

٢ - يكره تكسير عظامها وتقطيعها، فيقطع كل عظم من مفصله من غير كسر للعظم.

٣ - أجمع العلماء على أنّه لا يجوز في العقيقة إلّا ما يجوز في الضحايا من الأزواج الثمانية، وهناك من شذّ ممّن لا يعدّ قوله خلافاً بين العلماء.

٤ - يشترط في العقيقة ما يشترط في الأضحية، بأن تكون سليمة، ليس بعوراء، ولا عجفاء، ولا مكسورة، ولا مريضة، ولا يباع شيء من لحمها، كما لا يباع جلدها.

٥ - يأكل أهلها منها، ويتصدّقون على الفقراء، ويهدون للأقارب والأصدقاء.

٦ - يستحب لمن لم يُعَقُّ عنه صغيراً، أن يَعُقَّ عن نفسه كبيراً.

(١) فتح الباري، ٩/٥٩٢.

(٢) انظر في ذلك كتاب تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيّم الجوزية، ص ٧٥ - ٩٦.

٧ - يكره أن تكون أجرة الجزّار أو الطبّاخ شيئاً منها، أو جزءاً من لحمها.

٨ - عند الذّبح ينوي ولي الأمر العقيقة، ويقول: «بسم الله، اللّهُمَّ لك وإليك، هذه عقيقة فلان».

الختـــان:

ميَّز الإسلام أتباعه عن غيرهم بشعائر خصّهم بها، وأمرهم بالتزامها، ومن هذه الشعائر الختان الذي يفرق فيه بين المسلم وغيره، وهو سنة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي اختتن وهو كبير، والذي بيَّن الله تعالى ارتباط محمّد ﷺ وأمّته به، فقال: ﴿... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ...﴾[١].

والخِتَان بكسر الخاء: مصدر خَتَنَ أي قطع، والخَتْنُ: قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص[٢].

والدّليل على مشروعيّة الختان، قول النبي ﷺ: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الآبَاطِ**»[٣].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٠/ ٣٤٠.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. =

وقد اختلف العلماء في حكم الختان، فقال مالك والشافعي وأحمد وغيرهم: هو واجب، وقال الحسن البصري وأبو حنيفة: لا يجب بل هو سنّة[(١)].

قال الخطّابي: «أمّا الختان، فإنّه وإن كان مذكوراً في جملة السنن، فإنّه عند كثير من العلماء على الوجوب، وذلك أنّه شعار الدّآين، وبه يعرف المسلم من الكافر، وإذا وجد المختون بين جماعة قتلى غير مختونين، صُلي عليه، ودفن في مقابر المسلمين»[(٢)].

وقد اختلف العلماء في الوقت الذي يشرع فيه الختان، فمنهم من استحب أن يكون في اليوم السابع، ومنهم من كره ذلك، وبين الماوردي أنّ للختان وقتين: وقت وجوب ووقت استحباب، فوقت الوجوب البلوغ، ووقت الاستحباب قبله، والاختيار في اليوم السابع من بعد الولادة[(٣)].

وذهب بعض العلماء إلى مشروعية الدعوة إلى الطعام عند

= انظر: البخاري، كتاب اللباس، باب قص الشارب، ح ٥٨٨٩، وباب تقليم الأظفار، ح ٥٨٩١، وكتاب الاستئذان، باب الختان بعد الكبر ونتف الإبط، ح ٦٢٩٧، ومسلم، كتاب الطّهارة، باب خصال الفطرة، ح ٢٥٧.

(١) تحفة المودود، ص ١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب تحفة المودود لابن قيّم الجوزيّة ص ١٨٣ - ١٨٥، وكتاب فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١٠/٣٤٢ - ٣٤٣.

الختان[١]، وهذا الطعام يطلق عليه أهل اللغة اسم **الإعذار**[٢]، وهو مناسبة للالتقاء والاجتماع، الذي حرص الإسلام عليه، وجعل له أسباباً متعدّدة، ومنها الختان.

ختمة القرآن الكريم:

القرآن الكريم كلام الله تعالى، الذي يجب على المسلم أن يعظّمه، وأن يعطيه حقّه من التدبّر والفهم عند قراءته، ومن ثمّ عليه أن يقوم بتطبيق أحكامه، والعمل بأوامره، والوقوف عند حدوده ونواهيه، وقد نصّ العلماء على مجموعة من الآداب؛ التي يجب على المسلم أن يتحلّى بها عند قراءته لسور القرآن وآياته، وبعض هذه الآداب تخصّ ختمته، ومنها[٣]:

١ - أن يعود المنتهي من ختم القرآن إلى أوله، فيقرأ أشياء منه.

٢ - أن يحضر أهله وولده عند الختم، ويدعو بحضورهم.

٣ - عليه أن يتحرى وقت الختم، فيجعله في أول النهار أو أول الليل، من أجل أن يحوز فضل صلاة الملائكة عليه.

٤ - يستحب أن يقوم بالتكبير قبل الدعاء.

٥ - الدعاء بما يريد من أمر الدين والدنيا، لأنّ الدّعاء مستجاب عند الختم.

---

(١) فتح الباري لابن حجر، ١٠/٣٤٣.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر، جـ ١٠، ص ١٨٢.

(٣) انظر. شعب الإيمان للبيهقي، باب في تعظيم القرآن، ٢/٣١٩ ٣٢١، وتفسير القرطبي، ١/ ٣٠، وفتح الباري لابن حجر، ١١/١٦٩، والمغني لابن قدامة، ١/ ٤٥٨.

٦ - إحضار أهل الخير والصلاح لحضور الختم والدّعاء.

٧ - الصلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ عند ختم القرآن.

ومِمّا يؤيد بعض ما تقدّم؛ ما ورد عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه-: (**أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَشْفَى**[١] **عَلَى خَتْمِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ؛ بلَقَّى مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى يُصْبِحَ، فَيَجْمَعَ أَهْلَهُ فَيَخْتِمَهُ مَعَهُمْ**)[٢].

وقالَ ثَابِت بن أسلم البُناني: (**كَانَ أَنَسٌ إِذَا خَتَمَ الْقُرْآنَ؛ جَمَعَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، فَدَعَا لَهُمْ**)[٣].

وقالَ مجاهد بن جبر: (**بُعِثَ إِلَيَّ قَالَ: إِنَّمَا دَعَوْنَاكَ أَنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْتِمَ الْقُرْآنَ، وَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ الدُّعَاءَ يُسْتَجَابُ عِنْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ، قَالَ: فَدَعَوْا بِدَعَوَاتٍ**)[٤].

وقالَ سَعْدِ بن أَبي وقاص: (**إِذَا وَافَقَ خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإِنْ وَافَقَ خَتْمُهُ آخِرَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ**

---

(١) أشفى: قارب وأشرف.

(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، ح ٣٤٧٣.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والدّارمي، والطبراني.
انظر سنن سعيد بن منصور، باب فضائل القرآن، ح ٢٧، ١/ ١٤٠، ومصنف ابن أبي شيبة، ح ٣٠٠٣٨، ٦/ ١٢٨، وسنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، ح ٣٤٧٤، والمعجم الكبير للطبراني، ح ٦٧٤، ١/ ٢٤٢، وقال البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٨): «وهذا هو الصّحيح موقوف، وقد روي من وجه آخر عن قتادة عن أنس مرفوعاً، وليس بشيء»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٢): «رواه الطبراني ورجاله ثقات».

(٤) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، ح ٣٤٧٥.

الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ، فَرُبَّمَا بَقِيَ عَلَى أَحَدِنَا الشَّيْءُ فَيُؤَخِّرَهُ حَتَّى يُمْسِيَ أَوْ يُصْبِحَ)(١).

واستحسن بعضهم التكبير عند آخر كل سورة؛ من الضحى إلى آخر القرآن، اعتماداً على أنّ أُبيّ بن كعب قرأ على النبي ﷺ، فأمره بذلك(٢)، وهناك من أشار إلى عمل وليمة تصنع عند ختم القرآن تسمّى بـ (**الحِذاقِ**)(٣).

الوفـــاة:

خلق الله تعالى الإنسان، وجعله ينطلق في رحلة طويلة تنتهي به إلى الجنّة أو النّار، وقدّر أن يكون وجوده على الأرض جزءاً من هذه الرّحلة، ومرحلة من مراحلها تختص بابتلائه وامتحانه، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(٤). فالله تعالى جعل بداية الحياة الدّنيوية التخليق في الرحم ثمّ المولد، وجعل نهايتها الوفاة، التي تعقبها حياة أخروية هي حياة القبر.

وكما كرّم الله تعالى الإنسان حيّاً كرّمه ميتاً، فجعل له حرمة عند

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه وقال: «هذا حسن عن سعد». انظر: سنن الدّارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، ح ٣٤٧٦.

(٢) المغني لابن قدامة، ٤٥٨/١.

(٣) فتح الباري لابن حجر، ٢٤١/٩، ونيل الأوطار ٣٣٥/٦.

(٤) سورة الملك، الآية: ٢.

موته لا يجوز التعدّي عليها، وجعل له أحكاماً لا يجوز تجاوزها. وإذا ما نظرنا إلى هذه الأحكام، فإنّنا نجد التكريم له، ونلحظ العناية به حال موته، كما أنّنا نجد العناية بأسرته وبمن تركهم من أهله، عن طريق ربطهم بالمحيط الذي يعيشون فيه وبالجماعة التي يحيون بينها، وذلك من أجل تسليتهم، وتثبيتهم، والدّعاء لميّتهم، وعونهم بما يلزم لاستمرار حياتهم واستقرارها.

ومن أهم الأحكام الخاصة بالميت التي تبرز المعاني السابقة، الآتي:

١ - **نعيه**، وهذا النعي يقصد منه الإعلام، من أجل القيام بحقوق الميّت، والاجتماع له بقصد الصلاة عليه، وتشييعه، والتعزية فيه، وقد ورد أنّ النّبي ﷺ نعى جعفراً وزيداً عند مقتلهما[١]، كما أنّه نعى النجاشي عند موته وصلّى عليه هو والمسلمون، وطلب منهم أن يستغفروا له[٢].

٢ - **غسله وتكفينه**: والغسل والتكفين من الشعائر التي تبرز تكريم الإسلام للميت، وتظهر عنايته به بعد انتهاء حياته الدّنيوية، وتبيّن التواصل الحاصل بين حياة الأرض وحياة البرزخ.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح ٣٦٣٠، وباب مناقب خالد بن الوليد، ح ٣٧٥٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الرّجل ينعى إلى أهل الميّت بنفسه، ح ١٢٤٥، وباب الصفوف على الجنازة، ح ١٣١٨، وباب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد، ح ١٣٢٨، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة، ح ٩٥١.

٣ - **الصلاة عليه**: والصلاة على الميّت؛ تبيّن أنّ الإسلام لم يقطع الصلة بين المتوفى وبين المسلمين، وأنّه عمل على دوامها بعد انقضاء حياته، ويؤكد هذا المعنى؛ الأجر العظيم الذي رتبه الإسلام لمن حضر الميّت وصلّى عليه، والذي بيَّنه النّبي ﷺ بقوله: **«مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ؛ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ. وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ»**[١].

٤ - **تشييعه**: تشييع الميّت من صور الروابط الاجتماعيّة التي أمر الإسلام بها وشجّعه عليها، ورتب لها أجراً كبيراً، وذلك لأنّ في التشييع تكريم للميّت بإظهار منزلته، وتأنيس لأهله الذين فقدوه، وتخفيف عنهم في مصيبتهم التي حلقت بهم، وذلك بمرافقتهم في التشييع، ومصاحبتهم حال العودة، وعدم تركهم لوحدهم بعد فقدهم لقريبهم. ولهذا كان قول النّبي ﷺ: **«مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ»**[٢]، والقيراط مثل جبل أُحُد.

ومن صور التكافل الاجتماعي عند الموت، إهداء الطعام إلى أهل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان، ح ٤٧، وكتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن، ح ١٣٢٥، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، ح ٩٤٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل اتباع الجنائز، ح ١٣٢٤، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، ح ٩٤٦.

الميت، الذين يشغلهم أمر ميّتهم عن صنع الطّعام وتهيئته، والذين تمنعهم مصيبتهم عن الرغبة في الأكل والشرب، فيكون إهداء الطعام نوعاً من مساعدتهم. وصورة من صور تسليتهم، وسبباً في ترغيبهم في الأكل والشرب، حتّى لا تكون مصيبتهم سبباً في تعبهم وعنتهم. وقد ورد أن النّبي ﷺ أمر بأن يصنع لأهل جعفر طعاماً عند مقتله، فقال: «**اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ**»[1].



(١) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب صنعة الطّعام لأهل الميّت، ح ٣١٣٢، وسنن ابن ماجة، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في الطّعام يبعث لأهل الميّت، ح ١٦١٠.

الفصل الثاني
التطور التاريخي لأنماط الأسرة

- الأنماط الحادثة للأسرة مع تغير الدور في القرن الماضي.

الأنماط الحادثة للأسرة
مع تغير الدور في القرن الماضي

للأسرة دور فعال ومؤثر ليس فقط في المجتمعات الإسلامية وإنما على مستوى جميع المجتمعات الإنسانية، حيث تؤدي دورا مهماً لا لكونها اللبنة الأساسية في البناء الاجتماعي فقط، بل من حيث هي مؤسسة لها وظائف وأدوار في الحياة المجتمعية فهي أيضاً مؤسسة التنشئة الاجتماعية الأولى للفرد، وهي مصدر الدعم الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لجميع أطرافها، ولذلك نرى أن الدين الإسلامي حث على أهمية تأسيس أسرة صالحة تكون أساسا لإستمرارية المجتمع، ويسود بين أفرادها الحب والصلاح. اقرأ قول الله سبحانه وتعالى على سبيل المثال لا الحصر في الآيات التالية: -

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . .﴾ [الأعراف: ١٨٩].

في هذه الآيات الكريمة تأكيد على المودة والرحمة بين الزوجين، وهذه إحدى الوظائف التي مِنْ أجلها يتم تأسيس الأسرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

هذا بالإضافة إلى قائمة طويلة من الأحاديث والمواقف التي حث عليها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي تؤكد أهمية تأسيس أسرة صالحة، بالإضافة إلى توضيح الأسس السليمة للعلاقة بين الزوجين وعلاقتهما بالأبناء إذن الأسرة مؤسسة اجتماعية لم يستثنها الدين الإسلامي من وضع الضوابط والقوانين لها.

أولًا: الأنماط الأسرية:

وطالما أن الأسرة مؤسسة اجتماعية فهي تتأثر بالتغيرات التي يمر بها المجتمع، تتأثر كذلك بالمؤثرات الخاصة التي تؤثر في البناء الاجتماعي بشكل عام، ولا شك أن المجتمعات العالمية تمر بمرحلة تغير تختلف من مجتمع إلى آخر، حيث إن الأسرة يُشكِّلها المجتمع وظواهره، وأبنيته وقيمه المختلفة، فالأسرة في المجتمع التقليدي تختلف في بنائها وأنشطتها عن الأسرة في المجتمع الصناعي، وقد تأخذ الأسرة أشكالا عديدة حتى في المجتمع الواحد، وهذا أمر طبيعي، فالأسرة في المجتمع الريفي أو المجتمع البدوي تختلف عن الأسرة في المجتمع المتحضر.

وعلى الرغم من تعدد أشكال الأسرة على امتداد المجتمع

الإسلامي، فإنه توجد أشكال أسرية علمية يمكن الاتفاق على أشكالها وأنماطها وهي كالتالي:-

أ - الأسرة الممتدة:

وهي الأسرة التي تنتشر في المجتمعات التقليدية وتحمل صفاتها، حيث تكثر في المجتمع الريفي والمجتمع القبلي أو البدوي والمجتمعات الأقل تأثرا بالتغير الاجتماعي، وتتصف هذه الأسرة بكبر حجمها (حيث عدد أفرادها كبير) بالإضافة إلى كبر حجم بنائها حيث تتكون من عدة أسر صغيرة تكون بين أفرادها علاقات اجتماعية قوية ومتماسكة، فضلا عن العلاقات الاقتصادية حيث يشترك أفرادها في أنشطتهم الاقتصادية ويتعاونون اقتصاديا، وتعد الأسرة الممتدة مؤسسة اجتماعية كبيرة تقوم بأدوار وواجبات متعددة أهمها الدور التربوي، فهي تقوم بتربية الأبناء وتكسبهم الخبرات وتنقل لهم تراث المجتمع وقيمه وعاداته.

وعادة ما تكون السلطة في الأسرة الممتدة في يد كبير السن من الذكور، إذا هو الذي يتخذ القرارات الأساسية التي تهم الأسرة مثل الزواج والطلاق، حيث إن الاختيار الزواجي ينبع من القرارات التي يتخذها كبار السن ويعتمد الاختيار الزواجي على أساس اجتماعي، إذا يعد مقياس المستوى الاجتماعي الاقتصادي والأصل الاجتماعي - في هذا النوع من الزواج هو الذي يحدد من يتزوج ومتى يتزوج الابن (الاعتبار الشخصي والزمني) ويفرض هذا النوع من الزواج

خصوصاً على الإناث، وتوجد بعض الفئات الاجتماعية التي تمارس ذلك حتى اليوم، وهذا يتعارض مع أحكام الدين الإسلامي الحنيف، فلابد من ذلك فهناك كثير من المتزوجين قبلوا بذلك استجابة لرغبة الأبوين. ونجحت تلك الزيجات وحققت التوافق بصورة مثالية. وأما من الناحية الاقتصادية فإن الأسرة الممتدة تتكون من مجموعة من الأسر الصغيرة التي تشترك في المسكن حيث تعيش تحت سقف واحد مما يخفف أعباء الحياة الاقتصادية.

ومن وظائف الأسرة التقليدية أيضاً حماية أفرادها الجسدية ورعايتهم، كما أن هذا النوع من الأسرة يعد مؤسسة ترفيهية ومؤسسة إنجاب، حيث تنجب في إطارها الأبناء وهو ما يساعد على استمرارية المجتمع.

ب - الأسرة النواة:

تنتشر هذه الأسرة في المجتمعات التي تأثرت بالتغير الاجتماعي والذي أصاب جميع ظواهر البناء الاجتماعي ومؤسساته بشكل عام مثل المجتمعات الصناعية والمجتمعات التي تأثرت بالتحديث والتحضر، وتتسم هذه الأسرة بصغر حجم بنائها، حيث تتكون من الزوج والزوجة وأبنائهما، وتتصف بصغر حجمها، وعادة ما يكون عدد الأبناء فيها صغيراً حيث لا يتعدى اثنان في أغلب الأحيان. وما تزال الأسرة النواة تقوم ببعض الواجبات التقليدية، فما زالت تقوم بالدور التربوي ولكن لفترة محدودة من عمر أبنائها، حيث

تتعهده مؤسسات تربوية تقوم بوظيفة التربية وأهمها المدارس، ثم النوادي ووسائل الإعلام والجمعيات، وتوجد وظيفة تقليدية استمرت مع الأسرة الحديثة وهي وظيفة الإنجاب، حيث لا تزال تقوم بدور في الإنجاب مما يضمن استمرارية المجتمع، أما فيما يتعلق بالوظائف الأخرى فتوجد مؤسسات متعددة مثل الجيش والشرطة، والدور الترفيهي تقوم به مؤسسات ترفيهية مثل مراكز الألعاب والإعلام وغيرها. وعادة ما تكون السلطة - في الأسرة النواة - بيد الزوجين وليس أحدهما حيث تتصف العلاقات داخلها بالديمقراطية في المشاركة في القرارات الكبيرة التي تهم الأسرة وأفرادها، مثل قرارات الزواج والطلاق ومستقبل الأبناء.

أما فيما يتعلق بقرار الزواج فينبع من الفرد حيث هو الذي يحدد من سيتزوج ومتى سيتزوج، وتكون أسس الاختيار الزواجي على مواصفات جسمية وبيولوجية مثل الطول واللون وملامح الوجه وهكذا، وهذا النوع من الزواج يعتمد اعتماداً كلياً على المشاعر والعواطف والميول، حيث إن الذكور والإناث تتاح لهم حرية اختيار أزواج المستقبل في المجتمعات التي ينتشر بها هذا النوع من الأسر.

جـ - الأسرة المتغيرة:

وهي الأسرة التي تسود في المجتمعات الانتقالية (التي تنتقل من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث)، ومنها كثير من المجتمعات

الإسلامية التي بدأت تنتقل من التقليدية إلى الحداثة متأثرة بعوامل التغير الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ويمتد هذا الأثر إلى جميع أقسام البناء الاجتماعي ومنها الأسرة، ومن هذا المنطلق يتكون لدينا في هذا النوع من المجتمعات أسرة انتقالية والتي تنتقل من أسرة تقليدية ممتدة إلى أسرة حديثة ونواة.

وتتصف هذه الأسرة بأن بناءها قد يكون بناء الأسرة النواة إلا أن سلوكياتها ونمط الحياة فيها ممتد، بمعنى أنها أسرة صغيرة البناء إلا أنها تعيش بالقرب من الأسرة الكبيرة، وقد تكون الأخوية في نفس المنزل أو في نفس الحي، وقد تستفيد من الخدمات التي تقدمها الأسرة الممتدة وتعتمد عليها اقتصاديا واجتماعيا وحتى نفسيا، حيث إن الأسرة الممتدة تقدم استشارات مجانية لأبنائها المتزوجين حتى تعينهم على حياتهم. هذا النوع من الأسر ما زال يعتمد على الأسرة الكبيرة في الاختيار الزواجي. (الناصر، ١٩٩٧: ١٤٠)

وهكذا نجد أن النمط التقليدي والنمط الحديث يتجسدان جنباً إلى جنب في عناصر ومكونات الأسرة المتغيرة.

ثانيا: تقلص وظائف الأسرة:

كان لابد للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي اجتاحت العالم أن تؤكد دورها وتأثيرها على الأسرة بوصفها مؤسسة اجتماعية، سواء كان ذلك من حيث البنية أم الوظيفة، فقد

أدي تعقد البنية الاجتماعية إلى زحزحة نمط الأسرة الممتدة Extended Family عن مكان الصدارة لصالح الأسرة النووية Nuclear Family، كما زاحمت كثير من المؤسسات والمنظمات الاجتماعية الأسرة في كثير من وظائفها مما أدى ببعض علماء الاجتماع إلى الاعتقاد بتقلص دور الأسرة في المجتمع، وقد شكلت هذه القضية مجالا لتباين وجهات النظر بينهم على اختلاف انتماءاتهم ومدارسهم العلمية، فوظائف الأسرة يمكن تصنيفها إلى نوعين أساسيّين.

الأول: وظائف مادية فيزيقية وتشمل، وظيفة الإنجاب والوظيفة الاقتصادية ووظيفة الحماية بتنوعاتها المختلفة مثل الحماية الجسدية وحماية الحريات والوقاية الصحية.

الثاني: وظائف ثقافية وعاطفية واجتماعية (حيث تنقل ثقافة المجتمع للفرد وتشبع حاجات الفرد الاجتماعية والعاطفية)[1]: وإذا كانت الأسرة الممتدة والأسرة الريفية قد تكفلت بالقيام بكلا النوعين من الوظائف فقد حدثت تغيرات تحولت إثرها المجتمعات من البنية البسيطة إلى البنية المعقدة. ويمكن أن نرصد أهمها فيما يلي:

١ - تحول الأسرة من وحدة منتجة إلى وحدة مستهلكة مما أدى إلى تقلص الوظيفة الاقتصادية.

٢ - انتقال وظائف الحماية الجسدية وحماية الحريات والوقاية الصحية

(١) عليا شكري. الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٣٩.

إلى مؤسسات وهيئات أخرى كأجهزة الشرطة والمؤسسات القضائية والصحية وغيرها.

٣ - انتقال وظيفة التعليم والتربية والتنشئة المهنية والاجتماعية في جميع المجالات (بدءا من الرياضيات والفيزياء إلى السيارات) إلى هيئات ومؤسسات أخرى كالمدارس ووسائل الإعلام وجمعيات النفع العام ومراكز العناية اليومية.

ونتيجة لهذه التغيرات المتلاحقة التي طرأت على الأسرة فإن بعض الباحثين مثل سوروكين يرى أن الأسرة ستؤول في نهاية الأمر إلى أن تكون مجرد مكان لممارسة العلاقات الجنسية[١]، بل إن الأسرة قد زوحمت حتى في أخص وظائفها وهو الإنجاب بما يطرأ من سياسات تنظيم النسل والإجهاض القانوني الذي تبيحه بعض المجتمعات.

ولم تكن الأسرة دائما محل الرضا من حيث أدائها للوظائف التي ارتبطت بها، فلقد رأى أنصار الحركة النسائية Feminists أن الأسرة مؤسسة غير متكافئة من حيث توزيع الدخل والقيام بالخدمات والإفادة منها، كذلك رأي أنصار مدرسة فرانكفورت أن الأسرة ليست هي الملاذ المريح على النحو الذي تُصوَّر به أحيانا، ذلك أن الأسرة تنزع في رأيهم إلى إنتاج الشخصيات المتسلطة Authoritarian Personality التي تتجه نحو النمط الفاشي Fascism (موسوعة ميشيل

(١) سناء الخولي: الأسرة والحياة العائلية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٧٧.

مان، مادة Family)، أما الذين تصدوا للإصلاح فقد رأى بعض كبارهم مثل ماوتسي تونج[1] أن إضعاف كيان الأسرة الكبيرة القديمة هو أمر في صالح عملية التنمية الاقتصادية، وقد صاغت تلك الاتجاهات عديدا من الإجراءات والوسائل السياسية والتشريعية لتحقيق هذا الغرض[2].

غير أن ثمة وجهات نظر أخرى ترفض ما ترتب على تقلص وظائف الأسرة من القول بفقدانها للأهمية في المجتمعات البشرية أو التفكك الأسري. فالبعض لم يفسر التغيرات الحثيثة في أنماط الأسرة على أنها انهيار وتفكك، بل على العكس من ذلك تماما فهو يرى أن ما حدث هو «عملية تمايز» لا تؤدي إلى تزايد المؤسسات والوحدات التي تقوم بوظائف محددة، ومعنى هذا أن الوظائف التي كانت تقوم بها وحدة واحدة وهي الأسرة أصبحت الآن تضطلع بها وحدات عديدة متخصصة[3]، وحيث أن هذا التخصص يتيح للأسرة أن تقوم بالوظيفة التي تخصصت فيها على وجهٍ أفضل، ومن ثم فإن التغيرات التي تحدث في الأسرة تنطوي على خسائر.

بالإضافة إلى ذلك فيجب التأكيد على العلاقة بين التخصص

(١) مادتش تونج، قائد الثورة الشيوعية في الصين ومؤسس الصين الشعبية عام ١٩٤٩م.
(٢) عليا شكري – مرجع سابق – ص ٢٤٢.
(٣) سناء الخولي – مرجع سابق – ص ٧٥.

وتقسيم العمل وأثره في المجتمع الحديث من جهة وبين تقلص وظائف الأسرة وأثره في تفككها من جهة أخرى، وكما أن التخصص وتقسيم العمل لم يؤد إلى تفكك المجتمع الحديث فكذلك لا يمكن أن يؤدي تقلص وظائف الأسرة إلى تفككها بل إنه أدى إلى تحول أفرادها إلى شخصيات مستقلة تربط بين أفرادها شبكة من علاقات التآلف الحميمة التي تنهض على أساس الاقتناع والعاطفة وليس المصلحة، كما أنها تخفف كثيراً من حدة ظاهرة «التطفل الأسري» لاعتماد الكسالى وغير الراغبين في العمل على غيرهم من العاملين القادرين من أبناء الأسرة[(١)].

وتحول الأسرة من وحدة منتجة إلى وحدة مستهلكة لا يعني تقلص أهميتها الاقتصادية، ذلك أن الاستهلاك لا يقل أهمية في إدارة عملية الاقتصاد عن الإنتاج، كما أن للأسرة دور في توجيه الصناعات الاستهلاكية، وفي تحفيز المنافسة في السوق، ومن ثم كان لهذه التغيرات من الإيجابيات ما يتجاوز سلبياتها.

ويبقى لنا بعد ذلك كله أن نقول بأن دور الأسرة لا يزال فاعلا وحاسماً في عملية التنشئة الاجتماعية، والتربية، والعمل على نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل لتحقيق التواصل بين الأجيال، والمشاركة الفعالة في عملية التعليم عن طريق الإشراف والرعاية والتوجيه.

---

(١) عليا شكري - مرجع سابق - ص ٢٤٠ - ٢٤٢.

ويلخص روبرت ماكيفر حاصل هذه النتائج بقوله؟:

« لما فقدت الأسرة وظيفة بعد أخرى عثرت في النهاية على وظيفتها الحقيقية، فقد أصبحت رابطة بسيطة، تزكيها عطفة خالصة نقية تبدأ في حب الوالدين والأطفال، ولا يمكن أن تجد العواطف تعبيرا حرا عنها إلا في ظل هذه الأسرة الموحدة، وكلما نما المجتمع المحلي، اتجهت الأسرة إلى اتخاذ هذا الشكل الموحد[١].

* * *

(١) عليا شكري - مرجع سابق - ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

الفصل الثالث

التطور التاريخي لسكن الأسرة

١ - طبيعة سكن الأسرة.

٢ - التغير التاريخي للسكن الأسري.

طبيعة سكن الأسرة

١-تعريف سكن الأسرة:

أ - لغوياً:

فى القاموس المحيط: سكن سكوناً: أقر، وسكن داره وأسكنها غيره.

والاسم: السكن والسكنى، والمسكن: كافة المنزل

والسكن: أهل الدار، والسكينة: الطمأنينة[١]

وفى لسان العرب:

السكون: ضد الحركة، سكن الشيء، إذا ذهبت حركته وكل ما هدأ فقد سكن وسكن الرجل: سكت.

وسكن بالمكان سكنى وسكوناً: أقام فهو ساكن

والسكن والمسكَن والمسكِن: المنزل والبيت

والسكن: كل ما سكنت إليه وأطمأننت به من أهل وغيره[٢].

(١) القاموس المحيط ج٤ ص٢٣٥.

(٢) لسان العرب

ب - قرآنياً:

وردت اللفظة بمعان كثيرة منها:

*** الإقامة كما في الآيات:**

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾(1).

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾(2).

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(3).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾(4).

*** الميل:**

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾(5)

*** الطمأنينة والرحمة:**

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(6).

*** الطمأنينة والثبات:**

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(7).

(1) إبراهيم آية ٤٥.
(2) الطلاق آية ٦.
(3) الأعراف آية ١٩.
(4) النحل آية ٨٠.
(5) الروم آية ٢١.
(6) التوبة ١٠٣.
(7) الفتح ٢٦.

*** دائم لا يزول:**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[1].

*** ذهاب الحركة:**

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾[2].

٢- المراد من سكن الأسرة:

«المكان الذى يوفر المأوى والأمان والحماية»[3].

«وهو المكان الذي تُقْضَى فيه أوقات حرة، وهو نقطة الخروج لعلاقات واتصالات مع المجتمع المحيط، وهو رمز لما تُوصل إليه أو لما يُرغب فيه من مركز اجتماعي[4]. والمسكن هو مركز أنشطة الأسرة فيه يتعلم الأطفال المهارات الاجتماعية الأساسية مثل طريقة الكلام وأسلوب التعامل مع الآخرين، كما أنهم يتعلمون فيه العادات الصحية المتعلقة بسلامتهم، بالإضافة إلى أن الوجبات الأسرية تعد مصدراً رئيسياً لتغذية أعضاء الأسرة»[5].

هذا ما يراه علم الاجتماع المعاصر، وهي رؤية قاصرة في أغلبها على الناحية المادية. فقبل كل هذا يعتبر سكن الأسرة مركزاً لاتصال

(١) الفرقان ٤٥.

(٢) الشورى ٣٣.

(٣) الموسوعة العربية العالمية ج٢٣ صـ٢٦٣.

(٤) الحاجة إلى المسكن صـ٥.

(٥) الموسوعة العربية العالمية صـ٧٦١.

الأجيال ونقل الخبرات، منه يتلقى الجيل الجديد مُثُلَهُ العليا وقيمه الأخلاقية، ومنه يتدرب على ممارسة ما سيكلف به مستقبلاً كالفرائض الدينية، وما لابد من أن يواجهه كالاندماج في المجتمعات الخارجية والحوار مع الأخرين.

تحقيق المراد من سكن الأسرة:

لابد لتحقيق المراد من سكن الأسرة من مراعاة أبعاد كثيرة للمفهوم المعمارى والإنشائى لهذا السكن. أهمها: البعد النفسي، البعد الاجتماعي، البعد البيئي، البعد الديني.

أ - البعد النفسي:

وهو مجموعة من العوامل النفسية التي تخلق الحاجة إلى سكن الأسرة منها:

*** الحاجة إلى الأمن والحماية:**

الحاجة إلى الأمن الشخصي لكل من في الأسرة يبدو شيئاً معلوماً بالضرورة وكذا الحاجة إلى الحماية، إلا أن الحماية لا تعنى فقط الحماية من الطقس وتقلباته، وإنما تعنى الحماية من الضجيج ومن كل مؤذ، ومن النظرات الغريبة المتطفلة ومن الاعتداء بالسطو.

وهذا أول ما يجب مراعاته في تحديد كيفية بناء سكن الأسرة.

*** الحاجة إلى الاستقرار:**

وهي حاجة فطرية يؤكدها تخلى الأسلاف عن أسلوب التنقل

الذى فرضه الحصول على المعيشة، ووجود سكن للأسرة يشبع حاجة كل من فيها إلى الاستقرار، وهذه الحاجة تخلق نوعاً من الاتصال المكاني، وهو هذه الرابطة الشعورية مع المكان ومجتمع المحيطين التي تجعل الناس وبخاصة كبار السن يرفضون الانتقال ولوكان إلى ما هو أفضل.

*** الحاجة إلى الاستمرار:**

وتتعلق بسعي الإنسان جاهداً للإحساس بذاته رغم كل التغيرات التي تدخل دائرة حياته، ومما يسهل عليه هذا الإحساس أن يرى مسكنه باقياً كما كان دائماً، مكاناً خاصاً موسعاً، يقيه من الضياع وسط صراعات الحياة المختلفة التي تواجهه خارج حدود سكن الأسرة. هذه الحاجة إلى الأمور المعتاد عليها في سكن الأسرة تطابق الحاجة إلى ما سبق ذكره من اتصال مكاني من خلال الاستمرار في محيط المسكن(١).

*** الحاجة إلى الخصوصية:**

وهي لا تنفصل عن حاجة الإنسان إلى الحماية والأمن والاستقرار، فما يشعر المرء بالراحة أن يكون له مكان خاص به يستطيع العودة إليه ويحميه، يهيئه بالشكل الذى يريد.

ويرى البعض أن للخصوصية أشكالًا تنسحب على الحاجة إلى السكن منها:

---

(١) الحاجة إلى المسكن ص ٥٤، ٥٥.

أ - **الوحدة**: وهذا يقتضى أن يكون لكل فرد الحق في مكان يسحب إليه متى أراد أن يكون وحده، والوحدة لا تعنى فقط غياب الآخرين وإنما تعنى أيضاً غياب الضغوط التي تأتى من أشخاص آخرين، هذه الحاجة تتحقق حين يُؤخذ في الاعتبار مساحات غرف المسكن وتقسيمها.

ب - **الألفة والمودة**: ويعنى الانفتاح القلبي بين اثنين أو أكثر.

ج - **بناء حواجز نفسية**: ضد أى قرب غير مرغوب فيه[1].

وسنتحدث عن مبدأ الخصوصية من الزاوية الإسلامية في البعد الديني.

*** الحاجة إلى إثبات الذات:**

وهي مرتبطة بالاحتياجات الأخرى. فالأمن مثلًا يتحقق بوجود جدران أربعة حولنا، لكن إثبات الذات لا يكون إلا بأن يكون لنا جدراننا الأربعة، ومن هنا كان الانتقال إلى أول سكن خاص خطوة حاسمة لتحقيق الاستقلال الشخصى وقد قيل "أرنى كيف تسكن أقل لك من أنت".

ب - البعد الاجتماعي للمفهوم المعماري والإنشائي لسكن الأسرة:

ويعنى الحاجة إلى الاجتماع والانتماء والعلاقات لأن الإنسان

(١) الحاجة إلى المسكن ص ٥٥.

كائن اجتماعي بالفطرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[1].

وهو يطمح أن يُعترف به عضواً في المجتمع أو في كيان اجتماعي وبذلك تكون الرغبة في الانتماء حاجة اجتماعية.

والمسكن وسيلة لتحقيق هذه الحاجة فهو من خلال كونه مركزاً للحياة الشخصية مهيأ للتواصل مع الأخرين.

ويمكن للمسكن أن يظهر المكانة الاجتماعية للأسرة، وهو بذلك يساعد الأسرة التي تريد الشعور بالانتماء إلى مجموعات معينة في المجتمع على إبراز هذا، وقد يؤثر المسكن بإنشاءاته الخارجية والداخلية على النجاح في دائرة العمل[2].

ج - البعد البيئي:

للبيئة تأثير مهم على المساكن التي يبنيها الناس، فالطريقة التي توفر الحماية لسكان المناطق الحارة غير تلك التي توفرها لسكان المناطق الباردة، فمثلاً كانت المساكن التقليدية لشعوب الأسكيمو في القطب الشمالى تُشَيّد من كتل ثلجية وتعرف بالأكواخ القبية التي شكلت دائما عازلا جيدا ضد درجة الحرارة المنخفضة في الخارج، كما كانت البيئة الزلزالية في اليابان إلى وقت قريب سبباً في

(١) الحجرات ١٣.

(٢) الحاجة إلى المسكن ٥٦.

استخدام مواد يسهل بعد الانهيار تعويضها، وكذلك في جنوب شرق آسيا حيث ترفع المساكن على ركائز عالية في الأماكن المهددة بالفياضانات أو غزو الحشرات.

د - البعد الديني للمفهوم المعماري والإنشائي لسكن الأسرة:

كان لهذا البعد أثره الكبير في عمارة «سكن الأسرة» وإنشاءاته في العصور الإسلامية، وفي الآثار المعمارية الإسلامية في مصر مثل واضح. لقد كان المعمار في مصر المملوكية والعثمانية حريصاً على توفير الخصوصية في المنازل الإسلامية بطرق شتى: منها الفصل الرأسي بين مواقع الخدمات والمخازن وبين أجنحة المعيشة، وكذلك الفصل الأفقي بين أجنحة المعيشة الخاصة بأهل المنزل وتلك الخاصة بإقامة الضيوف «ولكل منهما سُلَّمه» وفي بعض المنازل زودت كل من القاعات بمرافقها وملحقاتها لتوفير الاستقلالية لكل قاعة.

ومنها: وجود فناءين في بعض المنازل ويهدف الثاني منها إلى أن يكون رئة ومتنفساً لأهل المنزل يتحركون فيه بحرية دون أن يجرحهم ضيوف صاحب البيت، وغالباً ما يكون مستقلاً ومتصلاً مباشرة بقسم الحريم بالمنزل، وقد حرص المعمار على توفير الخصوصية وتلافي ضرر الكشف والإضرار بالجار عند توزيع الوحدات على الطوابق كما طبق عدم استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة[1].

(١) فقه العمارة الإسلامية د. خالد عزب منتقى من ص ٨٣، ٨٦.

وفى كتب الحسبة دلالة وإشارة إلى مدى حساسية مسألة الخصوصية بالنسبة للسكان والأهمية البالغة التي يعلقونها على ضرورة الحفاظ على حرمة البيوت وصونها من الاطلاع والكشف، فالنوافذ التي تجرح خصوصية الجيران وارتفاع البناء والفتحات والأسطح ومداخل المنازل، كل هذا يخضع لقوانين الحسبة التي تمنع كل ما من شأنه تعريض خصوصية المنازل للجرح(١)؛ هذا البعد الديني نستطيع أن نراه جزئياً اليوم في بعض أشكال البناء في العالم الإسلامى حيث يخصص لغرف الضيوف أبواب مستقلة، وتلحق بها مرافقها الخاصة لتلافى ضرر الكشف على من بالمنزل.

تطور أنماط الأسرة وأثره في تطور سكن الأسرة:

تطور أنماط الأسرة:

بدأت الأسرة مع أبي البشرية آدم عليه السلام حين قرر الله عز وجل أن يجعله خليفة في الأرض، فخلق له زوجه وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(٢) وقد ربط الله عز وجل تشكيل الأسرة الأولى بالسكن ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾(٣).

---

(١) أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية لصالح بن على الذلول منتقى من ص ٩٠ - ٩٤.

(٢) النساء ١.

(٣) البقرة ٣٥.

ثم كانت المعصية فالتوبة فالهبوط، فتشكيل الجماعات الإنسانية على الأرض من الأسر على اختلاف أنماطها. وأقرب الأنماط إلينا تاريخياً هو ما يسمى بالأسرة الممتدة أو العائلة الكبيرة التي تجتمع فيها أجيال ثلاثة، الأجداد والآباء والأولاد تحت سقف واحد. وحتى الستينات من القرن الماضي كان كثير من الناس حتى في أوروبا يشبون في ظروف هذه العلاقة الأسرية، هذا النمط الواسع الممتد أصبح اليوم - إن وجد - غير مرغوب فيه والشائع اليوم من أنماط الأسر، الأسرة الصغيرة أو ما يسمى بالأسرة النواه التي تتكون من أب وأم وأطفال.

ويشهد العالم غير الإسلامى أنماطاً أخرى للأسر لها أثرها الكبير في تطور السكن، وإن كانت لم تدخل بعد مجتمعاتنا على شكل ظاهرة اجتماعية مثل: الأسرة التي تلتقى في عطلة الأسبوع فقط/ الأسر الأمومية/ الأسر الأبوية/ الأسر ذات الربائب (نتيجة الزواج الثاني لأحد الطرفين أو كليهما)/ العزاب الحياة الجماعية في سكن واحد.

تطور سكن الأسرة بتطور أنماطها:

الأسرة الممتدة تحتاج إلى سكن يحقق حاجات الأجيال الممتدة التي تعيش فيها، ولذلك يكون من السعة والإمكانيات بما يكفي هذه الحاجات، هذا النوع من السكن نجده في ما تبقى من منازل العصور المملوكية والعثمانية في مصر وبلاد الشام، كما نجده في المناطق التي لا تزال تعتمد الأسرة الممتدة شكلًا لوجودها في الجزيرة العربية مثلًا،

إلا أن الشائع اليوم في حياتنا الاجتماعية هو نظام الأسرة النواة أو الصغيرة. وطبيعي أن الأسرة الصغيرة لن تحتاج في سكنها إلى ما تحتاجه الأسرة الممتدة، فضلًا عن أن التغير الذى طرأ على الحياة الحديثة رفع نسبة النساء العاملات خارج البيت إلى درجة يصعب معها إدارة سكن واسع، ولا ننسى العامل الاقتصادي الذى كان ولا يزال له دوره الكبير في اللجوء إلى أنماط السكن الجديدة من وحدات سكنية في مبان (الشقق) أو السكن الصغير (الفيلا الصغيرة) الذى يحقق ما لا تحققه الوحدات السكنية من حاجات السكان، ويرى علماء الاجتماع أن التغير الحاصل في حياة المجتمعات الحديثة «من الطفل في البيت إلى الشاب القاطن وحده إلى إقامة مشتركة دون زواج مع طرف ثان ثم إلى الزواج وتوسيع الوضع العائلى بإضافة أطفال، إلى الطلاق والسكن مع أعضاء قدامى للعائلة إلى التفتيش عن صاحب في السكن ثم إلى المعاش وحيداً أو في سكن مع الغير، كل ذلك يستدعي شروطاً جديدة للسكن».

وظيفة السكن وأثرها في شكله:

سكن الأسرة ضرورة من ضرورات الحياة لأنه الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان ليجد فيه السكينة، والهدوء والحماية من المخاطر طبيعية كانت أم بشرية، وهو البيئة التي يفي فيها الإنسان باحتياجاته الأساسية البيولوجية والاجتماعية. هو منطقة الخصوصية والدرع الساتر للنشاط

الخاص والعلاقات الأسرية الحميمة. هو مكان الراحة والمبيت والإقامة والمرجع للتعارف الاجتماعي والترفيه وتجديد النشاط ومكان الدراسة والتنمية الفكرية والبدنية والعاطفية والخلقية. وهو مؤسسة اجتماعية ثقافية تتيح الفرصة للتعبير الشخصي وتحقيق الذات. هذه الوظائف للسكن التي يلبي احتياجات الساكن تختلف وفقا لهذه الحاجات، فما يحتاجه البدوي غير ما يحتاجه القروي أو المدني أو اللاجئ. وسنفصل هذا فيما يلي.

١ - وظيفة السكن في البادية وأثرها في شكله:

البادية خلاف الحضر وقد وردت بلفظ البدو في القرآن الكريم: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ..﴾[1] والبادية مكان واسع فيه من الماء ما يسمح بوجود مراع تؤمن حياة حيوانات الرعي والرعاة إلا أنها لا تسمح بالاستقرار في مكان واحد بسبب تغير مواطن وجود الماء وبالتالي المراعي، لذا أطلق على سكان البادية: البدو الرحل لما تفرض عليهم حياتهم من تنقل بحثاً عن المرعى والماء. هذا الأسلوب في الحياة مع المناخ السائد في البادية من قيظ شديد نهاراً وبرد قارس ليلا يحدد وظيفة السكن في البادية في: المأوى والحماية، فالبدوي مثله مثل غيره من البشر يحتاج مع أسرته إلى مكان يأوي إليه ويحقق له الحماية، هذا المكان هو خيمة ساكن البادية على اختلاف أحجامها وأشكالها. الخيمة التي تصنع غالبا

(١) يوسف ١٠٠.

من مواد محلية ومن أوبار الجمال وأصواف الأغنام تحمي بأنسجتها الغليظة البدوي من قيظ النهار وبرد الليل، وهي مهيأة لتفتح من الجوانب وقت الحاجة فينتشر فيها الهواء، هذا الشكل من السكن يؤدي ما يؤديه البيت الكامل بغرفه من وظائف وبخاصة إذا كان وسط مضارب القبيلة أو العشيرة، وإن كان من الصعب أن نتصور تحقيقه للخصوصية التي هي أهم حاجات الساكن في غير البادية. والبدو الرحل متنقلون ولا مجال في البادية للاستقرار. و هذا الشكل من السكن يلبي وظيفة السكن في البادية، فالمواد التي تصنع منها الخيام تسمح بسرعة طيها وحملها ثم نشرها في مكان آخر وفق

احتياجات الأسرة:

وقد تحدث عن هذا ابن خلدون في مقدمته فقال : «إن أهل البدو[١] وهم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وإنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن .... يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر .... إنما هو قصد الاستظلال و«الكن»[٢] لا ما وراءه وقد يؤون إلى الغيران[٣] والكهوف ... وهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه[٤] لحيواناتهم. والتقلب في الأرض أصلح لهم»[٥].

(١) يعني بالبدو البادية.

(٢) الكن : كل ما يرد الحر والبرد من الأبنية وما يماثلها.

(٣) لغيران : مفردها الغور وهو في البناء مثل البيت الصغير المنقور في الجبل.

(٤) المسارح : مفردها مسرح وهو مرعى السرح والسرح الماشية.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص١٢١.

٢ - وظيفة السكن في القرية وأثرها في شكله:

القرية : المصر الجامع[١] و في التنزيل العزيز : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾[٢] والقرية كل مكان اتصلت فيه الأبنية واتُخذ قرارا[٣]. هذا التعريف المعجمي للقرية يوضح أمرين : أولهما: أن سكن القرية أبنية وثانيهما: أن سكان القرية مستقرون. فما وظيفة السكن في القرية ليأخذ هذا الشكل الثابت المستقر ؟

وظيفة السكن في القرية تلبية حاجات السكان من مأوى وأمن وحماية وخصوصية واستقرار واستمرار واجتماع وانتماء. وساكن القرية أو ما نسميه الفلاح مرتبط بالأرض في وجوده كاملا تتبادل معه العطاء والأخذ، وحتى يتحقق هذا الوجود لابد من مكان يؤيه، يهبه الأمان ويحميه وأسرته وإنتاجه، يحقق فيه ذاته ويمارس خصوصيته ويستقر فيه وأسرته الممتدة، مكان يعطيه الإحساس بالاستمرار حين يعود إليه ويشعره بالانتماء العضوي إلى المجتمع من حوله حين يخرج منه. ولعل أهم حاجات الفلاّح وأسرته: الحاجة إلى الأمن والانتماء مما فرض للسكن شكلا ملائما لعمل الفلاح وأسرته فالسكن بسيط مبني من الطين والطمي وأحيانا من الطوب المصنع محليا. قد لا يكون واسعا لكنه كاف لأسرة الفلاح الممتدة يحوي كل ما ييسر حياته ويعينه وأسرته، فحيواناته إلى

(١) لقاموس المحيط , جزء ٤ ص ٣٧٧.
(٢) الفرقان ٥١.
(٣) المعجم الوسيط , جزء ٢ ص٧٦٠.

جواره وطيوره معه في البيت في مكان ما والفرن والجرن ومكان التخزين، كل هذا يمثل الوحدة السكنية للفلاح ويبعث في نفسه الإحساس بالطمأنينة والأمن. هذا الإحساس ينميه اتصال المساكن فيما بينها فالكل واحد، وحين يواجه الفلاح وأسرته خطرا ما تُفتح الأبواب المغلقة لتغدو القرية سكنا واحدا لأسرة كبيرة يوحدها التآلف والتآخي.

٣ - وظيفة السكن في المدينة وأثرها في شكله:

المدينة لغة كالقرية : المصر الجامع، إلا أنها أكبر مساحة وأكثر تعقيدا وتنوعا في أساليب حياة سكانها وأصولهم المختلفة واحتياجاتهم بأبعادها النفسية والاجتماعية والإقتصادية التي قد تتغير تبعا للأطوار المختلفة في حياة الأسر ونموها مما يستدعي بعض التغيير في شكل السكن.

فالأسرة مثلا ذات الأطفال في سن الحضانة تحتاج كغيرها من الأسر إلى مأوى وبيئة نظيفة، صحية، آمنة وسالمة من المخاطر، إلا أنها فوق ذلك تحتاج إلى تفاصيل إنشائية آمنة في السلالم والشرفات والنوافذ كما تحتاج إلى مساحة كافية للتخزين وتفاصيل معينة من الأثاث يضمن إغلاق الدواليب بإحكام لإبعاد الخطر عن الأطفال فضلا عن احتياجها لفراغ ومساحة للعب الحر وفرص للإستكشاف وإثارة الإنتباه والتفكير[1].

(١) المعجم الوسيط، جزء ٢ ص٧٦٠.

هذا نموذج لأثر وظيفة السكن على شكله وهو خاص بتسهيل النشاط والنمو الشخصي لأفراد الأسرة وتحقيق الوظائف الأولية، أما البعد الاجتماعي لوظيفة سكن الأسرة فيتمثل في إقامة علاقات واتصالات مع المجتمع المحيط لخلق انتماء مكاني يلبي الحاجة إلى الاجتماع وهي لا تقل أهمية عن الحاجة إلى الخصوصية، وللسكن مكان هام في الصورة التي نرسمها لشخص ما أو لأسرة ما ومن خلاله يمكن الوصول إلى الانتماء إلى مجموعات معينة في المجتمع بل يمكن أن يؤثر على النجاح في العمل.

ولأن الساكن في المدينة متعدد أوجه النشاطات يراعى في تصميم السكن : «توفير المساحات اللازمة للأنشطة المتعددة وإيجاد العلاقة المناسبة بينها مما يرفع من كفاءة استخدام الأسرة للفراغات الداخلية ويوفر الوقت والجهد ويحث على النظام واحترام خصوصية الآخرين»[١].

٤ - وظيفة السكن في مخيمات اللاجئين وأثرها في شكله:

المخيم شكل سكني للاجئين وهو يختلف عن المستعمرات أو المستوطنات بأنه يتواجد ضمن عملية مستمرة فهو يبدأ بإقامة الخيام في منطقة تقدمها الدولة المضيفة أو تستأجرها وكالة الغوث، وحين يزداد عدد سكان المخيم وتتسع رقعته يدخل التغير تدريجيا في

(١) نحو نظرة جديدة للإسكان في مصر ، ص٣٢٢.

شكل البناء فتختفي معظم الخيام وتبدأ أبنية من طابق واحد مسقوف بالصفيح أو الزنكو بالظهور، وحين تسمح الظروف تبدأ الأبنية الطابقية في الظهور، ومكان المخيمات ضاحية من ضواحي المدينة وإن كان حزاما من البؤس كما في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين.

أ - أسباب اللجوء :

١ - العدوان الخارجي

٢ - الصراعات والنزاعات والحروب الداخلية والكوارث الطبيعية

٥ - شكل السكن في المخيمات :

بدأ خياماً ثم دخله البناء في محاولة لتحقيق حماية أفضل من عنصر الطبيعة وتقلباتها، واللاجئون أيا كان سبب لجوئهم لا يحصلون إلا على القدر الأدنى من احتياجات الإنسان العادي الضرورية لبقائه، أما الاحتياجات الأخرى كالخصوصية والراحة والاستقرار والهدوء وما إليه فهي ترف لا بفكر فيه اللاجئون، ولعلهم يرون في عدم تلبية هذه الاحتياجات باعثا على تأكيد أملهم في العودة حيث إنَّ انتماءَهم الحقيقي يكون إلى وطنهم ومجتمعهم وسكنهم كما هوحال اللاجئين الفلسطينيين.

* * *

التغير التاريخي للسكن الأسري

في الحقب الأولى من أزمنة ما قبل التاريخ لم يعرف الناس الحياة في المساكن، فقد عاشوا في العراء والكهوف، وعندما اكتشفوا الأدوات تمكنوا من بناء أكواخ من طين وسقفوها بالقش وبفروع الأشجار، واستخدموا المساكن الجرفية التي بنيت على واجهات الصخور والكهوف.

ومع تطور الحضارات القديمة تعلم الناس تشكيل المواد الطبيعية واستغلالها وصنع مواد جديدة للبناء.

وخلال العصر البرونزي أي قبل ٥٠٠٠ سنة شيدت البيوت من الحجارة والطوب المجفف بالشمس في بلاد بابل ومصر.

ويختلف نمط بناء السكن من بلد إلى آخر باختلاف وظيفته والمواد المتاحة لبنائه.

ونتناول هنا:

أشكال السكن الأسري السائد في الماضي ثم ما حدث من تحول في أشكال هذا السكن في المجتمع المعاصر.

أ - أشكال السكن الأسري السائد في الماضي:

١ - مصر القديمة:

بنى المصريون منازلهم بطوب اللبن المجفف، واستعملوا الحجارة في بناء بيوتهم المكونة من طابق أو طابقين فيه ثلاث غرف على الأقل، وكثير من الأثرياء عاشوا في بيوت تحوي ما يصل الى سبعين غرفة، وكانت بعض هذه البيوت ملكيات أو عقارات ريفية فيها البساتين والبرك والحدائق، وكان للبيوت المصرية نوافذ صغيرة في أعلى الجدران تساعد على منع دخول أشعة الشمس، وقد نشر الناس الحصير المبلل على الأرضيات لترطيب الهواء داخل البيوت، وفي الليالي الحارة كان الناس ينامون فوق الأسطح غالبا حيث يكون الطقس أقل حرارة وقد اشتمل الأثاث المصري على المقاعد الخشبية والكراسي والأسِّرة والصناديق، واستخدم المصريون القدماء أواني الخزف للطبخ وتقديم الطعام، كما استخدموا الفحم النباتي والأخشاب للوقود واستمدوا الإضاءة من المصابيح والشموع(١).

٢ - الصين القديمة:

لما كان سكن الأسرة صورة للوضع الطبقي والاجتماعي والاقتصادي، فنجدُ في الصين القديمة ما يميز بين بيوت الأثرياء ومتوسطي الثراء والفقراء.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج ١٣ ص ٣٥٤.

فبيوت الفقراء مساكن كئيبة مظلمة فيها مدخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفض وأرض من التراب، وفي كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والبشر في حجرة واحدة.

أما بيت الأثرياء فلا يزيد على طبقة واحدة، وإذا احتاجت الأسرة إلى أن تزيد حجرات منزلها تفضل إقامة مبنى جديد، ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء(١).

وكان الصيني المتوسط الثراء يتطلب أن يكون ما يحيط به من الحروف التي يكتب بها إلى الصحائف التي يأكل فيها مما يشبع حاسة الجمال....

كان الفنان ذو اليد الصنَّاع الذي يخرج الروائع الفية الدقيقة يزين بها داره، ويتخذها بديلا من الأثاث الغالي الثمن، ومن أسباب المتعة المنزلية(٢).

٣- الهند:

في سنة ١٩٢٤ اكتشف على الضفة الغربية من السند الأدنى آثار من مدينة يبدو أنها أقدم عهدا من أية مدينة أخرى، فقد أزيلت طبقة من الأرض عن أربع مدن أو خمسة بعضها فوق بعض، طبقات فيها مئات المنازل والدكاكين بنيت من الآجر بناء متينا واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً وحارات ضيقة حيناً آخر.

---

(١) قصة الحضارة لول ديورانت ج ٤ ص ١٨٤.

(٢) نفس المصدر ح ٤ من ١٦٦ إلى ١٦٨.

ويرجع تاريخها إلى الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد.

وفي كثير من المنازل آبار وحمامات ونظام دقيق للصرف يدل على حالة اجتماعية ومدنية راقية، كما أن فيها آنية منزلية وأدوات للزينة وخزف...[1].

٤- اليابان:

إن تكرار الزلازل شاء لليابان أن تُبنى على نطاق متواضع وألا تركم الحجارة بعضها فوق بعض، ومن ثم تراهم يبنون بيوتهم من الخشب ومن مواد بناء خفيفة مثل الورق والخيزران، وندر أن يرتفع البيت عن طابق أو طابقين، وبعد أن عانوا من الحرائق أمرتهم الحكومة بعمل سقوفهم من قرميد.

ولما تعذر على أبناء العلية أن يشمخوا بقصورهم إلى السحاب راحوا ينشرونها على أرض فسيحة، ولم يكن من عاداتهم أن يخصصوا غرفة للطعام وغرفة للجلوس وغرفة للنوم، فالغرفة الواحدة تستخدم لكل الأغراض فإذا شاءوا طعاما مدت المائدة على الأرض، وإن أرادوا نوما أخرجوا فرش النوم المطوية ونشروها، والجدران تتداخل بل إن الحائط الخارجي نفسه بما فيه من شبابيك وأبواب يمكن طيه بسهولة للسماح لأشعة الشمس كاملة بالدخول أو لنسيم المساء البارد ليتغلغل في ديارهم.

(١) نفس المصدر ج٣ ص ١٥إلى ١٦.

والنوافذ من علامات الترف، فبيوت الفقراء ذات فتحات كثيرة تترك على حالها في الصيف لتدخل الضوء والهواء، فإذا جاء الشتاء سدوها بورق مشمع إتقاءً للبرد[1].

٥- اليونان:

لم يكن البيت اليوناني على شيء من الفخامة فقد كان بناؤه الخارجي سورا سميكا خاليا من الزينة مدخله ضيق، وكانت البيوت تتجمع في شوارع ضيقة، وترتفع في الغالب إلى طابقين. كان البيت من داخلة غاية في البساطة، أما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طينا جف وصلب، كانت التدفئة بمواقد نحاسية، وكان الأثاث قليلا في البيوت العادية، فلا يزيد على بضعة كراسي وصناديق وقليل من النضد وسرير (كانت النضد صغيرة تقف عادة على ثلاثة أرجل، ولذلك سميت بـ (الطرابيزات) أي ذات الأرجل الثلاثه) وكان المطبخ مجهزا بكثير من الأواني[2].

٦- الرومان:

كانت مساكن الطبقة الوسطى من سكان روما بعيدة عن وسط المدينة وقلما تعلو أكثر من طابقين، وكانت الحجرات في البيت تتجمع حول الردهة الوسطى.

---

(١) قصة الحضارة ج٥ من ١٢٧ إلى ١٢٨ بتصرف.

(٢) قصة الحضارة ج٧ من ١٢١إلى ١٢٤ بتصرف.

وقد بلغت الأدوات الصحية عند الرومان درجة من الرقي لا نظير لها قبل القرن العشرين.

٧- العصور الوسطى:

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحا جدا، فقد كانت نوافذه قليلة، وقلما كان بها ألواح زجاجية، وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لتمنع البرد ووهج الشمس، وكان البيت يدفأ بالموقد إلا أن التيارات الهوائية الآتية من مئات الثقوب كانت تضطر السكان إلى ارتداء القبعات والفراء واقتناء المدفئة داخل المنزل في الشتاء.

كانت بيوت الطبقات المتوسطة في ألمانيا تركب مضخات على آبار لتنقل الماء إلى المطبخ.

ولم تكن النظافة في العصور الوسطى في اوربا من الإيمان، فقد حاربت الكنيسة الحمامات بحجة أنها تفسد الأخلاق، إلا أن الأثرياء ما لبثوا أن أخذوا بأسباب النظافة، فكان الإقطاعي وثري الطبقة الوسطى يستحمان مرات معقولة في أحواض خشبية كبيرة (تطورت فيما بعد إلى ما نسميه اليوم البانيو).

وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة التي وجدوها في بلاد الإسلام إلى أوربا.

كان سكان معظم البيوت يقضون حاجتهم في مراحيض مشتركة خارج البيت، وكان المرحاض الخارجي الواحد يخدم اثني عشر منزلا، إلا أن الأديرة والقصور وبيوت الأغنياء كانت لها مراحيضها

الخاصة التي تفرغ محتوياتها في بالوعات.

كان الاهتمام بالمطبخ والطعام كبيراً كما كانت المشروبات تقدم في بيوت القادرين للضيوف.

٨- الجزيرة العربية:

ونأخذ المدينة المنورة نموذجاً لها:

استفاد أهل المدينة المنورة (يثرب قبل الإسلام) من طبيعة الأرض ومن أشجارها في صنع بيوتهم الأولى التي لم تتعد شكل الأكواخ البسيطة، ثم تحولت إلى بيوت طينية تسقف بسوق الاشجارالطويلة وأغصانها، وكانت تبنى على «صفة» أي على مرتفع من الأرض لحمايتها من مياه الأمطار، وكان لكل بيت أرض تحيط به وتفصله عن البيوت المجاوره...

ويتألف البيت من غرفة واحدة متوسطة الحجم ربما تطورت بإضافة غرفة أخرى مجاورة عندما يزداد عدد أفراد الأسرة، وخارج الغرفة سقيفة مصنوعة من أغصان الشجر تتصل بجدران الكوخ تقف فيها حيوانات صاحب الكوخ ومواشيه ليحميها من الشمس القائظة ومن الأمطار. ومع الزمن تحولت الجدران إلى مبان طينية واتسعت فسحة البيت وصار له باب من الخشب، لكن السقف ظل مجموعة من الأخشاب الممتدة يغطيها سعف النخل وأغصان الأشجار ويرقد فوقها شيء من الطين يمسكها كي لا تعصف بها الرياح، وعندما زحف العمران قرب الجبال والحرار أدخلت الحجارة مع الطين في

البناء لتوافرها وصارت بعض البيوت من طابقين. وقد اشتهرت يثرب بآطامها، وهي بيوت مربعة مرتفعة مبنية من الحجارة غالبا ليس لها نوافذ خارجية وهي حصينة(١).

وخلال السنوات العشر بعد الهجرة تطور العمران في يثرب التي أصبحت المدينة المنورة لتستوعب الزيادة السكانية، وقد ساعد على هذا التطور طبيعة البيئة العمرانية ليثرب الجاهلية، فقد كانت منفصلة بعضها عن البعض تتخللها بساتين أو جبال أوحرات أو أرض فضاء.

وبُني المسجد النبوي في منطقة تتوسط المجموعات السكنية المتناثرة وكأنه قلبها وكانت الأرض المحيطة به خالية من السكان فبنى المسلمون فيها وفي كل مناطق التخلخل مساكنهم(٢).

وبنى النبي ﷺ مساكنه إلى جانب المسجد باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريد، وكان محيطها مبنيا باللبن وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين وجعل لها أبواباً ونوافذ متقنة للتهوية تيسر أمر الدخول والخروج وخفة الحركة.

ب - أشكال التحول في السكن الأسري في المجتمع المعاصر:

شهد السكن الأسري أشكالاً كثيرة من التحول «فمن النمط التقليدي اليوناني والروماني إلى مساكن ذات درج واسع وواجهات

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة. د: عبد الباسط بدر ج١ مختار من ص١١٢ إلى ١١٧.
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٨.

وغرف واسعة إلى أنماط حديث في القرون الأربعة الأخيرة من الألفية الثانية انتقلت من أوربا إلى باقي القارات»[1]. هذا الانتقال أدى الى تراجع الطابع المحلي في بناء المساكن ليحل محله نمط أكثر اتساقا في معظم أنحاء العالم، كما أدت عوامل كثيرة أخرى الى تحول في السكن الأسري منها:

١- العامل الإقتصادي:

ومن صوره الثورة الصناعية التي بدأت في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي وأدت إلى نمو جامح وغير مخطط للمدن، فقد نزح آلاف الناس من الريف إلى المدن بحثا عن العمل، مما دفع البنائين إلى إنشاء أي نوع من المساكن تقريبا لتغطية الحاجة الطارئه، فتجاورت المصانع والمساكن في الشوارع الضيقة وظهرت المساكن ذات الشقق العديدة في المدن الصناعية الكبرى والصغرى.

وفي القرن التاسع عشر تسببت الثورة الصناعية في الهند في هجرة الكثيرين من سكان الريف إلى المدن وبداية الازدحام الحاد. ولم تبن القرى الجديدة حتى منتصف القرن العشرين، وكانت المباني الشاهقة ذات الشقق الرحبة والمكيفة الهواء من نصيب الأغنياء فقط، أما الفقراء فإن سكنهم غالبا ما يكون بدون تيار كهربائي أو ماء لكل بيت.

ومنذ بداية القرن العشرين هبط مستوى المباني السكنية الجديدة

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج٢٣ ص ٢٧١.

إلى درجة غير مقبولة خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية لندرة مواد البناء وما خلفه كساد الثلاثينات من ضعف موارد الناس الماليه. مع استمرار تدفق الهجرة من الريف إلى المدينة بحثا عن العمل، وقد تسبب ارتفاع أسعار أراضي البناء في العواصم والمدن بتغيير شكل السكن إذ كان من الضروري أن تستغل مساحة صغيرة من الأرض، غالية الثمن لبناء أعداد كبيرة من المساكن، وهذا لا يتأتى إلا بشكل جديد للسكن هو هذه الوحدات السكنية الضخمة والمتطاولة، أما في القرى حيث تتوافر الأراضي بشكل أكبر فإننا نجد المساكن المتباعدة وذات الطابق الواحد قد شيدت وسط حدائق أو داخل مساحات واسعة من الأرض خاصة بها[١].

وقد بدأ اتجاه جديد لمعالجة غلاء الأراضي بالبناء على الأراضي الخالية في مشارف المدن أو ما يسمى بالضواحي فهي عموماً أقل ثمناً نظراً لبعدها، وتتكون معظم هذه المساكن الجديدة من منازل منفصلة لكل أسرة وتشتريها الأسر التي تود السكن فيها، ويهيأ لها الخدمات العامة (كما هو الحال - مثلاً - في بعض الضواحي الجديدة في مدينة القاهرة).

٢- العامل السياسي:

لقد تضررت أو تحطمت ملايين المساكن من جراء الحروب العالمية، مما أدى إلى تحمل الحكومات مسؤولية البناء أو الترميم.

---

(١) نفس المصدر ج١٣ ص ٢٣ بتصرف.

وفي أوروبا مثلا تتكون غالبية المساكن التي بنيت بعد الحرب مباشرة من مجمعات من الشقق تمتلكها الدولة، وتقوم بتأجيرها بتكلفة منخفضة وتوفر هذه المساكن جميع الخدمات الضرورية.

وتسكن أعداد كبيرة من المواطنين في المساكن المدعومة من الحكومه.

٣- العامل الاجتماعي:

ويتمثل في الزيادة السكانية والتركيز السكاني في المدينة نتيجة الهجرة من الريف وفي الفقر الذي لا يسمح في كثير من مناطق العالم بتوفير الحد الأدنى من السكن، ففي الصين مثلا يتركز نحو أكثر من بليون نسمة في شرق البلاد يتنازعون على السكن والزراعة، ولا تستطيع الدولة سوى أن توفر لسكانها الحد الأدنى، فالماء الجاري إن وجد صنبور واحد، والحمامات ودورات المياه يشترك فيها العديدون.

وليس الشعب الصيني فريدا في هذا، فالافتقار إلى السكن المناسب نجده في البلاد الأكثر تقدماً، فقد حال التحيز والتمييز دون حصول العديد من أفراد الأقليات على السكن المناسب، وقد أجبر الملونون والمهاجرون في عدة دول غربية على السكنى في الأحياء الفقيرة أو مناطق التمييز العنصري المعروفة بالجيتو.

والمحاولات عديدة ومتواصلة لسد هذه الثغرات في سكن الأسرة فمن مشاريع سكنية خاصة إلى بلدات جديدة غالباً صناعية إلى سكن

تعاوني إلى سكن مشترك ثم إلى سكن حكومي يهيئ عادة للأسر ذات الدخل المنخفض.

٤- العامل الديني:

وهو يؤثر بغيابه على شكل سكن الأسرة وبخاصة في عالمنا الإسلامي حيث لم نعد نرى إلا نادراً وجوداً للبعد الديني في سكننا الأسري.

مستقبل السكن الأسري في عالمنا العربي والإسلامي:

إن مستقبل السكن - شأنه في ذلك شأن كل صور حياتنا الاجتماعية - مرهون بهويتنا، فهي تحدد من خلال خصوصيتها هذا المستقبل.

إن محاولات طمس هذه الهوية قديمة قدم الهوية نفسها ولولا أن الله عز وجل تكفل بحفظها لفقدنا وفقدنا بقدها.

والسكن الأسري مثل بقية أشكال العمارة مجال رحب للمعركة القائمة منذ ما يقرب من قرنين بين الأصالة والتقليد.

والأصالة في السكن أن يلبي حاجات الساكن. بعكس التقليد الذي لا يعي هذه الحاجات، ولا يحسب لها حسابا لأنه نابع من الإحساس بالدونية.

وحاجات الساكن مرتبطة بأرضه ومناخها والإمكانات المتاحة فيها وقيم الساكن نفسه مما لا نشعر بوجوده في أساليب بناء سكن الأسرة.

إن العولمة التي تناقش اليوم بين رافض لها ومؤيد دخلت طور التنفيذ في عالم السكن منذ بعيد، فنحن لا نستورد مواد البناء أو كيفية صنعها فحسب بل نتجاوز هذا إلى التصميمات الهندسية وإلى أسلوب البناء نفسه.

وإذا نظرنا إلى الفروق المناخية مثلا وجدنا أنه من المؤكد ألا يصلح تصميم بناء عليه أن يقاوم أقسى درجات البرودة لبناء عليه أن يتحمل أقسى درجات الحرارة، وتصميم سكن الأسرة المستورد غالبا ما يفرض عليها - حرصا على خصوصية هويتها - أن تسدل ستائر غليظة ليلا وأحيانا نهارا أيضا.

وجناح الاستقبال الموحد للرجال والنساء في البيوت الحديثة يفرض أسلوبا من الحياة يعتمد على ما لا تسمح به هويتنا.

ولئن كنّا الآن نعتمد على التوفيق في حياتنا السكنية بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن فعلا، فإن الأمل معقود على الصحوة التي عمت أرجاء العالم الإسلامي لتعيد إلى الهوية فاعليتها وبخاصة وأن التجربة العملية أثبتت إمكانية حدوث هذا، فهناك مساكن خاصة جميلة وأنيقة في الجزيرة العربية روعي فيها خصوصية الهوية الإسلامية، فما يسمى بالمجلس وهو جناح استقبال الضيوف من الرجال منفصل بخدماته عن السكن الذي تطل فتحات غرفة على حديقة داخلية تحقق أكبر قدر من الحرية لمن في السكن دون جرح للآخرين، وما يتعلق بجناح استقبال الضيوف موجود ليس فقط في المساكن الخاصة وإنما أيضا في شقق العمائر، وفي مناطق أخرى

من عالمنا الإسلامي. مما يجعل إمكانية تطبيقه على نطاق واسع ودون تأخير أمرا غير مستحيل.

تبقى مشكلة الكثرة الغالبة من مساكن الأسر التي هي شقق في عمارات ضخمة وقد تكون فخمة، ولكنها حتى اليوم لا تحقق حاجات الساكن المسلم وحل هذه المشكلة ليس مستحيلا. فكليات الهندسة في عالمنا الإسلامي تخرِّج كل عام عددا ضخما من المهندسين القادرين على ابتكار التصاميم التي تواجه كل العوامل المؤثرة في سكن الأسرة، وتحقق لها هويتها. هذا إن نالوا من التعليم الجامعي ما ييسر لهم الابتكار وحملوا في قلوبهم من الاعتزاز بهويتهم ما يذلل كل الصعاب.

وتجربة حسن فتحي رحمه الله في مصر - في استخدام أساليب البناء مستمدة من التراث كالقباب - تجربة رائدة.

ولن يكون مستقبل سكن الأسرة في المدن المكتظة الملوثة غالبا وإنما سيخرج بعيدا عن الازدحام إلى أطراف المدينة ليكون متصلا بها ومنفصلا في آن واحد وليستطيع بوجود متسع من الأرض أن يلبي حاجات السكان.

وقد بدأت حكومات كثيرة منذ فترة توجيه السكان إلى هذا بتهيئة كل الخدمات والظروف التي تيسر لهم البناء والسكن خارج حدود المدن الكبرى.

* * *

الفصل الـرابـع

التطور التاريخي للباس الأسرة

١ - مفهوم اللباس في الأسرة.

٢ - التغير التاريخي للباس الأسرة.

مفهوم اللباس في الأسرة

أ: تعريف اللباس لغويًا:

١) في لسان العرب:

لبس: اللبس بالضم من لبست الثوب ألبس.

واللبس بالفتح من لَبَست عليه الأمر: خلطت.

و اللباس ما يلبس وكذلك الملبس واللبس.

واللبوس: الثياب والسلاح: مذكر فإن أنث فهو الدرع.

ولباس كل شيء غشاؤه ولباس الرجل إمرأته وزوجها: لباسها.

٢) في المعجم الوسيط:

لبس عليه الأمر لبسًا: خلط عليه حتى لا يعرف حقيقته

لبس الثوب لبسًا: استقر به ويقال: لبس الحياء

ولبس الناسَ: عاش معهم

ألبس عليه الأمر والتبس: أشكل واختلط

واللباس: ما يستر الجسم . ولباس التقوى: الإيمان والعمل الصالح

واللبوس: ما يلبس يقال: ألبس لكل حالة لبوسها: اى ما يلائمها.

ب: تعريف اللباس قرانيا:

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

يعنى: خلطنا وأشكلنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم.

- ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ [ال عمران: ٧١].

يعنى: تخلطون أو تسترون

- ﴿... وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ...﴾[الكهف: ٣١].

بمعنى: يرتدون

- ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...﴾ [البقرة: ١٨٧].

بمعنى: ستر عن الحرام

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا...﴾ [الفرقان: ٤٧].

بمعنى: ساترًا أو ملابس

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ...﴾ [الأنبياء: ٨٠].

بمعنى: عمل الدرع .

اللباس:

يشمل كل أنواع الثياب التى يرتديها الإنسان في كل أنحاء العالم وفى كل مراحل عمره وأماكن تواجده.

وهو أحد ضروريات الحياة له كالطعام و المأوى، وقد اختلف في الأغراض التى يخدمها اللباس بين من يرى أنها أربعة:

١) ستر العورة.

٢) الحماية.

٣) الاتصال.

٤) الزينة[١].

ومن يرى أنها ثلاثة:

١) الزينة.

٢) الحياء.

٣) الحماية[٢].

وإذا اعتبرنا ستر العورة والحياء في خانة واحدة كان الاختلاف فقط في غرض الاتصال، وهو غرض لن نستطيع أن نستبعده.

ولمزيد من الفهم لهذه الأغراض نتابع أبعاد اللباس في الأسرة:

١ : البعد النفسي للباس في الأسرة:

و يتمثل في الرغبة الفطرية في الزينة ويرى أغلب الباحثين[٣] أنها أهم باعث للباس «فعبر التاريخ ارتدى أغلب الناس الملابس بغرض الزينة أكثر من ستر أجسامهم، ويهتم بعض الناس في المناطق الباردة بتزيين أجسامهم أكثر من حمايتها من البرد ففي سنة ١٨٣٠م

(١) الموسوعة العربية العالمية ج٢٤ ص ٥٢.

(٢) بحث لبيكول فوخر في جامعة كونستانس في ألمانيا ص٥.

(٣) غير المسلمين.

سافر عالم الأحياء البريطانى (تشارلز داروين) إلى جزر (تييرادل فويجو) في أقصى جنوب امريكا الجنوبية. ولاحظ أن الناس هناك يرتدون قطعًا صغيرة من المعاطف المصنوعة من جلود الحيوانات بالرغم من برودة الطقس والمطر فوزع (داروين) على هؤلاء الناس قطعًا من القماش ذات لون أحمر فاتح فأخذوها منه ولفوها حول أعناقهم»[1]، «وهكذا اعتبروه زينة لا لباسًا يقى من البرد».

تساعد الملابس على حماية الإنسان من الناحية الشعورية بتمكينه من إشباع بعض رغباته كأن يشعر بفضل ملابسه أنه مقبول لدى المجتمع أو في جماعة معينة، ويرغب بعض الناس بالتمايز عن الاخرين بما يلبسون.

وتساعد الملابس في التعرف على الحالة النفسية للإنسان، فالمكتئب والحزين لا يهتم بمظهره الشخصى. واختيار الملابس زاهية الألوان مؤشر على الإحساس بالسعادة وتبعث في النفس البهجة لدى رؤيتها. وفى معظم البلدان يرتبط الحداد باللون الأسود والفرح باللون الأبيض.

والرغبة في الظهور والاتصال بالاخرين تدفع الناس إلى لبس أنواع معينة من الملابس تبرز أناقتهم ويحاكون فيها من يريدون الاتصال به. وتزييف حقيقة المكان الاجتماعية والاقتصادية وحقيقة العمر يتحقق بالملابس.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج ٢٤ ص ٥٠/٥١.

٢- البعد الاجتماعي للباس في الأسرة:

تشكل الملابس واحدة من وسائل الاتصال بين الناس، إذ تدل على الهوية والوضع الاجتماعى والحالة النفسية للأفراد. ويمكن بصفة عامة تحديد هوية الإنسان من نوعية الملابس التى يرتديها إذ أنها غالبًا مؤشر على المهنة التى يؤدونها أو الجماعة التي ينتمون إليها كما هى الحال مع سائقى الحافلات والممرضات والضباط ورجال الدين ورواد الكشافة

و تدعو رغبة الإنسان في الانتماء إلى مجتمع ما أن يرتدى ملابس مماثلة لملابس هذا المجتمع. ويدل اختيار الملابس على أنَّ صاحبها يشارك المجتمع في المعتقدات والاتجاهات والميول ونمط الحياة[١] أما الأفراد الذين يميلون إلى الاستقلال بأنفسهم فهم يلبسون ملابس تختلف في تصميماتها عن تلك التى يرتديها الاخرون[٢].

٣- البعد البيئي للباس في الأسرة:

تساعد الملابس الانسان على حماية جسمه من المؤثرات الطبيعية وغير الطبيعية التى تحيط به، فقد كانت أول محاولة ارتداء الجلود ووضع أوراق الشجر فوق جسمه لحمايته. ثم تمَّ صنع الملابس التى اختلفت باختلاف البيئة، ففى المناطق الباردة يرتدى الناس

---

(١) ومن هنا جاء قرار فرنسا ثم أوروبا في غالبها بالحرب على الحجاب.

(٢) الموسوعة ج٢٤ ص٥٣/ ٥٤/ ٥٥ بتصرف.

الملابس المصنوعة من الصوف والفراء أو ما يماثلهما وينتعلون الاحذية الطويلة المبطنة، أما في المناطق الحارة فالقطن والكتان المفضلان في صنع الملابس لما فيهما من خاصية امتصاص العرق والتهوية، ونعال الصندل خفيفة ومريحة في هذه الأجواء أما الرأس فتغطيه قبعات كبيرة مصنوعة من سيقان النباتات للحماية من أشعة الشمس، وفى كثير من المناطق الصحراوية يرتدى السكان العرب العباءة الواسعة التى تصلح للحماية المزدوجة من لهيب الشمس نهارًا ومن الهواء البارد ليلا. وتتطلب ممارسة بعض الأعمال ارتداء نوع معين من الملابس، وذلك بغرض حماية جسم الانسان. فالجندى يلبس فوق رأسه خوذة ويرتدى زيًا معينًا يحميه من الإصابات الشديدة في المعركة. وعمال اللحام يتفادون إصابة عيونهم من الشرر المتطاير بوضع نظارة اللحام. وعمال المصانع يرتدون ما يقيهم كل حسب نوعية عمله وحاجته. ويرتدى ملاحو الفضاء ملابس خاصة بالفضاء لحماية أنفسهم من تغيرات الضغط الجوى أثناء طيرانهم في الفضاء. وممارسة الرياضة تحتاج نوعًا خاصةً من الملابس كرياضة الغوص مثلا.

وظيفة اللباس وارتباطها بشكله:

يؤدى اللباس للإنسان وظائف عدة تختلف في أهميتها وأسلوب أدائها باختلاف الأمكنة والأزمنة والمجتمعات البشرية.

ويتفق معظم الباحثين على الوظائف التالية:

١) ستر العورة.

٢) الحياء.

٣) الحماية.

٤) الزينة.

و قد اختلفوا حول ترتيب أولوياتها ويرتبط شكل اللباس غالبًا بالوظيفة التي يريد الانسان أن تتحقق له من خلاله.

١ - ستر العورة:

وهى أول وظائف اللباس فحين خلق الله (عز وجل) آدم (عليه السلام) وزوجه ألبسهما ما يستر عورتيهما بدليل ما ذكر في القرآن الكريم: ففي سورة الأعراف يقول الله (عز وجل) مخاطبًا بني آدم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ . . .﴾[1] وفى سورة الأعراف أيضا يقول الله (عز وجل): ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ . . .﴾[2].

وفـي سـورة طـه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا

(١) آية: ٢٧.

(٢) آية: ٢٢.

﴿... يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ...﴾[1].

وفي التفسير وأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما وسقطت كسوتهما واتضحت معصيتهما وبدت لكل منهما سوءة الأخر بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم[2].

و بعد أن أُهْبِطَ آدم وزوجه إلى الارض يسر لهما اللباس الظاهرى الذى غايته أن يستر العورة الظاهرة أو يكون جمالا للانسان وزينة. إلا أنه أكد على أن لباس التقوى خير من هذا اللباس الحسي الظاهري لأنه مستمر مع العبد لا يبلى وهو جمال القلب والروح[3]. يقول الله (عز وجل) في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ...﴾[4].

ولا خلاف حول هذه الوظيفة مبدئيًا، لكن الخلاف كبير حول تحديد العورة فبتحديدها تختلف أشكال اللباس. فمن الناس من لا يزال يعيش فكريًا وثقافيًا حياة الإنسان الأول الذى كان يرى أن العورة هى السوأة فقط فكان يكفيه من الملابس ما يغطيها. وغالبًا ما كان اللباس في حياة الإنسان الأول ورقة شجرة كبيرة أو قطعة من جلد حيوان اصطاده. هذا المفهوم من العورة ارتد إليه جزء من

(١) آية: ١٢١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٥١٥.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٦.
(٤) آية: ٢٦.

البشرية اليوم مع تعديل في نوعية القماش الذى تصنع منه الورقة الساترة.

إلا أن هذا من الندرة بمكان في عالمنا الإسلامي فالبادية والقرية تحتفظان بالمفهوم الدينى عن العورة وهو المفهوم الذى تختلف فيه حدودها باختلاف الجنس والعمر. وهذا ينعكس على شكل اللباس فاللباس يصمم في البادية والقرية بحيث يستر العورة كاملة. ويتجلى الحرص على ستر العورة باللباس في عدم التخفف منه في الخيام أو في منازل القرية (كما يفعل أهل المدن).

لما في أسلوب الحياة هنا وهناك من مظنة التعرض لنظرات غريبة. إلا أن الناس في المدينة يختلفون في نظرتهم إلى العورة وإلى أسلوب سترها متأثرين في ذلك بالانفتاح على العالم الخارجى. فالمرأة في المدينة مثلا لا ترتدي ما ترتديه البدوية أو الفلاحة وهى لا تجد حرجًا في الأخذ بأسباب (الموضة) ما دامت تستطيع تكييفها مع وظيفة اللباس في ستر العورة (كما تؤمن بها).

٢- الحياء:

الحياء من الإيمان عند المسلمين ودليل حضارة عند المسلمبن متقدمة عند الباحثين الغربيين إذ «هو إحساس لا يظهر إلا في درجات حضارية عالية وتؤثر فبه عوامل مختلفة كثيرة وأفكار أخلاقية واجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد»[١].

(١) ص٤ من بحث نيكول فوخر بجامعة كونستانس بألمانيا.

و قد دفع حياء آدم وزوجه إلى أن يخصفا عليهما من ورق الجنة حين نُزع عنهما لباسُهما ويلتقى الحياء مع ستر العورة في ارتباطهما بشكل الملابس فهو يساعد على أداء وظيفة ستر العورة إلا أنه يتجاوزها. فعورة الرجل مثلا من السرة إلى الركبة لكن حياءه يمنعه من إظهار ما يجوز له أن يظهره (إلا في مثل الحج). والمرأة مع محارمها تستحيي أن يبدو منها ما لا يعتبر عورة شرعية. هذا الذى نقول هنا ينطبق على البادية والقرية أما المدينة فقد دخل الحياء فيها في معركة مع وظيفة جديدة للباس هى اللإغراء والإغواء.

على أننا لا نزال نأمل في أن تعيد الصحوة الإسلامية للحياء مكانته.

٣ - الحماية:

من وظائف اللباس الحماية وهى نوعان: حماية نفسية وحماية جسدية.

أ) الحماية النفسية:

قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾(١).

(١) آية: ٥٩.

ويقول الطبري في تفسيره: «ذلك أقرب أن يعرفن بالستر والصلاح فلا يُتعرض لهن لأن الفاسق إذا عرف امرأة بالستر والصلاح لا يتعرض لها»[1].

وهذا يعنى الحماية النفسية. وإبان الثورة الفرنسية خلع النبلاء ملابسهم الأنيقة وارتدوا ملابس بسيطة هربًا من أن يعرفوا فيتعرضوا للموت على أيدي الثوار.

ب) الحماية الجسدية:

كانت وظيفة اللباس من البدأ حماية الجسم الإنساني من المؤثرات الخارجية الطبيعية مثل: البرد، الحر، الرطوبة، تقلبات الطقس، وحماية الجسم أيضًا من المؤثرات المهنية.

ولأن هذه المؤثرات تختلف من مكان إلى آخر اختلفت وظيفة اللباس في الحماية وبالتالى اختلف شكل اللباس. فظروف الحياة في البادية تتطلب لحماية الجسم طبقات من الثياب للرجل والمرأة على السواء تغطيها العباءة العادية أحيانًا والمبطنة بفراء حيوانات الرعى للراعى المتنقل أحيانًا أخرى.

أما في القرية فيكتفي غالبًا بالسروال والقميص وفوقهما الثوب العريض الفضفاض والعباءة من الرأس إلى القدمين فوق الثياب للمرأة حين الخروج. فالمؤثرات الطبيعية في القرية أقل حدة وقسوة

(١) مجمع البيان في تفسير القران ج٧ص٢٧٠.

منها في البادية وعمل الفلاح في الزراعة يستدعى خفة في الحركة لا تحققها طبقات الثياب وحماية الفلاح من أشعة الشمس المباشرة التى يتعرض لها طوال عمله تستوجب أن تكون القبعة الخفيفة الواسعة جزءًا من لباسه.

وفي المدينة تتنوع المؤثرات الطبيعية والمهنية وتتنوع معها أشكال اللباس المعروضة للحماية الجسدية. وساكن المدينة لا يقيده شكل اللباس كما هو الحال غالبًا في القرية والبادية.

ولكل عمل يؤَدىً لباسُه فالعمل الذى يعرض صاحبه للتلوث له لباس واق يحميه من الإصابة. والعمل الذى يتعرض صاحبه فيه لإطلاق رصاص مثلا يساهم لباسه الخاص في حمايته.

و قد سبق الحديث في البعد البيئى عن وظيفة اللباس في الحماية.

٤ - الزينة:

يقول الله (عز وجل) في آية سورة النور عن ستر المرأة ما يجب أن تستره: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾[(١)].

قال ابن مسعود ظاهر الزينة هو الثياب.

و يقول الله (عز وجل) في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[(٢)].

(١) آية: ٣١.
(٢) آية: ٣١.

يقول ابن كثير نقلا عن ابن عباس في الآية: فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس.

و الناس يسعون إلى ارتداء الملابس التى تبرز أناقتهم وتشبع الرغبة في الزينة عندهم، والبعض- وبخاصة النساء- يقدم وظيفة الزينة للباس على كل الوظائف الأخرى، فقد ترتدى المرأة فراءً غاليًا لأنه جميل وإن لم يبعث الدفء. وفي البادية والقرية ينتشر التطريز اليدوى الملون على الثوب كاملًا وعلى أطراف السراويل وعلى صدر الجلباب وعنقه وأكمامه، وملابس الرجال في دول الخليج من عباءات مطرزة بالقصب وثياب وأغطية رأس متنوعة قماشًا وشكلا. إلا أن هذه لم تطغ على وظائف اللباس الأخرى في البادية والقرية.

أما في المدينة فهناك اتجاهان: اتجاه أصولى وأخر حداثى.

الأول: لا يزال يرى أن ستر العورة والحياء يأتيان في الدرجة الأولى من وظائف اللباس دون إغفال الوظائف الأخرى، والنساء من هذا الفريق يميزن بين نوعين من اللباس: اللباس الخارجى واللباس الداخلى وهن يهتممن في لباسهن الداخلى بوظيفة الزينة اهتمامًا كبيرًا.

الثانى: فالأصل عنده وظيفة الزينة وهو خاضع خضوعًا كاملا لبيوت الأزياء التى ترى الزينة إغراء وتعرية أجزاء من الجسم شكلا يناسب هذه الوظيفة وهو ما يطل علينا من واجهات أكثر محلات الملابس

المرجعية العقدية في شكل اللباس:

ألزمت بعض الديانات قديمًا معتنقيها بلباس الحشمة، وخصت الطبقة التى تقدم بالدعوة إلى الدين وتعليمه بلباس معين كما كان حال الكهنة في الديانات قبل السماوية وكما هو حتى الان حال الحاخامات في اليهودية والرهبان والراهبات على اختلاف درجاتهم في المسيحية، أما الإسلام فلم يحدد شكلا معينًا للباس معتنقيه. إنما هى مواصفات تفرض عقيدة المسلمين عليهم أن يتحروها في لباسهم، أهمها:

١- أن يكون اللباس ساترًا للعورة:

و العورة كما حددها الإسلام (عورة الرجل من السرة إلى الركبة)، عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: **«عورة المؤمن ما بين سرته إلى ركبتيه»**.

وعورة المرأة الحرة ما سوى الوجه والكفين[١]. أما بالنسبة للمرأة مثلها فهى كرجل لرجل - بين السرة والركبة -[٢] ونعنى بذلك عورة المرأة على المرأة.

وقد ورد الأمر بالستر في آيتين من القرآن الكريم: اية سورة النور وآية سورة الأحزاب.

(١) مغنى المحتاج ج١ ص٢٥٧.
(٢) معنى المحتاج ج٣ ص ١٧١.

يقول الله (عز وجل) في سورة النور:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]. والآية تتكلم عن ستر جسد المرأة لا عن زي اللباس وما يتغير هو طريقة الستر لا الستر. وقد حدد المفسرون سبب نزول هذه الآية. قال الزمخشري: «كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة، وقال: وكانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها».

وقال القرطبي في شرح هذه الآية سبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن وهي المقانع أسدلنها من وراء الظهر فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك فأمر الله بلي الخمار

(١) آية: ٣١

على الجيوب[١]. وفى تعليق أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - على ما حدث بنزول هذه الآية: «ما رأيت أفضل من نساء الانصار أو يرحم الله نساء الأنصار لما أنزل الله: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» شققن مروطهن فاختمرن بها[٢].

وفي التعبير (اختمرن بها) ما يمكن أن يشير إلى أن بعض نساء الأنصار لم يكن مختمرات. وإلا لكان التعبير (فأصلحن خمارهن)، ويقول الله (عز وجل) في سورة الأحزاب:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣].

وفي تفسير ابن كثير «يقول الله تعالى أمرًا للرسول ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات خاصة أزواجه وبناته لشرفهن أن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلين وسمات الإماء»[٤]. والجلباب هو الرداء فوق الخمار وقيل هو كل ما تستتربه المرأة من كساء أو غيره وقيل: هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء، والإدناء: التقريب. وفى حديث أم سلمة يوضح طول الجلباب قالت: «كيف تصنع النساء بذيولهن قال: يرخين شبرًا فقالت: إذا

(١) الجامع لأحكام القران ح٦ ص ٤٦٢.
(٢) صحيح البخارى ح٨ ص٤٢٩.
(٣) آية: ٥٩.
(٤) تفسير ابن كثير ح٣.

تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعًا لايزدن عليه»[1].

٢- ألا يصف وألا يشف:

يعنى ألا يصف العورة التى من شأنها أن تُستر ولا يشف عنها إذ إنها قد تكون في هذه الحالة أكثر إغراء وتأثيرًا. وشرط ألا تشف ما منع إدراك لون البشرة.

٣- ألا يكون مشابهًا للباس الجنس الأخر:

عن ابن عباس قال: «**لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال**»[2].

٤- ألا يكون معطرًا أو مبخرًا:

عن الرسول ﷺ أنه قال: «**كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى زانية**»[3]. والشروط كلها عدا الشرط الرابع ينطبق على صفات لباس المرأة والرجل على حد سواء. وقد خص الإسلام الرجال بتحريم لبس الحرير وجر الثوب خيلاء.

عن أنس (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»، وعن على (رضي الله عنه)

(١) سنن الترمذى ح٤.
(٢) صحيح البخارى ج١٠.
(٣) الترمذى ج٥.

قال: «أُهديت لرسول الله ﷺ حلة سيراء فبعث بها إلي فلبستها فعرفت الغضب في وجهه فقال: «**إني لم أبعث بها إليك لتلبسها إنما بعثت بها إليك لتشققها خمرًا بين النساء**»[١]. والحديث فيه دليل على حل الحرير للنساء. وعن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء**» ولم يمنع الإسلام الرجال من لبس الثياب المزينة فقد كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ[٢] الحِبَرة وهى ثياب من كتان أو قطن محبرة اى مزينة.

* * *

(١) صحيح مسلم ج١٤ ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق ص ٥٦.

التغير التاريخي للباس الأسرة

اللباس قديم قدم البشرية ففي قصة الخلق : ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما[(١)]. والآثار تنبئنا أن الإنسان البدائي استخدم الطبيعة من حوله ليستر جسمه ويحميه. وبدأ تطور الملابس مع نهاية العصر الحجري أي قبل ٢٥٠٠٠ سنة حين اخترع الإنسان الإبرة التي استخدمها في خياطة ثيابٍ من الجلود، وتعلم كيف يغزل خيوطا من قلف الشجر أوجذور بعض النباتات أو من الفراء أوأصواف بعض الحيوانات لينسج منها ثيابه. وأخذ الإنسان يزرع النباتات التي تمده بالمواد التي يستخدمها في صنع الغزل، كما أخذ يربي الأغنام والحيوانات الأخرى لتمده بالصوف. وقد استغرق هذا التطور البسيط آلاف السنين. أما التطور الذي حدث مؤخرا في صناعة الملابس والمواد الخام فيرجع تاريخه إلى مئات السنين[(٢)].

وسنناقش التغيير التاريخي للباس الأسرة من خلال عنصرين :

١ - أشكال لباس الأسرة السائد في الماضي.

٢ - أشكال التحول في لباس الأسرة في المجتمع المعاصر.

---

(١) أنظر وظيفة اللباس في ستر العورة.

(٢) الموسوعة العربية ج ٢٤ ص٥١.

أولا : أشكال لباس الأسرة السائد في الماضي:

أ - مصر القديمة:

كان المصريون يلبسون أثواب الكتان البيضاء أما النساء فيلبسن الأثواب الطويلة أو الفساتين الضيقة مع وضع أشرطة على الكتف، وتبرز الملابس صدر المرأة عاريا. ويلبس الرجال الإزار أو الثياب الطويلة. وقد لبس المصريون أحيانا أغطية ملونة للرأس متدلية حتى الكتف. والأثرياء منهم وضعوا الشعر المستعار على رؤوسهم، وكان إحدى وسائل الحماية من الشمس، كما لبسوا الصندل المصنوع من الجلد، لكن عامة الناس كانوا يمشون عادة حفاة الأقدام. أما الأطفال فنادرا ما ارتدوا أية ملابس[١].

ب - السومريون والبابليون والآشوريون:

كانوا من رعاة الأغنام وقد صنعوا ملابسهم من أصواف الحيوانات التي يربونها. كان السومريون يلبسون التنورة الضيقة التي على أطرافها الزينة أويلبسون نوعا من التنورات يسمى كوناكس يعتقد البعض أنه ثوب مغطى بزينة من الصوف الناعم حتى أطرافه السفلى، بالإضافة لهذا الكوناكس ترتدي المرأة السامرية الخمار على رأسها، أما الآشوريون والبابليون فقد وضعوا ثوبا أو شالا كبيرا فوق أكتافهم أو لفوا ثوبا كبيرا حول وسطهم وأردافهم ، كما

(١) نفس المصدر ص٦١.

ارتدوا صدرية ذات أكمام مقيدة تحت الثوب الكبير. وكانوا يضعون على رؤوسهم عدة أنواع من الملابس أو الأغطية وغالبا ما كانوا حفاة[1].

جـ - كريت:

لم يكن الرجال يلبسون شيئا على أجسامهم فوق وسطهم، أما في أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات مقيدة أو مناطق تكون أحيانا منتفخة من الأمام تأدبا وإحتشاما، وفي الحفلات كانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء، وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً، وكانوا في الشتاء يلبسون رداء خارجيا طويلا يتخذ من الصوف أو الجلد، وارتدت المرأة الكريتية التنورة الطويلة التي كانت تزين بكشكش على أطرافها والقميص بأكمام غير أنه شفاف ويجعل الصدر عاريا[2].

د - الفرس:

كان الرجال يلبسون العمائم على رؤوسهم والسراويل المنتفخة في سيقانهم، وكان أغنياؤهم يلبسون معاطف أوجلابيب من الصوف والحرير، ويتمنطقون بمناطق تعلق فيها السيوف أما الفقراء فكانوا يقنعون بأثواب من النسيج القطني أو الشعر أو الجلد، وكان

(١) الموسوعة العربية ج ٢٤ ص ٦٢.
(٢) قصة الحضارة ول ديورانت ج ٦ ص ٢٢-٢١.

النساء يلبسن أحذية طويلة وسراويل قصيرة وقمصانا واسعة وعباءات أو أثوابا مهفهفة[١].

هـ - اليونان:

كانت ملابس اليوناني تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين في غير إحكام حول الجسم. وكان أهم رداء للرجال في أثينا هو ما يسمى Tunic (القباء)، وللنساء المئزر المصنوعين من الصوف ، فإذا تطلب الجو تدفئة غطيا بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدلى في غير كلفة. وكانت النساء في بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة ولم يكن الرأس يغطى إلا في أثناء السفر والقتال أوالعمل في أشعة الشمس الحارة. وكانت النساء في بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل وعصابات ملونة[٢].

و - الرومان:

كان الرومانيون بجميع طبقاتهم يرتدون داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة Tunic أو الصدرية التي تتباين أطوالها من فئة لأخرى، كان الجنود يرتدون الصدرية القصيرة ويتركون أيديهم التي يقاتلون بها عارية دون أكمام، وكان الرجال يرتدون في المناسبات الجبة الرومانية، أما النساء فكن يشبهن نساء الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين، كانت المرأة ترتدي الصدرية

(١) الموسوعة العربية ج ١٠ ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٩١ ٩٢.

وفوقها ثوب واسع طويل يغطي كتفيها ويتدلى حتى أخمص قدميها، وكانت الخمر (ومفردها : خمار) تسدل فوق الأكتاف والبراقع تخفي الوجوه، وكانت الثريات يلبسن في الشتاء أثوابا من الفراء تزيدهن جمالاً، وكان الحرير واسع الانتشار يلبسه الرجال والنساء على السواء[(١)].

ز - الصين:

بينما كان الحرير يباع في أوروبا بما يعادل وزنه ذهبا كان هو الكساء المعروف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى، وكانت الملابس المتخذة من الفراء في القرن الثامن في شانجان أكثر منها في نيويورك القرن العشرين، كانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب ويكاد لونها أن يكون على الدوام هو اللون الأزرق، وفي الشتاء كان السروال يغطى بالطماق ويضاعف عدد القمصان حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان، كان المئزر مختلف الطول، وكان يزرر إلى العنق وكان له كمان كبيران يغنيان عن الجيوب، أما الملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيرا إذا قلنا إنها كانت غير معروفة. كانت النساء في الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد إعتدن أن يعملن عمل الرجال، أما في المدن فكن يلبسن فوق السراويل (الجونلات) وكان الحرير كثيرا في المدن يستوي في ذلك هو والقطن، ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو

(١) بتصرف من قصة الحضارة ج ١٠ ص ٣٢١-٣٢٣.

مشدات تمسك أثدائهن ، ولم يكن لأنماط الثياب سلطان قوي على المرأة الصينية[١].

ح - العصور الوسطى:

كان الناس في بداية العصور الوسطى يصنعون ثيابهم في المنازل كما كان يفعل أجدادهم مئات السنين ، وكانت العائلات تربي الأغنام، وتزرع شجر الكتان ثم تغزل وتنسج من الكتان والصوف ثيابها. كان الرجال والنساء في أوائل العصور الوسطى يلبسون ملابس بسيطة تتكون من الصدرية والعباءة المستطيلة أو الدائرية الشكل، وكانت المرأة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترتدي قناعا على وجهها أو حجابا لتغطية الرأس والعنق سمي الخمار، كما ارتدت هي والرجل رداءً خارجيا فوق ثيابهم سمي بالسيركوت كان طويلا للمرأة وبأطوال مختلفة للرجل وبلا أكمام للطرفين، ومع نهايات العصور الوسطى لبس الرجال الأثرياء الثياب الحريرية الراقية والفاخرة والتي كان التجار يستوردونها من الشرق الأوسط لكن عامة الناس كانوا يلبسون الثياب المصنوعة من الكتان والصوف[٢].

ويصف «ول ديورانت» ملابس العصور الوسطى فيقول : كان أهل أوروبا الغربية في العصور الوسطى أجمل وأكثر ثيابا مما كانوا قبل ذلك

(١) مختار من ح ٤ قصة الحضارة ص ١١١-٢٣٥.

(٢) الموسوعة العربية ح ٢٤ ص ٦٥ مختارات.

الوقت أو بعده، وكثيرا ما كان الرجال يفوقون النساء في زينة الثياب، كان الأغنياء يلبسون سراويل من التيل الابيض الرفيع وجوربا طويلا ملونا مصنوعا من الصوف، وأحيانا من الحرير وقميصا من التيل الأبيض، وفوق هذا كله مئزرا وفوقها كله عباءة أوحرملة يمكن أن تمد حتى تغطي الرأس، واستخدم المحامون والأطباء في أواخر العصور الوسطى قلانس بقيت حتى الآن في أثواب كبار الكليات الجامعية. وكان المتأنقون يلبسون القفازات[١].

ط - عصر النهضة:

أصبحت الملابس وتصميماتها أكثر أناقة وتطورا من ذي قبل، وانتشرت الثياب المطرزة بالحلي والألوان الزاهية في كل الأزياء المصممة في أوروبا، ولبست المرأة الأوروبية ثيابا بها أكمام شبه طويلة وارتدت مع الأكمام القصيرة القفاز الطويل، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر اخترعت آلة النسيج وطورت وارتفع إنتاج الأقمشة وظهرت المصانع الضخمة لإنتاج الملابس وتغيرت الأزياء الأوروبية سريعا، لكن العامة كانت غير قادرة على متابعتها وظلت ترتدي الملابس الصوفية الواسعة المصنعة بالطرق التقليدية، وساد زي المرأة المخصر والتنورة الواسعة التي تربط بحزام عند الخصر، إلا أن اندفاعة الأزياء في هذا القرن أوقفها إندلاع الثورة الفرنسية التي كانت ترى الملابس الفاخرة الأنيقة مؤشرا على

(١) قصة الحضارة ج ١٦ مختارات من ٢٠١-٢٠٣.

الانتماء إلى طبقة الملوك والنبلاء مما دعا الناس إلى اللجوء إلى الملابس البسيطة التي تخلو من الألوان الزاهية والزينة[١].

ويصف «ول ديورانت» ملابس السيدات في عصر النهضة فيقول: «وكانت ملابس السيدات كثيرة الكلفة وثقيلة الوزن غير مريحة للجسم، وكانت الأثواب المصنوعة من المخمل والحرير والفراء تتدلى من ثنيات ضخمة من الكتفين أو من مشابك فوق الثديين إذا كانت الكتفان عاريتين، وكانت الأثواب تشد بمنطقة في الوسط، وتكنس الأرض خلف القدمين، كانت نساء الطبقات العليا تستخدم المناديل، وكانت أغطية رؤوس النساء تتخذ مئة شكل وشكل»[٢].

ي - العرب:

كان زي العرب في العصر الجاهلي بسيطا يتكون من جلباب يصل إلى الركبتين ويشد على الوسط بحزام مبروم، وفوق الجلباب عباءة من الصوف الخشن أو وبر المعز ونحوها، ويغطى الرأس بكوفية فوقها عقال لتثبيتها، وكان هذا الزي يناسب طبيعة المجتمع البدوي حيث يساعد على خفة الحركة والترحال.

وفي صدر الإسلام ومع زيادة موارد العرب ورقي مستوى معيشتهم أصبحت الأزياء متنوعة وتنقسم إلى قسمين : أكسية

(١) الموسوعة العربية ج ٢٤ ص ٦٦-٦٨ مختارات.

(٢) قصة الحضارة ج ٢١ مختارات من ١٠٤-١٠٥.

خارجية مثل العباءة والجبة والثوب والجلباب، وألبسة داخلية كالقمصان والسراويل، أما أغطية الرأس فقد عرف منها الكوفية أو الغترة أو الشماغ ثم العقال فوقها وكذلك العمامة والطربوش، أما لباس المرأة فيشمل الخمار الذي تغطي به الرأس، والعنق والدرع الذي تغطي به اليدين والرجلين.

ولنا في رسول الله ﷺ قدوة في تدبيره لأمر الملبس، يقول ابن القيم: «كان أكثر لبسه للأردية والأزر وهي أخف على البدن من غيرها، وكان يلبس القميص، بل كان أحب الثياب إليه وكان هديه في لبسه لما يلبسه أنفع شيء للبدن، فإنه لم يكن يطيل أكمامه ويوسعها، بل كانت كم قميصه إلى الرسغ لا يجاوز اليد، فيشق على لابسها ويمنعه خفة الحركة والبطش، ولا يقصر عن هذه فتبرز للحر والبرد، وكان ذيل قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين لم يتجاوز الكعبين، فيؤذي الماشي ويجعله كالمقيد، ولم يقصر عن عضلة ساقيه فتكشف ويتأذى بالحر والبرد، ولم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي الرأس حملها ويضعفه ويجعله عرضة للضعف والآفات، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، وكان يدخلها تحت حنكه، وهو أثبت لها وتقي العنق من الحر والبرد، وكان يلبس الخفاف في السفر دائما أو أغلب أحواله لحاجة الرجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد وفي الحضر أحيانا[١]».

(١) زاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ١٤١ ١٤٢.

ك - الهند:

كان الرجال يلبسون الملابس التقليدية كالقمصان القطنية والإيزار والعمامة ويطلق عليه إسم البنجابي، أما النساء فالساري هو اللباس التقليدي للمرأة الهندية، ويتميز بتعدد تصميمياته وأشكاله، ويتكون من قطعة واحدة من القماش مصنوعة من الحرير أو القطن، ويبلغ طوله نحو ستة أمتار، وبإمكان المرأة أن تحافظ عليه لفترة طويلة من الزمان لكونه لا يعتمد على مقاسات محددة، وكانت الهندية لا تعرف لباسا غيره، وترى أنه عملي تؤدي به أعمالها في المنزل وتخرج به للتسوق أو التنزه، كان يحاك في السابق في المنزل أو عند بعض الأسر، ويتم اختيار الألوان والزخارف حسب المناسبة إضافة إلى أن هناك نوعية أخرى للاستعمال اليومي، ويمكن لبس الساري بطرق مختلفة بإختلاف الولاية التي تنتمي إليها المرأة والديانة التي تتبعها والطبقة الإجتماعية والعمر والوظيفة، يضاف إلى الساري بلوزة قصيرة تلبس لتغطية الجزء العلوي من جسم المرأة، ويلي الساري في الأهمية والاستخدام سروال قميص وهو من قطعتين: سروال وهو عبارة عن بنطلون واسع من القماش يلبس فوقه قميص وهو بلوزة واسعة وطويلة تصل إلى الركبة[1]، يصنع الساري الهندي من أنواع كثيرة من الحرير ويدخل في صناعة بعضها خيوط الذهب والفضة.

(١) مختار مما نشرته شبكة النبأ المعلوماتية في الإنترنت.

ثانياً: أشكال التحول في لباس الأسرة في المجتمع المعاصر:

بدأ التحول الكبير في أشكال اللباس الأسري في العالم كله في أوائل القرن التاسع عشر، فقد إنتهى بحلول هذا القرن عصر إنتاج الملابس بالطرق التقليدية، وانتشرت صناعة الملابس آليا في أوروبا وأمريكا بعد أن طورت الآلات المتعلقة بالنسيج والحلج والغزل، وتم إختراع آلة الخياطة وتحسينها، وبدأ الإنتاج بالجملة، فإنخفضت التكلفة وصار التغيير في الطراز أسرع، إلا أنه كان في أزياء النساء أسرع منه في أزياء الرجال، فقد ظل الرجال حتى القرن التاسع عشر يرتدون الملابس البسيطة إلى ان ظهر السروال الطويل الذي حل محل السروال القصير، والذي أصبح إرتداؤه اليوم عرفا تقليديا للأزياء في معظم بلاد العالم، وأضيف إليه السترة الواسعة القصيرة مع بقاء السترة الطويلة ذات الذيل زيا للمناسبات. وكان تطور ملابس الرجال بطيئا حتى الستينات من القر ن العشرين حين انتشرت موضة الأزياء الملونة التي كان معظم الشباب يرتدونها في البدء ثم تحول إليها الرجال من كل الأعمار.

أما الأزياء النسائية فقد كان إيقاع تسارع أشكال التحول فيها يتزايد بشكل كبير وبخاصة منذ أوائل القرن العشرين، فقد كانت المرأة ترتدي الملابس الضيقة إلى درجة تعوق عن المشي الطبيعي، إلا أن الحرب العالمية الأولى دفعتها إلى ملابس أكثر شعبية وبساطة، وبعد الحرب بدأت المرأة الغربية تتشبه بالرجال فارتدت السروال الواسع الذي أصبح خلال الحرب العالمية الثانية أكثر رواجا لدى المرأة العاملة. وبعد

الحرب العالمية الثانية اتجهت الأزياء إلى إظهار شكل جسد المرأة وما لبثت إنجلترا أن قادت العالم إلى طراز التنورة القصيرة جدا والشورت الساخن كما يسمونه، وارتدت المرأة الملابس الرياضية وشملت الشورت القصير والسروال الواسع والضيق في الكعب وملابس التزلج على الجليد.

كانت المرأة في القرون السابقة تكشف أزياؤها عن النحر والصدر فقط، أما في القرن العشرين فقد أدى التغير المتواصل في أزياء المرأة وبخاصة الأزياء الرياضية والمنزلية إلى تصميم لباس يكشف عن بعض أجزاء من جسدها، وبدأ التطور نحو العري بتعري الساقين ثم الصدر ثم ما فوق الركبة ثم السرة وما يحيط بها إلى أن اصبح المتر من القماش كافيا لخياطة ثوب إمرأة، وعادت ملابس البحر بالإنسان إلى بدائيته الأولى حيث كان يستر سوأته بورق الشجر.

جاء هذا التحول في أزياء النساء نتيجة تقليص دور الدين بالدرجة الأولى، وقد كان هذا شعار النهضة في أوروبا وإنتقل شعارا لما اصطلحنا عليه بالنهضة في إشارة واضحة إلى الجهل بحقائق الدين، ومع تقليص دور الدين عندنا وبتأثير فكرة تقليد المغلوب للغالب تراجعت بعض وظائف اللباس وبرزت أخرى، تراجعت وظيفة ستر العورة ومعها وظيفة الحياء، وبرزت وظيفة الإغراء بكل طغيانها.

كيف عبرت أشكال التحول هذه إلى عالمنا الإسلامي ؟ عن طريقين :

١ - الاستعمار بكل أشكاله قديمه وحديثه والمغلوب مولع بالاقتداء بالغالب كما يقول بن خلدون، لكن هذه القاعدة لم تفلح مع الاستعمارالقديم، فقد كان رفض التزيي بزي الغالب جزءا من المقاومة لوجوده، ويؤكد هذا المعنى ما أورده المفكر الإفريقي «فرانس فانون» عن المرأة الجزائرية أيام الاستعمار الفرنسي :

"إن حجابها وسفورها كان جزءا لا يتجزأ من تأكيدها لذاتها القومية والثقافية والحضارية. فعندما شجع الاستعماريون الفرنسيون النساء الجزائريات على السفور عمدن إلى التمسك أكثر بالحجاب كرمز للمقاومة، وعندما تطلبت المقاومة سفور بعض النساء للتسلل داخل صفوف المستعمرين الفرنسيين لزرع المتفجرات تخلت بعض النساء عن الحجاب».

أما مع الاستعمار الحديث فقد قلدناه بوعي أحيانا وبدون وعي غالبا لجمعه في محاولات التأثير بين الغلبة العسكرية والعلمية وبين قدرة هائلة للإعلام بمختلف أشكاله.

٢ - الإعلام المرئي والمسموع. وهي الطريقة الأكثر تأثيرا في التحول الذي طرأ ويطرأ على ملابس الجنسين وبخاصة المرأة إذ أن برامجه بكل صورها وأشكالها وبكل من فيها وما فيها تثير شهوة التقليد عند أفراد الأسرة المجتمعين حوله على مختلف أعمارهم.

فالاهتمام مثلا بملابس من يقوم بالإعلان عن مادة إستهلاكية هو في ذاته إعلان عن شكل اللباس الذي يراد لمستهلك المادة أن يرتديه، لقد كان للصحافة المختصة بالأزياء وغير المختصة أثر كبير على إتجاه الناس في اختيار ملابسهم، ولا يزال هذا الأثر موجودا إلا أنه مرتبط غالبا بالقدرة على القراءة مما يجعل قدرته على التغيير أقل من التلفاز الذي يملك كل إنسان القدرة على متابعته قارئا كان أو أميا، وللسينما نفس قدرة التلفاز إلا أن زبائنها أقل بكثير.

ويقوم الإعلام بوظيفة تحقيق العولمة في اللباس بحيث يبقى الطابع المحلي خاصا بالمهرجانات الشعبية السنوية التي يعرض فيها اللباس المحلي كما تعرض بقية أشكال الآثار القديمة.

وجولة في عواصم عالمنا الإسلامي ترينا ما وصل إليه شبابنا وشاباتنا، بل رجالنا ونساؤنا من تبعية مطلقة لبيوت الأزياء الغربية حتى لو كشفت هذه الأزياء ما لا خلاف على عدم جواز كشفه.

لكننا وبحمد الله وفضله لازلنا بالمقابل نجد أوامر الله تنفذ في الأزياء وقد انتشر الالتزام بالزي الإسلامي انتشارا واسعا دفع صناعة الملابس إلى إعادة حساباتها، وفتح خط جديد لإنتاجها سمته زي المحجبات تجده الملتزمة ليس في عالمنا الإسلامي فحسب بل وفي العالم الغربي أيضا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

الفصل الخامس
دور الأسرة العربية
في مواجهة الأحداث الطارئـة

١ - دور الأسرة في الكويت إبان الكوارث البيئية.

٢ - تطور دور الأسرة الكويتية.

٣ - دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث.

٤ - دور الأسرة الكويتية أثناء العدوان على الكويت.

دور الأسرة في الكويت إبان الكوارث البيئية

جعلت قسوة الظروف المناخية وندرة الموارد الطبيعية في البيئة الكويتية، الأجداد في صراع دائم من أجل البقاء، فالحصول على لقمة العيش لم يكن بالأمر الهين اليسير، ولكن أقل ما يقال عنه بالكفاح، فكان كفاحهم كفاح الأبطال في سبيل كسب الرزق لأسرهم وفي سبيل وطنهم في ذلك الوقت العصيب.

البيئة التي يعيشونها فقيرة، والبحر بالنسبة لهم هو المصدر الرئيس للرزق، فنجدهم ينتظرون فصل الصيف بفارغ الصبر ليتجهوا بسفنهم التي برعوا في تصنيعها إلى البحر للغوص على اللؤلؤ، وباقي فصول السنة كانوا يبحرون للتجارة ثم يعودون إلى أرض الوطن، ليجتمعوا مع أسرهم في بيوتهم المتواضعة المبنية من الطين يحكون لهم عن المآسي والمخاطر التي تعرضوا لها، أو المواقف الطريفة التي حصلت لهم، ويحمدون ربهم على رزقهم القليل، ويستعدون لموسم الأمطار المحتمل في فصل الشتاء لتجميع المياه العذبة للشرب.

تعرضت الكويت قديماً إلى كوارث بيئية عديدة، سببت لها خسائر فادحة في الممتلكات والأرواح، وكان من أهم الكوارث التي تعرضت لها الكويت والتي تعود أسبابها إلى ظروف طبيعية لا دخل للإنسان

فيها، هطول الأمطار الغزيرة وهبوب الرياح والعواصف. كما تعرضت الكويت أيضاً إلى كوارث صحية بسبب انتشار بعض الأمراض والأوبئة المعدية.

وتعتبر الكوارث مراحل توقف في الجانب التاريخي، وذلك لما لها من آثار كبيرة في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والبيئي والصحي، فهناك كوارث محت دولاً قائمة، وكوارث طورت طبيعة البناء، وكوارث غيرت طبائع البشر وعلاقات أفراد المجتمع.

كوارث طبيعية وكوارث مفتعلة:

وتنقسم الكوارث - عموماً - إلى كوارث طبيعية وكوارث مفتعلة، فالطبيعية مثل الزلازل والفيضانات وأحدثها زلزال «تسونامي» في المحيط الهندي جنوب شرق آسيا والذي أدت آثاره وفيضاناته إلى محو قرى كاملة كما رأينا ذلك في إقليم بند آتشيه شمال غرب أندونيسا، وهذه الكوارث الطبيعية قدر إلهي ليس للبشر تدخل فيها. والكوارث المفتعلة مثل الحروب والتفجيرات النووية وتخزين اليورانيوم المنضب، والتي تسبب أمراضاً فتاكة على البشر والحيوانات والمزروعات، بل على الحياة كلها مثل القنبلة النووية التي ألقتها الولايات المتحدة الأمريكية على اليابان في الحرب العالمية الثانية (هيروشيما وناجازاكي)، وإطلاق النظام العراقي البعثي بعد احتلاله الكويت لمئات الآلاف من براميل النفط في مياه

الخليج، وإحراق أكثر من تسعمائة بئر نفطي في الكويت، واستخدام بعض الدول اليورانيوم المنضب في أسلحتها، وقيام بعض الدول بتخزين مخلفات اليورانيوم في البحر أو الصحراء.

الكويت والكوارث البيئية:

ارتبط تاريخ الكويت بكوارث بيئية متعددة، وأصبحت تلك الكوارث علامات تاريخية يشار إليها في أي حديث تاريخي، كأن يقال (قبل الهيلك، عقب الطبعة.. سنة الرحمة وهكذا) ولهذه الكوارث البيئية آثار كبيرة على المجتمع، فمنها ما هدم البيوت ومنها ما قتل الآلاف، فانخفض بسببها عدد السكان، وتعددت الآثار على المجتمع صحياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً، واستطاع المجتمع الكويتي تجاوز جميع تلك الكوارث والأزمات الناتجة عنها، بسبب صغر الكويت مساحة وعدداً، والترابط العائلي، وقوة العلاقات الاجتماعية.

وتعددت الكوارث البيئية التي تعرضت لها الكويت بين كوارث طبيعية وكوارث مفتعلة، وتنوعت الكوارث الطبيعية بين الأمطار الغزيرة والأمواج البحرية العاتية، وانتشار الأوبئة كالطاعون والجدري، وهجوم الحشرات، وتنوعت الكوارث المفتعلة بين الحرائق النفطية واليورانيوم المنضب في الأسلحة التي استخدمت في حرب تحرير الكويت من الاحتلال عام ١٩٩١م.

ولكل نوع من تلك الكوارث البيئية آثارها الخاصة كماً ونوعاً ومساحة وشكلاً، واختلف أسلوب مواجهتها ومعالجتها وفق النوع والفترة الزمنية التي حدثت فيها.

وفي كل الأحوال كانت الأسرة الكويتية متعاضدة في مواجهة الكوارث البيئية، ولقلة عدد السكان فإن الكويت كلها تعتبر أسرة واحدة، ومن أبرز إشارات ذلك التعاون غياب مفاهيم الطائفية والمذهبية والعائلية والطبقية والقبلية، وبروز مفهوم الأسرة الواحدة والوحدة الوطنية وإن اختلفت مشارب الكويتيين وتعددت أصولهم، وكان الهم هو المساعدة والإغاثة والستر على الأسر والنساء، بما فضل الله بعضهم على بعض. فكان الجار يعين جاره بلا حدود، وكان الأصهار والأنساب يساعدون منكوبهم بكل ما استطاعوا، وقد بادر التجار وأهل الخير والجوار بتقديم المساعدات والمعونات للأسر المتضررة بشكل يحفظ لهم كرامتهم وحياتهم.

لقد كان صغر المجتمع الكويتي واعتماد الاقتصاد الكويتي بشكل رئيس على البحر بشقيه - السفر(التجاري) والغوص على اللؤلؤ - سبباً كافياً لأن يكون غرق إحدى السفن الشراعية التجارية في عرض المحيط الهندي (الغِبَّة) كارثة اقتصادية عظيمة (وتسمى الطبعة) حيث يتضرر منها كل من صاحب السفينة ونوخذاها (قائد السفينة) وبحارتها والتجار الذين نقلوا بضائعهم فيها واستأمنوا النوخذة على بيعها في بلاد الهند وأفريقيا، وشراء بضائع أخرى عوضاً عنها ليتاجروا فيها عند عودة هذه البضائع في الكويت.

وكم شهدت الكويت من طبعات مشهورة سميت باسم النوخذة أو صاحب السفينة، إن كان هو النوخذة، ومنها: طبعة (أي غرق سفينة) بلال الصقر، وطبعة محمد بن جار الله[1]، وطبعة عيال بهمن، وطبعة ولد غيث.. وغيرهم الكثير.

ما يهمنا في هذا السياق هو «فزعة» أهل الكويت لإغاثة المنكوبين في هذه السفن، وتعويضهم عما خسروه خيراً، حتى إن بعض التجار يسعى في الأسواق على الدكاكين والعمارات (وهي محلات بيع أدوات بناء السفن والبيوت وعادة ما تكون مواجهة لساحل البحر) ليجمعوا لأولئك المنكوبين ما يعوضهم في مصيبتهم، وكم حفظ التاريخ الكويتي من أحداث مجيدة نفتخر بها نحن الآن ونعيش على شذاها، حين يكون حاصل ما جمعه التجار المتطوعون أكثر من تكلفة بناء السفينة وسعر البضاعة المحملة عليها، وأحياناً بمرتين.

ولقد كانت المرأة هي محور الحركة في الأسرة، فإن كان زوجها موجوداً ساعدته ورفعت من معنوياته، وساهمت بما استطاعت من طبخ وتوزيع ونقل، وإن كان زوجها غائباً حفظت أبناءه من التشرد والضياع، حتى لو اضطرت للاستدانة أو العمل في الخدمة للستر على نفسها وأسرتها.

وكانت الأم دوماً تذكر أبناءها بوالدهم وأنه رمز الأسرة وتاج رأسهم وله الفضل بعد الله عز وجل في حياتهم ومعيشتهم، وتبث

(١) المشهور أبناؤه لاحقاً باسم أخوالهم الخرافي (الجار الله الخرافي).

فيهم روح الرجولة والكرامة، أما الأب فكان يكرم زوجته لما تحملته لوحدها خلال سفره أو عمله بالغوص أو مكان بعيد، ويبث في أبنائه الولاء للأسرة وتقديره الأم.

أبرز الكوارث البيئية في تاريخ الكويت

أولاً: الكوارث البيئية الناتجة عن الظواهر الطبيعية:

كثيراً ما تسببت العواصف والأعاصير والرياح العاتية وهطول الأمطار الغزيرة بأضرار جسيمة على كل من البيئة البرية والبيئة البحرية، فالمدن والقرى الصغيرة ذات العمارة البسيطة إذا تعرضت إلى هبوب الرياح الشديدة وهطول الأمطار الغزيرة تأثرت بيوتها وتعرضت بساتينها إلى الدمار.

أ - كوارث البيئة البحرية:

كان لنشأة مدينة الكويت القديمة على شاطئ الخليج العربي في موقع بين العراق في الشمال والإحساء في الجنوب وسيطرتها على رأس الخليج العربي، خاصة وتميزها بوجود الميناء الطبيعي الممتاز الذي قد يكون الوحيد - آنذاك - على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، جعل من أهلها يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالبحر، فكان البحر هو مصدر رزقهم وبوابتهم الساحلية ذات المركز التجاري المهم في المنطقة، مما جعل المدينة القديمة مدينة ساحلية.

تعرضت المدينة الساحلية إلى كوارث عديدة نتيجة الأعاصير والأمطار الغزيرة التي أثرت على بيوتها وسفنها ويذكر لنا التاريخ

بعضاً منها، حتى أنه جرت العادة عند أهل الكويت قديماً أن يؤرخوا السنوات بالحوادث التي تقع فيها كسنة الطبعة وسنة الرجبية... وغيرها.

١ - الطبعة(١): يحكي تاريخ الكويت لنا أحد أهم الحوادث البيئية التي تعرضت لها جملة من سفن النقل البحري الكويتية أثناء سفرهم وتنقلهم للتجارة، فقد تعرضت السفن الكويتية التي كانت تعبر المحيط الهندي في ذلك الوقت لطوفان قوي عصف بها وطغت عليها الأمواج، وراح ضحيتها أرواح العديد من البحارة وأموالهم، وقد حدثت تلك الكارثة في منطقة بين الهند ومسقط في المحيط الهندي وذلك في عام ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م. ولم يسلم من تلك الحادثة إلا القليل من السفن، وممن غرقت سفنهم بيت الإبراهيم، والعصفور، والعبدالجليل، ونصف البدر، وابن صبيح، ومحمد الغانم. وقد سميت تلك السنة (سنة الطبعة) والتي تعني السنة التي غرقت فيها أكثر السفن الكويتية.

وبطبيعة الحال بعد توفي المئات من رجال الكويت المسافرين على تلك السفن كتجار أو نواخذة أو بحارة، فقد خلفوا وراءهم المئات من الأسر والأيتام والأرامل.

وتعاونت الأسر الكويتية فيما بينها لرأب الصدع الكبير في المجتمع الكويتي، فتكافلت وتعاونت، وحمت الأسر من الضياع،

---

(١) الطبعة: هي في لغة الكويتيين «الغرق في البحر»، والمراد بها غرق سفن عديدة لهم هناك بسبب عواصف البحر وزوابعه، وسنة الطبعة تعني سنة الغرقة التي طبعت أو غرقت فيها السفن.

سواء من خلال الجيران أو الأقارب.

وساعد التجار بعضهم بعضاً، وأعاد أصحاب السفن بناء سفن جديدة، وتشجيع النواخذة الذين نجوا من الغرق - بعد ما غرقت سفنهم - بتكليفهم بالعمل من جديد.

وكان للزوجة والأم دور كبير في رفع معنويات الرجال الناجين من الغرق وخصوصاً النواخذة، لأنه قدر من أقدار الله عز وجل وليس ضعفاً أو تقصيراً منهم، كما حرصت الأرملة أن تحفظ عيالها من التشرد والضياع، وأن تربيهم التربية الصالحة خلفاً لزوجها.

ومن الجميل في المجتمع الكويتي الحفاظ على المرأة، فمن تترمل يتزوجها أحد الأقارب أو الجيران حفاظاً عليها وعلى أطفالها وإكراماً لها، حيث يتكفل الرجل بأطفالها ويربيهم كأنهم أبناؤه، وهذه قمة التكافل الأسري.

٢ - الرجبية (الهدامة): وهي مطر غزير أصاب مدينة الكويت في شهر رجب سنة ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م، وسميت الحادثة الرجبية لأنها حدثت في شهر رجب، وسميت الهدامة لأن المطر تسبب بهدم كثير من البيوت التي كانت مبنية من الطين آنذاك، وتسبب بالضرر لبيوت كثيرة أيضاً، وكان مع قوة المطر ريح عاصف، حتى طغى البحر وارتطمت كثير من السفن مع بعضها أو مع صخور النقعة[١]، ونتج عن هذا ضرر عظيم عليها.

(١) النقعة: ميناء صغير للسفن يحميه حاجز صخري من الأمواج.

وأدت العواصف أيضاً إلى ارتفاع منسوب البحر، فطغت المياه على المناطق المتاخمة للساحل مباشرة، لتسبب الدمار الشامل للبيوت ذات العمران البسيط، وفي تلك السنة تشرد الكثير من الأهالي الذين فقدوا مأواهم.

كان أثر هذا المطر كبيراً في تشتيت الأسر والأطفال والنساء، وخلال هذا المطر العظيم كان بعض الرجال في سفر خارج الكويت، فكانت المصيبة أعظم وأشد على المرأة ذات الأطفال التي تنتظر عودة زوجها، إلا أن المجتمع الكويتي كان متعاضداً أمام الجراح والكوارث، فخرج الرجال للعمل على إسناد الحوائط الساقطة قدر المستطاع، وإخراج النساء والأطفال من البيوت المهدمة، وإيوائهم مؤقتاً في بيوت الجيران التي لم تتضرر، إلى أن تخف وطأة المطر الغزير المستديم، ومن العجيب في الأمر ذلك الاندماج الكامل للأسر الكويتية وفي قمة التعاون، فلم تكن المذاهب أو التوجهات أو الخلافات عائقاً أمام ذلك التعاون، بل الكل بادر وساهم وتعاون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وسعت الأسرة للم الشمل ورفع المعنويات بين بعضها البعض على مستوى الأسرة الواحدة أو على مستوى الأسر المتجاورة والمتقاربة والمتصاهرة، فحفظ الأب أسرته، وحرصت المرأة على حفظ عيالها لحين عودة زوجها، واستعانت بالأسر المجاورة والقريبة لإصلاح البيت المتهدم.

وكان منظراً رائعاً لأهل الكويت في فزعتهم والمساعدة في إصلاح البيوت المتضررة بأنفسهم وبأيديهم، والمساهمة مالياً وعملياً في إعادة بناء البيوت المتساقطة والمتهدمة بسبب الأمطار، لتضرب مثلاً رائعاً في تماسك الأسرة الواحدة، وعدم الانهيار أمام الأخطار البيئية.

ب - كوارث البيئة البرية:

تتميز مدينة الكويت القديمة بانتظام وتناسق نسيجها العمراني، فالمباني ذات ارتفاعات متقاربة وطابع موحد، فلا يوجد مبني أو مجموعة من المباني تخرج عن الإيقاع العام، فاللون الغالب هو لون الطين الطبيعي (البيج الغامق أو البني الفاتح) مما يشكل عامل ربط بين المباني والبيئة الطبيعية البرية، فلا توجد ألوان أو أشكال شاذة، ولا تحوي المدينة معالم مميزة، وغالباً ما تكون مآذن المساجد التي تنتشر بشكل واضح في أرجاء المدينة معبرة عن هوية المدينة وانتمائها إلى الأمة الإسلامية.

ويتميز البيت الكويتي القديم ببساطة البناء فتصميمه ينطق بكل صراحة عن أصالة هذا المجتمع، وتقيده بالعادات والتقاليد الإسلامية، وتأثره بالبيئة المحيطة، حيث نجد تناسب التصاميم ومواد البناء المستخدمة مع ظروف الكويت المناخية. كانت حياة الأجداد بسيطة قوامها تذليل الصعاب وتسخير المواد الأولية المتاحة من أجل بناء ما يكفل للإنسان الكويتي معيشة كريمة، فقد كان بناء البيت الكويتي القديم بسيطاً من حيث التشييد، وتم استخدام مواد البناء المتوفرة في البيئة الطبيعية سواء كانت بيئة صحراوية أو بيئة

المزارع أو البيئة الساحلية، فنجدهم يجمعون الصخور من منطقة رأس عشيرج قرب المدينة لبناء الحوائط، أو الطين من المزارع لتصنيع الطابوق، ويحرقون المخلفات المنزلية في حفر لصناعة الجص واستعماله في مسح الحوائط والجدران، ويجلبون الطين الأبيض من منطقة المقوع لدهان الغرف وغيرها، ولافتقار بيئتهم الصحراوية إلى وجود الأشجار نجدهم يستوردون الخشب من الهند لصناعة الشبابيك والأبواب والجندول لعمل الأسقف.

وعلى الرغم من بساطة البناء، إلا أنها تتسم بالدقة في المقاسات ،ويعمل عليها أمهر البنائين من أبناء الكويت الذين يتميزون بالقوة ولديهم الاستعداد للعمل صيفاً وشتاءً، يعملون دون دراسة وإنما خبرة توارثوها وطوروها مع الأيام، حتى دخل الإسمنت الكويت، ودخلت مرحلة جديدة من البناء والعمارة.

تعرضت المدينة القديمة إلى العديد من الكوارث الناتجة عن الظواهر الطبيعية، مثل الرياح والعواصف الترابية وهطول الأمطار الغزيرة، وقد أثرت عليها وعرضتها للدمار. كما تعرضت الكويت قديماً إلى كوارث طبيعية أخرى أثرت على غطائها النباتي في الصحراء وكذلك في مزارعها مثل هجوم أسراب الجراد.

١ - **الدبا (سنة الجراد)**: الدبا هو ما يدب على الأرض من حشرات وحيوات صغيرة (كالجراد مثلاً)، وفي سنة ١٣٠٧هـ أرسل الله على أهل الكويت دباً عظيماً أكل الزرع وأهلك الحرث والنسل وآذى الأطفال وامتلأت منه الآبار حتى انتنت، وأصيب الناس منه

بما أقلق راحتهم وأطار النوم من أعينهم، ويقدر أعداد الجراد الصحراوي الذي وصل إلى الملايين، فغطى سماء الكويت، والتهم الأخضر واليابس، وعبث فساداً في المزارع، ومحى الغطاء النباتي في الصحراء، ولم يترك شيئاً يؤكل، مما أدى ذلك إلى موت الأغنام وغيرها من حيوانات الصحراء من الجوع.

ومن الجدير بالذكر أن البدو كانوا يصطادون الجراد ويبيعونه في ساحة الصفاة على أهل المدينة، الذين يقومون بطبخه وأكله، وما يبقى منه يجفف ويؤكل فيما بعد أو يقدم طعاماً للماشية والإبل، وقد اشتهر طعم الجراد بأنه مثل طعم الكستناء بعد طبخه! إلاً أن هذه السنة كان الأمر مختلفاً حيث كان الجراد وبالاً على أهل الكويت، واستمرت شدته من اثني عشر رمضان إلى أربع وعشرين منه، وقد قال المرحوم الشيخ العدساني في تلك المصيبة:

اللّه أكبر كيف القمل الضعفا ... آذى الأنام ومنه الزرع قد تلفا
وصير الأرض بيضا لا نبات بها ... كأنه لم يكن فيها وما عرفا
قد جاء كالسيل يعدو ليس يمنعه ... شيء فما مل من شيء ولا وقفا
حتى أتانا فعمتنا بليته ... وقد كسى الأرض ثوباً منه مختلفا
فلم نر طرقاً إلا وقد ملئت ... ولا جداراً ولا سقفاً ولا غرفا
وأصبحت جملة الآبار منتنة ... كأن في جوفها من ريحه جيفا
وكل طفل له من أهله حرس ... يحمونه يقظة منه وحين غفا
واشتد أمر الورى من عظيم كثرته ... ومن أذاه وما ظنوه منصرفا

فقال كلٌ أما والله ذا سخطٌ　　قد أوجبته معاصينا فوا أسفا
أتى لعشر من الشهر الشريف خلت　　مع ليلتين وبعد الضعف قد ضعفا
وكان في سنة السبع التي وقعت　　بعد الثلاث التي قد جاوزت الفا
فالحمد لله والشكر الجميل له　　في كل حال فمولانا بنا لطفا

وحاولت الأسر أن تتعاون فيما بينها للقضاء على تلك الأوبئة، والآثار الناتجة عن ذلك الغزو الكبير من الجراد والحشرات، فتتعاون في تنظيف الآبار، وتقديم الماء للمحتاج ومعالجة الأطفال من الأمراض.

٢ - **الهيلك (الهيلق)**:[(١)] أصابت المنطقة مجاعة كبيرة حتى كاد الناس أن يهلكوا، وهاجر إلى الكويت خلق من أهل فارس هروباً من المجاعة هناك ليعيشوها في الكويت أيضاً، وبلغت الحال من البعض أن شربوا دماء البهائم.

وامتدت فترة المجاعة منذ عام ١٢٨٥هـ حتى عام ١٢٨٨هـ.

وقد قام أهل الكويت بالأعمال الجليلة من إطعام المساكين وإنقاذهم من التهلكة حتى فرج الله على عباده، فكانت الأسر تتعاون فيما بينها في تقاسم الطعام، وكان من الرجال الأفاضل من تبرع بالمال والطعام، وساهمت النساء في الطبخ، وتوزيع الطعام، وكفاية المحتاج.

(١) اختلف في تسمية الهيلك (الهيلق) فليس لهذه الكلمة أصل باللغة العربية - كما بين الشيخ يوسف ابن عيسى القناعي - وإنما هو معنى اصطلاحي. وقد تكون الكلمة مشتقة من الهلاك، وقد تكون من الصفة التي يصف بها بعض السوقيين من عامة الناس، والله أعلم.

وممن صارت لهم شهرة طيبة بالإطعام: سالم بن سلطان، وعبداللطيف العتيقي، ويوسف البدر، ويوسف بن صبيح، وبيت ابن إبراهيم. وكان من أبرز أصحاب الأيادي البيض في العطاء في هذه المجاعة واشتهروا في تاريخ الكويت، السيدان الفاضلان يوسف البدر ويوسف الصبيح، أما الأول فكان يفرج كربات المعوزين والمحتاجين بما يبذله لهم من المال، وأما الثاني فاتخذ له بيتين أحدهما في الكويت والثاني في الزبير يأوي إليهما الفقراء، وقد كان يقوم في كليهما بما يحتاجه الأحياء منهم من طعام وكسوة، وبتجهيز من يتوفى إلى رحمة الله تعالى.

وفي هذين الفاضلين المحسنين يقول الشاعر عبدالغفار الأخرس من قصيدة بعث بها إلى أحد أدباء الكويت إذ ذاك من آل المخيزيم:

إن الكويت حماها الله قد بلغت ... باليوسفين مكان السبعة الشهب
تالله ما سمعت أذني ولا بصرت ... عيني بعزهما في سائر العرب
فيوسف بن صبيح طيب عنصره ... أذكى من المسك إن يعبق وإن يطب
ويوسف البدر في سعد وفي شرف ... بدر الأماجد لم يغرب ولم يغب
فخر الأكارم والأمجاد قاطبة ... وآفة الفضة البيضاء والذهب
من كل ما بسطت في الجود راحته ... صوب المكارم من يديه في وصب

ثانياً: الكوارث البيئية الصحية الناتجة عن انتشار الأمراض والأوبئة:

كانت الكويت تتمتع بسمعة طيبة من الناحية الصحية بين بلدان

الخليج العربي، ويرجع ذلك لعدة أسباب تتعلق بالنواحي البيئية فيها، فمناخها الصحراوي الجاف يعتبر أفضل من مناخ بعض المناطق المجاورة لها التي تتميز بالرطوبة المستمرة، فعلى الرغم من ارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف في النهار إلا أنها تتمتع بهواء منعش مساءً، كما أن ارتفاع درجات الحرارة يساعد على قتل الكثير من الميكروبات، وطبيعة الأرض في الكويت المنحدرة تدريجياً تجاه البحر وخلوها من المستنقعات، أبعد عن أهلها الكثير من الأوبئة مثل الملاريا والدفتيريا، بالإضافة إلى أن طبيعة المعيشة في منازل طينية صحية وعدم وجود السراديب أو العشيش ساهم في إضفاء جو صحي سليم. إلا أن الكويت تعرضت إلى انتشار بعض الأوبئة أدت إلى حدوث كوارث أثرت بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها.

تاريخ الأمراض والأوبئة في الكويت:

لم يذكر التاريخ أو بالأصح لم تصدر وثائق تاريخية حول الرعاية الصحية في الكويت منذ نشأتها أو منذ عام ١٦٧٧م، حيث أقبلت بعض القبائل العربية لتستقر وتستوطن في موقع يوجد به حصن صغير أطلقو عليه اسم «كوت» وبعد عشرين عاماً أو ربما يزيد قليلاً وبالتحديد عام ١٧١٠م استقرت تلك القبائل في موقع الكوت والذي تم تحريفه إلى اسم الكويت، واختيار الشيخ «صباح الأول» ليكون رائدهم والقيّم على أمورهم، وأصبح تعداد السكان يقارب العشرة

آلاف نسمة، وسارت الحياة في رتابة طبيعية.

أما أبرز الكوارث البيئية الصحية التي أصابت الكويت فهي:

١ - **الطاعون**: أصيبت الكويت أكثر من مرة بمرض «الطاعون» الفتاك قبل التوصل إلى علاجه عالمياً والقضاء عليه، وفي كل مرة يصيب المرض الكويت تفقد من أبنائها أعداداً كبيرة، خصوصاً وأن الكويت بلد صغير جداً بمساحته وعدد سكانه، فيسهل بذلك انتقال العدوى.

وكانت أول إصابة بالطاعون سجلها التاريخ في المنطقة في عام ١٢٤٧هـ، حيث أصاب المرض بغداد ثم البصرة، ومات من أهلهما خلق كثير قدروا بمليونين نسمة، وأمام ذلك الخطر الرهيب هرب عدد من الناجين إلى فارس والكويت ونجد والقطيف والبحرين، فانتقل معهم الوباء وتسبب بمقتل أعداد ملحوظة.

وفي ذلك العام أصيبت الكويت بطاعون عظيم قضى على كثير من أهلها، حتى كادت تصبح منه قفراً يبابا لولا المسافرون من أهلها الذين لم يترددوا في الرجوع إليها بعد صفاء جوها من تلك الظلمة، رجعوا إليها ولكنهم وجدوا الطاعون قد فتك بكثير من نسائهم وأبنائهم، فاضطروا إلى استقدام عوضهن من البلاد المجاورة كالزبير ونجد وغيرها، وبذلك حفظوا البلد من العدم والفناء.

ومما يحكيه بعض الكويتيين الذين نجوا من هذا الوباء الفتاك أنه

في أثناء تلك المعمعة أغلق أهل بيت في (الشرق) دارهم وادخروا فيها ما يكفيهم من طعام وشراب، ولم يسمحوا لأحد بالدخول عليهم خوفاً من تسرب العدوى. فكان هذا البيت من جراء هذا التحفظ من البيوت القليلة في الكويت الذي لم يصب من يد الطاعون بضرر.

استطاع وباء الطاعون أن يفتك بما يقارب ثلاثة أرباع الناس في الكويت، وقد جاء إلى المنطقة مستشرق رحالة اسمه «ستوكلر» دون في مذكراته أن أهل الكويت كانوا أربعة آلاف فقط بعد أن كان عددهم يقارب العشرة آلاف. ومنذ ذلك الحين وحتى زمن قريب كان أهل الكويت يتخذون من عام الطاعون هذا علامة يؤرخون بها الأحداث.

٢ - وباء «الإنفلونزا»:

بعد أن تجاوز الناس محنة الطاعون وتكاثروا وتناموا حتى وصل عدد السكان إلى ما يقارب ٣٥ ألفاً في مطلع القرن العشرين، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى وعقبها بقليل وبالتحديد عام ١٩١٨م، شاعت في العالم أجمع موجة عارمة من وباء «الإنفلونزا» الشديدة التي سببتها فصيلة من فيروسات الإنفلونزا، وقد حصدت في ذلك العام ٢٠ مليون ضحية من قارة أوروبا، ولا شك أن الإنفلونزا قد مرت بالكويت ولم يستثن أهلها إذ كانوا يسمونها باسم «أنف العنزة» ولكن أحداً لم يهتم بتعداد ضحاياها.

٣ - وباء «الجدري»:

في عام ١٩٣٢م انتشر وباء «الجدري» في زمن لم تكن تتوافر فيه أي عناية طبية ولا وعي طبي يدفع الأسر إلى الوقاية بالتطعيم، ولهذا وقفوا من المرض موقفاً سلبياً إن لم يكن معارضاً عن التطعيم، ومنه وجد «الجدري» فرصته ليقتل ما يقارب السبعة آلاف من سكان الكويت دفعة واحدة، ومن نجاه الله من الوباء ترك بصماته واضحة على وجهه الذي يتبقع أو عينيه التي عميت، ومن بعدها أرخ الناس عام ١٩٣٢م بعام «الجدري».

٤ - داء «السل»:

انتشر داء السل (أو الدرن) بين الأسر الكويتية، وقد كان مألوفاً أن يكون هناك العديد من الناس يلاحقهم السعال المزمن وهم يعللونه بنزلة برد جهلاً منهم بتأثير سوء التغذية، خاصة وأن انتشار ذلك المرض كان في زمن لم يكن فيه أجهزة تشخيصية ولا أدوية للعلاج ولا وسائل توعوية. ولسفر الأجداد وتنقلهم إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام والهند، عرفوا أعراض هذا المرض وطرق الوقاية منه، فكان بعض المرضى يطبقون مبدأ العزل الصحي فيأكلون في أواني خاصة ويستعملون أغراضهم الخاصة، ويحرصون على التخلص من فضلاتهم بعيداً عن المنزل، كأن يرمونها في البحر حتى لا تنتقل العدوى إلى باقي أفراد الأسرة.

دخول الخدمات الطبية في الكويت:

بالاطلاع على بعض المصادر التاريخية الرئيسية الغربية وفي ملفات المعتمدين والقناصل من بريطانيا الذين كانوا يمثلون القوة المهيمنة في الخليج في القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين، جاء فيها أنه أدخلت الخدمات الطبية لأول مرة في الكويت حين عين في دار الاعتماد طبيب يعمل مساعداً للمعتمد البريطاني وذلك في عام ١٩٠٤م، أي بعد تعيين أول معتمد بريطاني بقليل، حيث يعمل الطبيب على معالجة بعض الحالات المرضية. وأعقب ذلك ما جاء في كتب الرحالة والمبشرين الذين بدأوا يتوافدون إلى المنطقة في تلك الفترة، وتمحور نشاط البعثات التبشيرية في منطقة الخليج حول إنشاء مبان لهذه الإرساليات الأمريكية لتقوم بالتطبيب والتعليم والدعوة إلى الدين المسيحي (التبشير) وقد قام هؤلاء المبشرون بوصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية في مذكراتهم، حيث تعكس وجهة نظرهم الغربية بمقياس غربي بحت لما يدور في مجتمعات الخليج قبل ظهور النفط، وتغيير المجتمعات من النقيض إلى النقيض.

وقد وصف الدكتور س. ستانلي ج ماليري وهو أحد الرحالة والمبشرين في مخطوط مذكراته «الكويت قبل النفط» للفترة من (١٩٠٧ - ١٩٤٧م) الحياة في دولة الكويت، ومن الجدير بالذكر أن الهدف الباطني من إرسال الدكتور ماليري إلى الكويت هو التبشير بالدين المسيحي، بينما الهدف الظاهري هو ممارسة الطب

ومعالجة الأهالي، إلا أنها فشلت في نشر الدين المسيحي، ولكنها نجحت في تأسيس الرعاية الصحية في الكويت.

دور الأسرة إبان تفشي الأوبئة والأمراض:

تمسك أجدادنا الكويتيون بالشريعة الإسلامية، والعمل على ما جاء فيها والامتناع عما نهانا الله عنه، جعلهم يمارسون العادات الصحية السليمة تلقائياً، فنجد الأهالي في الأسرة الكويتية القديمة في الظروف الاعتيادية حريصون على الوضوء والاغتسال واستخدام السواك، والامتناع عن أكل المحرمات من لحم الخنزير والدم وغيرها، لما لها من أضرار صحية اكتشفها العلماء في أيامنا الحالية، فضلاً عن اعتمادهم على الأكل الطازج من لحوم وأسماك وخضار وشرب حليب الماعز أو الأبقار وأكل التمر جعل أجسامهم قوية وأكسبهم المناعة الطبيعية، كما أن الممارسات الصحية السليمة التي يمارسونها، مثل السير على الأقدام لمسافات طويلة والسباحة في البحر، زادت من قوة أجسامهم وكأنهم يطبقون مبدأ الوقاية خير من العلاج، ولكن عند انتشار الأمراض والأوبئة نجد أجدادنا يقفون عاجزين عن علاجها، وعلى الرغم من أن انتشار الأمراض كان أكبر من احتمالهم، إلا أنها كانت من أهم العوامل التي عمقت شعور الأسر بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، وجعل لهم قناعة تحميهم وتعطيهم القوة على تحمل المرض والصبر وتقربهم من ربهم وتعمق إحساسهم برحمة الله، فلذلك نجدهم يكثرون من الصلاة مع

المحافظة على أدائها في أوقاتها والدعاء المستمر بالشفاء، مع مساعدة بعضهم البعض ورعايتهم للمرضى التي كانت تدور في نطاق «الطب الشعبي» الذي يمارسه بعض رجال ونساء المدينة، والذي كان يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً أخرى، وفي الوقت الذي يتسارع فيه العالم الغربي إلى الاكتشافات الطبية للأمراض المختلفة واختراع الأجهزة والأدوية لمكافحة الأمراض الخطيرة والأوبئة، نجدهم يتخطون تلك المحن بالصبر والرضا بقسمة رب العالمين.

ثالثاً: الكوارث البيئية المفتعلة:

أ - الكوارث النفطية:

قبيل انسحاب القوات العراقية من احتلال الكويت في فبراير ١٩٩١م عمد أزلام الرئيس البعثي الطاغية صدام حسين إلى تفجير أكثر من تسعمائة بئر نفطي في جميع حقول النفط في الكويت، فضلاً عن تدمير الأنابيب في الموانئ، وتسببت تلك التفجيرات في كارثتين بيئيتين عالميتين وهما: تسريب النفط براً وبحراً، وحرق الآبار، ولكل منهما آثارها السلبية على البيئة.

١ - **حرق الآبار**: غطت سماء الكويت الدخان الأسود أياماً عديدة، ومع هطول الأمطار أصبحت الملابس البيضاء منقطة بالسواد، لحمل المطر سخام الدخان، ووصل دخان حرق الآبار الكويتية إلى الشرق الأقصى من قارة آسيا، وتأثر أهالي ماليزيا وأندونيسيا صحياً بسبب هذا الدخان.

وكان لهذا الدخان الأثر الكبير على الصحة العامة للمقيمين في الكويت، خصوصاً المصابين بالربو والأزمات القلبية والأمراض الصدرية، سواء الأطفال أو الكبار، ولم تخف هذه السحابة الدخانية بكثافتها إلا بعد أكثر من شهر وبشكل تدريجي وذلك بعد بدء عمليات إطفاء الآبار المحترقة، والتي كان لفريق الإطفاء الكويتي الدور الأكبر فيها.

وهنا لابد من الإشارة لدور الأسرة في مواجهة هذا التلوث وتلك الكارثة العظمى حيث تكاتف أعضاء الأسرة، وكان لا بد من التعاون لمواجهتها، أما على الجانب الصحي، فكانت المبادرات والمساعدات متعددة لمساعدة كل من يحتاج لمساعدة طبية أو حتى الخروج من الكويت، خصوصاً بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت، كما ساهمت الأسرة في تشجيع شبابها لمواجهة هذه الكارثة البيئية، فشجعت أبناءها للمشاركة في إطفاء آبار النفط المشتعلة سواء بشكل مباشر للمتخصص أو غير مباشر لغيره، كالإسناد والإسعاف والتزويد وغير ذلك، وتحتاج تلك الأعمال لتشجيع دائم ورفع للمعنويات، وبالفعل.. فقد نجح فريق الإطفاء الكويتي التصدي لحرائق النفط خلال تسعة أشهر فقط بإمكانيات متواضعة وخبرات بسيطة، في حين أن الشركات العالمية قالت إنها لن تتمكن من إطفائها قبل ثلاث سنوات!!

نعم.. كان لتشجيع الأسرة لأبنائها دوراً كبيراً في مواجهة تلك الحرائق، وأثراً كبيراً في بث روح الوطنية والأسرة الواحدة.

٢ - **تسريب النفط:** ومن آثار تفجير آبار النفط، أن تسرب النفط في الصحراء وفي البحر، وأدى ذلك إلى آثار خطيرة على البيئتين البحرية والبرية، حيث نفقت الآلاف من الأحياء البرية والبحرية بسبب ذلك التدفق النفطي الكبير، واستمر ذلك التلوث لأشهر عديدة، إلى أن تم إزالته بأحدث الأساليب التقنية.

وكان للأسرة دور رائد في توعية أبنائها بأثر ذلك التلوث على البيئة، وتشجيع أفرادها العاملين في القطاع النفطي بتحمل مسؤولية نظافة ونقاء البيئة حفاظاً على الصحة العامة والأحياء.

ب - الكوارث الإشعاعية:

استخدمت في حرب تحرير الكويت قنابل وصواريخ غطيت بمادة اليورانيوم المنضب، وكان لذلك أثر في انتشار الإشعاع ولو بشكل جزئي في الكويت، وبالتالي بروز الآثار الصحية السلبية له، والتي أكدها الباحث البيئي د. شكري الهاشم، ونشر أبحاثه في الصحافة الكويتية والإنترنت ومجلات عالمية، وأكد ارتفاع نسبة الإصابة بأمراض متعددة بسبب تلك الإشعاعات، وأهمها مرض السرطان، والذي تزايد في الكويت بشكل ملحوظ.

أما د. شرارة المزيدي استشارية أمراض النساء، فقد أشارت إلى وجود ثلاث ظواهر برزت إبان التحرير، وتعتقد أن لتلك الإشعاعات أثراً كبيراً فيها، وهذه الظواهر هي:

١ - النزيف الحاد لدى المرأة الحامل دون أي أسباب مرضية أو عضوية.

٢ - سقوط الأجنة، والذي غالباً ما يكون بسبب تشويه خلقي للجنين، فبرحمة الله يسقط الجنين.

٣ - زيادة مواليد التوائم، ولعلّها رحمة من الله عز وجل تعويضاً عن كثرة سقوط الأجنة.

وأشار إلى ذلك الكاتب عصام عبداللطيف الفليج في زاويته «آن الأوان» في جريدة الوطن، ولم تنفه أي جهة رسمية.

وأكد ذلك العديد من التقارير المنشورة عالمياً حول انتشار الإشعاع وآثاره، والتي اضطرت معها جهات الاختصاص لإزالة جميع مخلفات الحرب، وعلى الأخص الدبابات التي وضعت في مواقع عديدة في الكويت كرمز للتحرير والانتصار، فكانت وسيلة غير مباشرة لنشر الإشعاعات.

وحرصت الأسرة على توعية أبنائها بهذا الخطر ليبتعدوا عن مواقع الإشعاع، كما رفعت من معنويات المصابين بالدعاء والمجالسة والاتعاظ بمن هو أسوأ، والإيمان بقدر الله عز وجل، وأن ذلك حصل إنما دفعاً لشر وخطر أكبر.

وبطبيعة الحال، فإن من تصاب بنزيف أو سقوط جنين لأول مرة ليست لديها خبرة في التعامل مع هذا الحدث، فكانت الأم والخالة والعمة هم السند في ذلك، ومعالجتها طبياً وشعبياً بواسطة الأعشاب.

تطور دور الأسرة الكويتية

تعرضت الأسرة الكويتية إلى عمليات التغير الاجتماعي والثقافي التي أصابت كافة قطاعات وأنساق المجتمع المحلي، فالأسرة المحلية تطورت في أدوارها ومستوى العلاقات الاجتماعية السائدة وتفاعلها وتواصلها مع بعضها البعض ومع المجتمع الخارجي، فقد كان لعملية التغير الاجتماعي والثقافي الأثر البالغ في تطور أدوار الأسرة وبنائها الاجتماعي الذي كانت عليه وفقاً لبعض من المتغيرات والمحددات التي أسهمت بشكل مباشر في إحداث هذا النوع من التغير والتطوّر في أدوارها ووظائفها المتعددة. ولعل اكتشاف البترول والثروة الاقتصادية أو العامل الاقتصادي لعب دوراً أساسياً في إحداث هذا النوع من التطور في الأدوار، فتداخلت التأثيرات الاقتصادية مع المحددات الاجتماعية فأحدثت تغيراً اجتماعياً واسع النطاق على كافة الأبنية الاجتماعية داخل المجتمع ومن ضمنها الأسرة المحلية.

فالتطور الذي أصاب الأسرة الكويتية في نمط العلاقات السائدة، والأدوار الاجتماعية الخاصة بكل عضو فيها، ومستوى التواصل والتفاعل من الممكن أن يتم تقسيمه إلى أربعة تقسيمات داخل المجتمع الكويتي المعاصر تبدأ بدور الأسرة قبل النفط، وتطور دور الأسرة في فترة الخمسينات والستينات، ومن ثم دور الأسرة في فترة السبعينات والثمانينات، وأخيراً دور الأسرة في التسعينات وما بعدها.

فهناك مجموعة من التأثيرات والمتغيرات التي لعبت دوراً أساسياً في حدوث مجموعة من التغيرات في بناء الأسرة المحلية والتي أدّت بدورها إلى التطور في أدوارها، ومن الممكن إبراز هذه الأدوار وفقاً للمراحل الزمنية بالآتي:

دور الأسرة الكويتية في مرحلة ما قبل اكتشاف البترول:

لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المجتمع الكويتي التقليدي في تحديد دور الأسرة ووظيفتها في هذا المجتمع، فالاقتصاد القائم قبل اكتشاف النفط فرض مجتمعات رعوية، وزراعية في بعض المساحات، إضافة إلى مجتمع البحر وصيد الأسماك، فجاء دور الأسرة في هذه الفترة متوافقاً مع المعطيات الاقتصادية التي حددت طبيعة هذه المجتمعات، فنمط العلاقات الاجتماعية السائدة في تلك الفترة والأدوار المطلوبة وطبيعة التفاعل والتواصل ودرجتها بين كل فرد في الأسرة كان متوافقاً مع الحياة الاجتماعية السائدة.

فالأسرة في المجتمع التقليدي هي الأسرة الممتدة والتي تتكون من الجد والأبناء والأولاد، وتعد جزءاً من بناء قبلي وقرابي أوسع. وهذه الأسرة كانت تشكل قاعدة الإنتاج الاقتصادي الاجتماعي، وكانت تتحكم بعملية الضبط الاجتماعي، فالأسرة هي التي كانت تملك أو تستأجر وسيلة الإنتاج كأن يكون رب الأسرة يملك أو يشرف على تشغيل السفينة مثلاً أو يكون المتعهد الرئيسي في

الزراعة، بينما يقوم أفراد الأسرة رجالاً أو نساءً بتقديم قوة العمل[١]. فقد اعتمدت الأسرة المحلية والعربية في الوقت نفسه على النشاط الإنتاجي المعتمد على الذات، وأمنت معظم احتياجاتها بفضل وفرة عدد أفرادها.

وقد زاد من ذلك عملية التلاحم القرابي بين الأسر القرابية[٢] وإضافة إلى الملكية الاقتصادية، فإن رب الأسرة تتركز بيده السلطة الاجتماعية. فسلطة الأب مطلقة في كثير من الأحيان إلى درجة الحكم بالحياة أو الموت على أفرادها، وقد انعكست السلطة الاقتصادية والاجتماعية على نظام الزواج الذي كان قرابياً وداخل الأسرة والذي يضمن الحفاظ على وسيلة الإنتاج التي كانت بيد رب الأسرة، ويفرض هذا النوع من الزواج داخل المحيط الأسري، والذي يقابله طاعة عمياء من قبل الأبناء[٣]. فدور الأسرة ينصب بشكل أساسي في قالب الأبوة، وكبير العائلة الذي يدير الأسرة بكافة جوانبها.

وقد اتّصفت الأسرة المحلية كما هو حال الأسرة في المجتمعات

(١) محمد غانم الرميحي، الخليج ليس نفطاً: دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، بيروت: دار الجديد/ ١٩٩٥، ص ص ٢٦ – ٢٨.

(٢) انظر: محمد مراد، العائلة وعلاقات القرابة في المجتمع العربي، في: المجتمع العربي الحديث والمعاصر: دراسة في التشكيلات البنوية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بيروت: دار الفارابي ١٩٩٨: ١٥٨ – ١٩٧.
حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٠، ص ٣٥٣.

(٣) محمد عانم الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق ص ص ٢٦ – ٢٨.

العربية التقليدية كما يذكر «حليم بركات» بالتماسك والتآزر والمناصرة والتوافق والعصبية، وذلك بسبب حاجاتهم لبعضهم البعض، ولدفع الأخطار عنهم[١]. فالأسرة في المجتمع المحلي تميَّزت بأنها وحدة أسرية كبيرة شملت وحدات تكاتفية بالضرورة لمساهمة معظم أفرادها في الإنتاج، تطورت إلى أن أصبحت العلاقات بين الأسر وثيقة أيضاً لوجود مصالح مشتركة تجمع بينها مثل حفر الآبار وبناء البيوت، وحصائر صيد السمك وغيرها[٢]. فالظروف المحيطة وما تشكله من أخطار تجعل من هذا التعاضد والتآزر والتواصل المتبادل ضرورة قصوى لا يمكن أن تقوم الأسرة بدونها، فتؤدي الأسرة دورها في حماية أفرادها وفقاً لهذا المنطلق، وتقوم الأسر كوحدات اجتماعية بالتكاتف في مواجهة المعطيات المحيطة. فالأسرة وشكلها ووظيفتها جاءت متوافقة مع الظروف الاقتصادية والبيئة السائدة في تلك الفترة.

وفيما يتعلق بالأسرة وعلاقتها مع الأسر الأخرى وانعكاسات ذلك على الدور الاجتماعي لها، فقد برز في المجتمع المحلي تصنيف خاص للأسر، فتصنيف الأسر الاجتماعي ظهر فيما يسمى بالأسرة «الأصيلة»، والأسرة «البيسرية». فهو تقسيم اجتماعي أساسه اقتصادي، والتي خلقت تحريماً اجتماعياً لعلاقات المصاهرة بين

(١) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

(٢) عبدالرؤوف الجرداري، الهجرة والعزلة الاجتماعية في المجتمع الكويتي: دراسة سوسيو ثقافية لآثار التغير الاجتماعي والهجرة في مجتمع حضري، الكويت: دار الربيعان، ١٩٨٤ ص ٩٧.

هذين النمطين، وانعكست صوره على علاقات الزواج، ودور المسؤول عن الأسرة عن الزواج. فهذه الأسر شكّلت حتى البناء الأساسي للنظام القانوني السياسي في مجتمع ما قبل النفط[١].

وحتى تقسيم الخريطة الجغرافية جاء متوافقاً مع الوضع الاقتصادي السائد ونمط الأسر. فالخريطة الجغرافية لمدينة الكويت قسمت إلى مناطق عكست النمط الاقتصادي والمعيشي للسكان[٢]، فجاءت العلاقة التفاعلية بين الأسرة وقطاعات المجتمع انطلاقاً من المكانة الاجتماعية التي تحتلها الأسرة، فهي التي تحدد طبيعة التفاعل ومستواه مع أجزاء المجتمع وقطاعاته وفقاً لقواعد اجتماعية ثابتة.

أما فيما يتعلق بطبيعة الأدوار الاجتماعية داخل الأسرة وبين أعضائها، فإنها اختلفت - أي الأدوار - باختلاف نمط الإنتاج الاقتصادي السائد. فالمجتمع التقليدي كان يفصل بين الذكور والإناث. وهناك اختلاف في الوضع الداخلي للإناث في كل نمط إنتاجي عنه في النمط أو المجموعات الأخرى، وتتداخل ظروف كل مجموعة مع الأدوار وتؤثر بالتالي على العلاقة بين الذكور

---

(١) محمد غانم الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق ٢٧ - ٣١.

(٢) انظر:

- عبدالرسول علي المرسي، التغيرات الاجتماعية وأثرها على الإسكان: دور التخطيط في مواجهة هذه التغيرات - النموذج الكويتي، الكويت، ١٩٨١.

- أمل يوسف الصباح، النفط والنمو الحضري بدولة الكويت: دراسة حضرية، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشر، الرسالة السابعة والستون، الكويت: مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، ١٩٩٠.

والإناث. فالمرأة في الجزء الحضري بعيدة عن العمل الرئيسي، والتقاليد تحرم عليها مغادرة المنزل، وعلاقتها مع الذكور لا تتعدى أفراد أسرتها. وعلاقة الأب بأبنائه الذكور والإناث هي علاقة المربي والمعد والمسؤول عن تنشئتهم كما سبقت الإشارة، وتتميز علاقته بالأنثى بأنه مسؤول عنها بشكل كامل بصرف النظر عن عامل السن. فالأنثى تعتمد على والدها اعتماداً كاملًا ولا يعد لها اتخاذ أي قرار. وتنقل هذه السلطة إلى الابن في حالة غيابه، وتستمر حتى زواج الفتاة. فالإناث وفقاً لذلك كن يجهلن بما يجري خارج دائرتهن الضيقة، ولا يعلمن أي شيء إلا بالقدر الذي يسمح لهم فيه الذكور في إطار العزلة المفروضة عليهن[1]، وهذا حدا البعض لوصف الوضع السائد في هذا المجتمع وغيرها من المجتمعات العربية بالنظام الأبوي العائلي، وهرمية العائلة على أساس الجنس المتمثلة بالنظرة الدونية للنساء[2].

ويعد دور المرأة في الأسر الغنية مختلفاً عن دورها في الأسر الفقيرة. فهي في الأولى مقتصرة على الإنجاب والتنشئة الاجتماعية، والخدمة المنزلية تؤدي بواسطة الخدم، أما في الثانية فكانت المرأة تؤدي جميع الواجبات المنزلية، وتسهم في إعالة أسرتها عن طريق بعض الأعمال التي تتقاضى عليها أجرا والذي

(١) نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط: مجتمع الكويت، الكويت: حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الرسالة السابعة والخمسون، ١٩٨٩، ص ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) انظر: حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ص ٣٦٧ - ٣٨١.

يكون قدر الإمكان غير مختلط أو منزلياً في بعض الأوقات مثل الخياطة أو الحياكة، أو حتى تسويق بضاعتها بالسوق وفق القواعد الاجتماعية المسموح بها. أما المرأة التي يغيب عنها زوجها معظم أيام السنة بسبب الغوص، والنقل البحري، فكانت تضطر للخروج لقضاء حاجياتها وحاجات أسرتها عندما لا تجد من الذكور من يقوم بهذه المهمة، وفيما يتعلق بإناث البدو، فكانوا يقمن بتوفير الاحتياجات الأساسية إلى جانب العناية بالأطفال والقيام بالأعمال التي يترفع الذكور عن أدائها. وحياة شبه الترحال يجعلها معرضة للاختلاط بالذكور أكثر[١]. ولعل من أشهر الأعمال التي كانت تقوم بها المرأة بشكل عام هي تلك المرتبطة بالنجارة داخل المنزل من بيع للأقمشة باختلاف أنواعهات، وبيع بعض البضائع ذات الشهرة مثل بيع البخور، والعطور والمسك ودهن الورد وغيرها، إضافة إلى بعض أنواع التجارة المتنقلة بين الأسواق، والخياطة وبيع الملابس الجاهزة، وصباغة الأقمشة، وأعمال الغزل ونسيج الصوف بالنسبة للبدويات، ودبغ الجلود ورعي الأغنام، وصناعة القربة التي تخض بها حليب الماعز، والعمل «الخوافة» وغيرها من الأعمال[٢]. فعلى الرغم من اختلاف أدوار النساء في المجتمع المحلي حسب البداوة والتحضر، إلا أن العلاقة بين الذكور

(١) نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط، مرجع سابق، ص ص ٦٤ - ٦٥

(٢) دلال فيصل الزين، مفهوم العمل عند المرأة الكويتية، الكويت، ذات السلاسل، ١٩٨٩، ص ص ٦٣ - ٦٥.

والإناث ظلت غير متساوية. حيث اقتصرت الأعمال النسائية بالأعمال الثانوية حسب نظرة المجتمع على الرغم من أنها أساسية في كثير من الأحوال، بينما استأثر الذكور بالأعمال الرئيسة ومسؤوليتهم على إعالة النساء.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الكبير والصغير فقد اتسمت كما سماها البعض بأنها هرمية تتميز بدونية الصغار، فالصغار تقليدياً عيال على الكبار، وتتوجب عليهم الطاعة شبه المطلقة في شبكة من علاقات القوة السلطوية والعمودية بين أفراد غير متساوين، فهي علاقات تأخذ طابع توجيه الأوامر، والتبليغ، والتلقين والتحذير والتهديد، وإملاء التعليمات[١]. فينشأ الأبناء في الأسرة المحلية على الطاعة العمياء لرب الأسرة، ويتشربون من خلال التنشئة الاجتماعية قواعد وأعرافاً اجتماعية تصبح ملزمة لهم[٢].

ولعل أبرز ما تماشى مع الوضع الاقتصادي السائد في تلك الفترة هو الوضع التعليمي داخل الأسرة وتأثيره على الأدوار الاجتماعية والذي جعل من خلاله دوراً محدداً للمرأة بشكل خاص، فلم يكن ينظر إلى التعليم بشكل عام من قبل العديد من قطاعات المجتمع إلا أنه يتسم بصبغة كمالية أكثر من كونه ضروري لكافة أفراد المجتمع[٣]، فلم يتعدى تعليم الفتيات في هذه المرحلة إلى حلقات

(١) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ص ٣٨١ - ٣٨٥.
(٢) محمد غانم الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق، ص ٢٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢.

تحفيظ القرآن، وبعض من حلقات الدراسة الجديدة التي ظهرت في أواخر العشرينات التي بدأت الإناث تتعلم مبادئ القراءة والكتابة، والتي كانت محدودة العدد نظراً لقلة عدد المعلمات في تلك الفترة. فقد جاء تعليم البنات متأخراً عن تعليم الذكور، وظل إلى نهاية الأربعينيات من النوع الذي يعرف بالتعليم السنوي، علماً بأن أول مدرسة فتحت للبنات كانت في العام الدراسي ٣٧ - ١٩٣٨ بينما الذكور كانت في عام ١٩١٢[١]. فلم تكن الأسرة تنظر إلى تعليم الفتاة على أنه ضرورة، فالنظر إلى التعليم بشكل عام هو كمالي، أما المرأة فتعليمها عند العديد من الأسر غير ضروري نهائياً.

إن هذا الموضوع قد فرض وعزز من العزلة الاجتماعية للمرأة، وعزز من سلطة الأسرة عليها، تلك السلطة التي رسمت الملامح العامة لشخصية أفرادها، فالأسرة في ظل ظروف اجتماعية محددة أفرزت نمطاً محدداً في العلاقات الاجتماعية السائدة توافقت مع الظروف الاقتصادية والحياة الإنتاجية في مجتمع ما قبل النفط. وحددت دورها وفقاً لهذه الظروف.

دور الأسرة المحلية في عصر النهضة والاستقلال (الخمسينيات والستينيات):

ولعل من أبرز مظاهر هذه المرحلة هي أن الكويت منذ عام ١٩٤٦ ولجت عهداً اقتصادياً جديداً تفجرت فيه طاقة البلاد الضخمة من إنتاج

(١) نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط، مرجع سابق، ص ٦٧.

النفط، وتصديره واستثمار عائداته المالية، وتفجرت على أثر ذلك نهضة عمرانية واجتماعية تغيرت من خلالها معالم البلاد تغيراً جوهرياً، وتم وضع برامج لتطوير مدينة الكويت، وشهدت فترة مطلع الخمسينات توسعاً في الهيكل العمراني والاقتصادي للمدينة كإنشاء دوائر جديدة (الوزارات حالياً)، وركز المسؤولون اهتمامهم بالمشروعات الإنشائية بالإضافة إلى الخدمات الاجتماعية، واتسعت مساحة المناطق السكنية بشكل واضح وزادت عدد الوحدات السكنية، وانتعشت الخطط السكانية والإنشائية بداية الستينات التي شهدت توسعاً حضرياً سريعاً، وقسمت الدولة إلى تقسيمات إدارية كبرى وبدأ تزايد الإنفاق على الخدمات العامة في الدولة[١].

إن هذا التطور والتغير الاقتصادي الذي ارتبط معه تطوراً حضرياً وإنشائياً في الكويت، صاحبه تطور في دور الأسرة المحلية. فقد أثرت الاقتصاديات القائمة على إنتاج البترول على شكل الأسرة ودورها ووظيفتها الاجتماعية، وذلك انطلاقاً من احتياجات سوق العمل الذي فرضته هذه الاقتصاديات، وحاجتها إلى جهود أفراد المجتمع تحت غطاء مؤسسي حضري عام بعدما كان يعتمد على الأسرة في عملية الإنتاج، فعملية الإنتاج تحولت إلى يد الدولة بعدما كانت محصورة بيد الأسرة في فترة ما قبل النفط وفي المجتمعات الإنتاجية القائمة على الزراعة والرعي وصيد الأسماك والغوص

(١) أمل يوسف الصباح، النفط والنمو الحضري بدولة الكويت، مرجع سابق، ص ص ٢٢ - ٤٥

والتجارة البحرية. فتغيرت بشكل طبيعي الأدوار والعلاقات الاجتماعية ضمن نطاق الأسرة نتيجة هذا الانفتاح.

ولعل بداية التغير في الأدوار داخل المجتمع هو اكتساب المرأة الحق الكامل في التعليم الذي بدأ مع بداية توحيد مناهج التعليم للجنسين في بداية الخمسينات، ولقد كانت المساواة في نوع التعليم هي أول مساواة بين النوعين، فأصبح بإمكان جميع الإناث التمتع بحق التعليم التي اعتبرت أساساً لوظائف الدولة بعد أن انتشرت المدارس في الدولة. فالتعليم والتي كانت فيه المرأة عنصراً جديداً جعل منها قادرة على تغير في الدور الذي كانت تؤديه فيما يتعلق من أعمال، فخرجت المرأة للعمل الخارجي، أي خارج نطاق الأسرة[١]. ولقد كفل الدستور الكويتي حق التعليم في العديد من مواده[٢]. فالعمران والتحضر ووجود الاقتصاد المعتمد على البترول أسهم بشكل مباشر في التغير الذي أصاب دور المرأة كأحد مقومات الأسرة في المجتمع المحلي.

وتشير الإحصاءات في تلك الفترة إلى أن عدد الطلاب الذكور قد زاد أكثر من ٤٠ ضعفاً في حوالي ربع قرن (من بداية الأربعينيات إلى نهاية الستينات)، في حين أن عدد الطالبات قد زاد ١١٢ ضعفاً في الفترة نفسها. فبعد أن كانت نسبة الطلاب إلى الطالبات ٤ إلى ١ في سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢، أصبحت النسبة متقاربة في نهاية

(١) نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط، مرجع سابق، ص ٦٧.
(٢) انظر دستور الكويت ١٩٦٢، مادة ١٣، ومادة ٤٠، على سبيل المثال.

الستينيات وبالتحديد سنة ١٩٦٨/ ٦٩، إذ بلغت في تلك الفترة نسبة ٤٢٪ من مجموع طلبة المدارس[١]، ولم يتم الاكتفاء عند هذا القدر بل تعدت ذلك إلى أن خرجت المرأة في بعثات خارجية للدراسة في الجامعات المصرية والخارجية لاستكمال الدراسات العليا، بعدما انطلق إنشاء أول مدرسة ثانوية للبنات في عام ١٩٥٠[٢].

ولعل من أبرز ما ساعد خروج المرأة الكويتية على العمل هو قانون الوظائف العامة في الكويت الذي لم يفرق بين الذكور والإناث من حيث الامتيازات الخاصة، إلى جانب عوامل الهجرة في المجتمع الكويتي، واتصال الفتاة ثقافياً مع بعض الدول[٣]. ولعل قانون الجنسية الكويتية قد خلق نوعاً من التنافس في مجال العمل والذي أعطى العديد من المزايا خاصة بالنسبة للكويتيين في ظل عدم تفرقته بين الذكور والإناث، في ظل وجود العديد من المهاجرين الذين انخرطوا في مجال العمل في المجتمع الكويتي[٤]. والذي عكس كل ذلك تغيراً في النشاط الاقتصادي المصاحب للثورة النفطية.

وكتطور لافت للنظر يتعلق بدور المرأة نتيجة للاتصال الثقافي

---

(١) محمد رشيد العقل، سكان الكويت، الكويت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٦٩، ص ٢٧٧.

(٢) دلال فيصل الزبن، مفهوم العمل عند المرأة الكويتي، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨.

(٤) Hill, AG, The Demography of the Population of Kuwait, Popul. Bull. UN Econ Comm. West Asia, 1977, p. 42 - 55.

وكنتيجةٍ للانفتاح على المجتمع الخارجي والثقافة الخارجية، فقد شاركت المرأة الكويتية في أواسط الخمسينات الرجل نشاطه السياسي وأحرقت بعض الفتيات عباءاتهن كاحتجاج على الحجاب الذي كان يمثل عائقاً لهن في المساهمة الاجتماعية، إضافة إلى خروج ما سمي بفتيات الجيل الجديد (لابسات لميني جوب)[١] كظاهرة غريبة على المجتمع المحلي. فقد تولد هذا الانفتاح نتيجة للاتصال الثقافي الذي لم يكن ليحدث ويصيب كافة أطراف الأسرة ومنها النساء لولا الطفرة المادية التي كانت بداياتها مع تصدير أول شحنة بترول للخارج. فالدور الذي كانت عليه المرأة كأحد أجزاء المجتمع لم يكن ليصبح جزءاً من مظاهر المجتمع بهذه الصورة لولا النهضة التي أحدثتها الثروة الطفرة.

ولم يكن دور الرجل في الأسرة بحال مختلفاً عن المرأة، فقد ازدادت نسبة انخراط الذكور في التعليم وفي قطاعات العمل[٢]. إضافة إلى أن اكتشاف البترول والتغير الذي طرأ في اقتصاديات المنطقة فرضت على الرجل الخروج من دائرة الأسرة إلى الدولة فيما يتعلق بالإنتاج والعمل. فبدأت قطاعات كبيرة من السكان تهجر حرفها القديمة ونشاطها الاقتصادي وتتوجه إلى القطاعات الاقتصادية الحديثة[٣].

---

(١) انظر: محمد الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) انظر: حمد رشيد الفيل، مرجع سابق.

(٣) محمد الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق، ص ٣١٢.

وكنتيجة للانتقال السريع في الوظيفة والدور ظهر ما أطلق عليه البعض ما سمي بـ «البدوي المميكن»[1] كنتيجة لانخراط أحد الأنماط الاجتماعية التقليدية في النظام الاقتصادي الجديد العامل في مجال النفط والتقنيات في البداية. هذه الوظيفة قد خلقت دوراً اجتماعياً أسرياً مختلفاً عن الحياة التقليدية. فخروج الرجل وتقبله في كثير من الأوقات العمل اليدوي، فرض نمطاً أسرياً مختلفاً قائماً على الاستهلاك أكثر من الإنتاج بعدما أصبحت الوظيفة سمة وميزة تمنحها الدولة لكافة أبنائها، فبدأ التدافع على الأعمال الحكومية والتي أفرزت نمطاً استهلاكياً بدلاً من أن كان منتجاً للأسرة المحلية. والتي على أثرها قللت من سلطة الرجل على الأسرة، وذلك بحكم خروجه مع المرأة إلى العمل ومشاركتها له في الأعباء المنزلية بعدما كان الاعتماد عليه بشكل مباشر في مجتمع ما قبل النفط.

ومن جانب آخر يتعلق بشكل الأسرة ودورها خلال هذه الفترة، هو ما يتعلق بموضوع الزواج والخصوبة. ففي ما يرتبط بالزواج ومع بداية الخمسينات وانفتاح المجتمع الكويتي على الشعوب الأخرى وبالتحديد العربية، أثيرت في هذه الفترة قضية زواج الكويتيين بالأجنبيات. فقد وجدت دراسة خاصة قام بها مجلس التخطيط لاستطلاع حجم الظاهرة التي أشارت إلى أن نسبة ٩,٣٪ من العينة

---

(١) انظر: سعد الدين إبراهيم، النظام الاجتماعي العربي الجديد: دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢، ص ٢٣ - ٢٧.

المفحوصة من الرجال قد تزوجوا من غير كويتيات، ونسبة ٢,٧٪ من الكويتيات تزوجن من غير كويتيين[١]. وعلى الرغم من أن النسبة تعد قليلة، إلا أنها تعد مؤشراً على تغير في دور الأسرة الذي حافظ في السابق على وحدته القرابية والذي كان الزواج من الأقارب أحد دعائمها الأساسية. أما فيما يتعلق بالخصوبة وعدد المواليد، فقد أشارت إحدى الدراسات[٢] إلى أن نسبة الخصوبة كانت مرتفعة في تلك الفترة وتقدر بمعدل ٧ مواليد للمرأة الواحدة، وتعد عالية إذا تمت مقارنتها ببعض الدول، وهذا بلا شك يعكس دور المرأة الذي لا زال الأطفال وتربيتهم يعدون من صلب اهتماماتها الأسرية، فالأسرة وفقاً لذلك، انطلقت إلى مدخل جديد في حياة ما بعد النفط وبعد أن شهدت الكويت تطوراً في النواحي العمرانية والسكنية والإنشائية، فشكلت الأسرة دوراً مميزاً ومختلفاً في هذه الفترة عن سابقتها.

دور الأسرة المحلية في السبعينيات والثمانينيات:

ولعل أبرز ما يميز هذه الحقبة الزمنية هو أن الكويت قد مرت بتحولات اقتصادية جذرية عكست أثرها بشكل واضح على نمط العلاقة بين حجم إنتاج النفط وعوائده المالية من جانب، والنمو الحضري من جانب آخر[٣]. وأصبح هناك تراكماً مالياً نتج عن

(١) انظر: محمد رشيد الفيل، مرجع سابق.

-Kohli, KL. and Al-Omaim, MH., Fertelity in Kuwait: 1970 - 1985, Genus, 49 (3 - 4). 55 - 59, 1993.

(٢) أمل يوسف الصباح، النفط والنمو الحضري بدولة الكويت، مرجع سابق، ص ص ٤٥ - ٦٦.

(٣) Kohli, KL. and Al-Omaim, MH., Fertelity in Kuwait, Ibid.

طريق زيادة استخراج النفط والغاز الطبيعي خاصة بعد حرب ١٩٧٣، وإخضاع القطاع النفطي للملكية الكويتية عام ١٩٧٥، فبعد أن كان الدخل القومي الكويتي ٥٣٤ مليون دينار سنة ٦٦/٦٧، قفز إلى ٣٣١٥ مليون دينار في سنة ٧٥/٧٦ أدى ذلك إلى ارتفاع متوسط نصيب الفرد والأسرة من الدخل القومي[1]، فحدثت طفرة مادية كبيرة على المجتمع الكويتي أثرت على بناء المجتمع بعناصره المختلفة.

إن هذه الثورة الاقتصادية قد أحدثت تغيراً بنائياً على شكل ودور الأسرة داخل المجتمع أيضاً، وأصبح المنزل الكويتي يتمتع بزيادة في متوسط عدد الغرف[2] كأحد الملامح السكنية الجديدة. فأصاب الأسرة الكويتية تغيراً وتطوراً تناسب مع هذه المعطيات الاقتصادية، فالوقائع والأفكار والآراء والمعتقدات وغيرها من العناصر الثقافية المرتبطة بالأسرة تأثرت بشكل كبير في ظل تطور الأوضاع الاقتصادية، ولقد لعب الرخاء الاقتصادي بدوره الكبير في التأثير على تغير في شكل الأسرة المحلية، ومن أبرز هذه التغيرات التي ظهرت بصورة مباشرة وجلية في تلك الفترة هو التزايد في أعداد ما يسمى بالأسرة النووية أو النواة، فالأسرة التقليدية التي كانت تعتمد ذاتياً على نفسها في عملية الإنتاج، تبدلت إلى تفضيل العيش في الأسر النووية.

(١) البناء القيمي في المجتمع الكويتي، الكويت، مكتب الإنماء الاجتماعي، إدارة البحوث، إدارة البحوث والدراسات، ١٩٩٨٧، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) عبدالرؤوف الجردادي، الهجرة والعزلة الاجتماعية في المجتمع الكويتي، مرجع سابق، ص ١٦٠.

وتشير دراسة فهد الثاقب[1] على سبيل المثال التي أجراها على مجموعة من الأسر المحلية إلى أن العائلة النواة تمثل ٥٩٪ من إجمالي أفراد العينة في هذا المسح الذي قام بإجرائه بينما احتلت العائلة التقليدية نسبة ١٧٪ فقط وهو تطور أصاب المجتمع المحلي والعديد أيضاً من المجتمعات الأخرى[2] ولعل ما يبرر هذا التغير الذي أصاب الأسرة المحلية هو الاتجاه نحو التحديث والتأثر بنمط الحياة الأسرية في المجتمع الغربي[3]، والتي لعبت تلك الفترة الزمنية دورها في تزايد التواصل مع المجتمع الخارجي نتيجة للوفرة المالية. هذا وقد انعكست أيضاً على عملية الاختيار الزواجي والزواج من المحيط الأسري أو الخارجي والذي بدأت الملامح تشير إلى زيادة نسبة زواج غير الأقارب خاصة عند ذوي المستويات التعليمية العليا[4].

(١) فهد الثاقب، حول حجم وبنية العائلة العربية والكويتية، مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٧٦ : ٨١ - ٩٠.

(٢) انظر: - فهد الثاقب، التحضير وأثره على البناء العائلي وعلاقة العائلة بالأقارب في العالم العربي: عرض وتقييم لنتائج البحوث، مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٨٦، ١٤ (٤): ٢٠٩ - ٢٢٣.

- Al-Thakeb, Fahed, size and composition of the Arab Family: Census and Survey data, International Journal of Sociology of the Family. 1981, 2: 171 - 178.

- عدنان عبدالكريم الشطي، الاتجاه نحو بعض وظائف الأسرة الكويتية، حوليات كلية الآداب، الرسالة ١٢٧، ١٩٩٨، ص ص ٢٧ - ٣٢.

(٣) Al-Thakeb, Fahed, The Arab Family and Modernity: Evidence From Kuwait Current Anthropology 1985, 26: 575 - 580.

(٤) انظر: فهد الثاقب، الروابط العائلية - القرابية في مجتمع الكويت المعاصر، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، ١٩٨٢، ص ص ٥٢ - ٥٦.

ولقد شهدت الأسرة أيضاً مضياً في انخفاض معدلات الخصوبة عن الأسرة التقليدية. إلا أن هذه الفترة قد شهدت تذبذباً صعوداً وهبوطاً في معدلات الخصوبة تراوحت بين ٤٦,٤ مولوداً و ٥١,٢ مولوداً لكل ألف من السكان، وإن كان هناك مؤشر إلى الانخفاض النسبي[(١)]. ومن التقديرات الخاصة للخصوبة التي سجلت في نهاية هذه الفترة تقريباً هو وصول معدل المواليد إلى ٤,٤ مولود للأسرة الواحدة وبمعدل ٣٤ مولوداً لكل ١٠٠ ألف من السكان[(٢)]. فقد حافظت الأسرة على المعدل العالي نسبياً في المواليد على الرغم من وجود مؤشراً خاصاً بالانخفاض في هذه السنوات.

ولعل من المشكلات الاجتماعية الأساسية التي بدأت تظهر على السطح في هذه الفترة بالتحديد هي زيادة أعداد الطلاق بالمقارنة في الفترات الزمنية السابقة في المجتمع، فكانت هناك مؤشرات لزيادة في هذه المعدلات كما أشارت إليه أحد الدراسات المحلية، والتي عزت هذا الانتشار إلى التغيرات التي طرأت على بناء الأسرة في المجتمع الكويتي بالتحديد وما طرأ على الثقافة المحلية نتيجة للاتصال والاحتكاك الثقافي[(٣)]. فزيادة هذه الظاهرة ولد ظهور بعض القوانين

(١) أمر يوسف الصباح ومصطفى حنفي الشلقاني، سكان الكويت: الماضي - الحاضر - المستقبل. دراسة سكانية تحليلية مقارنة، الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٦: ص ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) See: Al-Kandari, Yagoub, Fertitely and its Relation to some Sociocultural Variables in Kuwait Society (in press).

(٣) الطلاق في المجتمع الكويتي، عليه حسن حسين (إعداد وإشراف)، الكويت: وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة التخطيط، ١٩٧٨. ص ٢٩١.

والقرارات التي تماشت وتواكبت مع هذا التطور منها اللجنة التي تم تشكيلها لوضع قانون الأحوال الشخصية في الكويت في سنة ١٩٧٨ والذي يتضمن الزواج وأحكامه والطلاق وآثاره وحقوق الأبناء والميراث وصدور القانون في سنة ١٩٨٤ والذي جاء فيه ثلاثة أقسام رئيسة كانت منها أحكام الطلاق[١]، فالتغيرات التي حدثت في تلك الفترة، حتمت ظهور بعض التشريعات الخاصة التي تتعلق بهذا الجانب والتي تناسبت مع التطور الذي أصاب الأسرة المحلية.

ومن الظواهر الاجتماعية أيضاً التي ظهرت في الأسرة المحلية وانتشرت فيها وبالتحديد في تلك الفترة وأثرت على بنائها هي ظاهرة انتشار الخدم (خدم المنازل والمربيات). ونتيجة للانتعاش الاقتصادي، ازداد لدى الأسرة الاعتماد على العمالة الأجنبية في القيام والمساعدة في أعمال المنزل، وتربية الأبناء، فبدأ يتم إلقاء مسؤوليات أساسية خاصة بالأسرة ومهمة لهذه العمالة والتي أثرت بشكل كبير على مفاهيم النشأة الاجتماعية ولعل الوضع في المجتمع التقليدي كان يعتمد على أعمال الخدمة من قبل الخدم عند بعض الفئات الاجتماعية فقط، بينما في الوضع الحالي انتشرت عند فئات المجتمع المختلفة نتيجة للوفرة المادية التي صاحبت هذه الفترة[٢]، ولعل خروج المرأة للعمل، وتعليمها قد أسهم بشكل

(١) حمد الغنور، الأحوال الشخصية في الشرع الإسلامي، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٩٢، ص ص ١٧ - ٢٨.

(٢) انظر: إبراهيم حليفة، المربيات الأجنبيات في البيت العربي الخليجي: عرض وتحليل لبعض الدراسات الميدانية، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٦.

كبير أيضاً في انتشار هذه الظاهرة حيث تولد فراغاً داخل الأسرة الذي حذا بالكثير بالاعتماد على العمالة الأجنبية للتواجد داخل الأسرة وبالتحديد تربية الأبناء.

ولقد واصل التعليم دوره الأساسي وتأثيره على كيان الأسرة وبنائها في هذه المرحلة. فالمرأة شاركت الرجل التعليم في ظل تساوٍ في الحقوق التعليمية وفق القوانين الصادرة، فانخرطت المرأة بشكل أكبر في التعليم عما كانت عليه في السابق.

وتشير الإحصائيات الخاصة بهذا المجال إلى أن نسبة الحاصلات على الثانوية العامة دون الجامعة من الذكور ٦,٦٪، والإناث ٤,٥٪، أما الحاصلون على درجات جامعية فقد كانت نسبتهم ١,٨٪ من الذكور، والإناث ٠,٨٪[1]. وإلى أن ارتفعت النسبة ووصلت نسبة الإناث التي فاقت نسبة الذكور في بداية الثمانينات. حيث وصلت نسبة الإناث في جامعة الكويت في سنة ١٩٨٢ إلى نسبة ٦٠٪ من إجمالي الطلبة[2]. هذا وقد توجهت الإناث بشكل أكبر للتخصصات الأدبية منها عن العلمية[3].

إن ذلك بلا شك دفع المرأة إلى الاختلاط بالمجتمع الذكوري بشكل أكثر استمرارية مما كان عليه في الفترات الزمنية السابقة

(١) المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٠، نقلاً عن نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٢) رجعب إبراهيم بشير، التغير الاجتماعي والتنمية في دول الخليج العربية، الكويت: منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٧، ص ٢١٩.

(٣) نوره الفلاح، التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط، مرجع سابق، ص ٧٣

خاصة بالتعليم الجامعي. والذي أدى معه إلى حدوث العديد من الصراعات الخاصة والفكرية والتي حلى للبعض أن يسميها صراعات بين التقليد والتجديد في تلك الفترة، ولعل من أبرز ما ظهر من إشكاليات مست العلاقة بين الجنسين هي ما سميت في تلك الفترة «بمعركة الاختلاط». فقد اتخذ مجلس الأمة في جلسته المنعقدة في نهاية الستينات (١٥/٧/١٩٦٧)، بمنع التعليم المختلط في الجامعة[١]، صاحبه العديد من الصراعات الداخلية، والتي أدت إلى حدوث تلك المعركة (معركة الاختلاط) داخل أروقة جامعة الكويت في نوفمبر ١٩٧١[٢]. إن ذلك قد عكس بلا شك تغيراً في العديد من المفاهيم الخاصة بالمرأة، ودورها داخل المجتمع. فنظر البعض بأنها تساوت مع الرجل في الحقوق والواجبات، بينما حددها البعض الآخر في ضرورة عدم خروج ذلك عن الضوابط الشرعية.

إضافة إلى دخولها مجال التعليم بهذا الشكل الكبير، تزايدت نسبتهم في قطاع العمل بصورة واضحة، وتضاعفت نسبة الزواج، والاعتماد على الذات، وارتفاع مستوى دخل الأسرة وغيرها من المظاهر[٣]. فخروج المرأة الكويتية إلى العمل بهذا الشكل كان

---

(١) محمد الرميحي، مدخل لدراسة الواقع والتغير الاجتماعي فيم جتمعات الخليج المعاصرة، مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٧٥، ٢: ٧٧ - ٨٨ ص ٨٦.

(٢) انظر: محمد جواد رضا، معركة الاختلاط في الكويت: دراسة في الفكر الاجتماعي الكويتي، الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٣.

(٣) النساء القيمي في المجتمع الكويتي، الديوان الأميري، مكتب الإنماء الاجتماعي - إدارة البحوث والدراسات، ١٩٩٧، ص ص ١٥٠ - ١٥١.

وراءه دافعاً اقتصادياً أساسياً، إضافة إلى ما يسمى بإرضاء الذات، ووصلت إلى مراحل متساوية مع الرجل وإن كان البعض يرى أنها غير متساوية تماماً وذلك لعدم حصولها على حقها السياسي[١]. فالعمل والتعليم شكّلا ركنين أساسيين في تغير دور المرأة والتي برزت في هذه الفترة بالتحديد، والذي على أثره تغير وضع وشكل وبناء الأسرة الكويتية.

لا شك أن التطورات التي حدثت في هذه الفترة على الأسرة الكويتية كانت جوهرية، وتعد نقلة نوعية هامة أثرت على كيانها، فالتأثير واضح ومباشر على الرخاء الاقتصادي الذي تميزت به هذه الفترة، فالوفرة المادية وما سخرته من إمكانيات وما طرحته من معطيات أسهمت بشكل مباشر على التأثير على دور الأسرة في هذه الفترة الزمنية بالتحديد.

دور الأسرة في التسعينيات والألفية الثالثة:

شهدت مرحلة التسعينيات وما بعدها من المراحل مجموعة من التغيرات الرئيسة على الأسرة الكويتية وذلك نتيجة لوجود العديد من المتغيرات التي أثرت على المنتج المحلي، ولعل من أبرز هذه التأثيرات هي ما تعرضت إليه الكويت من احتلال عراقي غاشم في الثاني من أغسطس من عام ١٩٩٠. إضافة إلى التأثير المباشر وغير المباشر للوسائل الإعلامية المختلفة المتمثلة في الفضائيات وشبكة

(١) دلال الزين، مفهوم العمل عند المرأة، مرجع سابق، ص ص ٧١ - ٧٢.

المعلومات ووسائل الاتصالات التكنولوجية الأخرى والتي لعبت دورها أيضاً على الأسرة نتيجة لسهولة الاتصال الثقافي والتأثر في هذه الفترة الزمنية التي سميت «بعصر المعلومات»، فقد شهدت التكنولوجيا والتطور في مجال المعلومات أوجهاً خلال العقدين الماضيين. فالاحتلال العراقي الغاشم على دولة الكويت، والتواصل الثقافي المتسع وعمليات التحديث والاتصال بثقافة المجتمع الغربي يعتبران من أهم العناصر التي أثرت بشكل مباشر على كيان الأسرة المحلية في المجتمع الحديث.

لعل واحدة من أبرز التغيرات التي أصابت المجتمع الكويتي بعد الاحتلال العراقي الغاشم هو تعرضه إلى ضغوط اجتماعية نفسية، كان لها تأثيرها المباشر على كيان المجتمع بأسره[١] فكانت هذه الضغوط السمة البارزة التي واجهت الأسرة المحلية، والتي لازالت تعاني منها ومن تبعاتها، فقد أحدث الاحتلال العراقي خللاً تنظيمياً في كيان الأسرة، وتعرض أفراد الأسرة إلى ضغوط فردية إضافة إلى انبثاق قيم أسرية جديدة ساعدت على التكيف مع المحنة وتجاوزها[٢]. هذا الاحتلال أحدث نمطاً أسرياً محلياً تفاعل مع الظروف المحيطة

(١) Ali, Yousif and Meyer, Kalherine, Social and Political and Psychological changes in Kuwait: An Aftermath of the Gulf War. Arab Journal for the Humanities, 2000, 70:250 - 269.

(٢) مختار إبراهيم عجوبة، تأثير كارثة الغزو العراقي على الأسرة الكويتية: دراسة استطلاعية لثمان من الأسر الكويتية النازحة إلى المملكة العربية السعودية قبل الحرب البرية، مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٩٤، ٢٢ (٣): ٩٣ - ١٢٢.

أثناء الاحتلال، وخلف تبعات أثرت على كيان الأسرة بعده والتي شكلت مجموعة من الظواهر الاجتماعية والنفسية المصاحبة.

ولقد قامت جهود مضنية على المستوى الرسمي في سبيل إيجاد برامج وخدمات مناسبة لمساعدة الكويتيين للتخلص من الأزمة النفسية والاجتماعية المترتبة على الاحتلال(١)، فقد تعرضت الأسرة الكويتية إلى العديد من هذه المشكلات والتي سعت الدولة جاهدة في إيجاد الوسيلة المناسبة للتخلص من هذه الأعراض، فتم على سبيل المثال إنشاء مكتب الإنماء الاجتماعي بعد الاحتلال مباشرة بمبادرة أميرية حتى يركز نشاطه البحثي والعلمي في اكتشاف الآثار النفسية والتربوية والاجتماعية للعدوان العراقي والسعي لوضع الحلول المناسبة لمواجهتها، وأن يكرس جهوده في إعادة تأهيل الشخصية الكويتية لتمارس دورها في إنماء مجتمعها بثقة واقتدار، إضافة إلى مساعدته للأسر المتضررة من جراء الاحتلال على النحو النفسي والاجتماعي وتهيئة الفرص للأفراد بما يوفر لهم النضج الانفعالي، وإعدادهم لحياة أسرية ناجحة(٢).

إضافة إلى ذلك قامت اللجنة الوطنية للأسرى والمفقودين بدورها بمتابعة أحوال ذوي الأسرى والمفقودين الناتجة عن هذا العدوان.

(١) Gulnac, Edward S., Programs and Services to Assist the People of Kuwait in Healing the Psychological and Social Trauma Created by the Invasion of their Country, International Conference on the Psychological, Social, and Educational Effect of the Iraqi Invasion on Kuwait, From 3 - 6 April, 1993.

(٢) انظر التقديم الخاص في كتاب: البناء القيمي في المجتمع الكويتي، مرجع سابق، ص ص ١٣ - ١٥.

وكذلك استحداث مكتب الشهيد التابع للديوان الأميري في عام ١٩٩١ والذي هدف إلى تخليد الشهداء وترسيخ قيم الشهادة في المجتمع بالإضافة إلى سعي المكتب إلى تقديم الرعاية الاجتماعية المناسبة لأسر الشهداء وذويهم في جوانبها المتعددة. فيقوم المكتب بتقديم الخدمات والاحتياجات والرعاية المادية والصحية والاجتماعية والنفسية والتربوية لأسر الشهداء. فالمكتب بكونه مؤسسة اجتماعية ذات طابع خاص يحاول تحقيق التكيف الاجتماعي ويعتني بشؤون الأسرة تم استحداثه نتيجة لحدوث ظروف العدوان على الكويت مست مجموعة من أسر المجتمع المحلي، ويأخذ المكتب على عاتقه أيضاً، استكمال دوره في رعاية ما سمي بالأسرى الشهداء وهم الأسرى الذين تم التحقق من وفاتهم بعد العثور على رفاتهم.

لم يكن تأثير العدوان على الأسرة من خلال إنشاء هذه المؤسسات فحسب، إنما تعداه إلى التأثيرات المتعددة على كافة فئات المجتمع مؤثراً بشكل مباشر على الأسرة المحلية، فقد أثر العدوان العراقي على السمات الشخصية الخاصة بالشباب في المجتمع المحلي وتولد المخاوف المتعددة والعديد من الآثار النفسية[١]، إضافة إلى التأثير

(١) انظر: على سبيل المثال:

- أحمد عبدالخالق وعويد المشعان، إدراك الآثار النفسية للعدوان العراقي لدى طلاب الجامعة الكويتيين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٤، العدد ٧٤.

- بدر محمد الأنصاري، دراسة عاملية للحالات الانفعالية للشباب الجامعي في الكويت بعد العدوان العراقي، في: البعاد النفسية لآثار الغزو العراقي على دولة الكويت، الكويت: جامعة الكويت - مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٦، ص ص ٨٥ - ١٥٠.

على بعض الخصائص المتعلقة بسلوك الأطفال[1]. فالعدوان العراقي يعد من أكبر الكوارث التي مرت على المجتمع المحلي طوال تاريخه والتي أفرزت العديد من التأثيرات الاجتماعية والنفسية على الأسرة المحلية، والتي تعد لا زالت أعراضها قائمة.

ومن جانب آخر فالأسرة المحلية تواجه مجموعة من الظواهر الحديثة والتي تزايدت بشكل مطرد في السنوات الماضية، ولا زالت تؤثر بشكل أو بآخر عليها. فمن المشكلات أو الظواهر الحديثة والتي تأخذ أبعاداً اجتماعية هامة ولها انعكاسات سلبية على المستقبل هو سوء استخدام التقنيات الحديثة وتأثيره على الوضع الأسري. فقد أشارت أحد الدراسات المحلية على سبيل المثال على وجود العلاقة الطردية بين استخدام شبكة المعلومات

= - بدر محمد الأنصاري، آثار العدوان العراقي على السمات الشخصية لطلاب جامعة الكويت من الجنسين، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة الكويت، الكويت ٢ - ٦ أبريل ١٩٩٤. الكويت: مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٦. ص ص ٥٣ - ٦٨.

- عادل شكري كريم، دراسة مقارنة للمخاوف الشائعة لدى عينة من الطلاب الكويتيين قبل الغزو العراقي وفي أثنائه وبعده، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة الكويت، مرجع سابق، ص ص ١٧٩ - ٢٢٤.

(١) انظر على سبيل المثال:

- راشد سهل، آثار العدوان العراقي على حالة النوم وما يصاحبها من سلوك عند الأطفال، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة الكويت، مرجع سابق، ص ص ٢٢٥ - ٢٥٠.

- فوزية عباس هادي، تأثير العدوان العراقي في الجوانب الانفعالية والمعرفية للأطفال، في الأبعاد النفسية لآثار الغزو العراقي على دولة الكويت، مرجع سابق، ص ص ١٥١ - ١٨٧.

والإنترنت وبين العزلة الاجتماعية وبالتحديد عند فئة الشباب(١). فسوء الاستخدام لهذه التقنية ولَّد إشكالية في العلاقات الاجتماعية داخل نطاق الأسرة المحلية والذي من الممكن أن يتزايد حجمه في ظل التطور التقني المستمر والذي في النهاية بدوره يؤثر على الأسرة وكيانها.

ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي تزايدت باطراد في الآونة الأخيرة هي تلك المتعلقة بالسلوكيات والظواهر السلوكية والأخلاقية المستجدة على المجتمع الكويتي وذلك نتيجة لانفتاح المجتمع الكويتي غير المنضبط على العالم، وعدم انسجام الأفراد مع واقعهم الاجتماعي، والانحراف، والبعد عن الهوية أو غيابها، والتأثر بالمفاهيم الغربية وغيرها من السلوكيات الشاذة على المجتمع المحلي(٢) أن هذه الظواهر بلا شك لها انعكاس واضح على الأسرة، فإن منشأ حدوث مثل هذه السلوكيات الأسرة، إضافة إلى أنها اللبنة الأساسية التي سوف تتأثر من جراء حدوثها، والتي تؤثر في النهاية

---

(١) يعقوب يوسف الكندري، وحمود فهد القشعان، علاقة استخدام الإنترنت بالعزلة الاجتماعية على طلاب جامعة الكويت، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. (دولة الإمارات لعربية المتحدة) ١٧ (١): ١ - ٤٥.

(٢) انظر:

- خالد مذكور المذكور، دراسة آثار الظواهر السلوكية والأخلاقية المستجدة في المجتمع الكويتي، في: محاضرات الموسم الثقافي الخامس بمركز البحوث التربوية والمناهج بعنوان: الظواهر السلوكية والأخلاق المستجدة في المجتمع الكويتي والسمات الشخصية الكويتية المرغوبة الكويت: وزارة التربية - الموسم الثقافي الخامس، ١ - ٣ مارس، ١٩٩٨، ص ص ٧٧ - ١١٤.

على المجتمع بأسره. ففي ظل وجود الاتصال الثقافي غير المقنن، فإن الأسرة وأعضاءها يواجهون تحدياً مباشراً برز بشكل كبير في الآونة الأخيرة.

ولا بد من الإشارة أيضاً هنا وبعجالة إلى العديد من الظواهر التي تعرضت للتغير في بناء الأسرة بشكل أكبر من المراحل السابقة في تطور الأسرة، وهي تلك التي تتعلق على سبيل المثال بالوضع الاجتماعي للأفراد والمتمثل بازدياد نسبة المطلقات والمطلقين والذي تعكسه مؤشرات الطلاق مقارنة بالمراحل السابقة، والتي تعد كأحد أبرز المشكلات الاجتماعية المعاصرة حيث وصلت نسبة الطلاق إلى الزواج ٣٥.٦٪ في عام ١٩٩٩م والتي تشير إلى الارتفاع في الحجم[(١)]. إضافة إلى ذلك تباين المفاهيم الخاصة بالاختيار الزواجي والمعايير المختلفة التي أثر فيها التعليم بشكل مباشر[(٢)] ولعل أحد أبرز مظاهر التغير في عملية الاختيار الزواجي

(١) وزارة العدل، مركز نظم المعلومات، ١٩٩٩، نقلاً عن:
عبدالوهاب الظفيري وعبداللطيف محمد خليفة، وحسني مدي، دراسة ميدانية لأسباب الطلاق الاجتماعية والنفسية في الكويت في مطلع الألفية الثالثة. الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١، ص ٣٣.

(٢) انظر:
- خالد أحمد الشلال، تفضيلات الاختيار الزواجي ومعوقاته في المجتمع الكويتي، حوليات كلية الآداب، الحولية الثامنة عشر، الرسالة ١٢٥، الكويت: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، ١٩٩٨.

- Alqashan, Humoud F., Spouse Preference Among Kuwaities. The Educational Jounal, 1999, 51 (13): 307 - 326.

انتشار الزواج من غير الدائرة القرابية خاصة بين المتعلمين[١].

إضافة إلى تحديد النسل بصورة أكبر كما أشارت إليه دراسة حديثة بينت معدل الأبناء في الأسرة الذي تقلص إلى ٣,٥٨ بعدما كان يبلغ الضعف تقريباً في العقود الماضية[٢]، والذي صاحبه أيضاً تغير وارتفاع معدلات العمر عند الزواج[٣]. فهذه مجموعة من الظواهر التي حدثت داخل الأسرة المحلية وأصابها التغير والتي تميزت عن العقود الماضية.

ولا بد من الإشارة في هذا الجانب إلى تطور آخر خاص بهذه المرحلة، فقد شهدت هذه المرحلة تطوراً ملحوظاً في دور المرأة الكويتية من حيث توليها للوظائف الإشرافية العليا والذي قابله نوعاً من الاتجاه الإيجابي لدى بعض من فئات المجتمع المحلي[٤]. فبعد أن كانت المرأة لا تخرج من المنزل، أصبحت تحتل وتشغل مناصب إشرافية، بل وصلت في التسعينات إلى اعتلاء مناصب قيادية عليا وبمنصب وزير كما هو الحال بالنسبة للدكتورة/ فايزة

---

(١) يعقوب يوسف الكندري، معدلات انتشار زواج الأقارب وعلاقته ببعض المستويات الثقافية في المجتمع الكويتي (تحت النشر) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية. الكويت: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي.

(٢) Al-Kandari, Yagoub, Fertelity and its Relation to some sociocultural variables in Kuwait Society (in press).

(٣) Al-Kandar, Yagoub and poirire, Frank, Modernization and Family Structure in Kuwait. The Educational Journal, 60 (15): 225 - 340.

(٤) علي عسكر ومعصومة أحمد، الاتجاه النفسي نحو تولي المرأة للوظائف الإشرافية بمنظمات العمل المختلفة في المجتمع الكويتي، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت ٢٠٠٣ مجلد ٣١ (٤): ٨٥٧ - ٨٨٠.

الخرافي - مديرة جامعة الكويت، ومنصب وكيل وزارة، إضافة إلى منصب سفيرة، والذي يعد بلا شك تطور هام حدث في تاريخ المرأة الكويتية والتي تعد جزءً أساسياً من أجزاء الأسرة. فالوظيفة اختلفت في شاغلها في ظل وجود تساو في الحقوق والواجبات الخاصة بالعمل.

فهناك تغير وتطور كبير صاحب الأسرة الكويتية من وضعها التقليدي إلى أن وصلت لما عليه الآن، والذي من الممكن إيجازه في التغير الذي حدث في نسق الفئات الاجتماعية والعديد من العادات والتقاليد إضافة إلى ثبات مجموعة منها[1]، فهناك تحول من أسرة ممتدة إلى أسرة نووية أو نواة، والتأخر في سن الزواج، والتغير في دور وسلطة المرأة، والتغير في أنماط الزواج، وفي سلطة الأبناء، إضافة إلى التغير في نوع وطبيعة السلوكيات الاجتماعية، إضافة إلى ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن هناك العديد من المؤسسات الاجتماعية الرسمية المتمثلة بقطاعات ومؤسسات المجتمع المدني أسهمت بشكل كبير في التأثير على دور الأسرة والتدخل المباشر وغير المباشر في شؤونها، فعلى المستوى الرسمي بدأ التطور في استحداث العديد من القطاعات التي تهتم بشؤون الأسرة ومشكلاتها مثل استحداث دور خاصة لرعاية الأحداث، والطفولة، والمعاقين، والمسنين التابع لوزارة

(١) صلاح عطية صبيح، العادات الاجتماعية لدورة الحياة في المجتمع الكويتي. الكويت: مؤسسة الصباح، ١٩٨٠، ص ١٢٦.

الشؤون الاجتماعية والعمل، إضافة إلى استحداث مكتب خاص للاستشارات الأسرية في قصر العدل، واهتمامات بنك التسليف الأسرية والذي يقدم قروضاً خاصة بالزواج والبناء للأسرة وغيرها من هذه المنظمات التي تعنى بشؤون الأسرة، هذا بالإضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني مثل لجنة زكاة العثمان[١]، ولجنة زكاة الشامية والشويخ ولجنة مصابيح الهدى[٢] وغيرها من المؤسسات التي تخدم وتعنى بشؤون الأسرة، فالتغير الاجتماعي الثقافي الذي حدث كنتيجة طبيعية للثروة النفطية قد أسهم بشكل مباشر في إحداث هذا التطور في بناء الأسرة المحلية.

* * *

(١) ، (٢) هذه اللجان موجودة في دولة الكويت.

دور الأسرة العربية في مواجهة الأحداث

الأمر الذي لا شك فيه أن الأسرة ككيان اجتماعي - ثقافي كانت وما زالت الدعامة الأساسية لتماسك المجتمع العربي والإسلامي على مر العصور، فقد قامت الأسرة بأدوار مختلفة شديدة الأهمية في التربية والتنشئة وتكوين الأجيال، لكن أهم تلك الأدوار هو ذلك الدور المحوري الذي قامت به الأسرة كوعاء وحاضنة لحضارة الأمة وثقافتها، فهي كوعاء للقيم والحضارة استطاعت أن تحوي وتحفظ هذه القيم وتنقلها عبر الأجيال، وهي كحاضنة لهذه القيم والحضارة كانت تنمي وتطوّر المفاهيم والأفكار والرؤى التي من خلالها أمكن تطوير الحضارة والثقافة العربية الإسلامية بالدرجة التي حالت دون جمودها، ومن ثم أكسبت الحضارة والثقافة العربية صفتي الأصالة والمعاصرة معاً، وحالت دون نجاح كل محاولات التهميش والتشويه الذي تعرضت له نتيجة الغزو الثقافي الغربي تحت مسميات مختلفة أخذت أحياناً اسم المدنية، وأحياناً أخرى اسم التحديث، ولكنها كانت في واقع الأمر تهدف إلى صبغ الثقافة والحضارة العربية الإسلامية بالصبغة الغربية Westernization.

ومن بين تلك القيم التي حافظت عليها الأسرة العربية ما يعرف بـ «منظومة القيم الوطنية» التي تركز على إعلاء مكانة الوطن والأمة، والحفاظ على الاستقلال والسيادة والكرامة الوطنية، وتثبيت روح

الولاء والتفاني في خدمة الوطن والزود عنه ضد كل محاولات الاعتداء والعدوان من الخارج أو حتى من الداخل، ضد أي دعوة تستهدف النيل من الوطن وعزته وكرامته من خلال نظام للتنشئة الوطنية ظلت تقوم به الأسرة العربية على مرّ الأجيال.

أولًا : الأسرة والتنشئة الوطنية :

تعتبر التنشئة الوطنية محصلة تفاعل وتراكم عمليات التنشئة الاجتماعية والسياسية للفرد، فهي تشمل عمليات إعداد وتكوين شخصية الفرد وتدعيم قدراته بتزويده بالعادات والتقاليد والمفاهيم والقيم الحضارية والثقافية وعوامل التكوين الاجتماعي والوظيفي، بهذا المعنى فإن التنشئة أو التربية الوطنية تعتبر نظاماً اجتماعياً قائماً بذاته نظراً لما تسهم به من تنظيم للسلوكيات الفردية والجماعية وتحديد العلاقات والأنماط السلوكية ومنظومة القيم التي تحكم علاقات الفرد بالجماعة وعلاقاتهما معاً بالمجتمع، فهي من ناحية، وكما يقول عالم الاجتماع هربرت سبنسر تحفظ التراث والقيم وتنظم العلاقات الاجتماعية والسياسية(١)، وهي من ناحية أخرى تستهدف النهوض بالمكانة الوطنية من خلال إمداد الفرد وتغذيته بقيم الولاء وحب التفاني في خدمة الوطن، والارتباط بالعمل التطوعي.

---

(١) د. وحيه بن حمزة هاشم، العلاقة بين التنشئة الوطنية والاستقرار، ندوة «المجتمع والأمن» (الرياض، كلية الملك فهد الأمنية، ٢/٢١ - ١٤٢٥/٢/٢٤هـ)، ص ٨.

وعندما يقوم المجتمع بهيئاته المختلفة ابتداءً من الأسرة والمدرسة والجامعة ومعاهد التعليم والتثقيف المختلفة فإنه يحدد، كما يقول «دوركايم»، القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية التي يريد أن يغرسها في أفراده، وهنا يمكن تحديد وظيفتين لعملية التنشئة الوطنية(١):

الأولى: الوظيفة الاجتماعية، وهي الوظيفة الأساسية للتنشئة والتربية الثقافية للفرد، فالثقافة تتكوّن لدى الفرد من خلال تفاعل الفرد مع الوسط المحيط به ومن خلال الوسط الذي هو طرف مباشر فيه ومتفاعل معه، وهنا تلعب العادات والتقاليد السائدة داخل الأسرة ومنظومة القيم الثقافية والاجتماعية لدى الأسرة دوراً رئيساً في هذه التنشئة التي تكون المركب الثقافي للفرد الذي يتكوّن من القيم والعادات وأنماط السلوك التي تعني الأفكار والمشاعر وأنماط التفاعل مع المواقف المختلفة.

الثانية: الوظيفة النفسية، وهي وظيفة تنميط أو قولبة الفرد ضمن إطار المجتمع الذي يعيش فيه، أي اكتساب الفرد أساليب التفكير والمعرفة وقنوات التعبير عن العواطف والأحاسيس والمشاعر ووسائل إشباع الحاجات الفسيولوجية وهو ما أصبح يدل عليه بمصطلح «التدامج الاجتماعي» أو «التنشئة الاجتماعية»، التي تتحول إلى تنشئة سياسية ثم إلى تنشئة وطنية عندما يكون التخصيص والتركيز حول تلك القيم المتعلقة برؤية الفرد للوطن

(١) د. مصطفى حجازي، ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩٨، ص ٢٤.

الذي يعيش فيه ودوره في التفاعل مع قضايا هذا الوطن.

بهذا المعنى نستطيع القول إن التنشئة الوطنية للفرد تبدأ بتنمية الولاء والانتماء للأسرة من خلال قيم ومفاهيم ومعايير السلوك الشائعة داخل الأسرة التي تعتبر المكان أو النبع الأول الذي يستقى منه الفرد الانتماء الإيجابي للوطن من خلال منظومة القيم والمعتقدات والاتجاهات السائدة داخل الأسرة وفي المقدمة الأم والأب والإخوة ثم باقي أفراد الأسرة الممتدة من الأجداد والأعمام والأخوال وأبنائهم، فهم معاً يشكلون الإطار المرجعي للقيم والمعتقدات والاتجاهات داخل الأسرة أو ما يمكن تسميته بـ «الضمير الوطني».

إن تبني الطفل لقيم ومعايير الوالدين يعتمد على مقدار الدفء والحب اللذين يحاط بهما في علاقته بوالديه، ومن خلال هذه الحقيقة نستطيع أن نرى أن الطفل الذي يتوحد بقوة مع الوالد يكون أسرع بالطبع في تبني المعايير السلوكية لذلك الوالد، كما أن الطفل الذي يتمتع بعلاقة عاطفية دافئة مع الوالدين يكون حريصاً على الاحتفاظ بهذه العلاقة، ويخشى بدون شك من فقدانها. إن الطفل يقلقه، بالطبع، بعض الشيء على الأقل احتمال فقدان العطف والحب اللذين يتمتع بهما مع والديه، ولذلك فهو يحافظ على معاييره السلوكية حتى يقلل من حدة ذلك القلق[١]. ومن هذا

(١) ناصر الشربتلي، كيف ينمو الضمير لدى الطفل وكيف تكون التنشئة؟ www.Balagh. com/woman

يتضح أن نمو الضمير ثم نمو الوعي عند الطفل يفترض أولًا، أن يكون لدى الوالدين ضمير ووعي ومعايير وقيم خلقية ناضجة، كما يفترض أن التزام الطفل بهذه المعايير يتوقف على نمط العلاقة بين الطفل ووالديه، وهذا كله يعني أن منظومة القيم والأخلاقيات والمبادئ المتوفرة في الأسرة ولدى الوالدين بصفة خاصة، ونمط العلاقات القائمة بين أفراد الأسرة وبين الطفل وأفراد أسرته هي التي تخلق منظومة القيم والمبادئ والأخلاقيات لدى الطفل، وهي التي تحكم تنشئته الوطنية.

وهكذا تقوم الأسرة بدور هام في عملية التنشئة الوطنية وبالتالي في تربية المواطنة وخلق روح الولاء وذلك لكونها المحيط الأول الذي ينشأ فيه الطفل ويقضي فيه معظم وقته إن لم يكن كله في أشهره الأولى، فعن طريق الأسرة يبدأ الطفل التعرف على ذاته الاجتماعية، ومنها يستمد وعيه ومنظومته القيمية، كما تعد الأسرة المؤسسة الاجتماعية التي تعني بالتماسك الاجتماعي لكونها مصدراً لتكوين الشخصية والانتماء والهوية الوطنية، ومفرزةً للمُثُل السلوكية والتكيف مع المجتمع من خلال الدور الذي تقوم به في تربية النشء(١).

ومن أهم مسؤوليات الأسرة إعداد الفرد ولاسيما الناشئة نفسياً وجسمياً وعاطفياً واجتماعياً، وذلك بواسطة تغذيته بالأسس السليمة

(١) د. محمد بن معجب الحامد، الشراكة والتنسيق في تربية المواطنة، لقاء قادة العمل التربوي، الباحة، ٢٦ - ٢٨/٢/١٤٢٦هـ.

للحياة والعمل في المجتمع وتزويده بالمهارات والمواقف الأساسية التي يحتاجها للتفاعل مع متطلبات ومحددات الثقافة المجتمعية، وبذلك يستطيع الفرد أن يتعايش في مجتمعه عن طريق كسب الاحترام الاجتماعي له ولإمكاناته، ومن هنا يبدأ في الانتماء إلى بيئته الأوسع وإلى مجتمعه ووطنه من خلال الترابط بين ما اكتسبه في بيئته الأولى وهي الأسرة وبين المكنونات المجتمعية لهويته الدينية والثقافية والاجتماعية المرتبطة بوطنه، ومن ثم يبدأ في التكيف السلس والسهل مع مسؤولياته الوطنية.

ولا يصح للأسرة الاتكال على المدرسة أو على المؤسسات التربوية الأخرى لتوجيه الأبناء وتعويدهم على مقومات المواطنة الصالحة، ومهما يكن أفراد الأسرة منغمسين في أعمالهم وانشغالاتهم، إلا أن ذلك لا يسقط عن كاهلهم تخصيص الوقت الكافي لتنشئة الأبناء التنشئة الصالحة، وعندما يكون لدينا مجتمع تتكامل فيه مسؤوليات الأسرة مع المسؤوليات التربوية للمؤسسات التعليمية وتشترك فيه الأسرة مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى في أخذ زمام المسؤولية في هذا المجال نستطيع بذلك أن نضع الخطوات الصحيحة على درب بناء وطن متقدم وزاهر يعيش ويسعد فيه كل مواطن.

ومن أهم المجالات التي ينبغي للأسرة التركيز عليها لتعزيز تربية المواطنة الصالحة في أطفالها ما يلي[1]:

(١) المرجع السابق.

١ - ربط الطفل بدينه، وتنشئته على التمسك بالقيم الإسلامية، والربط بينها وبين هويته الوطنية، وتوعيته بالمخزون الإسلامي في ثقافة الوطن باعتباره مكوناً أساسياً له.

٢ - تأصيل حب الوطن والانتماء له في نفوس الناشئة في وقت مبكر، ويتم ذلك بتعزيز الشعور بشرف الانتماء للوطن، والعمل من أجل رقيه وتقدمه، والدعوة إلى إعداد النفس للعمل من أجل خدمة الوطن ودفع الضرر عنه، والحفاظ على مكتسباته، والمشاركة الفاعلة في خطط تنميته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

٣ - تعويد الطفل على الطهارة الأخلاقية وصيانة النفس والأهل والوطن من كل الأمراض الاجتماعية والأخلاقية الذميمة، وحثه على التحلي بأخلاقيات المسلم الواعي بأمور دينه ودنياه.

٤ - تعزيز الثقافة الوطنية بنقل المفاهيم الوطنية للطفل، وبث الوعي فيه بتاريخ وطنه وإنجازاته، وتثقيفه بالأهمية الجغرافية والاقتصادية للوطن.

٥ - العمل على إدراك الطفل للمعاني التي يرمز لها العلم، والنشيد الوطني، واحترام قادة وولاة أمر الوطن.

٦ - تعويد الطفل على احترام الأنظمة التي تنظم شؤون الوطن وتحافظ على حقوق المواطنين وتسير شؤونهم، وتنشئة الطفل على حب التقيد بالنظام والعمل به.

٧ - تهذيب سلوك وأخلاق الطفل، وتربيته على حب الآخرين

والإحسان لهم، وعلى الأخوة بين المواطنين، وحب السعي من أجل قضاء حاجات المواطنين لوجه الله تعالى والعمل من أجل متابعة مصالحهم وحل مشكلاتهم ما أمكن ذلك.

٨ - تعويد الطفل على حب العمل المشترك، وحب الإنفاق على المحتاجين، وحب التفاهم والتعاون والتكافل والألفة بين كافة المستويات الاقتصادية في الوطن.

٩ - تعزيز حب الوحدة الوطنية في نفس الناشئة، وحب كل فئات المجتمع بمختلف انتماءاتهم، والابتعاد عن كل الإفرازات الفئوية والعرقية والطائفية الممقوتة، مع التأكيد على الفرق بين الاختلاف المذهبي المحمود وبين التعصب الطائفي المذموم.

١٠ - نشر حب المناسبات الوطنية الهادفة، والمشاركة فيها والتفاعل معها، والمشاركة في نشاطات المؤسسات الأهلية وإسهاماتها في خدمة المجتمع بالمشاركة في الأسابيع التي تدل على تعاون المجتمع، كأسبوع الشجرة وأسبوع المرور، وأسبوع العناية بالمساجد وغيرها.

١١ - تعزيز حب التعاون مع أجهزة الدولة على الخير والصلاح، مع التأكيد على الابتعاد عن كل ما يخالف الأنظمة من سلوكيات غير وطنية، ومفاسد إدارية ومالية ومقارعتها والسعي للقضاء عليها.

١٢ - تعزيز حب الدفاع عن الوطن ضد كل معتدٍ عليه، والدفاع عنه بالقلم واللسان والسلاح.

١٣- العطف على المواطنين الضعفاء والمعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، وغرس روح المبادلة للأعمال الخيرية.

١٤- غرس حب العمل التطوعي، وحب الانخراط في المؤسسات الأهلية الخادمة للوطن.

ومن الوسائل المعينة للوالدين للتمكن من القيام بهذه الأدوار مع أطفالهم ما يلي[1]:

١ - اغتنام كل فرصة للحديث المباشر مع الأبناء حول مقومات المواطنة الصالحة.

٢ - ترديد الأناشيد التي تدعو إلى فعل الخيرات والسعي لخدمة الوطن.

٣ - تزويد مكتبة المنزل بكتب وأدبيات وأشرطة صوتية تحتوي على المفاهيم المعززة للمواطنة الصالحة.

٤ - المشاركة مع الأبناء في رسم صور حول منجزات الوطن، ولصقها على جدران غرفهم.

٥ - قص القصص المحفزة عن حب الوطن والموجهة لشخصية الطفل باتجاه المواطنة الصالحة.

٦ - التعريف بالوطن تاريخه وجغرافيته وبيان أهميته العالمية.

---

(١) المرجع السابق

٧ - التعريف بصروح الوطن بأخذ الأبناء في جولات تشمل المواقع التاريخية والتراثية والمتاحف في البلاد، مع سرد قصة كل موقع منها.

٨ - تنشئة الأبناء على العادات الإيجابية للمواطن المخلص لوطنه واحترام قواعد وأنظمة الأمن، والسلامة، والمرور، وأن يبينوا لهم بالأمثلة والشواهد المقربة إلى عقولهم بأن هذه الأنظمة والقوانين إنما وضعت للحفاظ على مصالحنا وحقوقنا ولتسيير شؤوننا الحياتية.

٩ - تعريف الأبناء والأحفاد بالرموز الدينية والوطنية الذين طالما خدموا الوطن في الماضي في المجالات العلمية والدينية والاجتماعية وغيرها.

١٠- إشراك الأبناء في الزيارات الاجتماعية التي يقوم بها الوالدان لأفراد المجتمع بجميع فئاته، وتعويدهم على مشاركة الآخرين أفراحهم وأحزانهم.

١١- لكن من أهم هذه الأدوار تنمية حب العمل التطوعي والمشاركة التطوعية لدى الأطفال فهذه المشاركة التطوعية هي أهم مداخل تأهيل النشء للعمل الوطني العام، للعطاء للوطن وتنمية الولاء له، بل هي أحد مؤشرات الولاء ذاته.

فالمشاركة التطوعية هي الجهد الذي يبذله الفرد - بلا مقابل - لمجتمعه بدافع منه للإسهام في تحمل مسؤوليات المؤسسات

الاجتماعية التي تعمل على التقدم والرفاهية الإنسانية، وهي أيضاً الجهد الذي يبذل عن رغبة واختيار بغرض أداء واجب اجتماعي، ومن ثم فهي الترجمة الطبيعية لتفهم مشكلات الجماهير ومطالبها، فالتطوع يعتبر وسيلة اجتماعية، يتم من خلالها تحقيق مطالب اجتماعية معينة تفيد المجتمع وتسهم في تطوره وارتقائه، وهي سلوكيات إرادية لتحقيق أهداف إنسانية ومجتمعية ووطنية مشتركة[١].

وتتجلى أهمية المشاركة التطوعية في فترات الأزمات الوطنية، مثل العدوان الخارجي حيث يكون التطوع في المقاومة الشعبية أحد أهم مؤشرات هذه المشاركة، ويكون الانخراط في الجهود الوطنية الأخرى لحماية الجبهة الداخلية وتلبية احتياجات المواطنين مطلباً أساسياً لدعم جهود المقاومة.

ولقد أثبتت الجماهير العربية في مناسبات كثيرة قدرة عالية في المشاركة التطوعية، مثل المقاومة الشعبية للعدوان الثلاثي في مصر عام ١٩٥٦، والمقاومة الوطنية للاحتلال البريطاني في مدن القناة قبل ثورة ١٩٥٢ وبعدها لحين إتمام الجلاء، وظهر ذلك واضحاً أيضاً في الانخراط في المقاومة الشعبية أثناء عدوان يونيو ١٩٦٧، وفي منطقة سيناء عقب الاحتلال، وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣. وأظهرت الجماهير العربية أدواراً مماثلة في حرب التحرير

(١) محمد عبدالعظيم، البعد السيكولوجي في عملية التطوع لدى الأطفال ٦ - ١٢. (المحددات والفوائد)، مجلة الطفولة والتنمية (القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية، العدد ١٠، المجلد ٣، صيف ٢٠٠٣)، ص ١٥٤ - ١٥٥.

الجزائرية، وفي حرب تحرير المغرب العربي المحتل، وأثناء الاحتلال العراقي للكويت، لكن انخراط الشعب الفلسطيني في منظمات المقاومة الفلسطينية على مدى سنوات الثورة الفلسطينية وفي انتفاضة ١٩٨٧ ثم انتفاضة الأقصى أكبر دليل على حيوية المجتمع العربي وقدرته على تعبئة المواطنين في العمل العام الذي يعد مقياساً مهماً للولاء الوطني وتعبيراً عن التنشئة الوطنية التي تربى عليها الأفراد في مجتمعاتهم وبالذات داخل الأسرة العربية.

ثانياً: التحديات التي تواجه دور الأسرة في التنشئة الوطنية:

مجمل تلك الأدوار التي تقوم بها الأسرة في التنشئة الوطنية تتم عادة في ظروف غير مواتية لأسباب كثيرة، لكن هذه الظروف باتت تمثل تحديات خطيرة، وبالذات في السنوات الأخيرة، بعضها يخص التطورات التي لحقت بنظام الأسرة ذاته، وبعضها الآخر يرجع إلى التطورات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها الآن المجتمعات العربية والإسلامية، ناهيك عن تفاقم التحديات الخارجية التي تواجه الثقافة والحضارة الغربية في ظل دعوة العولمة وبالذات طرح العولمة كأيديولوجية غربية بديلة للثقافات والحضارات الأخرى في العالم وفي مقدمتها الثقافة والحضارة العربية والإسلامية.

١ - التحديات الناتجة عن التطورات التي لحقت بنظام الأسرة العربية:

شهد نظام الأسرة في أغلب المجتمعات العربية العديد من

التحديات الناتجة عن زيادة حدة الانتقال من المجتمعات الريفية إلى المجتمعات المدنية، وزيادة معدلات التمدن فيما يتعلق بأنماط السكن والحياة الأسرية، وبسبب التحولات في نظام الحياة الاجتماعية التي لها علاقة بسوق العمل.. من أهم هذه التحديات ما يلي:

أ - تراجع مكانة الأسرة الممتدة لصالح شيوع الأسرة النووية:

الأسرة الممتدة كما تعرف في علم الاجتماع هي العائلة بمفهومها الواسع التي تشمل الجدود والجدات والأعمام والعمات وأبنائهم حيث يعيشون معاً «تحت سقف واحد»، وحياة اجتماعية واقتصادية واحدة، تقوم على التكافل الاجتماعي، لقد شاع هذا النمط من الحياة الأسرية وقت أن كانت العائلات تعتبر وحدات اقتصادية مكتفية ذاتياً نسبياً حيث كان كل فرد يساهم بقسطه مع الآخرين كمنتجين وكمزودين لغذائهم ولباسهم ومسكنهم والضروريات الأخرى للحياة(١).

في ظل هذا النمط من الحياة كان التكافل والاعتماد المتبادل هو القاعدة الحاكمة للعلاقات الأسرية، وعلى نحو ما كانت تلك الأسر تكفل أسباب الحياة لأفرادها وتعين على نوائب الدهر، وتعول الأبناء الذين يتعرضون لوفاة أحد الأبوين، فإنها كانت توفر أيضاً سبل الرعاية والتنشئة للأجيال المختلفة داخل إطار الأسرة، لم يكن الأبناء في

(١) وليم سايرس، «فما هي الأسرة على أي حال»، ترجمة محمود الزوادي، شؤون اجتماعية، (الشارقة، العدد ٣١، السنة ٨، خريف ١٩٩١م)، ٢٠٠١.

حاجة إلى رعاية أو تربية من وسيط آخر خارج نطاق الأسرة الكبيرة في حالة غياب أحد الأبوين لأي سبب من الأسباب، سواء كان الوفاة، أو الانشغال بالعمل خارج منزل العائلة، دائماً كان هناك من يقومون بالمهمة من داخل العائلة ضمن سياق ثقافي وتربوي متوارث ظل محكوماً بالقيم والأخلاقيات العربية والإسلامية.

هذا النوع من الأسر تراجع بدرجة كبيرة مع تغير نمط العلاقات الإنتاجية في الريف لصالح الملكيات الصغيرة، ومع الهجرة الواسعة من الريف إلى المدن للتوسع في التعليم وانتشار المدنية حيث أصبحت الأسرة النووية التي تقتصر على الأب والأم والأبناء هي النمط الشائع الآن[(١)]، وفاقم خروج الأم للعمل من سلبيات هذا التحول من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية، حيث اضطرت تلك الأسرة إلى الاعتماد على آخرين من خارجها للمساعدة في التربية، ومن ثم في التنشئة للأبناء سواء كان هؤلاء الآخرين هم المربيات المنحدرات من البلدة نفسها أو من بلدان أخرى أجنبية (المربية الآسيوية انتشرت بكثافة في معظم الدول العربية وخاصة الخليجية)، بما يحمله هذا كله من دخول ثقافات ومفاهيم وقيم أخرى بديلة منافسة، أو كانت دور الحضانة حيث يجد الطفل نفسه أمام مجالات أخرى منافسة للوالدين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

ب - شيوع نمط الأسرة ذات العائل الواحد:

فمع شيوع الأسرة النووية وغياب نمط العلاقات الأسرية الذي كان شائعاً في الأسرة الممتدة، ومع خروج الأم للعمل وزيادة الأعباء على نفسها بعيداً عن الاعتماد الكامل على الزوج في تأمين سبل الحياة، تفاقمت ظاهرة الطلاق، حيث يضطر الأبناء إلى العيش مع أحد الوالدين بعيداً عن الآخر، الأمر الذي يفرض، في أغلب الأحيان، اللجوء إلى مساعدين آخرين في عملية التربية (المربية، الخادمة، دور الحضانة المبكرة).

هذه الظاهرة، أي ظاهرة الأسرة ذات العائل الواحد، ارتفعت حدتها في كثير من المجتمعات العربية المصدرة للعمالة، حيث ذهب الزوج على الأغلب، والزوجة في بعض الأحيان للعمل في إحدى الدول العربية المستوردة للعمالة، الأمر الذي فرض على الأبناء أن يعيشوا تحت رعاية العائل الواحد.

٢ - التحديات الناتجة عن التطورات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية:

شهدت المجتمعات العربية في العقود الأخيرة العديد من التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وبالذات في نمط العلاقات الاقتصادية وأنماط الإنتاج والتعليم، ومن ثم ارتفاع مستويات المعيشة، والقدرة على امتلاك أدوات الرفاه الاجتماعي والرغبة في الانفتاح على الثقافات الأخرى من خلال التطور الهائل في وسائل الإعلام والمعرفة الناتجة عن ثورة المعلومات

والاتصالات التي ساهمت في انتشار الفضائيات وفرضت الأجواء المفتوحة أمام كل أنواع الرقابة الحكومية أو الأسرية.

هذه التطورات خلقت منافسين جدد للأسرة في عملية التربية والتنشئة وبالذات من وسائل الإعلام المحلية والأجنبية وما تحمله من منظومات قيمية ومفاهيمية تختلف مع كثير من القيم والمفاهيم والأخلاقيات العربية والإسلامية، وزادت خطورة القدرة التنافسية لهذه الوسائل الجديدة بسبب حالة السيولة التي تعيشها الأسرة العربية، بانتشار الأسرة النووية، وغياب أحد الأبوين قسراً أو اختياراً، وشيوع المربية أو الخادمة الآسيوية، ووجود الأب والأم لساعات طويلة خارج منزل الأسرة في العمل أو في مجالات النشاط الثقافي والاجتماعي العام، الأمر الذي أعطى للأبناء هامشاً واسعاً من الاختيار بين القيم والمفاهيم وكثيراً ما يكون هذا الاختيار في غير صالح القيم والمفاهيم العربية والإسلامية، لغياب أو لمحدودية دور الرقابة الأسرية، ولتمشي ما تحمله تلك المفاهيم والقيم الأخرى من إغراءات مع المرحلة العمرية للشباب.

هذه التحديات تفاقمت في السنوات الأخيرة بفعل عاملين جديدين: **أولهما**: تراجع دور المدارس الحكومية لصالح أنواع أخرى من المدارس والجامعات الخاصة والمدارس والجامعات الأجنبية. **وثانيهما**: الضغوط الأجنبية في سنوات ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من أجل إجراء تغييرات جذرية من مناهج التعليم تتركز حول الحد من التعليم الديني أو التنشئة الإسلامية.

هذان العاملان يهددان التنشئة الوطنية للطلاب ويهددان اللغة العربية لصالح مفاهيم أخرى عولمية ولصالح اللغات الأجنبية، الأمر الذي يضاعف من أهمية دور الأسرة في وقت بدأ يتراجع فيه هذا الدور لأسباب سبق الحديث عنها.

ثالثاً: مواجهة التحديات:

هذه التحديات تتهدد دور الأسرة العربية من منظورين: **الأول**: هو منافسة الأسرة في دورها الأساسي في التنشئة الوطنية وطغيان دورها على دور الأسرة. **والثاني**: هو تلك القيم والمبادئ والأفكار البديلة التي تطرحها تلك العوامل المنافسة للأسرة العربية ودورها في التنشئة الوطنية، ومواجهة هذه التحديات يجب أن تكون على أساس من هذين المنظورين، أي من خلال استعادة مكانة الأسرة في التنشئة ومن خلال التصدي لتلك القيم البديلة والدفاع عن القيم والأفكار والمبادئ، التي تعبّر عن الثقافة والحضارة العربية الإسلامية التي ظلت الأسرة العربية تمثل وعاءها الأمثل.

لقد افتقدت الأسرة العربية أهم أدوارها ووظائفها في مواجهة التحولات الاجتماعية والاقتصادية لثلاثة أسباب هي قوة وعنف المنافسة التي تقوم بها مؤسسات أخرى منافسة للأسرة في عملية التنشئة الوطنية (الإعلام، الفضائيات، التعليم الأجنبي) والتحولات التي ألمّت بالأسرة العربية الإسلامية وتحولها من إطار الأسرة الممتدة إلى إطار الأسرة النووية، والتفكك الذي يواجه تلك الأسرة النووية بسبب انهيار سلطة رب الأسرة ورقابته على أبناءه والغياب

الوظيفي لدور الأب، وتعاظم أدوار ووظائف الأم في الأسرة، وضعف العلاقات الاجتماعية وتصدعها في وقت سادت فيه القيم الفردية وتنامت فيه ظاهرة العنف داخل الأسرة[١].

ومع دخول الانترنت والفضائيات وغيرها من وسائل الإعلام الحديثة إلى غرف وحياة الأطفال والشباب مباشرة حاملة إليهم أشكالاً وألواناً مختلفة باهرة ومتناقضة مع مقومات ومكونات التنشئة العربية والإسلامية التي تقدمها الأسرة متمثلة في الوالدين، وكذلك المجتمع بمؤسساته وهيئاته المعنية بقضايا التنشئة كالمدرسة والجامعة والمراكز الدينية والاجتماعية والثقافية، أصبحت عملية التنشئة معقدة ومرتبكة ومزدوجة المرجعية، حيث إن معظم ما تقدمه الوسائل والقنوات والشبكات المعولمة من برامج ومعلومات تنمي قيم الاستهلاك وخلق احتياجات وهمية[٢]، وتنمي القيم الفردية والمصالح الذاتية على حساب قيم العمل الجماعي والتطوعي والولاء للوطن، مما يؤدي إلى خلق صدام بين الطفل أو الشاب وأسرته أولاً ومجتمعه القريب ثانياً ووطنه ثالثاً.

هذه التحديات تضاعف من مسؤولية الأسرة في النهوض بكفاءتها، أي أن تكون قادرة على مناقشة كل تلك التحديات وكل تلك العوامل المنافسة لدورها في التنشئة، ولن يتم ذلك إلا من

---

(١) كوثر الحولي، «يوم الأسرة العربية والبحث عن الهوية الغائبة». /www.islamonline.net Arabic

(٢) المرجع السابق.

خلال النهوض بالثقافة والوعي لدى الوالدين، واستعادة روح التلاحم والتماسك الأسرية بين الأب والأم والأبناء، وعودة الوالدين إلى القيام بأدوارهما في التنشئة الوطنية للأبناء حماية للأبناء وحماية للأوطان.

* * *

دور الأسرة الكويتية
أثناء العدوان على الكويت

لعبت الأسرة المحلية أدواراً مختلفة خلال الفترات التاريخية التي مرت على دولة الكويت منذ نشأتها، فقد كان للأسرة المحلية في فترة ما قبل اكتشاف البترول دوراً مختلفاً عن الدور الذي تقوم فيه وتلعبه بعد الانتعاش الاقتصادي والذي مر بالمنطقة بشكل خاص، ولعل من أبرز القضايا الخصوصية التي مرت بها الأسرة الكويتية وتأثرت معها والتي تختلف عن دول المنطقة هو دورها أبان فترة عدوان النظام العراقي السابق على دولة الكويت خلال الفترة من ٢ أغسطس ١٩٩٠م إلى السادس والعشرين من فبراير من سنة ١٩٩١م، فقد مرت الكويت بشكل عام بمرحلة استثنائية ومرحلة هامة خلال هذه الفترة أثرت على البناء الاجتماعي العام للمجتمع الكويتي وعلى البناء الخاص بالأسرة.

فقد أحدث العدوان على الكويت خللاً تنظيمياً على البناء الاجتماعي وعلى بناء الأسرة بشكل خاص، فقد أصيبت الأسرة الكويتية بهذا الخلل وقام أفرادها بدور مميز لإعادة تماسكها وتآزرها، وفي المقابل عملت الأسرة على تقديم ما استطاعت

لأفرادها[1]، فالأسرة والدور الذي لعبته خلال هذه الفترة فرضته الأوضاع السائدة وحمل معه كثيراً من التغيرات والتحولات الخاصة التي تناسبت بشكل مباشر مع هذه المرحلة الزمنية، فالأدوار والعلاقات الاجتماعية السائدة وطبيعة التواصل والتفاعل مع أفراد الأسرة مع المجتمع الخارجي تماشى مع الظروف السائدة والتي تميزت بوجود نظام حاول إلغاء الشرعية، واستخدم كافة أنواع التعذيب والتنكيل والاضطهاد لأفراد المجتمع المحلي، وحاول معه أيضاً مسح الهوية الوطنية ومؤسسات الدولة المختلفة الرسمية وغير الرسمية في سبيل دمج قسري للمجتمع باختلاف قطاعاته ومؤسساته في كينونة وثقافة المجتمع الغازي المحتل، ففي ظل مثل هذه الأحداث تفاعلت الأسرة الكويتية مع هذه الأوضاع وتولدت مجموعة من الأدوار والعلاقات والسلوكيات التي تناسبت مع هذه الحقبة الزمنية الهامة من حياة المجتمع المحلي.

ولعلنا هنا لا نحاول أن نسلط الضوء على أساليب التنكيل والتعذيب التي تعرض لها المجتمع الكويتي، إنما تسليط الضوء على دور الأسرة المحلية في مواجهة هذا العدوان ودورها خلال هذه المرحلة والتي تعتبر مرحلة حاسمة وهامة في حياة الأفراد داخل المحتمع المحلي في ظل غياب مؤسسة الدولة عن مؤسساتها بالدخل.

(١) مختار إبراهيم عجوبة، تأثير كارثة الغزو العراقي على الأسرة الكويتية: دراسة استطلاعية لثمان من الأسر الكويتية النازحة إلى المملكة العربية السعودية قبل الحرب البرية، مجلة العلوم الاجتماعية، ٢٢ (٣): ٩٣ - ١٢٢، ص ٩٣.

تحول المسؤولية الاجتماعية من الخارج إلى الداخل والعلاقة بالشرعية :

ظلت الحكومة الكويتية في المنفى، وظل المواطنون منقسمين بين مرابطين في الداخل ونازحين للخارج. ولقد لجأت العديد من الأسر المحلية إلى الصمود وعدم مغادرة الكويت بينما ظل العديد من هذه الأسر في الخارج قبل الاحتلال أو حتى بعده عندما بدأ العديد من الأُسر بمغادرة الكويت خوفاً من بطش النظام العراقي في تلك الفترة، ولقد خضعت الأسر في المنفى تحت النظم والقوانين الخاصة بالدول التي لجأت إليها، إضافة إلى الإدارة المحلية في الخارج والتي عملت على سد الاحتياجات الخاصة بالمواطنين هناك. «فقد أسهمت بدعم اللجان التي تشكلت لرعاية المواطنين في كافة أماكن وجودهم وأمنت لهم ولأسرهم أسباب الرعاية الاجتماعية»[1]. وفي المقابل ظلت الإدارة الحكومية تراقب الأوضاع وتتواصل بعدة طرق مع الأوضاع في الداخل حسب الإمكانات، وفي ظل مخاوف وقيود وتعطيل لمؤسساتها المتعددة في الداخل، فقد تحملت الأسرة الكويتية عناء غياب السلطة الشرعية بمؤسساتها المختلفة، ونفوذها، وأدوارها التي كانت تؤديها إلى أفراد المجتمع. فما كان عليها - أي الأسرة المحلية - إلا أن تقوم بالأدورا الاجتماعية المتعددة في ظل غياب نظام مؤسسي تابع للدولة. فالأدوار الاجتماعية اختلفت، وطبيعة العلاقات الاجتماعية

(١) مريم عبدالكريم العوصي، العدوان العراقي على الكويت: الحقيقة والمأساة، ط ٤، الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٠، ص ٩٧.

السائدة تناسبت مع الظروف المحيطة في ظل غياب مؤسسات الدولة التي رفض المجتمع الكويتي بأسره الانخراط والتفاعل والتعامل مع المؤسسات العراقية إلا في إطار الحدود التي فُرضت عليهم، فما كان من هذه الأسر إلا أن كيّفت وضعها الاجتماعي لسد احتياجاتها في نظام تكافلي في ظل الظروف الراهنة.

فالكويتيون أدركوا اختفاء المؤسسات التابعة للدولة في كافة المجالات ومن ثم على المواطن إيجاد البدائل العملية لاستمرار وجوده، ولقد أكدت النشرات في ظل غياب الإعلام الرسمي على أهمية اللجان الشعبية بعدما انهارت مؤسسات الدولة تماماً والبدء بملأ الفراغ الذي سببه غيابها، الأمر الذي دعا المواطن بالتفكير عمن سيقدم له الخدمات الطبية، والتموينية، ومن سيقوم بالحماية، والتنظيف وغيرها من الأعمال [1]، فالأسرة وفقاً لذلك وجدت نفسها مسؤولة مسؤولية تامة عن إدارة ذاتها، فلم تملك الحكومة في المنفى القدرة على إدارة مؤسساتها الواقعة تحت الاحتلال، ولكن أبناء الشعب الكويتي أدركوا إن إدارة هذه المؤسسات والخدماتية منها بالتحديد هي مسؤولية تقع على عاتقهم في ظل توجيه ومراقبة خارجية للأوضاع الداخلية، فتحولت المسؤولية الاجتماعية للأسرة في ظل الظروف الراهنة في تشابك بنائها الاجتماعي مع قطاعات المجتمع المختلفة عاملة في تناغم وانسجام معها.

(١) محمد عبدالله المطوع، التلاحم الاجتماعي في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي، مجلة العلوم الاجتماعية، ٢٣ (٣): ٩٩ - ١٢١، ص ص ١١١ - ١١٢.

فالنظرة للعمل والدور الاجتماعي لأفراد الأسرة أصبحت مختلفاً وذلك لما فرضه الواقع الجديد وما تماشى مع الظروف الراهنة، ولعل من أهم ما فرضته القيم الجديدة للمجتمع المحلي في تلك الفترة والمتعلقة بالعمل هو احترام ما سُميَ بالعمل اليدوي، إضافة إلى إدراك لقيمة العمل وأهميته وبالتالي الإنتاج، وهما تلك القيمتان المرتبطان ببعضهما في سبيل استمرار الحياة[1]. ومن الممكن تشبيهها بصورة قريبة من قيم العمل الموجودة لدى الأسرة المحلية قبل الثروة النفطية وفي كويت ما قبل اكتشاف البترول، فانخرط العديد من الكويتيين وبالتحديد الشباب منهم إلى الأعمال اليدوية، «فقد انخرط هذا الشباب في العمل التطوعي في مجال تقديم العون بمختلف أشكاله.. فقاموا بإدارة الجمعيات التعاونية، وتوزيع المواد الغذائية وإيصالها للمنازل وكذلك فتح ورش لإصلاح السيارات، ومحلات الحلاقة، والبقالات، وأيضاً قاموا بتنظيف الشوارع، وإصلاح الأعطال الطارئة في مجالات الكهرباء والماء، وإيصال المياه إلى المنازل بعد حدوث أزمة المياه وصعوبة الحصول على مياه صالحة للشرب»[2]. إضافة إلى العديد من الأعمال والمهن الحرفية واليدوية التي لم تكن من المهن المتعارف على أن يؤديها الكويتيون في ظل وجود عمالة وافدة كانت تقوم بمثل هذه الأعمال.

(١) المرجع نفسه، ص ١١١.
(٢) عازي لحلف، انتصار الإرادة الكويتية، ط ١، الكويت، مكتبة الحكمة، ١٩٩١، ص ٨٩.

فلم تكن هذه الأعمال محبذة في ظل إطار القيم الاجتماعية للفرد التي يستمدها في تنشئته الاجتماعية، فالقيم الاجتماعية والتي تعتبر الأسرة وسيطا لنقلها إلى أفرادها تنبذ العمل اليدوي وتجعله من الأعمال الدونية في النظرة الاجتماعية رغم أهميته للعملية التنموية، ولقد كان ذلك الحال قبل حدوث العدوان الغاشم، وخاصة لدى الأبناء من الشباب والتي كانت الثروة والثراء عنصراً أساسياً في ترفه - إن صحّت التسمية - ونبذه لهذه الأعمال. فالظروف المحيطة أفرزت وجددت قيماً اجتماعياً خاصة بالعمل تحث عليه وتعزز من قيم الإنتاج بدلًا من الاستهلاك، فأفراد الأسرة يفترض أن تؤدوا بعض المهام الاجتماعية في ظل غياب مؤسسات الدولة التي رعت من يقوم بأداء هذه الأعمال.

ولم تكتف المسؤولية الاجتماعية لأبناء الشعب الكويتي عند هذه الأدوار الحرفية فحسب، بل امتدت لتشمل المؤسسات الرسمية الأخرى والمتمثلة بالمؤسسة الصحية، فالأسرة بكافة أركانها أصبحت مؤسسة صحية في كثير من الأوقات، ففي ظل ضعف الرعاية الصحية والخوف من إدارة المحتل، لجأ الكثير من الأطباء إلى تقديم العلاجات المناسبة داخل منازلهم أو الذهاب إلى الأسر التي تتعرض إلى الإصابة بالأمراض بكافة أشكالها ولا سيما تلك التي ترتبط بشكل من أشكال المقاومة.

فالعديد من الأطباء يقوم بعلاج الأهالي في منازلهم في الخفاء وتوفير الحقن اللازمة لتطعيم الأطفال وتوفير الأدوية، وقد

خصصت على سبيل المثال إحدى الطبيبات الكويتيات المتخصصات في أمراض النساء والولادة جزءاً من منزلها لعلاج النساء، وقام آخرون بعلاج شباب المقاومة المسلحة بدلاً من العلاج بالمستشفيات والذي أدى إلى تعرض حياتهم للخطر[١].

إضافة إلى ذلك، فقد كان العديد من الأطباء يديرون المستشفيات من بيوتهم بعدما صدر قرار نقلهم إلى العراق ورفضهم لهذا الأمر[٢]، فشغل منزل الأسرة مقراً للأعمال الصحية والطبية وتداخلت الأدوار الاجتماعية فيه، فهناك من يقوم بعملية التطبيب، وهناك من يؤدي دور المراقبة، وهناك من ينقل المصابين، ويوفر الاحتياجات والمستلزمات الخاصة وغيرها من الأدوار والمهام المتعددة التي تحتاجها العملية الطبية في ظل الظروف السائدة.

والمسؤولية الاجتماعية تحولت أيضاً إلى قطاعات أخرى كانت تشرف عليها الدولة مثل المؤسسة الإعلامية من خلال عمل قطاع كبير من الشباب في إصدار نشرات في الداخل منذ اليوم الأول للاجتياح والتي كانت موزعة في مناطق الكويت المختلفة، فصدرت مثلًا نشرة الصباح، وصوت الحق، والصمود الشعبي، وأحرار الكويت، والقبس، وأبناء جابر وغيرها من النشرات[٣]. إضافة إلى الأعمال الخاصة بالتمويل وتوزيع المواد الغذائية

---

(١) علي محمد الدمخي، كويتي تحت الاحتلال، ط ٣، دبي، مطبعة دبي، ص ١٩٨.

(٢) انظر مقابلة مع الدكتور سليمان العلي: صلاح محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي: سور الكويت الرابع، ط ١، ج ٣، الكويت، المؤلف، ص ٤١١.

(٣) عويد المشعان، العدوان العراقي والآثار النفسية والمادية على المواطن الكويتي، ط ١، (د. م)، مؤسسة العلم الحديث، ١٩٩٣، ص ٢١٣.

والتموينية والعمل التطوعي في الجمعيات، فقد كان العمل التطوعي العمود الفقري للتعاون وتقديم الخدمات أثناء الاحتلال، وكان جميع القادرين من الشباب والكهول يتسابقون إلى سد الثغرات في مختلف مجالاته، إلى درجة أن المتطوعين يشكلون أكثر من ٩٥٪ في بعض الجمعيات[١]، ولعبت بعض الأسر دوراً هاماً في العمل التطوعي وخاصة التعاوني، فبدأت تفتح منازلها وافتتحت ديوانيات خاصة بالعمل التعاوني، حيث قامت عمليات البيع والشراء والإعداد للصفقات التي تتم ضمن هذه الديوانيات التابعة لأسر محددة[٢]. هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى متعددة قام بها مجموعة من الكويتيين أثناء تلك الفترة مثل قيام بعض المتطوعين والمتطوعات بتولي أمور المعاقين والمسنين وضعاف العقول المقيمين في دور الرعاية الاجتماعية التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل[٣]، فقد تولت العديد من الأسر الكويتية رعايتهم في ظل غياب المؤسسة الحكومية وتردي أوضاع هذه الدور.

ولم يكتف دور الأسرة بالعمل التطوعي فحسب، فمن مسؤولياتها

(١) محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، ج ٣، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٢) انظر: يعقوب يوسف الكندري، الديوانية الكويتية: دورها الاجتماعي والسياسي، الكويت، دار البلاغ، ص ص ١١٩ - ١٣٨.

(٣) انظر:
- السجل الأسود: روايات شهود العيان لمجازر صدام حسين في الكويت، القاهرة، المركز الإعلامي الكويتي، ص ٧٩.
- محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي: الممارسات والوقائع من شاهد عيان، في الغزو العراقي للكويت: المقدمات - الوقائع وردود الفعل - التداعيات، ندوة بحثية، الكويت، عالم المعرفة، عدد ١٩٥، ص ص ١٥٧ - ٣٠٠.

الاجتماعية التي تحملتها في ظل وجود المؤسسة الرسمية في الخارج هو الحفاظ على أمن وسلامة المقيمين الأجانب وخاصة من أصحاب الجنسيات التي دخلت بتحالف عسكري ضد العراق وبالتحديد المواطنين الأمريكان، فقامت العديد من الأسر المحلية بإيواء عدد من المواطنين الأمريكان داخل منازلهم على الرغم من معرفتهم وإدراكهم إلى أن هذه المهمة تقابل بعقوبة الإعدام من قبل سلطات الاحتلال[١]، فقد أصبحت كما يصفها البعض من الواجبات الأخلاقية التي قامت بها مجموعة كبيرة من الأسر الكويتية[٢]، فالدولة هي المسؤولة عن سلامة الوافدين، وفي ظل غيابها انتقلت هذه المسؤولية إلى المواطنين والأسر المحلية التي فتحت أبوابها لهم وظلت في حمايتها لحين مغادرتهم بعد أن وفروا لهم الغذاء والمأوى والآمن معرضين حياة أبنائهم للخطر.

ومن الأدوار الاجتماعية التي تكيفت مع هذه الفترة هو دور المرأة. فقد لعبت المرأة الكويتية دوراً يتماشى مع الظروف التي مر بها المجتمع. فانطلقت المرأة الكويتية بدور المقاوم للمحتل، وحاملة لشعار لا للتعاون مع الاحتلال ورسخت ذلك في بيتها ونقلته لأبنائها.

---

(١) انظر:
- ستيفسون، ريتشارد لويس، انطباعات الأمريكيين العاملين في الكويت حول الغزو العراقي. ترجمة مركز البحوث والدراسات الكويتية، ط ٣، الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٩.
- علي الدمخي، كويتي تحت الاحتلال، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٢) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٧٥.

فالمرأة الكويتية خرجت من المنزل فقامت بتهريب السلاح للمقاومة، والدواء للمرضى والجرحى، ووزعت النقود على أبناء وطنها، إضافة إلى أنها قد حملت السلاح وشاركت في التضحية والفداء واستشهدت في ميدان المعركة، وشاركت في طبع النشرات وإصدار المنشورات، فمارست دورها في هذه الفترة كطبيبة وممرضة، ومربية لأبنائها على حب الوطن، فهناك من فتح بيته لتلقي الإسعافات الأولية، وهناك من قام بتضميد جروح المقاومة، وهناك من حافظ على مجمع دور الرعاية الاجتماعية ودور الأيتام والمسنين والمعاقين، ومنهن من عطرت دمائهنَّ الزكية أرض الكويت، ومنهن من عملن في كافة الأعمال التطوعية المتعددة(١).

ومن ناحية أخرى، فقد تأثر الوضع الخاص بالمرأة داخل المنزل حيث نزح كثير من خدم المنازل إلى ديارهم والذي أدى إلى التأثير على دور المرأة الكويتية حيث عادت إلى العمل المنزلي التقليدي بل وأضيفت أعمال أخرى كالخبز وغيرها لم يعهدها المجتمع الكويتي منذ مدة طويلة(٢). فتناسب الدور الخاص بالمرأة مع

---

(١) انظر:
- محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ص ١٧٨ - ١٨١.
- عويد المشعان، العدوان العراقي، مرجع سابق، ص ص ١٩٩ - ٢٠٣.
- غازي الخلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ص ١٠١ - ١٠٢.
- عى الدمخي، كويتي تت الاحتلال، مرجع سابق، ص ص ١٩٤ - ١٩٨.
- محمد عبدالهادي جمال، الكويت وأيام الاحتلال، الكويت، مطابع الخط، ص ص ٢٣١ - ٢٣٤.

(٢) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٨٨.

مجريات الأحداث وما أفرزته الظروف الاجتماعية السائدة.

لقد كانت المسؤولية الاجتماعية محصورة في الداخل مع دعم ومتابعة من الحكومة في المنفى، فقد كان الهم الأكبر للحكومة في المنفى هو تتبع الأوضاع الداخلية وهذا ما ظهر جلياً في لقاءات سمو الأمير وولي عهده وخطاباتهم في المنفى، وظهر أيضاً في ما تم اتخاذه في المؤتمر الشعبي الذي انعقد في جده انطلاقاً من تشابك الآراء بين القيادة والشعب بكافة فئاته بالمنفى حيث أقروا جميعاً المحافظة على مصالح الشعب وتلبية حاجاته المعيشية وهو يواجه ظروف عصيبة في أمنه وأقامته ومعيشته[١]. فقد كانت الحكومة على اتصال دائم بالمرابطين على أرض الكويت وتتبع أحوال الأسر انطلاقاً من مسؤوليتها الشرعية عليهم، وانطلاقاً من واجبها تجاههم.

وتجلت أبرز مصادر التواصل والمسؤولية على أبناء الشعب الكويتي في الداخل عندما بدأت الحكومة بتوزيع الأموال على الأسر المحلية في الداخل وذلك لسد احتياجاتهم المعيشية.

فقد حرصت الحكومة بالمنفى على توفير الأموال اللازمة لسد احتياجات الأسر الأساسية عن طريق ضخ كميات كبيرة من الدنانير العراقية بطرق خاصة وتوزيعها على المواطنين بالداخل، وكانت هناك لجنة مركزية مكونة من عدد من الأفراد بينهم أحد أفراد

(١) غازي الخلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ٤٦.

الأسرة الحاكمة تتولى عملية توزيع المبالغ على المناطق السكنية، وذلك عن طريق توزيعهم على كل منطقة من خلال مجموعة من الشباب التي نذرت نفسها لتسليم تلك المبالغ للأسر الكويتية بشكل شبه منظم والتي تقع بين ٤٠٠ و٧٠٠ ديناراً عراقي لكل أسرة[١]، ولقد كانت هذه الأموال تصل بطرق مختلفة إلى يد أحد الأسر وكانت مصادرها الحكومة بالخارج من خلال موارد متعددة منها محطات الوقود، البنوك، التجار، ومصادر شعبية أخرى وتمت بصورة منظمة داخل مناطق الكويت بعد توزيع وحصر عدد الأسر في كل منطقة على حدة، والقيام بحصر متوسطات عدد أفراد الأسر التقريبي لكل منطقة، وتكفل أحد الأشخاص بالمسؤولية عن المنطقة وأسرها[٢]، فكانت تتم عمليات دقيقة قدر المستطاع لمعرفة معدل حجم الأسرة وأعداد الأسر في كل منطقة حتى تتم عملية التوزيع بكل دقة. وقد حالفهم التوفيق بقدر لا بأس به بهذه العملية على الرغم من الإجراءات الأمنية المشددة، وعلى الرغم من الخلل الذي حدث في تركيبة الأسرة واندماجها مع بعضها البعض تارة، وتفرقها تارة أخرى، ومغادرتها إلى أماكن متفرقة في كثير من الأحيان، فقد كان ذلك عائقاً في تحقيق القدر التام في التوزيع المنظم.

ولقد كانت تتم عملية التواصل بين الداخل والخارج بعدة طرق

(١) علي الدمخي، كويتي تحت الاحتلال، مرجع سابق، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) انظر: صلاح محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ج ٣، ص ص: ١٩٥ - ٢٣١.

مثل الفاكس وأجهزة اللاسلكي، والاتصال المباشر من خلال الذهاب والعودة خلسة إلى الكويت، إضافة إلى الهاتف عبر الأقمار الاصطناعية، والحمام الزاجل الذي استخدم في تلك الفترة[١]، فقد كانت تجري اتصالات متعددة بين رئيس الحكومة والشرعية في الخارج وبين المجاميع المختلفة داخل الكويت مثل اللجان الشعبية ولجنة التكافل، وأهل الديرة، والمقاومة الشعبية الكويتية، وغيرها من التنظيمات التي كانت تعمل بحذر شديد مع المعطيات الداخلية من خلال تواصلها مع الأسر، وحتى أن المرابطين قد أعدوا خطة للطوارئ إلى ما بعد التحرير وكانت الحكومة في المنفى على علم ودراية بهذه الخطة وبتواصل دائم مع أعضائها[٢].

لقد حلت الروابط القبلية والعائلية بديلاً فاعلاً عن مؤسسات الدولة الشرعية الغائبة، وأدارت أحوال الناس في ظروف صعبة وتشكلت لجان شعبية تطوعية على مستوى الأحياء ومن خلالها، وكان لونها يضم كل الكويتيين باختلاف انتماءاتهم وطوائفهم[٣]، فكانت المسؤولية الاجتماعية ملقاة على عاتق الأسر المحلية في الداخل لمواجهة الأزمة والتفاعل مع معطياتها من منطلق واجبها تجاه بلدها وفي ظل حقها المباشر في إدارة شؤونه، وكانت مسؤولية الدولة واضحة وجلية في المتابعة والدعم والتواصل حسب

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ص ٢٣٣ - ٣٢٦.
(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ص ٢١ - ٢٣٤.
(٣) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٦٥.

القدرة وما تسمح به الظروف على الرغم من خطورة الوضع. فمارست الدولة دعمها في حدود ما هو مسموح وذلك من خلال التواصل مع الأسر المحلية بالداخل ودعمها لمواجهة الكارثة.

التساند بين الأسر في مواجهة الكارثة:

لقد انطلق أبناء المجتمع المحلي منذ اليوم الأول للاحتلال إلى التوحد والتعاضد والتماسك انطلاقاً من الحرص على المصلحة العامة، وتفويت الفرصة على المحتل من النيل من هذا البلد. فلم ينجح المحتل في استدراج الشعب بكافة فئاته إليه، بل زاد هذا الحادث إلى تماسكه والتفافه حول شرعيته. وقد تجلى ذلك واضحاً بخطاب صاحب السمو أمير البلاد المفدى في مؤتمر جدة عندما قال: «ها أنتم يا أبناء الكويت.. تؤكدون للعدو الظالم وللعالم أجمع وحدة أهل الكويت وتلاحمهم في مواجهة الاحتلال ورفضهم القاطع له..»[1]. وتجلى أيضاً ذلك واضحاً في الخطاب الختامي للمؤتمر عندما تم الإعلان للعالم أجمع بأن أهل الكويت «سيظلون أبداً بعون اللّه أسرة واحدة متحابة متعاونة متراحمة متكافلة في السراء والضراء، وأنهم مهما تباينت اجتهاداتهم وتفاوتت وجهات نظرهم فإنها لن تخرج بهم عن نطاق الأسرة الواحدة..»[2].

(١) عازي الخلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.

ولعل الشخصية الكويتية التي تكونت سماتها من ثلاث شرائح تاريخية ثقافية تمثلت بثقافة القبيلة، وثقافة البحر، وثقافة النفط مارست أصالتها التي رسخت وعززت في تراثها وأسلوب حياتها على التكافل والتماسك والجلد والمثابرة[١]. وفي الثقافتين (القبيلة أو الرعي، والبحر) إضافة إلى ثقافة المجتمع الزراعي كانت في واقع الأمر تتبع وسائل إنتاج أسرية الطابع في المجتمع المحلي وتعتمد على الأسرة بكونها المسؤولة المباشرة عن عملية الإنتاج[٢].

فقيم العمل والتكاليف والتعاضد فرضتها هذه الوسائل من الإنتاج التي كانت الأسرة مصدرها.

فترسخت القيم المبنية على التعاضد والتماسك من هذه القيم الأسرية التاريخية.

إن حياة المواطنين خلال فترة الاحتلال العراقي الغاشم كانت تنظم بعدة طرق ومن خلال لجان المناطق عبر الديوانية والمسجد والجيرة والصلات العائلية انطلاقاً من روح التضامن التي برزت واضحة بينهم، فكان التعلق بالوطن هو الدافع للعمل التطوعي[٣].

(١) طلعت منصور، دراسة في الآثار النفسية والاجتماعية للغزو العراقي لدولة الكويت، في: الغزو العراقي للكويت: المقدمات – الوقائع وردود الفعل – التداعيات، ندوة بحثية، الكويت، عالم المعرفة، عدد ١٩٥، ص ص ٥٦٩ – ٦٣٤.

(٢) محمد الرميحي، الخليج ليس نفطاً: دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، بيروت، دار الجديد، ١٩٩٥، ص ص ٣٠٠ – ٣٠٧.

(٣) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٦٦.

ولعل الإحساس بقيمة المواطنة وهو الإحساس الذي تتهاوى إلى جانبه كل التكوينات القبلية أو الجماعية الضيقة التي ينتمي إليها الفرد بحيث يبرز الوطن قوياً من خلال نيران الغزو، قوياً ذا تكوين حديث يحل محل التكوينات التراثية والتقليدية. ولقد عملت كافة شرائح المجتمع على نبذ التعصب بكافة أشكاله، سواء أكان طائفياً، أم قبلياً، أم عرقياً. وقد تم تدعيم قيمة التماسك والتضامن والاعتماد على النفس ومساندة الآخرين والتي اعتبرت من أهم مظاهر التلاحم الاجتماعي في فترة الاحتلال[١]. فالدعم الاجتماعي والمساندة قد تمت تحت أجواء هوية ومظلة واحدة وهي المظلة الكويتية.

فانطلقت اللجان التكافلية من هذا المبدأ، ونسقت فيما بينها من أجل هدف واحد فقط.

فانطلقت كافة لجان التكافل باختلاف توجهاتها الفكرية في صالح خدمة الأسر المحلية[٢].

فحين انقطعت الموارد عن الأسر نتيجة الإصرار على عدم السماح للحركة اليومية للحياة في الكويت أن تستمر برفضهم الالتحاق بوظائفهم وأعمالهم ليعلنوا للعالم كذب ادعاء الغاصب أنه جاء استجابة لطلب هذا الشعب، تسارع كل قادر من أبناء الكويت يسد بإمكاناته حاجة أخيه، فبرزت نماذج كريمة أعادت إلى الأذهان

(١) محمد عبدالله المطوع، التلاحم الاجتماعي في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ص ١٠٩ - ١١١.

(٢) صلاح محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٨.

سيرة العطاء والتكافل الرفيع في المجتمع الإسلامي الأول وتشهد الوثائق العراقية على ذلك، فهناك العديد من التقارير العراقية التي عززت من هذا التواصل والتماسك الأسري بين أفراد المجتمع المحلي، فهناك تقرير صادر من قيادة الشرطة بالكويت موجه إلى مديرية أمن الخليج كان موضوعه التوزيع المجاني للأغذية على العائلات الكويتية وأن تجار الكويت يقومون بتفريغ مستودعاتهم وتوزيعها على بيوت الكويت من خلال الجمعيات التعاونية بدون بدل نقدي، ويورد التقرير بعض أسماء التجار والشركات الكويتية، إضافة إلى وثيقة عراقية أخرى تؤكد على قيام عائلات - ذكرت أسمائها - بتوزيع الأغذية على الكويتيين وتشجعهم على الأعمال التخريبية وعدم ممارسة أعمالهم اليومية[1]. وقد ظهرت وطنية التجار الكويتيين بجلاء في تلك الأيام - فكانوا يرددون «خذوا ما تشاءون والدفع عندما ترجع الكويت حرة»[2]. فلم يكن هناك تفريق لأحد وتفضيل لشخص أو طائفة على الأخرى، فهم جميعاً سواء.

فتهاوت التحيزات الاجتماعية بين الجماعات، وساعدت الأزمة على انتظام الجميع في عمل واحد[3]. وحتى في نظم توزيع

(١) علي عبداللطيف خليفوه، المقاومة الكويتية من خلال الوثائق العراقية، تحرير ومراجعة يوسف عبدالمعطي، الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٣، ص ١١٥.

(٢) الشيباني، كيفان أيام الاحتلال، ١٩٩٢، نقلاً عن: محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) محمد عبدالله المطوع، التلاحم الاجتماعي في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ص ٩٩ - ١٢١.

الأموال للأسر المتعددة، فقد وُضعت أهدافاً واضحة ومكتوبة لنظام التكافل الاجتماعي في ظل الأزمة فيما يتعلق بصرف وتوزيع الأموال، وذلك من خلال تحقيق معنى التكافل الاجتماعي الذي دعا إليه الإسلام وتطبيقه قولاً وعملاً، ومن خلال تفادي التفاوت في التوزيع، ووضع معايير ثابتة ومحددة تطبق على الجميع(١). ففي ظل الشعور بالمسؤولية، فقد ساعد الجار جاره، والصديق صديقه، والقريب قريبه، وساعدت العائلات بعضها بعضاً وبدأ الجميع بتوحيد الجهود وتكثيف العمل ليصب في مصلحة الكويت، والتي أثمرت عن تشكيل اللجان المختلفة(٢). ولعل مخاطرة البعض من الشباب في عمل الحراسات الليلية التي كانت سمة في حياة المجتمع المحلي في تلك الفترة من أجل حفظ الأمن والذود عن الأسر والأهالي وإبعاد اللصوص والمشبوهين من المنطقة من الأعمال التطوعية التي شكلت سمة من سمات التعاضد بين أفراد المجتمع الكويتي(٣). وكان دور المسجد أساسياً أيضاً في نشر الفكر القائم على التلاحم والتعاضد والتماسك الاجتماعي، فتدار كثير من الأمور من خلال المسجد ويتم عقد الاجتماعات واللقاءات في سبيل توفير القدر المناسب من المعيشة الكريمة للأسر في ظل الأوضاع الراهنة، فكانت الملاذ الروحي والتطوعي لخدمة الأسر

(١) صلاح محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٢٣

(٢) محمد عبدالهادي جمال، الكويت وأيام الاحتلال، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٣) المرع نفسه، ص ٤٤.

في تلك الفترة[1]. فكان التعاون بين الأسر والجيرة والأقرباء هو البذرة الأولى للعمل التطوعي من خلال اللجان الشعبية المختلفة والمتعددة، وهو في المقابل هدفها.

لقد تعدى الأمر ذلك إلى أن أصبحت مسؤولية الأُسر هي متابعة أحوال الأسر الأخرى والتي تتعرض إلى مشكلات كالأسر والشهادة مثلاً، فما يعلم أحد عن وجود أسرة لها أسير أو شهيد، إلا وسارع الجميع بتقديم العون لها وتلبية احتياجاتها من مواد غذائية وأموال وغيرها من الاحتياجات الخاصة، إضافة إلى أن كثير من الشباب الكويتي أخذ على عاتقه مهمة توفير حافلات كبيرة لنقل عائلات الأسرى من الكويت للاطمئنان على أُسرهم في العراق. فكانت مجموعة من الأسر الكويتية تنقل المواد الغذائية والأموال للأسرى، وكانوا يحاولون طمأنة العائلات الأخرى التي لا تستطيع السفر. إضافة إلى توفير كثير من العائلات السكن والمأوى للعسكريين المطاردين من قوات الاحتلال[2]. فقد انتقلت المسؤولية لحماية العسكريين أيضاً وتعريض حياتهم للخطر. ففتحوا بيوتهم لهم على رغم معرفتهم أن من يتستر على عسكري أو يؤويه يواجه عقوبة الإعدام، فشعر الجميع أن من مسؤوليته الحفاظ على الجميع.

(١) صلاتح محمد الغزالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ج ٢، ص ص ١٢٣ - ١٣٠.

(٢) علي محمد الدمخي، كويتي تحت الاحتلال، مرجع سابق، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

فذلك يعد مظهراً من مظاهر التلاحم الاجتماعي الذي شهدته الكويت في تلك الفترة.

لقد كانت الأسرة بديلاً قوياً وفعالاً لجميع أجهزة ومؤسسات الدولة الرسمية التي انهارت، ولقد مسحت الفواصل العمرية والنوعية والطبقية سواء بين الأسر أو داخل الأسرة الواحدة. فلم تساعد الكارثة على تعاضد الأسر مع بعضها البعض فحسب، إنما ساعدت على تماسك الأسرة الكويتية ذاتها أيضاً، وكلما كان مصاب الأسرة أعظم زاد تماسكها تقديراً لمن ضحوا من أفرادها وبخاصة من استشهدوا أو أسروا أو اختفوا لأسباب معروفة كالتحاق بالمقاومة أو لأسباب غير معروفة لانقطاع أخبارهم[١].

فقد تم توطيد التلاحم الاجتماعي بين أفراد الأسر دون تمييز بين الوحدات السياسية والاجتماعية والمذهبية والعرقية. فتوجه الجميع نحو التعاضد في مواجهة الكارثة، فكانت وحدةً اجتماعية مشرقة سطعت على الكويت في تلك الفترة، فالأزمة أوضحت أهمية هذا التماسك والتلاحم بين أفراد المجتمع في مواجهة العدوان والذي نجحوا فيه بكل اقتدار.

(١) مختار إبراهيم عجوبة، تأثير كارثة الغزو العراقي على الأسرة الكويتية، مرجع سابق، ص ص ١١٠ - ١١١.

تداخل الأدوار في الأسرة (المقاومة - مترتباتهم):

لا شك أن المقاومة تأخذ بعدين رئيسين: مقاومة سلمية، ومقامة عسكرية. ولقد انخرط أبناء الشعب الكويتي كافة بمقاومة العدوان بأحد هذين الشكلين. وقد قدمت الأسر الكويتية نموذجاً يقتدى به في المقاومة والكفاح والصبر وتحمل الأعباء أثناء فترة الاحتلال العراقي الغاشم على دولة الكويت، فقامت جميع الأسر الكويتية على حد سواء بتسطير أروع الأمثلة في تقديم التضحيات بالأرواح وبالدم فداءً للوطن. ولم تستثنى أي أسرة في الكويت من مقاومتها للاحتلال بصوره المختلفة. وبمجرد عدم التعاون مع العدوان وإبداء العصيان المدني كان يعد مقاومة للاحتلال الذي عجز أن يستميل أي من أفراد المجتمع الكويتي معه، فانطلقت الشرارة الأولى للعصيان المدني منذ الاستماع لخبر الاحتلال، فتكاتفت جميع أجزاء المجتمع في مواجهة العدوان وبأساليب مختلفة.

ولقد كانت أول مقاومة سلمية قامت بها الأسر هي الخروج إلى الشوارع بمظاهرات شملت الأبناء من صغار السن والشباب والنساء اللاتي كان لهن الدور البارز في قيادة المظاهرات وتنظيمها، ولعل أول مظاهرة خرجت إلى شوارع الكويت منددة بالعدوان كان يقودها أحد الفتية والذي لم يتجاوز عمره ١٧ عاماً والذي استشهد فيها[١].

(١) عاري الخلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ٦٤.

كما قامت مظاهرات نسائية، حيث قام العديد من ربات البيوت النساء بالخروج مع أبنائهن وأخوتهن بالتظاهر السلمي قابلهن بطش وتنديد من قبل قوات العدوان[1]. وقد كانت هذه المظاهرات كثيفة إذ ضمت إحداها في تاريخ ١٩٩٠/٨/٥م ما يقارب من ٧٠٠ امرأة[2]. فالمظاهرات الكويتية والتي انطلقت من الأسر كانت هي البذرة الأولى من المقاومة الشعبية، فعندما وجد الشباب والرجال من أبناء الكويت دورهم في قطاعات العمل التعاوني والتطوعي الخدمي في المنطقة وأعمال المقاومة المسلحة، وجد الأطفال والأبناء والنساء فرصتهم في التعبير عن الرفض بصورة حضارية من خلال تنظيم المظاهرات التي انطلقت في العديد من مناطق الكويت، فتقسمت الأدوار داخل الأسرة في ظل تقسيم عمل واضح ومحدد لكل عنصر من عناصر الأسرة.

ولعل الأسرة قادت ظاهرة غريبة على قوات الاحتلال انطلقت في العديد مناطق الكويت. فتقسمت الأدوار داخل الأسرة في ظل تقسيم عمل واضح ومحدد لكل عنصر من عناصر الأسرة. انطلقت من الحس الإسلامي الذي تنتمي إليه وهي - عندما قامت الأسرة بالتكبير من فوق أسطح منازلها - والتي شكلت رعباً لدى

---

(١) انظر:
- محمد عبدالهادي مال، الكويت وأيام الاحتلال، مرجع سابق، ص ص ٦٣ - ٦٤.
- غازي الخلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٧٨.

المحتلين، فاعتلت الأسرة بكامل أفرادها أسطح المنازل يهتفون بكلمه الله أكبر في «منتصف ليل يوم السبت ١١/٨/١٩٩٠م، وأيضاً منتصف ليل يوم السبت ١/٩/١٩٩٠م وذلك لمرور شهر كامل على احتلال الكويت من قبل طغاة العصر.. واستشهد العديد من الشباب الكويتي من جراء هجوم أفراد الجيش المهزوم على منازل المواطنين»[١]. ولقد استمر التكبير لمدة نصف ساعة تقريباً فبث من خلالها الخوف والرعب للمعتدي[٢]، فوقوف الأسر صفا واحداً في مواجهة العدوان بالتكبير الذي لعب دوره في إضعاف الروح المعنوية للمعتدي، وذلك لإدراكه بأنه على باطل، فخشي المعتدي كلمه الله أكبر التي أطلقتها الأُسر من فوق أسطح منازلها وقام العدو باقتناص الأشخاص من على المنازل وإطلاق القذائف والرشاشات على هذه البيوت.

وما سميت بحركة نساء وأطفال الكويت التي أصدرت منشورها الأول (الكويتية) في التاسع من أغسطس لتحث به على الإضراب، وترشيد الاستهلاك، والتكافل إلا نموذجاً آخر من المقاومة السلمية، وقيام الأطفال الصغار بكتابة بعض العبارات التي عبرت عن رفضهم للعدوان ككتابة بعض العبارات والجمل التي تشتم بها رئيس النظام العراقي المخلوع وأزلامه على بعض من براميل القمامة

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) علي محمد الدمخي، كويتي تحت الاحتلال، ص ٦٩.

مثلاً أو بالقرب من الخنادق يعد نوعاً من أنواع المقاومة التي انطلقت من الأسر المحلية وأفرادها[١]، إضافة إلى قيام العديد من أبناء الشعب الكويتي بتزوير الهويات الشخصية والبذات للعسكريين[٢]. فقد كانت تتم هذه العمليات داخل منازل العديد من الأسر وبمعرفة أصحابها ومباركتهم، فهو دور أساسي تقوم به الأسرة من عمل وواجب في ظل الظروف المحيطة. فهي أنواع مختلفة قام بها أفراد الأسرة في تعبيرهم عن رفض قاطع للعدوان ولممارساته.

لقد انخرطت الأسرة الكويتية من واقع توزيع الأدوار تماشياً مع المرحلة الحالية بأعمال المقاومة المسلحة أيضاً، فانخرط الشباب بالتحديد في هذا الميدان وتحت قياداتٍ تم تشكيلها بشكل منظم وتتبع لأوامر قيادية في الداخل ومتواصلة بالخارج[٣]. فكانت ضربات المقاومة العسكرية مؤلمة ومتقنة. وهناك حوادث كثيرة وعديدة أبرزتها حتى الوثائق العراقية والتي أقرت بخطورتها وبطرقها المختلفة[٤]، ولعل ما يعنينا هنا تلك المقاومة ذات التداخل مع الأسرة، فهي ببنائها الذي يعد أساس المجتمع كانت الأساس الذي وقع عليه الضرر من جراء الرد والانتقام من قبل السلطات المحتلة.

(١) محمد عبدالهدي جمال، الكويت وأيام الاحتلال، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٣) انظر المحاميع العسكرية في كتاب: صلاح محمد العرالي، موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ج ١ ص ص ١٧ - ١١٦.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول المقاومة وأنواعها وأشكالها من خلال الوثائق العراقية، انظر: علي عبداللطيف حليفوه، المقاومة الكويتية من خلال الوثائق العراقية، مرجع سابق

فقد شاركت المرأة على سبيل المثال في الكفاح المسلح فكان فعلاً جديداً على المرأة الكويتية التي اشتهرت بالترف والاستهلاك، فمصادر وأدبيات المقاومة الكويتية تؤكد على أن المرأة الكويتية قد شاركت في معظم تنظيمات المقاومة وتحملت مختلف المهام ومنها القيام بعمليات عسكرية وهذا أيضاً ما أكدته الوثائق العراقية وراح ضحيتها العديد من شهيدات الكويت عملن مع التنظيمات والمجاميع العسكرية(١). فقد جِئنَ للعدو يستدرجنه إلى كمائن المقاومة، ويشتركن بها، وتمررن المتفجرات وقناني الغاز من نقاط التفتيش، إضافة إلى فتحهن لبيوتهن لاجتماعات أفراد المقاومة(٢).

لقد قدمت الأسر تضحيات كبيرة في أموالها وأبنائها جراء المقاومة، ولقد كان تأثرها كبيراً في ظل فقدانها لأبنائها ومعيليها. بل ذهب المحتلون إلى القيام بأسر جماعي للأُسر وذلك لالتحاق أحد أبنائها في المقاومة الكويتية. فهناك العديد من الأسر التي أسرت بالكامل لهذا السبب(٣). فالجرم هو جرم جماعي خاص بالعائلة وليس الفرد، فهذا هو قانون المعتدي، ولقد ورد ذلك صراحة في وثائقهم، إذ تشير إحدى الوثائق إلى أن «كل شخص سياسي يلقى القبض عليه في الأسبوع الأول تحجز عائلته»، أما في

(١) محمد حسين غلوم، الاحتلال العراقي، مرجع سابق، ص ص ١٧٨ - ١٨١.

(٢) علي عبداللطيف خليفوه، المقاومة الكويتية من خلال الوثائق العراقية، مرجع سابق، ص ص ٣٥١ - ٣٨٨.

(٣) انظر: فاتن عبدالجبار معرفي، أين أسرى الكويت، ط ١، الكويت، المطبعة العصرية، ١٩٩٣، ص ٨٣.

الأسبوع الثاني فيتم حجز العائلة وتهدم داره بعد قطع التيار الكهربائي وعدم إخراج أي مادة من الدار وبعدها يقرر مصير العائلة..[(١)].

ومن الممارسات التي أثرت على الأسرة المحلية ممارسات القمع اللاإنسانية التي كانت تتم لأبنائها، فقد كان يتم أخذ النساء واغتصابهن، وكانت الأسرة الكويتية تجبر على الوقوف ومشاهدة إعدام ولدها من قبل الجنود[(٢)]. إضافة إلى أن جنود الإحتلال لم يفرقوا في الاعتقال والاستجواب والتعذيب بين الرجال والقصر وحتى الأطفال الرضع لم يسلموا من القتل والتنكيل[(٣)]. وخضع العديد من الأطفال والنساء بالأسر أيضاً[(٤)]. وقدمت الأسر العديد من الشهداء، والجميع يعرف من أطلق عليها بخنساء الكويت، تلك المرأة التي فقدت زوجها واثنين من أبنائها، حتى أنها وضعت مولودة أنثى (شعرها أبيض) والذي فسره الأطباء بأن ذلك نتيجة للصدمة التي مرت بها وأثرت عليها وعلى الجنين في الوقت نفسه[(٥)].

---

(١) مركز البحوث والدراسات الكويتية، دوره في توثيق جرائم العدوان العراقي والرد على ادعاءاته، الكويت، ١٩٩٥، ص ص ١٩ - ٢١.

(٢) ستيفنسون، ريتشارد لويس، انطباعات الأمريكيين العاملين في الكويت حول الغزو العراقي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٣) مريم عبدالكريم العوضي، العدوان العراقي على الكويت: الحقيقة والمأساة، مرجع سابق، ١٢٩ - ١٣٠.

(٤) عازي بصل الربيعان، أسرى الكويت ومصارعة السوء، الكويت، الجمعية الكويتية للدراسات والبحوث التخصصية، ص ص ١١٥ - ١١٧.

(٥) غازي الحلف، انتصار الإرادة الكويتية، مرجع سابق، ص ١٠٤.

أفراد الأسرة جميعهم عانوا وبشكل متساو. فقد كانت الأسرة روح المقاومة، وهي الشعلة الأولى لانطلاقتها. فالأسرة التي كانت تمارس أدوارها الاجتماعية بصورة سلمية في ظروف ما قبل العدوان، تحولت وظيفتها إلى دور مقاوم وفي ظل ظروف فرضتها الأوضاع الاستثنائية في مرحلة حاسمة من حياة المجتمع الكويتي. فدور المعيل ورب الأسرة والأبناء قد انطلق من الواقع التي فرضته الظروف، فكانت الأسرة بذرة المقاومة الشعبية وانطلاقة بزوغ شمس الحرية على الكويت.

* * *

الفصل السادس
التطور التاريخي
لدعم المؤسسات الاجتماعية للأسرة

١ - العلاقة التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني (الأهلي) والأسرة.

٢ - تطور العلاقات التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني والأسرة الكويتية (في الوقت الحالي).

العلاقة التكافلية بين مؤسسات المجتمع المدني (الأهلي) والأسرة

يشير مصطلح المجتمع المدني في العلوم الاجتماعية إلى المؤسسات والجمعيات والمنظمات التي تتحرك على المستوى الأهلي غير الحكومي[١]، وكلمة مدني مشتقة من التراث الغربي فهي تعني التحرر من أسر الدين بمفهومه الثيوقراطي، كما أرسته تقاليد الكنيسة الكاثوليكية، كما يشير المصطلح إلى التحرر من النزعات العسكرية والتوسعية للحكومات الفاشية الشمولية التي حكمت أوربا فيما بين الحربين، ويشير المصطلح أيضاً إلى التحرر من السياسة وتدخلاتها في فضاءات هي بطبيعتها غير سياسية. فكثير من القضايا المجتمعية لا يكون حلها بالوسائل السياسية وإنما يكون حلها بإطلاق قدرات المجتمع وطاقاته لمواجهة هذه المشاكل، فقضايا مثل الأمية والتلوث والإدمان وجنوح الشباب والتفكك الأسري هي بطبيعتها قضايا مجتمعية، والمجتمع الأهلي (المدني) هو الذي يمكنه حلها ومواجهتها.

---

(١) سعد الدين إبراهيم، العمل الأهلي في مصر، كراسات استراتيجية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، السنة ٨، ١٩٩٨، وعن الجمعيات الأهلية الدينية في مصر راجع تقرير الحالة الدينية في مصر، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ط ٢، ١٩٩٨، وأيضاً تقرير الحالة الدينية في مصر العدد الأول، عام ١٩٩٦ حيث استقصى أوضاع الجمعيات الإسلامية الدينية والمسيحية.

وكما في السياق الغربي نشأ المجتمع المدني كتعبير عن العلمانية والانتقال من حالة الطبيعة الأولى إلى الحالة التعاقدية التي تتجلى فيها إرادة الفرد المستندة إلى حريته وعقله، والمصطلح هو نتاج ثلاث أسس أيديولوجية هي: العلمانية والليبرالية والرأسمالية أي السلبية تجاه كل ما له صلة بالدين والتنافس في السوق للحصول على أكبر قدر ممكن من الربح، ومن ثم فمرجعية المصطلح هي مرجعية نسبية محورها العقل والتجربة دون وجود أي قيم مسبقة أو أطر مرجعية يمكن فرضها على المجتمع أو طرحها عليه.

ولذا من الأفضل أن نستخدم تعبير المجتمع الأهلي[١] للإشارة إلى المؤسسات والمناشط التطوعية التي تعبر عن المجتمع الأهلي، كما أن تعبير الأهلي فيه قدر من التواصل والترابط والامتداد حيث يبدو لنا أن العمل الأهلي هو تعبير عن الحضارة الإسلامية التي تقوم على مفهوم الترابط العضوي بين جميع أبنائها، فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. وكثير من الدراسات التي تهتم بالمجتمع المدني تشير إليه بالقطاع الأهلي، ويمكن تصوّر أن مصطلح المجتمع الأهلي هو تعبير عن حالة حضارية أكثر رقياً حين ينتقل الإنسان من دائرته الخاصة إلى دائرة

(١) عن تعبير المجتمع الأهلي ومناسبته لواقع الخبرة الإسلامية، راجع كمال السعيد حبيب، الإسلاميون والسياسة والمجتمع الأهلي في كتاب الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

أوسع من الاهتمام الطوعي بمن يحيطون به من الجيران أو من يقطنون نفس الحي أو يشاركونه نفس المهنة.

ومؤسسات المجتمع المدني (الأهلي) هي مؤسسات وسيطة بين مؤسسة الأسرة والقرابات والتكوينات الاجتماعية الأولية وبين الدولة، ومن أمثلة هذه المؤسسات المساجد الأهلية، والجمعيات الدينية والخيرية، والجمعيات التعاونية والأندية، ومراكز الشباب، والغرف التجارية والصناعية، والنقابات المهنية والتجارية، وروابط الأقاليم والمهن، وبشكل عام فإن المبادرات التي يقوم بها أفراد أو جماعات بشكل طوعي استجابة لمشاكل مجتمعاتهم وتبدأ من أسفل إلى أعلى فهي تعبير عن المجتمع الأهلي (المدني) ويشير تعبير المجتمع الأهلي (المدني) إلى إيجابية هذا المجتمع من ناحية كما يشير إلى الجدل بين الدولة التي تملك السلطة السياسية والمجتمع الذي يملك السلطة المعنوية والأخلاقية والتي تمنح الشرعية للسلطة السياسية من ناحيةٍ أخرى.

ولا توجد مؤسسات بعينها يمكن أن نقول على وجه الحصر أنها مؤسسات المجتمع الأهلي (المدني) ولكن هذه المؤسسات مفتوحة ما بقيت حاجة الناس إليها فكلما ظهرت حاجة المجتمع إلى مؤسسة، فإنها تصبح مشروعاً من مشاريع العمل الأهلي، ولكن طبيعة هذه المؤسسات هي أنها غير حكومية تقوم بمبادرات تطوعية لأفراد أو مجموعات بهدف الخدمة الاجتماعية وليست بهدف الربح، ونشاط هذه المؤسسات بالأساس اجتماعي ولا علاقة له بالسياسة وإن كان

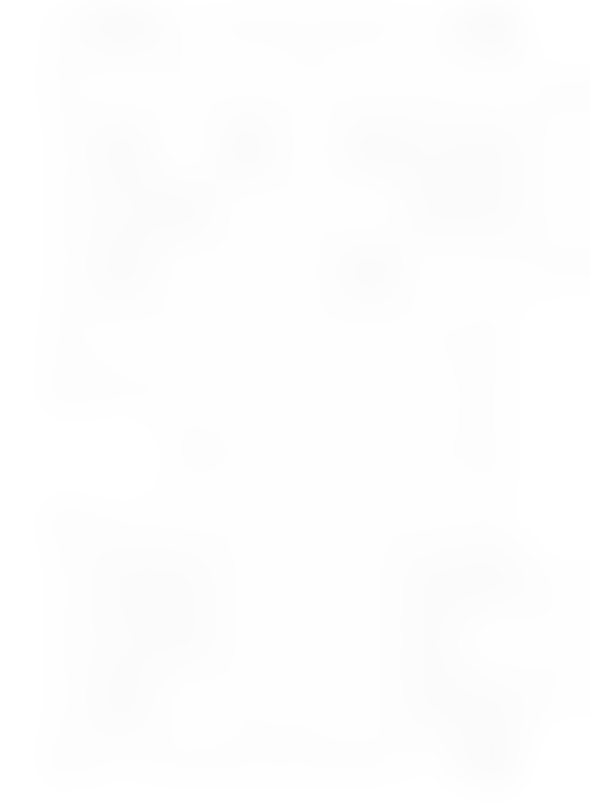
يمكنه أن يطرح قضاياه الاجتماعية على أجندة الدولة وصُنّاع القرار ويؤثر في القرار السياسي العام.

نشأة وتطور وفلسفة مفهوم المجتمع المدني[1]:

المفهوم والنشأة والفلسفة تعبير عن التطوير الاجتماعي والأخلاقي والفكري والسياسي والاقتصادي للمجتمع الغربي، والمجالات الفلسفية التي جرت فيها مناقشة المفهوم وتطوره يمكن رصدها في ثلاث مجالات **الأول**: العلاقة بين الدولة بسلطانها وأجهزتها القمعية والأيديولوجية والبيروقراطية، يمكن أن تمثل طغياناً يهدد قدرة المجتمع على التعبير عن نفسه في مواجهة هذا الطغيان، **والمجال الثاني**: هو علاقة الفرد بالمجتمع والدولة بحيث تبقى هذه العلاقة فعالة ولها تعبيراتها، والمساحات التي لا تستلب فعل الإنسان وحريته، **والمجال الثالث**: هو علاقة الإنسان بالسوق والقيم التي يشيعها من سيادة مفهوم التنافس والصراع وإعلاء قيمة الربح والمكسب، وسيطرة رأس المال الذي لا يعرف أي بُعد أخلاقي بما في ذلك اصطناع حاجات ورغبات لا يحتاجها البشر، ولكنها تعبير عن فرض وجهة النظر الرأسمالية التي تتناقض مع الفضائل المدنية والتي تعد تدميراً للحياة والإنسان معاً.

ويطرح الفكر الغربي مفهوم المجتمع المدني في سياق صراعي،

(١) راجع في هذه الجزئية الكتاب بعنوان «التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني» تأليف: ستيفن ديلو، ترجمة، ربيع وهبه، مراجعه علا أبو زيد، المشروع، القومي للترجمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٢م.



الإسلام إلى مراقي من السمو لم تبلغه أي نظم اجتماعية أخرى فهو يرقى بنفس الزائر إلى مستوى من السمو والرشد والتزكية تجعله يتفهم السبب الذي جعل الزائر أو صاحب البيت يعتذر عن لقائه[1].

وقواعد الاستئذان على مستوى الديوانية هي:

تأخذ الديوانية حكم البيوت العامة إلا إذا كان لها نظام لائحي خاص يحدد قواعد التعامل داخلها بما في ذلك قصر بعض الأماكن على العاملين فيها أو وضع نظام تراتبي يجعل قضاء المصالح يبدأ من المستوى الأدني إلى المستوى الأعلى أو منع أشكال معينة من السلوك التي تتنافي مع طبيعة الديوانية أو مع الذوق العام مثل عدم التدخين أو عدم الحديث بصوت مرتفع أو غيرها من القواعد أو النظم الداخلية الخاصة، والأصل فيها إباحة الدخول إليها لقضاء المصالح بغير استئذان لانتفاء علة الاستئذان الشرعية وهي النظر إلى الحرمات واقتحام الخصوصيات، فالاستئذان هنا عرفي تحدده القواعد اللائحية لكل ديوانية أو مؤسسة، ويدخل في نفس الحكم البيوت العامة كالفنادق والمثاوي والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن فلا حرج في الدخول إليها دفعا للمشقة والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (النور: ٢٩).

(١) قريبا من هذا المعنى، راجع سيد قطب في الظلال، المجلد الرابع، ط ١٣.

أنماط الاستئذان في المجالات الرسمية والمعاصرة:

يحدد أنماط الاستئذان في المجالات الرسمية طبيعة هذه المجالات، فإرسال الرسل والسفراء وممثلو الدول إلى الدول الأخرى في المهام الرسمية يكون مقيدا بطبيعة مهام هؤلاء المسئولين بحيث لا يجوز لأحد من هؤلاء أن يتجاوز المهمة المرسل إليها الا بالرجوع إلى رؤسائه واستئذانهم في مايريد أن يقدم عليه من تصرف، وهناك أشكال معاصرة لمراسم الزيارة ومن أبرزها استخدام بطاقات الزيارة والهدف من استخدامها إثبات حضور الشخص إلى دار شخص آخر أو مكتبه للقيام بواجب وظيفي أو اجتماعي كالتهنئة أو التعزية وفي البروتوكول[١] يكون أكبر أو أبرز المدعوين للحفلات والمآدب الرسمية هو البادئ عادة في الاستئذان بالانصراف وبشكل عام فإن القواعد المعاصرة في المجالات الرسمية والبروتوكولية هي من الأشياء العرفية المسكوت عنها والتي تتغير بتغير الزمان والمكان والحال ومن ثم يقبلها الإسلام فهي من المباح مادامت لا تتعارض مع أصل من أصوله أوحكم من أحكامه، فقاعدة الاستئذان تعني طلب إباحة سلوك بالرجوع إلى صاحب الحق الأصلي، ومن ميزة مبدأ الاستئذان في الآداب الاسلامية أن الله هو الذي شرّعه وفصّل قواعده ولم يتركه

(١) محمد نعمان جلال، دراسة حول قواعد البروتوكول وآدابه بين التقاليد الإسلامية والمجتمع الحديث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥ وفي قواعد البروتوكول وتطبيقاته المعاصرة راجع: سيد حسن السيد، الاتيكيت والبروتوكول، القاهرة، دار الجمهورية.

لأهواء البشر وعقولهم فالمرجعية الشرعية أو المقدسة التي قررت الاستئذان ترجع إلى خالق الانسان وهو ما يعطيها قوة الالتزام الخلقي والمعنوي، كما يؤكد على قيمة الاستئذان في حياة الإنسان مهما تقدمت العصور لأنه أمر مرتبط بالطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية.

* * *

آداب المجلس

وضع الإسلام للمجالس آداباً وقواعد تضبطها باعتبار هذه المجالس متنفساً اجتماعياً لمن يحضرها، ويمكن أن تكون هذه المجالس مصدراً للخير وتنمية الأخلاق والشخصية، كما يمكن أن تكون وبالًا جسيماً على حاضريها، واعتادت الحضارات السابقة على الإسلام أن تعتبر المجالس وسائل للهو والتسلية والتنفيس الاجتماعي عن المكبوتات، كما كانت تعبيرا عن الفخر والاستعلاء والسمعة، ويمكن القول أن الإسلام بوضعه آداب للمجالس انتقل بالإنسان المسلم نقلة كبيرة إلى عالم التحضر والرقي والإنسانية حيث أصبحت هذه المجالس أداة لبناء الشخصية وتحقيق التواصل القائم على التفاعل المجدي الذي يعزز الأخلاق الإسلامية في نفس الإنسان، وليس مجرد التسلية الرخيصة وإضاعة الوقت والمال والانفتاح على عوالم جديدة من الإفساد والفساد للشخصية المسلمة التي يعتبر أمر تسويتها وإنشائها إنشاءً خاصاً أحد الأهداف التي يسعى إليها الإسلام دائماً وأبدا.

الدلالات التعريفية والضمنية لآداب المجلس:

المجلس هو مكان اجتماع مجموعة من الناس تربطهم روابط مهنية أو اجتماعية للمناقشةِ أو التحدث في شأن يهمهم، وفي المعجم الوجيز المجلس مكان الجلوس و الطائفة من الناس تخصص للنظر فيما يناط بها من أعمال ومنه مجلس الشعب

ومجلس العموم والمجلس الحسبي، وفي المعجم الوجيز أيضا الجلسة مرة الجلوس، وهي اجتماع يجلس فيه جماعة مختصون لمدة معينة للنظر في شأن من الشؤون، وهي مغلقة إذا لم يشهدها إلا أعضاؤها ومفتوحة إذا شهدها معهم غيرهم[١].

ولكن المجلس الذي نقصده هنا هو مكان اجتماع الناس الذي قد يتخذ أشكالا متعددة منها اجتماع الناس بعد انتهاء يومهم لمناقشة مشاكلهم، أو تجاذب أطراف الحديث في موضوعات متعددة ربما لايكون بينها رابط، أو ربما يكون الحديث في مسائل ذات طابع قصصي أو فكاهي للتسلية أو التسرية عن النفس، كما كان يحدث في الريف المصري حيث يجتمع الناس في المضيفة أي مكان الضيافة وهو مكان عام يكون عادة ملحقا بمساكن العوائل الكبيرة. وفي دول الخليج توجد الديوانيات حيث يجتمع الناس بشكل طوعي للتحدث في شؤونهم أو في الشئون العامة أو القضايا المتنوعة، ويدخل في معنى المجلس الأندية والنقابات المعاصرة التي يجتمع فيها الناس لأمر عام يخص المشتركين في هذه الأندية والنقابات، كما يدخل في معنى المجلس مجالس العلم والذكر والأدب والمنتديات التي يستضيفها بعض المثقفين في منازلهم والتي يطلق عليها الصالونات، وفي الواقع عرفت الحضارة الإسلامية مجالس للخلفاء وللعلماء والأدباء للمناظرة والجدال

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة

والمناقشة. وكانت هذه المجالس أحد التجليات التي عبرت عن المستوى العلمي والأدبي والإنساني للحضارة الإسلامية، ويمثل كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي أحد النماذج البارزة للتعبير عن هذه المجالس. وتصف كتب التاريخ الاجتماعي والمصادر الأدبية العربية مجالس المناظرة بأنها كانت مجالس علم تقام في الدور والقصور والمساجد بين العلماء وفي حضرة الخلفاء في الفقه والنحو والصرف وغير ذلك من العلوم. وعقد لها السيوطي فصلا في كتابه «الأشباه والنظائر» في المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات. المهم أن هذه المجالس كانت تعبيرا عن روح المجتمع والناس ولم تكن تعبر عن السلطة حتى لو كان الخلفاء هم الذين يرعونها أو يحضرونها. واعتادت الأسر في العالم العربي والإسلامي تخصيص حجرة لاستقبال الضيوف والزوار حيث توجد علاقات تزاور عائلية بين الأسر للتعارف والتحدث والنقاش. وتعد المجالس أحد تعبيرات حيوية المجتمع الأهلي الإسلامي، ومن هنا كانت الأهمية الكبيرة لتفصيل آداب المجلس وتنظيمها ووضع ضوابط لها.

آداب المجلس في الحضارات القديمة:

ما طالعناه عن المجالس في الحضارات القديمة مثل الحضارة الفرعونية والرومانية والفارسية والجاهليون العرب قبل الإسلام تعكس المجالس الفئوية ذات الطابع الطائفي، حيث كانت

المجالس مقتصرة على طبقات معينة هي الطبقات الحاكمة والطبقات المساندة لها، أو المساعدة لها وهم من كان يطلق عليهم الأشراف. وفي هذه المجالس كانت تحدث مباذل أخلاقية مثل شرب الخمر وحضور النساء والرقص، وكانت هذه المجالس تعكس حالة الانحطاط العامة لمثل هذه الحضارات.

وعند الجاهليين كانت مجالسهم لا يخلو منها الخمر والعزف والفخر والخيلاء والكبر ولعب القمار والتغني بالوثنية والشرك. ويصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة بن الأيهم الغساني فيقول: «لقد رأيت عشر قيان أي مغنيات خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الذهب والفضة وأُتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندي إن كان شاتياً، وإن كان صائفا بطن بالثلج وأتي هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه، ويصف الطبري مجلس كسرى أنوشروان آخر ملوك الدولة الساسانية لما جاءه المغيرة بن شعبة والقوم عليهم التيجان والثياب المنسوجة من الذهب، وبسطهم على غلوة، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته،

فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم الكريم عن قوم لوط أنهم كانوا يأتون في ناديهم المنكر - أي مجالسهم وأماكن اجتماعهم العامة الفاحشة الشاذة - وهو يعكس إلى أي مدى ارتكست فطرتهم ودنت نفوسهم وعقولهم، فالمجالس هي مرآة المجتمعات التي تشارك فيها، والنوادي وأماكن التجمعات العامة هي صورة للقيم والأخلاق التي يحملها المجتمع والناس، وهي انعكاس للمستوى الحضاري والأخلاقي للأمم والجماعات.

آداب المجلس في الإسلام:

ربط الإسلام بين المجلس ومقاصده ووسائله فليست المجالس مقصودة لذاتها؛ وإنما مقصودة لما تحققه من تواصل اجتماعي بين الناس وليس التواصل مقصوداً في ذاته، ولكن من أجل التواصل والحديث. وما يجري في المجلس يكون في ظل الآداب الإسلامية والقيم الاجتماعية القرآنية، فالمجلس في التصور الإسلامي ليس عملا معزولا عن القيم التي يحملها المسلم؛ ولكنه حالة من حالات المسلم اليومية التي تعكس التزامه ومعايشته لآداب دينه

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مقدمة بقلم الشهيد سيد قطب، القاهرة: مكتبة السنة، ١٩٩٠ وفيه تفصيلات عن مدى التردي العام في الأخلاق لدى جميع الأمم قبل ظهور الإسلام.

وعنوان لإسلامه وإقرارٌ أن هذا الدين جاء ليحكم الناس في حياتهم وحياتهم كلها كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وفي الحديث المتفق عليه قال النبي ﷺ: «**إياكم والجلوس في الطرقات، قالوا يارسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال فأما إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا يارسول الله فما حق الطريق قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» فالطرقات هي حق الناس جميعا وهي مرتفقهم الذي يمرون منه زاحمه حق مجموعة منهم يتقابلون للاتفاق على قضاء بعض مصالحهم فوفق النبي ﷺ بين حق العامة في المرور وبين حق بعضهم في الجلوس بأن يعطي هؤلاء الجالسون حق الطريق فلا يزاحمون الناس أو يضايقونهم في حقهم في المرور ولا يؤذونهم بالنظر إلى النساء والتلصص على معرفة عورات المارة والتسلية بمشاهدتهم، وأن يردوا السلام على الناس وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، والشاهد هنا أن حق المارة في الطريق هو الأصل وأن المجالس التي تقام على الطرقات هي فرع عليها وجوازها مرهون بأداء حق الطريق

ومن آداب المجلس في الإسلام:

١ - أن يكون المجلس اجتماعا لقضاء مصالح لا بد منها، ولا بأس من أن يكون حديثا للترفيه والتسلية والتنفيس بحيث لا يتنافى مع أدب أو قيمة خلقية إسلامية.

٢ - أن يلتزم بالآداب الإسلامية الأخرى مثل إلقاء السلام ومصافحة الجلوس والدعاء لهم بالمغفرة ما أمكن لحديثه ﷺ: «**ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا**».

٣ - أن يجلس حيث ينتهي ولا يزاحم الناس ليجلس في صدر المجلس ولا يفرق بين اثنين إلا بإذنهما لحديثه ﷺ: «**لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**».

٤ - أن يجلس حيث يأمره صاحب المجلس، فهو المرجع في تنظيم جلوس الناس وفي مجمع الزوائد «ومن دخل دار قوم فليجلس حيث أمروه، فإن القوم أعلم بعورة دارهم» وحكم الدار حكم غيرها من المجالس مثل المآتم والصالونات والندوات وغيرها.

٥ - أن يجلس في محاذاة الناس لا في وسطهم حتى لا يعطي بعض الحضور ظهره، وأن لا يجلس في مكان من قام لأنه أحق به إذا رجع لحديثه ﷺ: «**إذا قام أحدكم من مجلس ثم رجع إليه فهو أحق به**».

٦ - الاستئذان في الدخول إلى المجلس وحين الخروج منه خاصة لو كان في بيت، وكذلك إذا كان المجلس بدعوة خاصة لا يحضره إلا حاملو الدعوات.مثل الأفراح.

٧ - ألا يتناجي اثنان دون الثالث، وأن يظل المدعو إلى المجلس ملتزما بالسياق العام للمجلس ونظامه والقضايا التي يتناولها فلا يشذ عن الجو العام أو يفاجئ الحضور بأمر مستغرب،

وفي الحديث الذي يرويه الشيخان: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجي اثنان دون الثالث من أجل أن ذلك يحزنه»**.

آداب المجلس في ظل المستجدات المعاصرة:

* يتخذ المجلس أشكالا معاصرة قد تكون أكثر مؤسسية مثل الأندية والنقابات والجامعات والمجالس في البيوت، وهي تأخذ أشكالا لها طابع أكثر تحديدا وضبطا وربما تقوم شركات متخصصة بتنظيم مثل هذه المجالس مثل المؤتمرات الكبيرة التي تناقش قضايا يحضرها متخصصون وخبراء، والأصل هنا هو التزام المدعو بقواعد التنظيم المعلنة من جانب المنظمين حتى لو كان لها طابعا عرفيا في الملابس أو المصاحبين للمدعو أو غيرها، فالمعروف عرفا كالمشروط شرطا.

* وهناك أشكال معاصرة للمجالس يختلط فيها الحابل بالنابل، وتمارس فيها المنكرات مثل المقاهي وأماكن الاستراحات في الفنادق الكبرى، وهذه المجالس من المنظور الإسلامي تفتقد للآداب والقواعد، وتنتهك فيها كل القواعد ومن ثم فإنها لا تتناسب ولا تدخل في الإطار الإسلامي للمجلس وهي من المنكرات التي لا يجوز للمسلم أن ينخرط فيها أو يجعلها قبلة له، وتشير الخبرات المعاصرة إلى أن مثل هذه المجالس التي لا يكون فيها جليس صالح وإنما جلساء سوء كانت بابا من الشر على الشباب المسلم فقادته إلى الخطايا والمخاطر التي أهلكته.

* هناك قواعد معاصرة لها طابع عرفي تعارف عليها الناس ولا تتعارض مع القيم الإسلامية واتباعها يجعل الشخص موضع احترام وتقدير، ويزيد من فرص نجاحه في تحقيق أهدافه، ويجعل اتصاله بالآخرين مثمراً، وتتمثل هذه القواعد في نقاط محددة وهي الالتزام بالمواعيد والمحافظة عليها ومراعاة الأسبقية، واتباع العادات والاجراءات المتعارف عليها في المناسبات الرسمية وغير الرسمية واحترام الغير وخاصة النساء، والحفاوة بالجميع دون تمييز بسبب الثروة أو المركز، واحترام النفس في السلوك والمظهر والثقافة والجدية والكرم وهو ما يعد دليلا على الكفاءة الشخصية.

أمثلة وشواهد:

القواعد المعاصرة التي تنظم المجالس فيما لا يتعارض مع الآداب الإسلامية التي عرفتها الخبرة الإسلامية في السيرة والسنة وتتماشي مع الرقي والذوق والاحترام هي من الآداب التي يتمسك بها المسلم، وتعد من آداب الإسلام ومن أمثلة ذلك:

- أن يكون وضع الجلوس معتدلا مع سند الكتفين على ظهر الكرسي وعدم وضع الساق على الأخرى في وجه من يجالسك.
- صغار السن ينتظرون حتى يجلس الكبار أولا ثم يجلسون هم بعد ذلك.
- في وسائل المواصلات العامة على صغار السن ترك المقاعد الأمامية لكبار السن.

- الالتزام بالهدوء واللباقة وعدم التحدث مع شخصين في وقت واحد أو مقاطعة من يتحدث والإنصات إليه حتى ينتهي من حديثه.
- توجيه النظر إلى من تتحدث إليه ليشعر أنك مهتم به وعدم الإكثار من حركة الجسم واليدين أثناء الحديث
- عدم مواجهة من يخطئ في التعبير بتصحيح خطئه أمام الحاضرين.
- التواضع وعدم الإكثار من الحديث عن النفس حتى لا يشعر الحضور بالنفور منك وتكوين فكرة خاطئة عنك[١].
- يمكن للمرأة في ظل التطور المعاصر أن تشارك الرجال في المجلس خاصة في المجالس العامة التي تكون خارج البيوت، وهنا يجب على المرأة أن تلتزم بقواعد الإسلام في ارتداء الحجاب وغض البصر وعدم الخضوع بالقول وإظهار الجدية والاحتشام في التعامل مع الرجال، وعلى الرجال الالتزام بقواعد الإسلام أيضا في غض البصر واحترام خصوصية المرأة المسلمة.

---

(١) عن قواعد البروتوكول وآدابه راجع:
محمد نعمان جلال، قواعد البروتوكول وآدابه بين التقاليد الإسلامية والمجتمع الحديث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
وأيضا سيد حسن السيد، التطبيق المعاصر لفن الاتيكيت والبروتوكول وأثره على السلوك الاجتماعي وسلوك العمل، القاهرة، دار الجمهورية، د. ت.

هذه هي بعض الأمثلة والشواهد لبعض المستجدات المعاصرة لآداب المجلس، وهي تتماشى مع أصول الآداب الإسلامية للمجلس التي تعكس رقيا وتحضرا وتعبر عن أن بناء الشخصية المسلمة الملتزمة الراقية هو الهدف من الآداب الاجتماعية الإسلامية، فالإنسان هو الجوهر وهو الذي يقوم عليه العمران البشري وهو الذي يحقق وظيفة الاستخلاف.

* * *

آداب الحديث

في اللغة الحديث هو كل مايتكلم به من كلام وخبر، ويقال الحديث ذو شجون أي يتذكر به غيره، والحديث هو كلام النبي ﷺ، و قد يطلق الحديث على ما يعتملَ في النفس من أفكار وهواجس وظنون مثل حديث المرء نفسه[(١)]، فالحديث تعبير عن عملية اتصالية ذات طابع حواري بين الإنسان الذي يعيش في مجتمع وبين الذين يشاركونه العيش فيه، وباعتباره عملية اتصالية فهي تهدف إلى تحقيق التواصل والتفاعل بين أطرافها بما يحقق لهم أهداف العيش المشترك بينهم[(٢)]، ويتم التواصل بين أبناء أمة ما عن طريق اللفظ أي الكلام المنطوق أو عن طريق تعبيرات اتصالية أخرى غير لفظية، وفي كلتا الحالتين فإن التعبيرات اللفظية أو غير اللفظية تكون موضع اتفاق بين من يتواصلون بها من حيث دلالتها على معنى مشترك واحد بينهم وهذا هو معنى اللغة الدلالي الواسع الذي يشمل العلاقات الملفوظة والصور والإيماءات، لذا كان الحديث كتعبيرٍ عن اللغة أحد أهم أسباب التوحيد النفسي والمعنوي والعقلي لأمة من الأمم، فبدون اتفاق أمة على دلالات

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

(٢) مصطفي ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت، ع ١٩٣ فهو يرى أن والحديث بالأساس عملية اتصالية بين أبناء المجتمع.

وقواعد واحدة للحديث يحدث نوعا من الفوضي المفاهيمية التي تبلبل ألسنة الناس، فتجعلهم لا يستطيعون التواصل أو التفاهم ومن ثم لا يمكنهم العيش أو الإنتاج أو حتى الوجود ذاته. ولذا تعتبر اللغة أحد أهم مقومات قيام الأمم واستمرارها، وتسعي الدول المعاصرة إلى الحفاظ على لغتها باعتبارها أحد مميزاتها القومية، وتحافظ الأمم على لسانها وطريقة حديثها باعتبارها عنواناً على حضارتها وتميزها ودليلا على رقيها وأصالتها، وتوجد الدوائر على أعلى مستوى لحماية ألسن الأمم والشعوب من اختراق الدخيل عليها، ففرنسا على سبيل المثال لديها هذه الدوائر لحماية اللغة الفرنسية من هجمة الإنجليزية، والإنجليزية في المملكة المتحدة تنفر وتتحفظ على ما تعتبره عدوانا أمريكيا على لغتها، وتسعى كل أمة إلى نشر حديثها ولغتها وثقافتها على أوسع نطاق باعتباره دليلا على نشر ثقافتها وقيمها ومدنيتها ولدينا ظاهرة مثل الفرانكفون والأنجلوفون، والأمة العربية تمثل اللغة وطريقة الحديث أكبر المصادر الثقافية التي تؤلف بين الشعوب العربية في طريقة تفكيرها ونمط حياتها، ولايزال الحديث العربي يمثل أهم عنوان على الوحدة بين الشعوب العربية. وأكبر تجلٍ وبرهان على وجود الأمة العربية[1].

---

(١) كثير من النظريات التي تتحدث عن نشأة الأمم تتحدث عن اللغة باعتبارها التجلي الأهم والأعظم لمعنى الأمة وأساس قيامها، ويمكن مراجعة الأدبيات الألمانية والأدبيات العربية التي تتحدث عن أساس قيام الأمم وعندنا في الإسلام فإن العروبة لا تقوم على أسس عرقية =

مفهوم الحديث وأشكاله في العلوم الإنسانية :

هو عملية اتصالية تتم بين الإنسان والذين يتفاعلون معه في موقف ما بقصد تحقيق أفضل مستوى للتفاهم المشترك بينهم، ويقول ؟ناعوم شومسكي» أحد أهم علماء اللغويات المعاصرين: «اللغة هي جانبنا الإنساني فنحن نستخدمها لنسبر أغوار ذاتنا فضلا عن ذوات الآخرين، وكذلك لنتعامل مع مجريات عالمنا وواقعنا وماقد يعرض لنا فيه من أعمال ذات معنى أو دلالة»، ويرى شومسكي «أن اللغة قضية مسلمة تماماً مثل حركة الأجرام السماوية وثوابت الجاذبية الأرضية فليس لدى الناس أية معرفة حدسية بقواعد الفيزياء، وهو يؤكد على أن اللغة حكر على بني البشر دون غيرهم من الأجناس، وهي جزء من الموهبة البيولوجية الفطرية التي خص الله بها الإنسان على غيره من الأمم والأجناس، وهذا يعني أن بعض صفاتها الأساسية تتحدد عن طريق عوامل جينية ووراثية مثلها في ذلك مثل العديد من الجوانب الخاصة بهويتنا وماهيتنا»، وهذا يتفق مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] أي تتحدثون. وهناك نمطان شائعان للاستخدام اللغوي هما التعبير عن الذات لجعل أفكار المرء أكثر وضوحا ولإقامة العلاقات الاجتماعية وتقويتها بين الأفراد في ثنايا قوالب اجتماعية تعزيزية ومشجعة. ويفرق شومسكي بين ما يسميه

- جاهلية وإنما تستند إلى أسس ثقافية هي الحديث بالعربية فمن تكلم العربية فهو عربي حتى لو لم يكن عربيا من الناحية العرقية والإثنية.

القدرة اللغوية COMPETENCE أي النظام المعرفي الذي يملك ناصيته أبناء اللغة ومتحدثوها الأصليون وهذه يسميها لغة الأنا الداخلية التي تعلمها الطفل منذ كان لا يعلم شيئا بعد ولادته من بطن أمه، أما اللغة الأخرى فيسميها اللغة الخارجية وهي التي يتعلمها الإنسان بعد اكتمال نضجه اللغوي، أو كما يقول هو «إنها خارجية ومتسعة لتضم بين جنباتها أي مفهوم لغوي غير متأصل في المخ الذهني للفرد»[1].

وللحديث أشكاله المتعددة منها اللفظي أي ما يلفظه الإنسان بالقول مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٨]، والكلام أو الحديث هو أبرز التعبيرات الاتصالية للإنسان «لذا تهتم الأمم بقواعده وبيانه، ومن أنواع الحديث الكلام المعتاد الذي يتبادله الناس لإدارة شؤون حياتهم، ومنه الخطب التي تؤثر في السامعين ببيانها وقوة حجتها، والمحاضرات العلمية في الجامعات والندوات، والجدال بين أصحاب المذاهب المختلفة والحجج التي تكون بين ممثلي الدول في التفاوض حول الحقوق المتنازع عليها بينهم».

ويدخل في الحديث اللفظي التعبير بالكتابة كما في الرسائل أو المكاتبات التي تكون بين المصالح والإدارات المختلفة عبر الفاكس

---

(١) اعتمدنا في هذه النقطة على كتاب «اللغة والسياسة» نعوم شومسكي لمؤلفيه جون ماهر وجودي جروفز، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣.

وما يكون عبر الشبكة الدولية العنكبوتية «الانترنت» حيث يتم التواصل عن بعد عبر الكتابة.

وهناك التعبيرات عن الانفعالات التي تظهر في شكل مشاعر وتعبيرات وإشارات وإيماءات أوما يطلق عليها «لغة الجسد» أو في تعبير آخر «اللغة البصرية»، فالإشارة باليد أو الأصابع أو الرأس أو اللمس أو تعبير الوجه والعين مثل التقاء العيون واحمرار الوجه أو الابتسام أو وضع الجسم مثل الوقوف أو الجلوس أو المواجهة أو الإزاحة أو القرب أو البعد أو الاستقامة أو الانحناء وغيرها، هذه التعبيرات الانفعالية والإشارية لها تأثير قوي في التواصل بين البشر. ويعد التعبير عن المشاعر أحد الكفاءات الاجتماعية التي استخدم لها «بول إيكمان» مصطلح قواعد التعبير أي الكيفية التي يعبر بها الناس عن مشاعرهم ومدى نجاحهم أو فشلهم في ذلك، ووجود اتفاق عام بين الناس على اللجوء إليها للتعبير عن مشاعرهم على نحو لائق، والتعبير عن الانفعالات له نتائج فورية في تأثيره على من يستقبله، حيث إن هذه العادات للتعبير عن العواطف التي هي أكثر من مجرد جزء من قاموس الآداب الاجتماعية لأنها تكرس عندنا كيف تترك مشاعرنا وقعها على الآخرين واتباع هذه العادات جيداً يجعلك تترك أفضل أثر ممكن وإذا كان أداء الإنسان في هذا الصدد سيئاً، فإن هذا يفضي إلى حالة من الاضطراب العاطفي.

وتترك وسائل التعبير غير اللفظي أثرها الهائل على علاقات الناس

ببعضهم في المجتمع فكلما كانت التعبيرات المتبادلة بين الناس فيها ود واحترام وتعاطف تشيع هذه الروح داخل المجتمع كله أفراده وأسره ومصالحه الحكومية، والعكس كلما كانت هذه التعبيرات مجافية للذوق وتبعد عن قواعد اللياقة وتتخذ شكلا جافيا فيه طابع العدوان والصراع، فهناك ما يسمى بعدوى الانفعالات أو المشاعر حيث يرسل الناس ويستقبلون حالاتهم المزاجية من وإلى بعضهم إلى الدرجة التي يتم فيها تنظيم خفي للنفس ضمني فأحيانا يكون تأثير بعض من يصادقوننا تأثيرا مسموما وأحيانا أخرى يكون تأثيرا منعشا للذات، هذا التبادل الشعوري العاطفي يحدث من دون أن ندركه حسيا لأنه يتم برهافة مثل الأسلوب الذي ينطق به البائع كلمة شكراً، فقد تعبر عن التجاهل فتشعرنا بالغيظ وقد تعبر عن الترحيب والتقدير، فنحن ننقل المشاعر لبعضنا البعض كما لو أنها فيروسات اجتماعية، وفي دراسة أجراها «أولف ديمبرج» «الباحث السويدي في جامعة أوبسالا» وجد أن الناس حين يرون وجها باسما أو غاضبا تظهر على وجوههم الحالة النفسية نفسها من خلال تغيرات طفيفة في عضلات الوجه كما لو كانت تتم بأجهزة استشعار اليكترونية لا تظهر للعين المجردة، وهناك ما يطلق عليه علماء النفس التزامن الجسدي الذي يشير إلى توافق وانسجام حركات الجسد وإيقاعها بين الأشخاص الذين تجمعهم علاقات الحب والمودة ويبدو ذلك واضحا في علاقات الأم بأولادها، وفي علاقة الأب مع زوجته، وفي علاقة المدرس في الفصل مع

تلامذته، فتوافق الانفعالات في التفاعل بين البشر علامة على عمق تمكن الإنسان على المستوى العاطفي[1].

مفهوم الحديث وأشكاله في الإسلام :

سمّى الله سبحانه وتعالى القرآن حديثا بل هو أحسن الحديث قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ . . . ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣] وذمَّ الله سبحانه الحديث اللاهي الفارغ الذي لا فائدة منه قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴿٦﴾﴾ [لقمان: ٦]، ونهى عن مخالطة الذين يتخبطون في أحاديثهم ويقحمون آيات الله بغير علم قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ . . . ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ . . . ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠]، فالحديث بهذا المعنى في المفهوم الإسلامي هو الرسالة الاتصالية التي يتفاعل المسلمون عبرها بما يقوي روابطهم الإيمانية، ويعزز أخلاقهم الإسلامية، ويعبر عن طاعتهم لربهم وإتباعهم لمنهج نبيهم. أما الحديث كرسالة اتصالية تتنافى مع

---

(١) اعتمدنا في هذه الجزئية على: دانيل جولمان، الذكاء العاطفي ترجمة ليلى الجبالي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٣.

الأخلاق الإسلامية وقواعد الآداب الاجتماعية في الشريعة الإسلامية، فإنه على المسلم تجنبها والبعد عنها ويحرم عليه التواصل معها أو المشاركة فيها، ويدخل في ذلك اللهو المحرم والكذب والغيبة والنميمة وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا أو إشاعة روح الخنوع والهزيمة في أوساط شباب الأمة، وفي حديث معاذ حين سأل النبي ﷺ: «أو نحن محاسبون بما نقول؟» فقال له النبي ﷺ: **«ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»**[1] فاللسان حصان الإنسان به يصان وبه يهان وبه يزحزح عن النار ويدخل الجنة ويكون ذلك بالتزام الآداب الإسلامية في الحديث والكلام.

وكما أن الحديث لفظي بالقول مثل الدعوة والجدال أوبالكتابة مثل كتابة الكتب والرسائل، فإنه يدخل في مفهوم الحديث بمعنى أن يكون التعبير اللفظي بكل أشكاله التزاما بقواعد الإسلام وأخلاقه كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ... ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي الجدال قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ... ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وفي التأليف والكتابة والرسائل بمعناها الواسع يكون الالتزام بقواعد الإسلام وآدابه التي تهدف إلى تزكية المجتمع وتنقيته، وإشاعة روح المودة والسكن والحب والفضيلة بين أبنائه.

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦).

وهناك الأحاديث غير اللفظية مثل التعبيرات والمشاعر والعواطف والإيماءات وحركات الجسد، وكلها نبه الإسلام إلى ضرورة أن تكون وفق مبادئه وقواعده وأخلاقه، فالإسلام نهى عن الفحش والبذاءة في التعبير عن العواطف والمشاعر ودعا إلى الرقي والسمو والاستعلاء في كل ما يتصل بالأحاديث غير اللفظية كهواجس النفس وتعبيرات الوجه: «... **أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[1]، ومشاعر المودة والرحمة والسكن بين الزوج والزوجة، وفي السنة أمثلة كثيرة للحوار غير اللفظي مثل تزين المرأة لزوجها ووضع الطيب له والصمت الذي هو علامة الرضى والإشارة، وكلها مضبوطة بقواعد الإسلام وضوابطه وآدابه التي تدعو إلى الفضيلة والخير وإشاعة روح الحب والإيجابية والتفاعل البناء على فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ضوابط الحديث وآدابه في الإسلام :

الحديث هو إظهار مخبوء النفس والعقل، فالألسنة مغارف أوعيتها القلوب، وهو يكشف عن شخصية صاحبه ويعطي الانطباع عنه لدى مستمعيه بالخير أو الشر كقول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده	فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

لذا اهتم الإسلام بوضع ضوابط وقواعد له ليتربى المسلمون على آداب الحديث والحوار وأصولهما ومن ضوابط الحديث وآدابه في الإسلام :

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

١ - الحديث بالعربية الفصحى فهي لغة القرآن الكريم، والحفاظ عليها.

٢ - التمهل بالكلام أثناء الحديث حتى يفهم المستمع وفي الحديث: **«ما كان النبي يسرد الحديث كسردكم»**[١]، كان كلامه فصلا يفهمه كل من سمعه.

٣ - مخاطبة الناس على قدر عقولهم وتخولهم بالموعظة ففي الحديث: **«حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»**[٢]، والتعهد بالموعظة بين الحين والآخر حتى لا يمل الناس ويشعروا بالسآمة.

٤ - الإصغاء التام إلى حديث المتحدث وعدم مقاطعته فكان الصحابة إذا تحدث إليهم النبي كأن على رءوسهم الطير، كما كان النبي ﷺ يصغي لمن يحدثه حتى ينتهي فعن أنس **«ما رأيت رجلا التقم أذن النبي ﷺ أي يكلمه سرا أ فينحي رأسه عنه أي يرفعه عنه - حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه...»**[٣].

٥ - إقبال المتحدث على جلسائه جميعا فيشعر كل واحد منهم أنه مهتم به مقبل عليه ومباسطتهم بذكر بعض مايسرهم من أحاديث الحكمة وأخبار الناس وتواريخهم وغرائب الأخبار.

٦ - عدم التقعر والتنطع في الكلام والإبهام في الحديث لقوله ﷺ:

(١) رواه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها (٣٣٧٥).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٤).

«ألا هلك المتنطعون»[1]، ولقوله ﷺ: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»**[2]، ولقوله ﷺ: **«. . . إن أبغضكم إلي يوم القيامة وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون»**[3].

٧ - تجنب الفحش والإيذاء في الحديث وتحري الرفق والحياء لقوله ﷺ: **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»**[4]، ولقوله ﷺ: **«ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه»**[5].

ضوابط الحديث وفق مجالاته :

بالإضافة إلى القواعد العامة التي ذكرناها في آداب الحديث التي يتأدب بها المسلم، فإن هناك مجالات للحديث تحتاج إلى ضوابط أخص وأدق. فالحديث إلى الله بقراءة القرآن أو الدعاء أو الصلاة في جوف الليل تحتاج من المسلم إلى الطهارة المعنوية والجسدية وتحتاج إلى إخلاص القلب لله و استحضار معنى الخوف والخشوع والتضرع وحسن الظن بالله وغيرها من أعمال القلب، فبقدر عظمة من نحدث بقدر عظم ما نتجمل به من أخلاق، وأعظم الحديث

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٨).
(٢) رواه أبو داود (٥٠٠٥).
(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨).
(٤) رواه الترمذي (١٩٧٧).
(٥) اعتمدنا في هذه الجزئية على عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام بتصرف وبعض كتب الحديث الأخرى مثل رياض الصالحين للنووي، رواه الترمذي (١٩٧٤)، كما رواه ابن ماجة (٤١٨٥).

إلى الله تعالى وهو جدير بأن يتحلى قاصده والمتضرع إليه بأجمل الآداب والأخلاق واعلم أن الحديث إلى الخالق هو حديث المتلقي المتضرع النادم الراجي تقبل عمله، فإبليس اللعين حين أمره الله بالسجود لآدم عاند فكتب الله عليه الطرد من رحمته، وحين طلب الكليم من الله أن يراه وهو أمر لم يأذن الله له به، فلما تجلي الله للجبل وخر موسي صعقا حين أفاق تاب وقال: ﴿... سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أما الحديث إلى الرسول ﷺ فيكون بتعظيم أوامره واحترام شخصه الكريم لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا... ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، فليس النبي كسائر الناس بل هو سبب الخير والرحمة للأمة كلها وللبشرية جمعاء حتى تقوم الساعة، فهو أمان للأمة وهداية لها، وأمر الله المؤمنين بخفض الصوت معه والتأدب في حضرته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]. كما أمرهم أيضا بتقديم الصدقة بين يدي مناجاتهم له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ... ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة: ١٢].

وبعد موته فنحن مطالبون بإتباع سنته وطاعته وعدم التقديم بين يديه والصلاة والتسليم عليه وعلى آله الأكرمين، وحب صحابته

الذين تحملوا معه المشقة في تبليغ هذا الدين ونصرته والجهاد من أجله، وحبه أكثر مما نحب أنفسنا وأزواجنا وأولادنا وعشائرنا ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ... ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ... ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

والحديث مع العلماء يكون باحترامهم وتوقيرهم لقوله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط**»، وأن ننزلهم المنزلة التي أنزلها الله في قوله تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ... ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، وقوله ﷺ: «**أنزلوا الناس منازلهم**»(١).

والحديث مع ولاة الأمور يكون بنصحهم وطاعتهم في المعروف وعدم النفاق لهم والمبالغة في مدحهم والصدق معهم في إبلاغهم أحوال الرعية والناس، وكان التابعين يتحرجون من الحديث إلى

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٢).

السلاطين خشية أن يكون ذلك على حساب دينهم وأُثِرَ عن الأحنف بن قيس أنه قال سهرت ليلتي أفكر في كلمة أُرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما وجدتها.

والحديث مع الجيران يكون بالرفق واللين والتزام القواعد العامة للآداب الإسلامية في الحديث لأن للجار حق خاص على أخيه المسلم، وهذا يستلزم ارتفاع معه في مستوى الأدب في الحديث والتعبير عن العواطف والمشاعر والانفعالات والإشارات، فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويشاركه آلامه وأحزانه ويحترم أحواله وظروفه، فالجار هو أحد أهم أسس بناء شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم بعد الأسرة، ومن هنا كان الاهتمام به والتوصية به من جانب جبريل للنبي ﷺ حتى ظن أنه سيورثه.

وإذا لم يكن للحديث فائدة فالصمت خير وبركة، وقال بعض الفصحاء أعقل لسانك إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها، وفي الأثر عن النبي ﷺ: «**رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم**»[1] وقال بعض الأدباء: «سعد من لسانه صموت وكلامه قوت»[2]، إن اهتمام الإسلام بأدب الحديث هو نوع من التربية التي تحمي المجتمع المسلم من غوائل اللسان، وتحفظ له أمنه الاجتماعي وتواصله الإنساني القائم على المشاركة الإيجابية والتفاعل البناء.

---

(١) شعب الإيمان (٤٩٣٤).

(٢) اعتمدنا على أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، ج٤ فيه فصل ثمين بعنوان الصمت والكلام وقد سلخنا منه بعض الإيرادات في المتن.

آداب المناسبات الخاصة

إن مما يشهد لديننا الإسلامي بالكمال والشمول، ومما يبعث على الفخر والاعتزاز بالانتماء إليه، ما أمر به من الآداب في كثير من الأحوال، ومنها ما يتعلق بالمناسبات، فلكل مناسبة نجد آداباً تليق بها، فنجد مثلًا عيادة المريض لها آدابها وأحكامها، والتهنئة لها خصوصيتها، والتعزية لها طريقتها، والضيافة لها أحوالها، فلكل مناسبة آدابها وأحكامها ودلالاتها وخصوصيتها.

أولًا: عيادة المريض:

يقصد بها زيارة المريض لتفقد أحواله، والتخفيف عنه، لما قد يحس به من آلام حسية أو أمور معنوية[1].

*** ومن الأدلة على مشروعية عيادة المريض وفضلها ما يلي:**

١ - عن البراء بن عازم - رضي الله عنهما - قال: أمرنا رسول الله ﷺ «**بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام**»[2].

٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**حق**

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ١٨١، والمصباح المنير: ص (١٦٦).

(٢) رواه البخاري ومسلم: صحيح البخاري: ٢/ ١٥٦٥، صحيح مسلم برقم (٢٠٦٦).

من المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[1].

٣ - عن علي - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم يعود مسلماً غُدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح، وكان له خريف في الجنَّة»**[2]. والخريف هو الثمر المخروف أي: المجتنى[3].

*** آداب عيادة المريض**[4]:

لزيارة المريض آداب ينبغي أن يراعيها العائد حتى تكون نافعة للمريض، ومنها:

١ - **اختيار الوقت المناسب**: وهذا يختلف باختلاف أحوال المرضى ومجتمعاتهم، فيستحب أن تكون الزيارة في وقت لا يكون فيه حرج على المريض، ولا يثقل عليه فيه استقبال الزائرين، فالزمان معتبر في الزيارة، فما تعارف عليه أهل بلد واعتادوه من أوقات معينة للعيادة قد لا يكون في بلاد أخرى معتاداً عليه.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ١٥٧/٢، صحيح مسلم برقم (٢١٦٢)، اللؤلؤ والمرجان: برقم (١٣٩٧).

(٢) رواه أبو داود برقم (٣٠٩٨)، والترمذي برقم (٩٦٩)، وابن ماجه برقم (١٤٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٦٧).

(٣) انظر القاموس المحيط: ص (١٠٣٨).

(٤) انظر: كتاب الآداب للشلهوب: ص (٢٥٣)، والموسوعة الفقهية: ٧٨/٣١.

٢ - **عدم إطالة الجلوس عند المريض**؛ لئلا يحرجه ويشق عليه، إلا إذا كان المريض يرغب في بقاء العائد مدة أطول، فيستحب أن يبقى تلبية لرغبة المريض.

٣ - **أن يسأل العائدُ المريض عن حاله**، وأن يبعث الأمل في نفسه بقرب الشفاء وزوال المرض، وعدم خطورته، أو سهولة العلاج.

٤ - **الدعاء للمريض بالشفاء**، وخاصة بالمأثور عن رسول الله ﷺ ومن ذلك:

(لا بأس طهور إن شاء الله)[١]، **(أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يشفيك)**[٢] سبع مرات.

٥ - **الرقية الشرعية للمريض**: يستحب لمن يزور مريضاً أن يرقيه كما كان يفعل النبي ﷺ حين يزور المرضى، ومن تلك الرقى:

أ - الرقية بـ (فاتحة الكتاب)[٣].

ب - الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين[٤].

جـ - الرقية بـ «**أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً**»[٥].

---

(١) رواه البخاري: ٧/٢١٦.

(٢) رواه أبو داود برقم (٣٠١٦) وصححه الألباني في الجامع برقم (٦٣٨٨).

(٣) رواه البخاري: ٧/٢٤٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) رواه البخاري في صحيحه: ٧/٢٤٢.

د - الرقية بـ «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(١)].

٦ - **وضع اليد على المريض**، أو على ما يؤلمه من جسده، لورود السنة بذلك.

٧ - **إتيان المريض بما يحب أو يشتهي** من أمور مباحة كطعام ونحوه؛ لما لذلك من الأثر في التخفيف من معاناته بسبب المرض.

٨ - **تذكير المريض بما له من الأجر على احتسابه لما أصابه من المرض**؛ فإن ذلك أدعى لتقوية عزيمته وزيادة صبره.. ومن ذلك التذكير بقول النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**»[(٢)].

ثانياً: التهنئة:

هي التبريك بالشيء يحصل للمرء بلا مشقة، أو لم يصاحبه تنغيص أو كدر، كالتهنئة بولاية، أو حصول مناسبة سارة من قدوم غائب أو شفاء مريض، ومن ذلك الطعام الهنيء وهو ما كان سائغاً، تقول: أكلته هنيئاً مريئاً، أي: سائغاً بلا مشقة[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢١٨٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٩٩).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة: ٦/٦٨، القاموس المحيط: ص (٧٢)، المصباح المنير: ص (٢٤٥)، الموسوعة الفقهية: ١٤/٩٥.

والتهنئة تكون في مناسبات عدة[1]، منها:

١ - التهنئة بالنكاح:

فيقال: بارك الله لك، وبارك عليك وجمع بينكما في خير.. لما ورد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان إذا رفأ إنساناً - تزوّج -، قال: «**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير**»[2].

٢ - التهنئة بالمولود:

ومما قيل فيها من الصيغ: «**بارك الله لك في الموهوب لك، وشكرت الواهب، وبلغ أشدَّه، ورزقت برّه**»[3]. وكقول بعضهم: جعله الله من أبناء السعادة، أو جعله الله قرّة عين لك.

٣ - التهنئة بالعيد:

كقولهم: عيد مبارك، ونقل عن الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم كانوا إذا رجعوا من العيد يقول بعضهم لبعض: تقبل الله منّا ومنك.

ويقاسُ على هذه المناسبات غيرها في التهنئة، وهذا يكون فيه مشاركة من المسلم لأخيه في فرحة بما آتاه الله من خير، وهذا

(١) انظر: الموسوعة الفقهية: ١٤/٩٧.

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم (٢١٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٧٢٩).

(٣) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود لابن القيم ص (٣٨).

ينتج عنه إدخال السرور في نفس المؤمن وهو أمر رغَّب فيه الشرع.

ثالثاً: التعزية:

من العزاء وهو الصبر أو حُسنه، ومن معاني التعزية: الأمر بالنظر إلى الغير ممن أصيب بمثل مصيبة، فقولك: عزيته، أي قلت له: انظر إلى غيرك من أصابه مثل ما أصابك[(١)].

والمراد تصبير المصاب ومواساته، وحمله على ألا يقول إلا خيراً عند المصيبة، فيُذكَّر بالأجر ليُحمل على الصبر، ويحذر من الوزر لئلا يفقد الصبر[(٢)].

*** من الصيغ المشهورة في التعزية:**

قولهم: أعظم الله أجرك، وأحسن الله عزاءك، ورحم الله ميِّتك.

والتعزية لها صلة وثيقة بالمواساة، والتي يُقصد بها معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات، وتقديم المساعدة الممكنة التي يتحقق بعدها إذهاب الحزن وجلب الفرح، وإدخال السرور في النفوس[(٣)].

وينبغي أن يحرص المسلم على أن يبتعد عمَّا يجلب الحزن إلى أهل المصيبة، فلا يثير أحزانهم ببكائه أو صياحه، وإنما يقوم بذكر

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: ٤/٣١٠.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية: ١٢/٢٨٧.
(٣) انظر: نضرة النعيم: ٨/٣٤٥٩.

محاسن ميِّتهم، أو بتذكيرهم بما للصابرين من الأجر العظيم.

كما ينبغي أن تكون التعزية في وقت قريب من المصيبة، أما إذا طالت المدة فالأَوْلَىٰ عدم التعزية لئلا يثير المرء أحزان أهل المصيبة.

رابعاً: الضيافة:

جاء ديننا الحنيف بالحثِّ على إكرام الضيف، والتأكيد على هذه الخصلة التي كانت في الجاهلية مبعث فخر واعتزاز من يقوم بها من العرب..

فمن ذلك:

قول النبي ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**(١).

وللضيافة آداب عظيمة جاء ذكرها في شريعتنا الغراء(٢)، منها:

١ - إجابة الدعوة:

ومما ورد في السنة المطهَّرة في الأمر بإجابة الدعوة قول النبي ﷺ: **«حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة وتشميت العاطس»**(٣).

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري: ٨/٥٩، صحيح مسلم برقم (٤٧).

(٢) انظر: كتاب الآداب للشلهوب: ص (٨٩).

(٣) سبق تخريجه.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «**شر الطعام طعام الوليمة، يُدعى لها الأغنياء، ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله**»[1].

ففي السُّنَّة التأكيد على إجابة الدعوة لما فيها من تقوية الإخوة بين المسلمين، وإزالة ما قد يكون بينهم من شحناء أو بغضاء أو سوء ظن، أو نحو ذلك.

٢ - الترحيب بالضيف:

ينبغي إظهار السرور والغبطة عند رؤية الضيوف، ومباشرتهم بالكلام الطيّب، والتبسُّم في وجوههم، فهذا مما يُدخل السرور والأُنس في نفوسهم. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه لما قدم عليه وفد عبد القيس قال: «**مرحباً بالوفد الذين جاؤوا غير خزايا ولا ندامى...**»[2].

٣ - إكرام الضيف:

من الفضائل العظيمة التي أمر بها الإسلام إكرام الضيف، والإحسان إليه، ولكنه في المقابل نهى الضيف أن يثقل على من نزل عنده، بطول البقاء عنده أو بطلب ما يشق عليه، أو يكون ممن لا يجد شيئاً يضيفه به.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري: ٤٣/٧، صحيح مسلم برقم (١٤٣٢).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري: ٧٤/٨، صحيح مسلم برقم (١٧).

٤ - عدم التكلف للضيف:

لئلا يحس الضيف بالحرج، وأنه قد كلف مضيفه وشقَّ عليه وأوقعه في الحرج.

٥ - عدم البقاء طويلًا والانصراف بعد الفراغ من الطعام:

وذلك لأن المضيف يكون قد قضى وقتاً طويلًا في إعداد الطعام واستقبال الضيوف، والبقاء بعد ذلك يكون مرهقاً له.. والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿... فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ...﴾[1].

٦ - الدعاء للمضيف وإظهار الإعجاب بما قدم من الطعام:

وهذا له أبلغ الأثر في نفوس أهل الدار، ويذهب عنهم ما قد أحسُّوا به من عناء القيام بهذه الضيافة.

٧ - الخروج مع الضيف إلى باب الدار:

من تمام الضيافة وحسن الرعاية للضيف الخروج معه إلى باب الدار، فهذا يشعر الضيف بما يحمله المرء من مشاعر الغبطة والسرور بسبب هذه الزيارة، وهذا من كمال الإحسان إلى الضيف وتمامه..

* * *

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

آداب حياتية

خلق الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا ليكون خليفته - أي ليقوم في الأرض بما يحقق مقاصد الخالق من الخلق -، ولم يترك الله الإنسان هملا رغم أنه كرمه بالعقل فأرسل إليه الرسل وشرع الشرائع، وشملت هذه الشرائع آداب وضوابط وأخلاق ونظم بها يحقق الإنسان الغاية من خلقه، ومنح الله الإنسان حق الاختيار في نمط الحياة التي يريدها هل تكون وفق النظام الذي أراده الله له أم وفق النظام الذي يحدده له عقله وحده مستقلا عن شرع الله، ورغم أنه لا تعارض بين الشرع والعقل فما يريده الله لعباده يتفق مع العقل والفطرة، بيد أن بعض الأمم كما في الغرب أرادت أن يستقل العقل وحده بوضع قواعد الحياة دون أي مرجعية للدين، ورغم أنهم استطاعوا التحكم والسيطرة في المسائل المادية التي جعلها الله مجالا لفعل العقل وعمله لكنهم في حيرتهم يعمهون فيما يتصل بالمسائل المتصلة بالنفس والإيمان والكون والحياة الآخرة والمجتمع، ورغم أن الله خلق الإنسان ليحقق العبودية الكاملة له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١] وقامت رسالة الرسول ﷺ على تحقيق عبودية البشر لربهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] لكنه جعل مجال تحقيق العبودية لله

متسقا مع الفطرة البشرية ومع المجالات الحيوية والطاقات الإبداعية التي يحقق بها الإنسان حقيقة العبودية، فلم يجعل العبودية هي الصلاة أو مجالها المسجد وحده ولكن وسع من مجال العبودية فجعلها اسم جامع لكل ما يحبه الله[1] ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادات

والآداب الحياتية مثل اللعب والنوم والاستيقاظ هي من مجالات العبادة والالتزام بآداب وضوابط التثاؤب والعطاس كما جاءت في السنة هي من العبادة. هنا الإسلام وسع مجال العبادة لتشمل كل التعبيرات الحيوية للفعل البشري هذا على المستوى الأفقي وعلى مستوي الرأسي، فإن المؤسسات التي يبدو للناس أنها مؤسسات عبادة بمعنى إقامة الشعائر فيها يمكن أن تقام فيها حيوات أخرى أوسع بكثير من مجرد الاقتصار على أداء الشعائر، ففي المسجد

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٩٩٦.

كانت تتخذ القرارات وتمارس الشوري وتعقد الألوية للجيوش ويقضي بين الناس وحتى اللعب داخل المسجد في المناسبات الخاصة مثل الأعياد.

هنا الإسلام دين يشمل الدنيا والدين في جدلية رائعة لا انفصام فيها ولاتوتر كما في الحضارة الغربية، فكل فعل بشري فطري وحياتي هو من الدين، وهو تعبير عبادي طالما أنه مقصود به وجه الله فمثلا الطفل الذي يلعب هو يلعب استجابه لرغبة فطريه وتفريغا لطاقة حيوية لكنه إن يقصد بلعبه أن يكون مؤمناً قوياً أو عبداً لله قوياً، فإنه هنا يمارس عملاً تعبدياً **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير»**[1]، فالمسلم تساوى مع غيره في تحقيق ثمرات الآداب الحياتية والمناشط المختلفة التي لا يقوم عمران إلا بها لكنه يفعل ذلك في سياق مختلف هو أنه عبد لله، وأنه مبتلى في هذه الحياة القصيرة، وأن الآخرة خير وأبقى ﴿... وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤].

هنا في الإسلام وحدة في الخلق والكون والمنهج والنفس والحياة وكلها مستمدة من وحدانية الخالق وتوحيد المنهج، فلا يعرف الإسلام الفصام النكد بين الدين والدنيا، ولا بين الإنسان والكون، ولا بين الرسالة والعقل، ولا بين الخالق والمخلوق،

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

ولكن هناك وحدة في النظام الذي تنبثق منه الآداب والقواعد بلا تعارض وتنافر ولا تمرد ولا يؤس ولا قلق ولا اغتراب.

ضوابط اللعب:

تؤكد جميع نظريات اللعب على أهميته، وأنه وسيلة لتنفيس انفعالات الطفل ودوافعه المكبوتة، ووسيلة للاستجمام والراحة بعد العناء والعمل، ووسيلة لنمو عضلات الجسم عند الطفل بطريقة سليمة تناسب نموه وخاصة المخ والجهاز العصبي، وهو وسيلة إعداد الطفل للحياة المستقبلة، وللعب قيمة تربوية وسيكولوجية لا تنكر، فهو يسهم في تنمية عدد من المهارات العقلية والمعرفية والثقافية والاجتماعية والانفعالية بالإضافة إلى الخبرات الحسية، لكنه لا بد من وجود ضوابط وتوجيهات حتى لا يكون اللعب سبيلا للهدم أثناء نمو الطفل أو سبيلا إلى تحصيل مدركات خاطئة لفهم الطفل لذاته ومجتمعه[(١)].

وهناك مجموعة من الضوابط والآداب التي تمثل هاديا لأطفال المسلمين وصبيانهم وشبابهم لكي يكون اللعب تعبيرا عن وسيلة لتحقيق مقصود أعلى من ورائه وهو إرضاء الله سبحانه وتعالى ونورد هذه الضوابط والآداب في الآتي:

١ - أن لا يكون اللعب مجرد تسلية ومضيعة للوقت بلا بركة وفائدة

(١) واعتمدنا عليه في الإحالة على الآيات المتصلة بالنوم.

كلعب النرد والورق وألعاب الحركة الالكترونية الجديدة التي لا تضيف جديدا للطفل

٢ - أن لا يكون اللعب ذريعة لإضاعة فرض من فرائض الله خاصة الصلاة، فالصلاة أوجب الواجبات على المسلم وأفضل أعماله أن يصلي الصلاة لميقاتها كما في الحديث: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على ميقاتها**»[١].

٣ - أن يتوجه الطفل والشاب المسلم للألعاب التي تقوي جسمه وتحفظه، وتعده ليكون مسلما قويا مثل ألعاب القوى وألعاب الدفاع عن النفس كما في الأثر الوارد عن عمر «**علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل**»، وهذه الألوان من اللعب يمكن تسميتها بالألعاب الوظيفية التي ترتبط بمقصود وراءها هو إعداد أبناء المسلمين ليكونوا مجاهدين وجنودا للدفاع عن العقيدة والأوطان.

٤ - أن يكون اللعب وسيلة للانضباط الخلقي والالتزام النفسي، ولايكون طريقا للغرور والانحراف والميل عن جادة الطريق المستقيم بالجري وراء الشهرة والأضواء ومغريات الحياة، وأن يجعل نصب عينيه قول النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**»[٢]، وقوله ﷺ: «**و شاب نشأ**

(١) رواه البخاري (٢٦٣٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩).

في عبادة الله عز وجل»[1].

٥ - أن لا يهمل الشاب الرياضة بعد أن يتجاوز مرحلة التكوين بل يظل يمارس دائماً، فحكمها حكم من علم شيئا لا يجوز له أن يهمله أو يضيعه حتى ينساه.

٦ - أن يختار الرفاق الذي يمارس اللعب والرياضة معهم بعناية بحيث يكونون رفاقا صالحين يعينونه على الخير والبر والمعروفد فمثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك أو تشتري منه أو تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحا منتنة، وشلة الرفاق تمثل جماعة مرجعية في منتهى الخطورة والأهمية في هذه المرحلة من مراحل النمو، وهي مرحلة الفتوة والشباب والصبي لذا نبه النبي ﷺ على الرفقة الطيبة فقال: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[2] - أي المرء يشبه صديقه في سلوكه وأخلاقه ونظام حياته - وهي التي نقصدها في العلوم الاجتماعية بالجماعة المرجعية REFERENCE - GROUP. وصديقك عنوانك وكما يقولون - قل لي من صديقك أقل لك من أنت. وفي الحديث فيما رواه ابن عساكر «**إياك وقرين السوء فإنك به تعرف**».

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (٢٠٧٤٠).

(٢) مستدرك الحاكم (٧٣١٩).

والصداقة شغلت العقل العربي لما لها من خطر وفي قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

حكمة بالغة، وخبرة دائمة باقية، وخلاصة موجزة معبرة.

ضوابط النوم:

النوم من أكبر نعم الله على الإنسان وهو آية من آيات الله الكبري قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: ٢٣]، وخلق الله الليل والنهار متعاقبين ليتمكن الإنسان بتقلبهما أن ينام بالليل ليستطيع أن يكد ويعمل بالنهار، وذلك من أكبر نعم الله على الأنسان قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٢-٧٣].

وفي النوم يسقط عن المسلم التكليف فحكمه حكم الوفاة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ... ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، وتذهب أحدث الأبحاث في علم النفس إلى أن ظاهرة النوم ليست عجيبة ولكن العجيب هو كيف نستيقظ؟ فلو فهمنا السر المختفي وراء حالة اليقظة لا ستطعنا

على الفور أن نقول إن اختفاء هذه الحالة هو النوم ذاته[١].

ولما كان النوم مجرد انتقال لحالة جديدة من حالات الإنسان التي لايكون الروح والعقل والجسد فيها في حالة سلبية، فإن النوم دخول على عالم مدهش ومثير من الأحلام والرؤى والراحة وتفريغ المكبوت واستعادة الجسد لحيويته، لذا يستعد المسلم للدخول على هذه الحالة ببعض الآداب والضوابط التي شرحتها السنة والسيرة وهذه الضوابط هي:

١ - الوضوء قبل النوم لماورد عن النبي ﷺ أنه قال للبراء بن عازب: « **إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة**»[٢].

٢ - النوم على الشق الأيمن وقراء أذكار النوم لما ورد في الحديث نفسه أن النبي ﷺ قال للبراء: «**ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك، اللهم إني آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت**»[٣]، وهو دعاء بالتسليم والتفويض الكامل لله سبحانه وتعالى، ولما كان النوم ضروة لايمكن للإنسان أن يستغني عنها فإنه يجعل الملجأ والنجاة لخالق النوم، ولما كان النوم حالة

(١) محمد مير الدمشقي، الكلم الطيب، القاهرة، مكتبة صبيح، د. ت، اعتمد عليه في تقصي الأحاديث المتصلة بالنوم وما يتصل به.

(٢) متفق عليه.

(٣) المصدر السابق.

صغرى للوفاة فإنه يستعد لا ستقبال حالة الموت الكبرى التي تنقله للآخرة، فكأن النوم تدريب على الموت، لذا في آخر هذا الحديث قال فإن مت من ليلتك مت على الفطرة واجعلهن آخر ما تقول. وهناك آثار كثيرة مثل قراءة المعوذتين وقراءة أواخر سورة البقرة وقراءة آية الكرسي والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين والتكبير أربعا وثلاثين.

٣ - يضع يده اليمني تحت رأسه ويجمع كفيه وينفث فيهما ويقرأ المعوذتين وقل هو الله أحد ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما من رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات.

٤ - ولأن القلق وعدم القدرة على النوم من أخطر أمراض العصر، فإن النبي ﷺ قال لخالد بن الوليد لما شكا له الأرق: «**إذا أويت إلى فراشك فقل اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين السبع وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت كن لي جارا من شر خلقك كلهم جميعا أن يفرط أحد منهم على أو أن يبغي عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ولا إله إلا أنت**»[(١)].

٥ - ولأن الرؤى والأحلام هي جزء من النشاط المتصل بالنوم وقد تدهمه الكوابيس التي تؤرق نومه، لذا يقول النبي ﷺ: «**الرؤيا**

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٣).

من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فليبصق عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره إن شاء الله»[1]، قال أبو سلمة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليَّ من الجبل، فلما سمعت هذا الحديث فما كنت أبالي بها. أما الرؤيا الصالحة فإنه يحدث بها من يتقى الله ويحب له الخير من ذوي الرأي.

٦ - أن لا يمنعه الاستغراق في النوم عن أداء الفرائض الواجبة عليه وهي هنا صلاة الفجر، كما أنه من السنة أن يقوم من الليل بعضه للصلاة والدعاء والذكر تأسيا بالنبي ﷺ.

وإذا استيقظ المسلم من نومه فليقل الحمد لله الذي رد روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره، وفي الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ إذا استيقظ قال: **«الحمد لله الذي أحيانا بعد مماتنا وإليه النشور»**[2].

ضوابط العطاس والتثاؤب:

إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب لما للعطاس من بعث للنشاط في النفس ولما للتثاؤب من تعبير عن الخمول والكسل، لذا يعقب العطاس ذكر المسلم لله بقوله الحمد لله أو الحمد لله

(١) رواه البخاري (٦٦٠٣).

(٢) شعب الإيمان (٤٦٨٦).

رب العالمين أو الحمد لله على كل حال، ويشمته من يحضره من المسلمين بقوله يرحمكم الله، ويرد العاطس بقوله يهديكم الله ويصلح بالكم أو قوله يغفر الله لنا ولكم، أما التثاؤب فإنه يرد ويدفع لأنه من الشيطان كما في الحديث: **«إن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»**[١]. وفي الحديث: **«إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه فإن الشيطان يدخل»**[٢].

وإذا لم يقل العاطس الحمد لله، فإنه لا يشمت لما في الحديث: **«إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، فإذا لم يحمد الله فلا تشمّتوه»**[٣].

ومن السنة أن يضع العاطس يده أو منديله على فمه، ولا يشمت الحضور العاطس بعد ثلاث لأنه يكون مزكوماً لما ثبت أن رجلا عطس ثلاث مرات عند النبي ﷺ فشمّته النبي ﷺ وبعد الثالثة قال إنه رجل مزكوم.

واستحب العلماء أن يدعو له جليسه بالعافية والسلامة بعد ثلاث مرات ولايكون من باب التشميت.

(١) رواه البخاري (٥٨٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٢).

وكره العلماء تشميت المرأة الأجنبية الشابة إن هي عطست من قبل الرجال وأباحوه للمرأة العجوز

هذه هي مجموعة من الآداب الحياتية التي تنظم حياة المسلم، وهي كفيلة بأن تجعل السعادة تشع من حياته على المستوى الفردي، كما تشيع السعادة في حياة الأسرة وفي حياة الأمة والمجتمع كله، إن الإسلام هو دين الأمة والجماعة والحياة وهو طريق صلاحها وخلاصها وإخراجها من الظلمات إلى النور.

* * *

الفصل الثاني
الألعاب والتسالي لدى الأسرة

١ - الوظائف التربوية للألعاب داخل الأسرة.

٢ - البُعد الديني للألعاب.

٣ - الألعاب الشعبية في الأسرة الكويتية.

٤ - صور من الموروثات الشعبية في الأسرة الكويتية.

الوظائف التربوية للألعاب داخل الأسرة

تعد اللُعب والدمى عاملًا هاماً في تنمية شخصية الطفل وتنظيم سلوكياته وانفعالاته وتسهم إسهاماً بالغاً في بناء الشخصية لسوية والنمو العقلي للناشئة، إضافة إلى ذلك تمثل الألعاب جانباً مميزاً من ثقافة الشعوب فهي الرابطة التي تجمع بين أفراد الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة، والأكثر من ذلك أنها تضع كل شعب - بما له من ألعاب خاصة - في مصفوفة الألعاب الشعبية التي تتعارف من خلالها الشعوب، وتحمل الألعاب أبعاداً قيمية تشكل نسيج هذه الثقافات حتى قد يصل الأمر لاعتبار لعبة معينة «سفيراً» للنوايا الحسنة (أو السيئة) تجاه شعب ما، ولذلك كله وأكثر، فإن صناعة الألعاب واختيارها يقوم بدور هام في تنمية العلاقات بين الشعوب، وبين أفراد الجيل الواحد داخل الأسر.

* **الأبعاد القيمية**: تحمل الألعاب سواء كانت على هيئة لُعب أو ممارسات فردية أو جماعية قيماً صريحة وضمنية، فألعاب «الحروب» تشير إلى قيم العدوانية والعدائية، ولُعب الخداع والتمويه تسوّق لقيمة الغش، وهناك ألعاب تحمل في اسمها دلالة سيئة مثل «الاحتكار»، «المراوغة»، وفي المقابل نجد ألعاباً تشير إلى قيم العطاء والتعاون وتحمل أسماء ترفع من قدر قيم الإيثار والتكاتف، إن صناعة ألعاب استهلاكية لا تبقى في يد الطفل أكثر من أيام وربما ساعات

تعطى قدراً أكبر لمفهوم الاستغناء وقيمة التغيير لمجرد التغيير، فالطفل يتعامل مع لعبته باعتبارها مفردة من مفردات المحيط ويدفعه خياله إلى اعتمادها واقعاً يتعامل معه، فعندما تنكسر اللعبة بين يديه ولا يكترث بها ينمو لديه الشعور باللامبالاة تجاه علاقاته مع الآخرين وإن كانوا في منزلة عزيزة لديه، وعندما يكبر لا يجد غضاضة في سلوكيات الانفصال الاجتماعي وربما يؤدي ذلك إلى التفكك الأسري وضعف الكينونة الاجتماعية، في حين تسهم الألعاب المشتركة في تعزيز العلاقات البينية.

ومن الأبعاد القيمية التي تعززها الألعاب بصورة ضمنية الاتجاه الاستهلاكي، فحين نشتري ألعاباً تستخدم لمرة واحدة ويكون غلاء ثمنها من وراء اختيارها فإننا ندعم بذلك توجهاً استهلاكياً على المدى البعيد أو ما يطلق عليه البعض «ثقافة المناديل الورقية»، وتنحسر الاستعدادات الإنتاجية لدى الأفراد مفسحة الطريق أمام النزعات الإنفاقية والاستهلاكية، ومن أخطر ما تحمله بعض الألعاب من قيم ما أثاره علماء الاجتماع الأسري من ظهور ألعاب تجد معايير الفوقية لجنس أو عرق معين أو تلصق الدونية بآخر. وأبرز ذلك ما تعرضت له دمية «باربي» الأميركية. فمعايير الجمال والأناقة التي تروّج لها اللعبة دفعت بالزنوج في الولايات المتحدة للمطالبة بصناعة «باربي السوداء» وفيما بعد لشعوب جنوب شرق آسيا لصناعة دمية تحمل مواصفات محلية. وإذا ما أدركنا الإرث الثقافي الذي يمكن أن تحمله اللعبة على مر الأجيال، فإن

استخدام شخصيات تراثية وأزياء تقليدية يعد مؤشراً على دور اللعبة في الحفاظ على الذاكرة القومية وتقوية الرابطة بين الأجيال؛ ومن هذه الشخصيات «بو طبيلة» «قطر الندى» «السقاء (الكندري)» «بائع العرقسوس». . وغيرها.

* **الأبعاد التنموية**: وتتعلق تلك الأبعاد بدور الألعاب في تنمية الجوانب المعفية والمهارات الحركية وربط تلك الجوانب والمهارات بخبرات حياتية بصورة مباشرة لدى الأطفال وغير مباشرة لدى الكبار، وأبرز تلك الألعاب الدمى التي يمكن تغيير ملابسها لتتواءم مع الأدوار الاجتماعية والمواقف الحياتية وما يتطلب ذلك من مهارات ارتداء الملابس وترتيبها، وتأتي قائمة خاصة من ألعاب مونتسوري في صدر الألعاب التي تعتمد تنمية الجوانب الحاسية والحركية في الارتقاء بالجوانب المعرفية؛ فتنمية إدراك الطفل للفراغ تجعله يستقرء العلاقة بين المكان والمكين، واستخدام لعبة «لضم الخرز» تنمي التآزر الحركي البصري والتحكم في العضلات الدقيقة والكبيرة إلى جانب الإحساس بالإنجاز، وكذلك استخدام الطين الطري ينمي استخدام العضلات والقدرة الابتكارية في تنوع الأشكال.

* **دور الأسرة في توظيف الألعاب**: تأسيساً على ما ذكر من أهمية بالغة للألعاب في حياة الطفل وعلى موقع ذلك مما يناط بالأسرة - وخاصة الوالدين - في توظيف تلك الألعاب تربوياً، والإفادة بالرابطة التي تجمع المتعة بالتربية، تقع على الوالدين مهمة بناء بيئة ألعاب

«صالحة» لأبنائهما، وفيما يلي بعض مقترحات لتحقيق تلك المهمة:

اختيار الألعاب - حيث يقوم الوالدان بتحديد معايير الاختيار على أساس من العائد القيمي والتربوي وقد يتطلب ذلك تعرّف الألعاب المعروضة وتحليلها وإدراك الهدف منها دون التقليل من أهمية المتعة التي تجلبها للطفل، باعتبار أن اختيار الألعاب بالنسبة للوالدين عمل علمي يخرج عن نطاق إشباع نزوة عابرة من جانب الطفل أو رغبة مكبوتة لدى الوالدين.

* **تخصيص وقت للمشاركة**: فالأطفال يسعدون بمشاركة والديهم في أنشطتهم التي تمثل الألعاب غالبها إن لم تكن كلها - وتهيء تلك المشاركة فرصة مميزة لتعرّف إمكانات الطفل وتشخيص جوانب عجزه أو اكتشاف وجدانياته، والقول السائد أن الكبار يستطيعون التعبير عن مشاعر القلق لديهم بالألفاظ في حين يلجأ الأطفال إلى ذلك من خلال اللعب، ويجب أن تمتد تلك المشاركة إلى صناعة الألعاب وإن استخدمت في ذلك بعض المستهلكات أو المواد المتوافرة في الأسواق.

ولا تقتصر تلك المشاركة على الممارسة العملية وإنما تمتد إلى التحاور حول ما تحمله اللعبة من معان وما يستخلص منها من رسائل؛ تتعلق بالمحتوى والطريق.

* **توفير مكتبة ألعاب**: وقد تكون مكتبة منزلية تعلم الطفل قيم النظام والنظافة والاحتفاظ والتعاون (مع اعتبار إمكانية تبادل الألعاب والإعارة بين الأسر). وقد تكون مكتبة الحي الذي تعد نادياً للطفل

تجتمع فيه الأطفال تحت رقابة ورعاية متناوبة من الأمهات، ولا يقوم بها إلى العمل الاجتماعي أو النشاط التطوعي الذي يؤكد قيمة الانتماء الإنساني، وتسنده الخبرات التربوية من معلمين وتربويين واختصاصيين.

* **إنشاء مؤسسة اجتماعية لثقافة الألعاب** من بين مؤسسات المجتمع المدني تتولى رقابة على «المصنفات اللعبية» وتكون مهمتها الأساسية «التخلية والتحلية»؛ بمعنى تنقية البيئة من الألعاب الرديئة والضارة ووضع ضوابط لصناعة الألعاب واستيرادها من جهة ومساندة التوجهات الإيجابية نحو صناعة ألعاب تربوية هادفة، من جهة ثانية، ومن خلال تكاتف الأسر مع جميعات الأمومة والطفولة وجمعيات النفع العام يبرز كيان تربوي هادف يحفظ «للعب» وجهته التربوية وصيغته الإمتاعية، وجدير بالذكر أن كثيراً من البلاد الغربية ظهرت فيها مكتبات اللعب وحققت عائداً تربوياً رائعاً، ومن هذه البلاد المملكة المتحدة وبلجيكا وفرنسا وجمهوريتي التشيك والسلوفاك. كما ظهرت مكتبات الألعاب المتنقلة، وفي ألمانيا أنشئت الرابطة الفدرالية لمكتبات اللعب الألمانية في عام ١٩٧٤ لدعم مشروعات المكتبات المحلية للألعاب. وفي المملكة المتحدة تقوم رابطة مكتبات الألعاب بعمل رائع في مساعدة الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وتنمية التواصل بين الجهات المعنية بصناعة الألعاب واستخدامها والخبرات الأكاديمية الاختصاصية بما يجعل المكتبات أكثر من مجرد أماكن يجتمع فيها الأطفال ليقضوا وقت فراغهم أو يستعيروا منها ألعاباً قد لا تتوافر

لبعضهم، وتكون مراكز للقياس والتقويم التربوي والتشخيص والعلاج.

إن دور الأسرة في استثمار الألعاب التربوية يتخطى رعاية أبنائها إلى رعاية أبناء الآخرين ليكون المجتمع صالحاً بكل أطيافه وعطاء العمل الاجتماعي وافراً مثمراً، ولذا كان التركيز على دور الأسرة (المؤسسة الأهلية) دون غيرها (الجهة الحكومية) في إنجاز ذلك.

* **الألعاب الأسرية**: شهدت العقود الأخيرة انحسار الضوء عن الألعاب الأسرية مع تقلص وقت الفراغ الذي تعتبر الألعاب وسيلة شغله، ولم يكن يدرك الأفراد أن الألعاب الأسرية لها موقعها في نسيج الحياة الاجتماعية وتقوم بدور رئيسي في تقوية ذلك النسيج وأنها ليست ترفاً زائداً أو لهواً فارغاً من الهدف لوقت فارغ من العمل. وهكذا انشغل الوالدان باستثمار غالب وقتهم في رفع مدخول الأسرة وانقطعت الرابطة الأسرية التي يقويها الحضور النفسي والبدني للوالدين مع أبنائهما، إضافة إلى انهيار الأسرة الممتدة وتقلص العلاقات الاجتماعية وبروز المؤسسات التربوية البديلة المتمثلة في دور الحضانة ورياض الأطفال، وانصراف الراشدين إلى مجالات خاصة تتوافق مع ميول انتمائيه تخرج عن نطاق الأسرة؛ فلكل أصدقاؤه ولكل عالمه الخاص.

وبتذكر الحقبة السابقة على ذلك الأوان، فإننا نجد الترابط تحققه الألعاب الأسرية أكثر وضوحاً في علاقة المرح والترويج التي تنشأ بين الجد والحفيد دون دخول الوالدين دائرة التفاعل تأكيداً لانشغالهما

بتدبير موارد إضافية تتوافق مع تحول مفهوم الإنسان في عصر العولمة إلى كائن جسدي اقتصادي وتقهقر مفهوم الكائن الاجتماعي إلى الظل.

ويقصد بالألعاب الأسرية تلك الأنشطة الترويحية التي يقوم بها الأفراد في نطاق الأسرة سواء كانت داخل جدران المنزل أم خارجها، وتشمل ألعاباً حركية وأخرى ذهنية، وقد تكون تقليدية أو إبداعية وتجمع بين الصيغ الحديثة والشعبية، إن كافة الألعاب التي يمكن أن تزاحم بها رياض الأطفال أو يمارسها الكبار في المقاهي والأندية - ما كان منها ممكناً داخل المنزل أو في حديثته - تعد ألعاباً أسرية طالما قام بها أفراد الأسرة.

وتتيح هذه الألعاب - داخل الأسرة - فرصة:

- الترويح الفردي والجماعي.
- إذكاء الترابط الأسري وتفاعل الأجيال.
- تقليل مشاعر الاغتراب والانغلاق على الذات.
- التحاور والتفاعل المشترك المؤدي إلى الفهم والتفاهم.
- تعرّف القدرات الخاصة للأطفال.
- التنمية التعاونية للتملكات والقدرات الخاصة.
- تعرّف الأدوار الاجتماعية.
- توضيح القيم لدى أفراد الأسرة وتحويلها من قيم لفظية إلى قيم عملية.

- علاج بعض الاضطرابات السلوكية.
- تعريف المشاعر المكبوتة وتنظيم الانفعالات.

وقد يلصق البعض بالألعاب الأسرية تهمة تدمير الحواجز بين المستويات داخل الأسرة؛ حيث تعتمد المشاركة في الألعاب على أدوار تمثيلية قد تصل إلى الندية، وتذوب فواصل الأبوة والبنوة، وهم في ذلك مخطئون حيث لا يكون الأمر كذلك داخل الروضة عندما تشارك المعلمة الأطفال ألعابهم، وما يعتبرونه فواصل الأبوة والبنوة هي في الواقع روابط الأبوة والبنوة والأخوة، وطالما كان الترويح إيجابياً ظل المزاح مضبوطاً والهدف المرجو قابلًا للإنجاز.

* * *

البعد الديني للألعاب

مع بدايات الألفية الثانية وبالتحديد في عام ١٩٣٢ نشر جان بياجيه كتابه «الحكم الأخلاقي لدى الطفل»، ولكنه مازال من أكثر الكتب التي كتبت عن النمو الأخلاقي تأثيراً، وحاول فيه أن يعطي إطاراً جديداً للنضج الأخلاقي منشؤه التفاعلات بين الفرد والمفردات التي تحيط به؛ سواء كانت مادية أو بشرية، واستخدم جان بياجيه نتائج مقابلاته مع الأطفال وهم يلعبون (تفاعل اجتماعي) لتعرّف أبعاد نموهم الأخلاقي وتأسيساً على ارتباط الأخلاق بالدين، فإن فهم إدراكات الأطفال لأبعاد ذلك التفاعل يعتبر موضحاً لإدراكاتهم الدينية، ويشكل أساس نهجهم الأخلاقي وأبعاد مفهوم «الدين المعاملة»؛ وفيما يلي إشارة إلى الأبعاد الرئيسة التي تربط بين «اللعب» و «الأخلاق»:

- **جمودية القواعد و «تقديسها»:**

وجد «بياجيه» أن الأطفال يعتبرون قواعد اللعب شيئاً ثابتاً غير قابل للتغيير، وأن عدداً قليلًا من الأطفال يعتقدون أنه في الإمكان تغيير قواعد اللعبة مقابل غالبية يرون أنها «مقدسة» وأن المساس بها مساس بالسلطة العليا التي وضعها ومن ثم فإنه حتى في حال تغيير القاعدة لا يعني ذلك إبدالها قاعدة أخرى أو إحلال قاعدة سليمة مكان قاعدة خاطئة وإنما

يعني إنشاء قاعدة ثانية بجانب الأولى. ولا يظهر الاختلاف بين إنشاء قاعدة جديدة وانتهاك قاعدة أو إلغائها إلا في عمر متقدم أو مع توافر قدرة معرفية أعلى مستوى وهكذا يتمثل البعد الديني للألعاب لدى الأطفال في إدراكهم لمركز القوة ومصدر القاعدة والثقل الذي يعطونه لاحترام السلطة وقدسية القواعد.

- **الربط بين المقدمات والمترتبات:**

يعتبر مفهوم «العزو» من أهم أبعاد تحديد المسؤولية عن العمل، ومن الأشكال المعتمدة في تناول الأنشطة اللعبية «المكسب والخسارة»، فناتج الممارسة تحدده بداياتها والعمليات المتضمنة فيها. ويتدخل في حسابات ذلك المقصد من وراء العمل. ووجد «بياجيه» أن الأطفال لا يعتبرون في بدايات مراحل نموهم بالنوايا وإنما بالنتائج وعندما «ينضجون» معرفياً فإنهم يحكمون على صواب العمل أو خطئه من خلال الدوافع الكامنة وراءه - كما أن مفهوم المشيئة يرتبط لديهم بمفهوم الحظ. ولذا فإن البعد الديني المتمثل في التبادلية المكافئة يكون واضحاً في الألعاب، فمن الواجب أن نعامل الناس مثلما نحب أن يعاملونا به، وأن كل إنسان بعمله رهين وما نفعله نجده.

- **العلاقة بين النضج العقلي والحكم الأخلاقي الصائب:**

يرى «بياجيه» أن مناط الحكم الأخلاقي الصائب يكمن في القدرة المعرفية، ومن ثم فإن تعرّف مستوى النضج المعرفي في الألعاب

وارتقاءه من خلال نشاط اللعب يحقق مستوى أعلى من النضج الأخلاقي، وذلك هو البعد الديني الثالث؛ بمعنى إذا كان التكليف مناطه العقل وأن التبصر بأمور الدنيا والآخرة يعتمد على إدراك الخبرات الحياتية ويضرب اللّه الأمثال للناس ليعتبروا ولعلهم يعقلون، فإن إدراك العلاقات بين جزئيات اللعبة والتعاملات وفق الأدوار في اللعب الجماعي يكونان الأساس في تبصر العلاقة بين الدنيا والآخرة. وتجدر الإشارة إلى أن «العقل» أساس التفرقة بين ما يندرج تحت مفهوم اللعب وبين غيره، فالمجنون فاقد الأهلية لا يميز بين اللعب والعمل، والأطفال دون سن التمييز لا يفكرون فيما يقومون به إن كانت لعباً أو عملًا فدراستهم لعب وتعلمهم أكثر فاعلية عندما يكون عن طريق اللعب، وهم يلعبون حين يلعبون ويلعبون حين يعملون، على عكس الراشدين الذين يعملون حين يلعبون ويعملون حين يلعبون، وننعتهم بالسفاهة إن أنهم غيّبوا تفكيرهم في ممارستهم وأنشطتهم وكل ألعابهم تعتمد التخطيط والإدارة وإدراك المغزى أساساً لها، ولذا فإن هذه الأبعاد تؤسس عليها الممارسات التعبدية وإلا كان التدين اعتياداً لا اعتقاداً.

إضافة إلى ما سبق، نجد أمامنا نقطتين بارزتين في تحديد البعد الديني للألعاب؛ اللعب كظاهرة حياتية واللعب كظاهرة اجتماعية؛ باعتبار العلاقة الوثيقة بين الدين وتعاليمه الحاكمة لسلوكيات البشر والضابطة لأحاسيسهم ومشاعرهم والمهيئة لتوظيف معارفهم وبين حياتهم الذاتية والاجتماعية.

- **اللعب كظاهرة حياتية:**

حياة الأفراد تعتمد على حالة «السواء» سواء من الناحية النفسية أو العقلية أو البدنية، فالمرضى النفسيون لا يلعبون والمصابون بأمراض عقلية لا يدركون ما يعملون والمرضى لا يمارسون ألعاباً ولا يستمتعون بها وإن وُصفت لهم علاجاً - وفي جانب آخر فإننا نجد كثيراً من المعالجين والمرشدين النفسيين يعتمدون على اللعب لاستخلاص مؤشرات المستوى النمائي والحال النفسية والصحية واستقراء ردود الأفعال المتوقعة من الأفراد، وذلك كله يشكل مضمون حياة الفرد. ومع تذكر الخيط الرفيع الذي يفصل بين ما نعتبره لعباً وما لا نعتبره لعباً، فإننا نكون قادرين على التعامل مع زملائنا في المجتمع. وكلما كنا على قدر كبير من السواء النفسي والعقلي والبدني، كنا قادرين على «لعب» أدوارنا الحياتية بكفاءة واقتدار.

دعونا نطرح مفهوماً مناسباً للعب بأنه مجموعة من القواعد المكتسبة لا تحمل غرضاً نفعياً فورياً، وعندما تتم ترجمتها في سلوكيات تؤدي إلى إحساس بالتوازن النفسي البدني يتمثل في الإحساس بالمتعة والرضا؛ أي أن اللعب ليس نشاطاً عشوائياً تغيب عنه القيمة وليس له تأثير على الحياة التي نعيشها، فاللعبة لها غرض ثنائي:

الأول: غرض مباشر معجّل يتمثل في المتعة التي يستشعرها

اللاعبون وتتحقق مع إشباع الحاجة النفسية التي ابتدأتها.

والثاني: غرض نفعي عملي مؤجّل ربما يكون خارج دائرة وعي اللاعبين به.

وإذا كان اللعب جوهر الطفولة وطفولة الكائن البشري أطول طفولة بين الكائنات الحية فإن للعب في نسيج حياة البشر مكانة مميزة. إضافة إلى ذلك فإن تحليلنا لأنشطة اللعب وممارساته يشير إلى أن ألعاب البشر - وخاصة الأطفال - في غالبها نماذج وتقليدٌ لأنماط حياتية؛ بمعنى أن اللعب نشاط حياتي لا تندرج تحت مفهوم اللعب؛ أي باقي حياة الفرد. ومن المنظور النفسي نجد أن الاختلاف بين ما يمارسه الأطفال من ألعاب وبين ما يُتطلب منهم من أدوار في حياتهم المستقبلية يُعد مصدراً من مصادر التنافر المعرفي. فإذا كان مضمون ألعابهم «الصراع بين الخير والشر وانتصار الخير»، فمن المحتمل أن يشعروا بالإحباط إن لم يجدوا ذلك ممكناً في حياتهم، ومن المنظور الديني فإن وجود الخير والشر والصراع بينهما وانتصار الخير في النهاية أمر يقضي به الخالق سبحانه سواء أدركناه أم لم نستطع عليه صبراً.

والحياة الدنيا ميدان للعبادة ومتاع للآخرة وهي ذاتها مصدقة للقول: إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وتفاخر بالأموال وزهو بالأنساب. وهكذا فإذا كان الدين حاكماً للدنيا منبئاً بالآخرة فهو يضع ضوابط الحركة والسكون لمجتوى الحياة التي هي المتعة

واللعب واللهو والتفاخر والزينة وهي ذاتها العمل والسعي والفعل والقول والصناعة ليكون في الآخرة التمايز بين من يحسنون عملاً وسعياً وفعلاً وقولاً وصنعاً وبين من يسيئون ذلك، ويتبين لنا خطل الرأي بغياب الضوابط «الدينية» للعب، أو أن أنشطة اللعب لا تدخل ضمن مسافات التعبد وتنمية الأخلاق واكتساب العلم النافع والقيم الناشطة والذكاء الوجداني وكلها نسيج الحياة ولا يغيب عن البال البعد الرمزي المتمثل في الألعاب التي نقوم بها في مراحل حياتنا الفردية أو على هذا الكوكب. وتشير النظرية التلخيصية إلى أن نمو الفرد وتطوره يلخص نمو الجنس البشري وتطوره وأن الألعاب التي يقوم بها الأطفال هي ذاتها رموز لتطور النشاط الحياتي للبشرية عن صيد وزراعة وصناعة وتقدم تقني، ويتجلى فيها كلها البعد الديني سواء كانت على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي.

- **اللعب كظاهرة اجتماعية:**

تنتسب الظواهر الاجتماعية إلى المجتمع الإنساني دون الحيواني باعتبار اختلافها من مجتمع لآخر وتختلف في نفس المجتمع من فترة لأخرى وتخضع في هذا التغير لاختلاف الوسط الجغرافي والاجتماعي وتتناقلها الأجيال اكتساباً وليس فيها البعد الوراثي إذا استبعدنا منها صفة الاستعداد الذي يكون عنه الكائن البشري لأن ينخرط في سلوكيات عشوائية وربما تشاركه فيها الحيوانات. ومن صفات الظواهر الاجتماعية أنها خارجة عن وجود الإنسان فلا تولد

بمولده ولا تنتهي بموته «فظاهرة اللعب» تختلف عن الأفراد القائمين باللعب ولا تخضع لوجهات النظر الخاصة ولذا تأخذ صفة العموم وتتبع نسقاً شبه موحد عبر مراحل تكون المجتمع الإنساني وربما تلخص نشاطه الحياتي.

والظاهرة الاجتماعية تتمتع بصفة الإجبارية والإلزام الذاتي وإلف العادة حين يجد الفرد نفسه خاضعاً لضغط داخلي أو اجتماعي يجعله مجبراً على اتباعها وعدم الحياد عنها - إنه في أصله التزام خلقي وإلزام معنوي، وتحمل الظواهر الاجتماعية إرثاً طويلًا من العادات والتقاليد تجعلها تنتقل من جيل إلى جيل دون أن يتغير شكلها أو مضمونها - إلا النذر القليل، كما أن الظاهرة الاجتماعية بحكم صفتها تستلزم وسطاً اجتماعياً وتفاعلًا حياتياً بين الأفراد تكون فيه الأدوار واضحة والعلاقات محددة في وجود «قانون» أو «قواعد» تحتم تلك الأدوار والعلاقات، وإذا كان الأفراد «يمثلون» أدوارهم في اللعب ولا يقومون بها فعلًا، إلا أن هذا «التمثيل» يسير وفق ضوابط شكلية يخطئ من يحيد عنها، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه عالم الاجتماع الشهير «إميل دوركهايم» في تفسير الظاهرة الاجتماعية على أساس العمليات النفسية للفرد عندما تجتمع مع غيرها لتوجد تصورات جمعية وعواطف عامة مشتركة ينبثق عنها الضمير الجمعي.

واللعب نشاط يقوم بها الفرد والأفراد يدور في إطار التفاعلية الرمزية التي أشار إليها علماء الاجتماع، ومن الممكن للمحققين

الأنثروبولوجيين أن يصلوا إلى جذور أيٍ من تلك النشاطات المتوارثة وتعرّف القواعد الحاكمة لها ومصدريتها التي من الممكن أن تكون منسلخة من مراسم عبادية أو طقوس تعبدية احتفظت بقدسية ممارستها وانسلخت عن قدسية مراميها. وتحولت من ممارسة دينية إلى عادات اجتماعية، إن كثيراً من الديانات القديمة بدت للأجيال الحاضرة ذات طابع اللهو واللعب، واهتم اتباعها بأعمال تفكيرهم في الوصول إلى صورة مثلى لممارساتهم (ماذا يلعبون) وكيف يقومون بها (كيف يلعبون) دون أن يفكروا في الغرض أو الهدف من ذلك (لماذا يلعبون)، ولذا نجد بعض علماء الاجتماع يعتبرون «الدين» ظاهرة اجتماعية وهم بذلك يرون فيه ما يرون في اللعب. وقد يساعدنا ذلك على فهم تفسير آية من سورة الأعراف عندما نادى أصحاب النار أصحاب الجنة ليفيضوا عليهم مما أعطاهم الله من خير وماء فإذا بهم يتلقون الرد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾، ثم وصفهم تعالى بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٠ - ٥١].

وإذا كان الأطفال قاصرين عن فهمهم مبررات بعض (أوكل)

الأنشطة التي يقومون بها وخاصة الألعاب، فإنهم دون سن التمييز ولا يدركون حتى مبررات ما يقوم به الراشدون من نسك، وربما اعتبروها «ألعاباً» يقوم بها الكبار ويقلدونهم فيها قدر ما يستطيعون ويفرحون بتشجيع الوالدين لهم حين القيام بتلك «الألعاب»، ويتحقق من خلال اللعب أبعاد مشتركة بين الطقوس الدينية وأنشطة الألعاب من منظور الأطفال، أليس في كلا النشاطين متعة الممارسة، وتوزيع الأدوار والموازنة بين الحقوق والواجبات وفق الالتزام بقواعد وقوانين دون محاولة فهم المبررات، والربط بين المقدمات والمترتبات وحسابات الربح والخسارة والرضى بالنتائج وعزوها إلى المشيئة (أو الحظ)، وكذلك امتداد مضمون الأنشطة إلى الممارسة الحياتية، وقد نرى ذلك كله في طقوس الإنسان البدائي.

- **ضوابط للعب تجعله محموداً مأجوراً:**

وإذا كانت الألعاب ظاهرة حياتية واجتماعية فإنها ذات أبعاد دينية باعتبار أن الدين يشكل هيكل الحياة ومضمونها والغاية منها وهو «دستور» التعاملات في نسيج الحياة ذاتها ومنها الأنشطة سواء كانت عملًا جاداً أو لعباً ترفيهياً، فهو يفرق بين اللعب وبين العبث، وأكثر من ذلك يرى في سوء ممارسة اللعب Play abuse لهواً مذموماً، فترويح القلوب أمر يدعو له الكتاب والسنة، وهو تمهيد للعمل أو حمام أمان لتصريف التعب، ومن ضوابطه:

- أن يدخل ضمن مفهوم الحياة والهدف منها ليتحول من عبث إلى عبادة.

- ألا يصادم معياراً شرعياً أو قيمة إيجابية، فلا كذب ولا فجور ولا فسوق ولا فحش في اللعب، ولا نحول منكراً من العمل إلى معروف في اللعب، فذلك التصنيف بين العمل واللعب لا يخرجه من الحرمة إلى الحل، فلعب الميسر محرّم، وإن أُخذ مأخذ الهزل واللهو.
- أن يخضع لقواعد الخلق القويم فلا سخرية أو خداع أو زهو على الآخر.
- أن يؤدي إلى متعة حلال ولا يورد شقاء أو ذلة.
- ألا يلهي عن عمل أو يهدف إلى تحويل عمل إلى لهو.
- ألا يغرس قيمة سالبة - بالقول أو الفعل أو الوجدان - خاصة وأن كثيراً من لعب الأطفال اليدوية تصحبها أناشيد وأقوال.

وكلها تندرج تحت مظلة التقوى التي تملأ الأفئدة وتسير كل مناشط الحياة.

* * *

الألعاب الشعبية في الأسرة الكويتية

الألعاب الشعبية :

تحوي الألعاب الشعبية العديد من الموضوعات الرمزية، من خلال ما تحتوي من ترديدات أو حركات. وتتجذّر هذه الموضوعات في ضمير الجماعة لدى الكبار وإن صعب على الصغار إدراكها. والمعاني الرمزية المتضمنة في اللعبة الشعبية - رغم عدم وضوحها للطفل - تسري إلى مكنون تفكيره، وربما يتضح له معناها في فترة لاحقة، فتؤدي إلى قوة الانتماء والإحساس بالتمكن منه والإرادة في تحقيقه والدفاع عنه. والبحث عن «حل للشفرات» المُتَضَمَّنَة في بعض الألعاب الشعبية ربما يفقدها بعضاً من تضميناتها الوجدانية التي تمثل أساس تعلق الأطفال بها. فالأطفال لا يهتمون بالبحث عن المعاني العميقة، وربما لا يقدرون على ذلك، ومن ثم يشعرون بالإحباط أو «التفاهة»، وتتحول الأرباح المتوقعة من ممارستها إلى خسائر مؤدية إلى الإفلاس.

وترتبط ممارسة الألعاب الشعبية بالأهداف التربوية للألعاب في صورتها العامة من حيث:

أ - تدريب الأطفال على التواصل والتعاون (اللعب الجماعي)، والحفاظ على الدور وتفهم أداء الآخر ومشاعره.

ب - تقليد الأصوات والإشارات والحركات المكوّنة لأصول التفاعلا الاجتماعي.

جـ - إدراك مبدأ دوام الشيء، وأن اختفاءه عن النظر لا يعني ضياعه إلى الأبد؛ سواء كان هذا الشيء شخصاً أو مادة.

د - تنمية الذكاءات المتعددة (اللغوي، العددي، الاجتماعي، الشخصي، الحيِّزي، الموسيقي، المنطقي، الحركي، الروحي).

هـ - بناء استراتيجيات الربط بين الوسائل والغايات.

و - تكوين القدرة على استخدام الرمز.

ز - تنظيم وقت الفراغ من العمل واستثماره.

بالإضافة إلى أهداف وجدانية تتضح مؤشراتها في:

أ - تنمية الإحساس بالمتعة في العمل، وجاء في الأثر «روحوا القلوب ساعة وساعة»[1].

ب - تعرّف القيم الاجتماعية ونسقها من حيث الالتزام والتطبيق، من مثل: النظام، والتآلف، والإيثار.

(١) إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٤ قال الزبيدي: روى الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ويشهد له ما في صحيح مسلم (يا حنظلة، ساعة وساعة).

جـ - تشكيل قاعدة تعاملية سليمة.

وتزيد الألعاب الشعبية تركيزها على هدف أساسي للتربية وهو التواصل بين الأجيال، كما تمثل ممارستها تماسكاً أسرياً عندما نقوم بها في التجمعات العائلية واللقاءات الاجتماعية، ولذا نجد أن التعريف ببعض صورها إتاحة لتمكين أفراد الأسرة والمجتمع من ممارستها عند الخروج إلى المنتزهات العامة أو «طلعات البر»، التي يحرص عليها الكويتيون وتشكل ترابطاً أسرياً في محيط الماضي والحاضر بعد أن عزَّ هذا اللقاء في ظل التغير الاجتماعي المتسارع في نمط الحياة، والظروف التي نعيشها «والمدنية» التي نمارسها. ومن الممكن أن تدخل تلك الألعاب في المناهج الدراسية أو تمارس في محيط المدرسة - خاصة الروضة - فتعطيها الهوية الوطنية، والعبق التاريخي، خاصة وأن لها إمكانيات تحقيق الأهداف المحددة للألعاب الأخرى، إضافة إلى أبعادها المعرفية والوجدانية والاجتماعية.

الألعاب الشعبية والمجتمع الكويتي:

وفي المجتمع الكويتي - كأي مجتمع خليجي عربي - عكست الألعاب الشعبية العادات والتقاليد السائدة في الفصل بين ألعاب الأولاد وألعاب البنات، فضلاً عن خصوصية الألعاب لكلا الجنسين، كما كان للرجال وسائل تسلية مختلفة عن النساء أيضاً، وكانت الألعاب الشعبية تتفق وطبيعة كل فئة مما ذكرنا. ومع ذلك

ربما جمعت بعض وسائل التسلية أفراد الأسرة بكل فئاتهم العمرية. كالاستماع إلى الحكايات والألغاز، وممارسة بعض الألعاب اليدوية، مما يعكس روح الترابط ويُوجِد علاقة حميمة بينهم، قائمة على المودة والألفة عن طريق المشاركة في التسلية البريئة.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك ألعاباً وتسالي شتوية، وأخرى صيفية وربيعية وخريفية كما أن هناك ألعاباً صباحية وأخرى ليلية.

الحكايات :

ففي ليالي الشتاء البارد كانت الأسرة الكويتية تتحلق حول مدفأة الفحم المسماة «دُوّة»[(١)]. ويروي كبار السن حكايات شيّقة؛ بعضها دينيٌّ الغاية منه العبرة والعظة، وبعضها الآخر مستقى من سير الأبطال المشهورين في التراث العربي كقصة عنترة بن شداد العبسي وأبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن. وهذه الحكايات تثبّت في أذهان النشء البطولة والفضيلة ومكارم الأخلاق، وغالباً ما تروى هذه الحكايات في ملتقى الرجال في الديوانية. أما السيدات خاصة المسنات فيحكين القصص الخرافية التي تكون في الغالب مقتبسة من حكايات ألف ليلة وليلة، وتتجاوز هذه الحكايات غايتها الترفيهية إلى تعليم الصغار فضيلة الصبر على الشدائد، واحتمال الألم والمعاناة للوصول إلى الهدف المنشود، الذي ربما يتحقق عن

(١) الدُّوّة: هي الموقد المعدني الذي يوضع بداخله الفحم المتوهج، ويطلق عليها في الشام «كانون»، وأصل الكلمة عربي من «الداوة».

طريق قوة غيبية أو سحرية تساعد بطل القصة على تحقيق أمانيه وأحلامه، والوصول إلى بر الأمان.

وتسمى الحكاية الشعبية في الكويت «حزاية» وجمعها حزاوي. وعادة تروى الحكايات بعد العشاء فإذا كانت طويلة ربما تُجَزِّئُها الراوية أو الراوي إلى حلقات، تستكمل في الليالي التالية، مما يُوجد لدى السامعين شوقاً شديداً وحرصاً على سماع الجزء الباقي من الحكاية. وعادة يستهل الراوي القصة بذكر الله والصلاة على نبيه ﷺ، ثم يقول: «اللي يانا وياكم، خير لقانا ولقاكم، وشرّ تعدانا وتعداكم، زور ابن الزرزور، اللي عمره ما كذب ولا حلف زور، ذبح بقة وترس سبعة جدور»، وهذه الافتتاحية التقليدية شائعة في الحكايات الشعبية، وعلى بساطتها فإن لها وظيفة مهمة، لأنها تمهد الجو للانتقال من الواقع المعاش إلى عالم الحكاية وما يتضمنه من غرائب تشد ذهن السامع إلى أحداث القصة في انفصال مؤقت عن مشاكل الحياة اليومية.

صور من الألعاب الشعبية في المجتمع الكويتي:

وفي بعض الأحيان يمارس أفراد الأسرة ألعاباً بسيطة لا تحتاج إلى مجهود جسماني ولكنها تحفز الذهن، وتتطلب مهارات عقلية، للتفوق على الآخرين كلعبة «المحيبس»[1] التي تحتاج إلى فراسة

(١) لعبة المحيبس: المحيبس تصغير محبس وهو الخاتم، وينقسم فيها اللاعبون إلى فريقين، ويستلم أحد الفريقين خاتماً يقوم بإخفائه عن الفريق المقابل بيد أحد أعضاء الفريق اللاعب بعد وضع حاجز من قماش بين الفريقين كي لا يشاهد الفريق المقابل عملية الإخفاء، -

ومقدرة على الحدس الصحيح. واسم اللعبة مشتق من المحبس أو الخاتم. وفي سوريا تسمى هذه اللعبة «الخويتمة» ويمارس هذه اللعبة الكبار والصغار على حد سواء، وهي لعبة شتوية ليلية.

وجدير بالذكر أن الألعاب الشعبية تعتمد على الملاحظة والتقليد، وتنتقل من جيل إلى جيل بالمشافهة، وبذلك يطرأ عليها تطور غير ملحوظ بتطور الزمن. فالمأثور الشعبي لا يبقى جامداً بل يجدد خلاياه ليواكب تطور العصر، مع الاحتفاظ بالجوهر والوظيفة الأساسية التي يؤديها في المجتمع.

من ألعاب البنات:

وكانت الفتيات الصغيرات تمارسن ألعاباً منزلية بغرض التسلية وتمضية الوقت، وكان لهذه الألعاب جانب تربوي مهمّ من حيث تدريب الفتاة وتهيئتها لدورها في الحياة كأم وربة منزل. ومن أهم هذه الألعاب:

١ - **البرُوي**[1]: وهذه اللعبة تعكس رغبة الطفلة في الاضطلاع بدور

= ويطبق اللاعبون أيديهم ويمدونها للأمام، وعلى أعضاء الفريق الثاني أن يتعرفوا اليد التي تخفي الخاتم، فإذا نجحوا أخذوا دورهم في اللعب وهكذا. وربما اقتصر الحدس على رئيس الفريق، وربما تناوبوا على محاولة الاستدلال على الخاتم ومن يخفق يخرج من اللعبة.

(١) البرُوي: وهي تمثل ركناً صغيراً بالمنزل تجمع فيه الفتيات الصغيرات دمى من القماش تصنعها يدوياً وتتحذن منها أطفالاً لهن تعتنين بهم كما تعتني أمهاتهن بإخوتهن الصغار، إضافة إلى الاستعانة ببعض الأدوات المنزلية الصغيرة لعمل أطعمة بسيطة يشتركن في تناولها بشهية كبيرة لا تضاهيها لذة إنجاز هذه الأكلات.

أمها مثلها الأعلى في الحياة، وهي لا ترى في عالمها المحدود غير هذا الدور الذي تتمثله في سن مبكرة جداً من حياتها.

٢ - **جنة ونار**[١]: وهي لعبة شائعة لدى الفتيات، وهذه اللعبة على بساطتها تبرز الوازع الديني للصغيرات، من خلال فرحهن بذكر الجنة خاتمة المؤمنين وعدم رغبتهن بذكر النار عاقبة الكفار، خاصة وأنهن يذهبن إلى المطوعة في هذه السن. ويتدربن على حفظ القرآن الكريم ومعرفة معانيه.

٣ - **الحَيْلة**[٢]: وهي لعبة يمارسها الأولاد والبنات على حد سواء ويلعبها الصبية في الشوارع أما الفتيات فيلعبنها في المنزل.

٤ - **إحديّة بديّة**[٣]: وهي لعبة يلعبها الصغار سواء البنون أو البنات.

---

(١) جنة ونار: وهي تقوم على وضع حجارة وتسميتها بأسماء مختلفة فيقلن: «هذي جنة وهذي نار وهذي مدق البزار وهذي الكركم وهذي الفلفل الحار». ويدعين إحدى المشاركات باللعب للتعرف على أسماء الحجارة فإذا قالت جنة قلن: هفّوا عليها، أي حركوا المهفة على رأسها، وإن قالت نار قلن كتّوا عليها دلالة على الازدراء.

(٢) الحيلة تعتمد على رسم مربعات على الأرض الرملية واستخدام قطعة صغيرة من الحجر لدحرجتها بالقدم بين المربعات مع رفع القدم الأخرى، ومن ينجح في تخطي جميع المربعات دون أن يمس حافة المربع ودون أن يعجز عن إبقاء القدم الأخرى مرفوعة يفوز بجولة أخرى مع تخطي أحد المربعات بقرمي الحجر في المربع الذي يليه وهكذا حتى يفوز بجميع المربعات التي ترقم ترقيماً مسلسلاً. وعادة يستريح اللاعب في مربع يخط في منتصف المخطط يسمى الميد أو المستراح وذلك لاستحالة الاستمرار بالحجل مدة طويلة.

(٣) إحدية ابدية، ويضع فيها اللاعبون أيديهم على الأرض بينما يرفع رئيس الفريق يده ويضع اصبعه في فمه ثم يضعها على كفوف مشاركيه في اللعب وهو يردد: (حديه بديه، ناصر ديه، حط الكور على الزنبور، يا قناص قوم اقتص، شَبط خيلك شبّطها، باب الحلة وباب الشام، مريت على بابين، ياكلون سحتين، قلت يا عمي بابو حسين، كم على عيد رمضان، سعة أيام والتمام أحاديها وأباديها، واضرب بقوس معاديها، خرجة برجة طاحت -

من ألعاب الأولاد:

وكان الفتية يمارسون ألعابهم في الغالب خارج المنزل وبرفقة أقرانهم، وكانت هذه الألعاب تعبر عن طبيعة الولد، من حيث اتسامها بالقوة والحركات السريعة ذات المجهود العضلي الواضح. ولا حاجة بنا إلى الإفاضة في ذكر الألعاب التي تمارس خارج نطاق الأسرة والتي يطول البحث فيها، ولكننا نقتصر على ذكر نماذج قليلة من أهمها:

١ - المِقْصِي[١].

٢ - الدوّامة (البلبول)[٢].

٣ - عَماكور طاح في التنور[٣].

= بالماي وقالت وش) والذي تقع عليه آخر كلمة يمسك الرئيس بيده ويقول: تبي قرصة الحية والا قرصة العقرب، ثم يخبئ يده بين طيات ثيابه ثم يلعب حتى تكتمل الدورة ويقول اللاعب لهم قاق، فيرددون شتبي يا غراب، فيقول أبي غداي فإذا كانت اليد المدسوسة في الملابس حارة يناولها له وإن كانت باردة يرد عليه بالقول بعد ما خلص. والذي تكون يده ساخنة أكثر يكون هو الفائز.

(١) المِقْصِي (بالكاف الفارسية) وهي لعبة بدائية تتكون من قطعة خشب صغيرة تسمى مقصي توضع في حفرة ويتنافس فريقان على ضربها بعصا طويلة لترتفع عالياً ومن يلتقطها يكون له الدور في اللعب.

(٢) الدَّوَّامَة أو البَلْبول:) قطعة خشب مخروطية الشكل يغرز في طرفها مسمار يساعد اللعبة على الدوران على الأرض بواسطة خيط سميك مربوط بعصا، حيث يلف الخيط حول طرف البلبول المدبب ويسحبه لتدور على الأرض عدة دورات مع صدور صوت ناتج عن سحب الخيط. وكلما كان الصوت أقوى كان اللاعب أفضل.

(٣) عما كور طاح في التنور: لا يشترط في هذه اللعبة عدد معيّن وكلما زاد عدد المشتركين أصبحت اللعبة مفضلة، وفي البداية تجرى القرعة لاختيار أحد اللاعبين الذي سيؤدي الدور ومن ثم تربط عينيه بإحكام تام وينتشر اللاعبون حوله وهم يصيحون (عما كور طاح في التنور) ويحاولون =

وجميع هذه الألعاب تنمي لدى الطفل القوة والتركيز والمهارة اليدوية، وتكاد تكون هذه الألعاب عالمية لتشابه المراحل الحياتية التي مرّ بها الإنسان، مع وجود سمات محلية تميز المجتمعات عن بعضها البعض.

تسالي رمضان:

ولا شك أن للمناسبات الدينية دوراً كبيراً في لمّ شمل الأسرة وبعث الفرح في النفوس. ومن أهم هذه المناسبات الاستعداد لاستقبال شهر رمضان المبارك، وإعداد المواد الغذائية الخاصة بهذا الشهر الفضيل، وكانت الأسرة تحتفل بقدوم شهر رمضان فتقوم النساء بجرش القمح لتصنعن منه الهريس، وهو أكلة كويتية شائعة في شهر رمضان. وتسمى عملية الجرش (دق الهريس)، وقد ارتبطت عملية دق الهريس بألوان من الإبداع الشعبي، ويُعد يوم دق الهريس من المناسبات المشهورة في حياة الأسرة، حيث تستعد النساء لهذا اليوم فيبسط إيوان المنزل (الليوان) بالسجاد والمطارح، وتعد المجامر لوضع أباريق الشاي والقهوة العربية وقهوة الزعفران، وتصف المجارش في صحن الدار، ويوضع القمح في أواني كبيرة بالقرب من المجارش وكانت نساء العائلة وفتياتها يرتدين الدراعات الملونة والثياب المزركشة الجديدة ويتعطرن بالطيب، وبعد صلاة

- لمسه أو شده أو دفعه برفق وهو يحاول الإمساك بأحدهم فإذا تسنى له ذلك، يكون من تم مسكه عليه الدور وتربط عيناه ويتكرر نفس المشهد، وأحياناً تطول فترة ربط عيني اللاعب لأنه لا يستطيع الإمساك بأحد حيث يحاولون إثارته والابتعاد عنه.

العصر تحضر نساء الحي للمشاركة في دق الهريس، وكان العمل يتم بمصاحبة الغناء. وكان شهر رمضان المبارك ولا يزال ملتقى العائلة لأداء فروض الطاعة والأسمار، ففيه يتواصل الناس ويتزاور أفراد المجتمع يهنئون بعضهم بعضاً بقدوم شهر النور والخير، وفي منتصف الشهر يحتفل الأطفال بالقرقيعان، وتحديداً في الليالي (الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة)، وفيها يجتمع أطفال الحي من الأولاد أو البنات ويطوفون على البيوت بعد صلاة العشاء والتراويح ويغنون فيها ويحصلون على القرقيعان، وكانت الأسر تجتمع عند قدوم الأطفال فيسعدون بهم ويسعدونهم.

ويقول الأولاد في القرقيعان:

سلِّم (ولدهم) يا الله.. خَلّه لأمه يا الله.

ويذكرون اسم الطفل في كلمة ولدهم. فعلى سبيل المثال إذا كان اسم الولد خالد يقولون: سلِّم خالد يا الله.. خَلّه لأمه يا الله.

وتقول البنات في القرقيعان:

قرقيعان وقرقيعان، بيت اقصيّر وارميضان،
عادت عليكم صيام... كل سنة وكل عام
يا الله تخلي خالد... يالله تخليه لأمه
عسى البقعة ما تخمه.... ولا يوازي على أمه

وتكرر تلك الأهازيج، ومع كل زيادةلله في الأداء يزداد القرقيعان.

وعادة تجتمع نساء العائلة للاحتفال بهذه المناسبة الدينية السعيدة بينما يعود الأطفال من جولتهم فرحين بما حصلوا عليه من القرقيعان.

من تسالي العيد:

ما أجمل استعداد الأسرة بكل أفرادها لاستقبال العيدين المباركين عيد الفطر وعيد الأضحى، حيث تعم البهجة النفوس، ويرتدي الجميع الملابس الجديدة تيمناً بالمناسبة العطرة، ويتبادل الأهل الزيارات؛ للتهنئة بالعيد، ويجد الأطفال في العيد مناسبة لتحقيق المتع البريئة التي يصبون إليها، خاصة بعد حصولهم على العيدية، فيركبون الدوارف (المراجيح) ويشترون ما يشتهون من المآكل والمشروبات، فلم تكن هذه المتع متيسرة في الماضي كما هي الآن. وربما تنتهز الأسرة المناسبة للخروج في رحلة خلوية إلى البر، حيث يتحرر الناس من قيود الروتين، ولا يجد الكبير حرجاً في مشاركة أبنائه اللعب وألوان التسالي المختلفة، كلعب الكرة والورق والدامة وغيرها من الألعاب التي ما تزال تمارس حتى في عصرنا الحاضر. أما ما انقرض من الألعاب فلا شك أنه قد فقد وظيفته في المجتمع وتحول إلى موروث شعبي.

* * *

صور من الموروثات الشعبية في الأسرة الكويتية

تقوم المجتمعات على نسق اجتماعي وثقافي معروف لأفرادها، يشتقون منه مؤشرات حركتهم تجاه بعضهم البعض، ويحدد التفاعل بين «أنظمتها» الفرعية، ويبنى هذا النسق على أعراف وتقاليد موروثة معتمدة من الأجيال السابقة، وتدخل في نطاق الواجب الذي يصل إلى مستوى الإلزام لدى بعض هذه «الأنظمة»، ومنها الأسر، ويعتبر التراث الشعبي الأسري «دستوراً» غير مكتوب للتعامل داخل الأسرة وبين الأسر، ويمثل بنود «معاهدة الأجيال» Generation Treaty عندما نتعامل مع مفهوم الصراع أو عدم التوافق بينها. إن مشكلة الاعتراض على المعايير القائمة والعنف في إبداء ذلك الاعتراض مردّه في الأساس إلى ضعف الإحساس بالانتماء، ومن ثم الولاء للمحيط الثقافي الذي نحياه، بالإضافة إلى الفجوة بين الماضي والحاضر، والفجوة بين جيل الولاية (الآباء) وجيل الإعالة (الأبناء)، ويحتدم ذلك الاعتراض في مناخ يجمع بين تسارع التغير الاجتماعي وضعف الصلة بالمستقبل الغامض الذي ننتظر تشكيله من غيرنا.

ويمثل انتهاك الموروثات الشعبية الأسرية شكلًا من أشكال الاعتراض السابق ذكره، باعتباره مؤشراً على الإحباط، ورد فعلٍ عشوائي دون تخطيط استراتيجي منظم، أو حسابات للنتائج المتوقعة، إن معناه ومبرره «الاعتراض»، كما يؤدي فقدان الصلة بهذا التراث من قبل الآباء والأمهات وازعاً كافياً لتدني مستوى تلك الصلة لدى الأبناء، ويقضي على التواصل بين الأجيال في مقام الأسرة الكبيرة. إن الصورة الظاهرة للقضية تتميّز في الجديد الوارد (شبه المفهوم) في مقابل القديم الموروث (غير المفهوم)، والصورة الخفية لها تكمن في الخيار بين قوة التماسك الاجتماعي (رأسياً وأفقياً) أو ضعفه، أي أن المسألة ليست بعض الطقوس أو الممارسات بقدر ما هي معانٍ ومفاهيم تحدد شكل الحركة داخل المجتمع، وتقوي الصلة بين أجياله.

وتعني دراسة التراث الشعبي الأسري البحث عن أواصر تلك الصلة وتتضمن هذه الأواصر:-

أ - الإحساس بالانتماء والقوة في الانتماء.

ب - تأكيد الهوية الثقافية بما لها من وشائج اجتماعية ودينية.

جـ - التلاحم بين أفراد الوطن الواحد.

د - تقوية الذاكرة الوطنية مما يزكّي الإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن.

هـ - التغلب على الصدمات والكوارث التي يتعرض لها الوطن من

خلال إحساس خفي بامتداد الماضي إلى الحاضر وتجاوز «محطة الكارثة».

و - تقليل مشاعر الغضب والعدوان، وتزكية مشاعر التقبل والالتقاء، من خلال استمرار النسق الاجتماعي، واحتواء النتوءات الطارئة في تسامح ويسر.

ويعد الحفاظ على التراث الشعبي الأسري وشيجة التماسك لدى المهاجرين إلى أقاليم أخرى، كالمستوطنين الأول في الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من دول أمريكا اللاتينية، وقد حافظ ذلك التراث على ذاتهم وانتمائهم والتعارف مع غيرهم، دون إحساس بالذوبان أو عدم الأهلية، ولذا كان التعرف على بعض صوره محافظة على الذات الأسرية ومن ثم الذات المجتمعية والذات الوطنية.

صور من الموروثات الشعبية في الأسرة الكويتية:

بعض العادات:

ورث الكويتيون عادات البادية وتقاليد القبيلة العربية، ويظهر ذلك في تقديرهم لعامل السن، فالصغير يوقّر الكبير، والكبير يُعطى قدره من الاحترام والصدارة في المجالس، وكان هذا الأدب هو السمة الغالبة في الأسرة، وهي أسرة تعتمد على العائلة الممتدة التي يوجد فيها الوالدان والأحفاد والجدات، ومن ثم فلم نطالع بروز المشاكل بالصورة التي نراها اليوم. ، لأن عائل الأسرة الكبيرة

مهاب الجانب، مسموع الكلمة ورأيه أقرب إلى الصواب، وهو المرجع دائماً لأفراد الأسرة في شؤونهم الحياتية.

طبيعة السكن:

كانت الأسرة تسكن في بيت مبني من الطين والقش وجذوع النخيل، ويتكون من عدد من الحجرات يتوسطها فناء فيه بركة للمياه العذبة المخصصة للشرب، بالإضافة إلى بئر (جليب) لمياه الاغتسال ويلحق بالمنزل حوش للدواب.

الديوانية:

كانت هناك حجرة ضمن المنزل، خارج الحرم الداخلي، بها أدوات القهوة والشاي وأباريق ماء الورد ومجامر بخور العود، وهناك موقد يسمى (الوجاغ) لصنع القهوة العربية التي تقدم عادة للأضياف، حيث تسكب في إبريق يسمى (دلّة) وتقدّم عن طريق الأبناء إلى الضيف الذي يهز الفنجان عند اكتفائه بما أخذ، وكانت الديوانية - وما زالت - رمزاً للتنظيم الاجتماعي، وهي مجال مفتوح للتطرق إلى مختلف الموضوعات من أدب وشعر وحكايات قديمة وروايات من التاريخ العربي والسير الذاتية، والحكم والأقوال المأثورة، كما أن الديوانية مكان لاجتماع نواخذة الغوص والسفر التجاري لطرح المشاكل والقضايا الاجتماعية والسياسية وأسلوب حلها.

المناسبات المختلفة:

تحتفل الأسرة بمناسبات كثيرة على مدار العام، مثل:

١ - عودة المسافرين من رحلات الغوص والسفر، ولم تكن الأسرة هي التي تقوم بهذا، بل كان المجتمع بأسره يشارك في هذه المناسبات.

٢ - ختم القرآن الكريم، وكان من أهم المناسبات، حيث يحتفل بها المجتمع الكويتي كله. هذا وكان النظام التعليمي مقتصراً على الكتاتيب، وكان المعلم يسمى «مطوعاً»، وتختلف المناسبة إذا كان الطالب ذكراً، فيعد ختمه للقرآن الكريم بمثابة انفصاله من مرحلة الطفولة واللعب في الشوارع (البرايح) وانتقاله إلى مرحلة الرجولة وتحمل المسؤولية، أما إذا كانت المناسبة تخص الأنثى فإنها تعني الانتقال من حال إلى حال فلا تخرج من المنزل وتتخفر (تحتجب)، وتُحجَبُ عن الرجال، ويتم إعدادها كربة منزل، فتُعلّم إدارة شؤون المنزل من طبخ وخياطة وغيرها لتصبح زوجة صالحة، وأهم ما يتردد في هذه المناسبة «التحميدة»:

الحمد لله الذي هدانا	للدين والإسلام واجتبانا
نحمده وحقه أن يحمدا	حمداً كثيراً ليس يحصى عدداً
كلم موسى واصطفى محمداً	وأنزل القرآن نوراً وهدى
على نبي اسمه محمداً	صلوا عليه وسلموا تسليماً

وكان يتخلل الإنشاد الفردي ترديد الحاضرين كلمة آمين.

ويغنون أيضاً:

أعطوا المعلم حقه عظيماً ... لأنه كان بنا رحيما

أول ما علمنا هجّانا ... ثم على التدريب قد مشّانا

وأنت يأم فنعم الوالدة ... دامت علينا نعمة وفائدة

عسى أراك بالجنان قاعدة ... مع نساء المصطفى نشاهده

وأنت يا خال فنعم الخال ... أنت الذي تعطي تزيد المال

والجد والجدة لا تنساهما ... فعند ربي ذي العُلى جزاهما

٣ - الاحتفال بمناسبة الزواج بالأسلوب التقليدي، وكان الفتى والفتاة يتزوجان في سن مبكرة حيث يتراوح سن الفتى بين الخامسة عشرة والعشرين، أما الفتاة فيتراوح سنها بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة، وفي يوم الزفاف يتم إعداد العروس بالاغتسال والتعطر بالمواد التقليدية كماء الورد والعود والمسك، وتتزين بأبهى الملابس والمشغولات الذهبية، فترتدي الدرّاعة (الفستان الفضفاض) الملونة الموشاة بالزري (خيوط ذهبية) وتزين رأسها بالهامة والقبقب والسروح والتلول[1]، وترتدي ألواناً من الأساور والخواتم وتلف قوامها بحزام من الذهب الموشى بالأحجار الكريمة، والتي لا تملك

(١) مشغولات ذهبية.

هذه المجوهرات تستعيرها ممن تملكها وبهذا يبدو الترابط الاجتماعي.

كما تقام «اليلوة» وهي نمط احتفالي، حيث تفرّد للعروس فوق رأسها ملاءه كبيرة من القماش المزركش تمسكها أربع من النسوة اللاتي ينشدن حولها بعض الأغنيات المبهجة.

أما المِعرس (الرجل) فيستعد ليوم فرحه بارتداء الدشداشة مع الزُّبون (ثوب خفيف ذي أكمام واسعة) المزركش بخيوط البريسم (الحرير) ومقصب بالزّري، كما يلبس الطاقية ويرتدي فوقها الكوفية البيضاء صيفاً والحمراء (الشماغ) شتاء، ويضع عليها العقال المقصب بخيوط الزري والمسمى عقال شطفة، ويضع على كتفيه البشت (العباءة) الموشاة بالزري، ويتعطّر بدهن العود والورد والبخور، ويزفّ إلى بيت العروس في رهط من صحبه وأفراد عائلته.

ويمتد الاحتفال بالعروسين لسبعة أيام في منزل ذوي العروس، فيقيمون ليلة العرس ويحتفلون في اليوم الثالث للزواج بما يسمى (الثالث) وكذلك باليوم الرابع ويدعى (الثويلث)، ولدى انتقال العروسين إلى منزل أهل العريس الذين يحتفلون بمقدمهما وذلك بإقامة (التحوال) وهو حفل كبير تحييه إحدى الفرق الشعبية النسائية، وتتردد فيه أغاني تعبر عن البهجة والدعاء لهما بمستقبل زاهر:

مباركين عرس الاثنين ليلة ربيع وقمرة

ولا تزال هذه الأغنيات تتردد في الزواج المعاصر رغم اختلاف تفاصيل الزواج بحكم تطوّر المجتمع الكويتي.

وتشكل ظاهرة الحمل والولادة مظهراً آخر من مظاهر خصوصية المجتمع الكويتي التقليدي، كما أنها تعد نقلة في حياة البشر بعامة والإنسان الكويتي بخاصة، فالمرأة الحامل تتهيأ للانتقال إلى فئة الأمهات، ويتحوّل الرجل إلى فئة الآباء، وما يترتب على ذلك من تبعات، وفي هذه الفترة تعامل المرأة الحامل بشيء من التميّز والعناية، وربما تمتنع عن تناول طعام معين أو تخفف عنها الأعباء المنزلية، حفاظاً على الجنين، وتكون الولادة في المنزل عن طريق الداية (القابلة) التي تتولى رعاية الوالدة أثناء فترة النفاس، وعلاجها بالأعشاب والوسائل العلاجية الشعبية.

* * *

الفصل الثالث
الأدب الشعبي المتعلق
بالأسرة وموقعه من الدين

- الأدب الشعبي لدى الأسرة.

الأدب الشعبي لدى الأسرة

الأدب الشعبي هو خلاصة خبرات مجتمع معين. . تتكون على مر العصور، ويعبر عن فكر هذا المجتمع ومعتقداته. . . لذلك لا يعتبر النص الأدبي تراثاً شعبياً إلا إذا كانت له صورتان على الأقل، ولم يكن له مؤلِفٌ معروف، واستمر وجوده لأكثر من جيل واحد.

والأدب الشعبي يعبّر عن التراث الفكري للجماعة، وهي تقبل هذا التراث على أنه حقائق ثابتة. . فهو يتضمن علومها ومعارفها. . ويتشكل حسب خيال أفرادها ومعتقداتهم. . لذلك فهو ينشأ ويزدهر في المجتمعات البدائية، لكنه يتحوّل باستمرار ليناسب المستوى الفكري للجماعة. . وإذا تطرق الشك إلى صحة الخيال الشعبي، بسبب تقدم العلوم أو انتشار دين معيّن أو لأي سبب آخر. يقوم الوعي الجماعي بإعادة تشكيل الفكرة لتنال تصديق الناس وإيمانهم بها.

والأدب الشعبي له صور كثيرة، تدخل كلها تحت مسماه:

١ - **الحكايات الشعبية**: وهي حكايات يختلط فيها الواقع بالخيال، مليئة بالمعجزات والخوارق، يتعامل فيها الناس مع الجن والغيلان ويلتقون بكائنات غريبة؛ من أشهرها حكايات ألف ليلة وليلة. . التي كانت ولا تزال مصدراً لإلهام كل الشعوب التي قرأتها أو قرأت ترجماتها.

ومن صفات الحكاية الشعبية: أنه ليس لها زمان معيّن أو مكان معيّن. فالحكايات كلها تقريباً تبدأ بكان يا ما كان.. أو: حدث ذات يوم.. وأن بها مبالغات كثيرة، كأن يطير الناس أو يقوم الموتى أو يتحول البشر إلى جماد.

٢ - **الملاحم الشعبية**: التي تكون عادة في صورة أشعار أو نثر مسجوع.. ويكون أبطالها إما شخصيات تاريخية أضفت عليهم الملحمة صفات خارقة ونسبت إليهم أحداثاً خيالية.. مثل سيرة عنترة أو الظاهر بيبرس، وإما شخصيات من وحي الخيال تعبر، عن اهتمامات المجتمع أو تطلعاته؛ مثل شخصية «علي الزيبق». وقد تقوم الملحمة على سيرة قبيلة.. مثل هجرة بني هلال إلى المغرب.. لكنها يضاف إليها أحداث ووقائع من الخيال الشعبي؛ مثل زواج الإنس بالجن.

وكان الحكواتية إلى عهد قريب يجلسون على المقاهي ويحكون هذه الملاحم على أنغام الربابة.. ويضيف إليها كل راوٍ ما يجود به خياله.

٣ - **الأساطير**: وهي ترجع عادة إلى أزمان سحيقة، وتروي ما يُعْتَقَد أنه قصة نشأة الجماعة، كما تصور عقائدهم التي كانت قائمة في زمن نشأة الأسطورة.. والحقيقة أنه ليس هناك خط فاصل بين الحكاية الشعبية والأسطورة فكثير من أبطال الحكايات الشعبية كانوا أصلًا أبطال أساطير.. مثل أخيل الإغريقي الذي لا يقتله إلا سهم في كعبه، أو رومولوس، مؤسس مدينة روما.. الذي

تقول الأسطورة إنه تربى، مع أخيه التوأم في كنف ذئبة.. أو أسطورة إيزيس وأوزوريس، التي كانت تحكي أنهما كانا أول من حكم مصر من الأرباب في العصور القديمة. ثم تحولت قصتهما مع الزمن إلى قصة زوجة وفية تبكي زوجها، وتربي ابنها في الخفاء وتعده لينتقم من قتلة أبيه.. مثلما تفعل نساء صعيد مصر إلى الآن.

٤ - **القصص القصيرة (الطُرَف والنوادر)**: ويكون لها في الغالب حكمة أو مغزى أخلاقي، أو تكون إلماحاً إلى وضع معين كان قائماً وقت تشكلها.. ويضاف إليها في كل عصر من أفكاره ومعانيه.. ومن أشهر هذا النوع قصص جحا.. الذي يقال إنه كان رجلًا حكيماً اسمه نصر الدين خوجة، وكان يعيش في عصر تيمور لنك، الطاغية التركي، ويحتال لينجو من طغيانه أو ليقدم له العظة والنصيحة دون أن يتعرض لانتقامه.. ثم تحول بمرور الأيام إلى رجل من العامة اختلطت في شخصه الحكمة بالحمق.. ومثلها قصص أشعب الطفيلي.

٥ - **الخرافات**: وهناك نوع من الأقاصيص التي تكون على لسان الطير والحيوان.. وتسمى خرافات، ومن أشهرها خرافات إيسوب الإغريقية وحكايات كليلة ودمنة التي سجلها ابن المقفع. وهي نوع من الأدب الشعبي بمعنى الكلمة، وإن اشتهر بها إيسوب أو ابن المقفع لمجرد أن كل منهما كان أول من جمعها في لغته. وهناك فرق واضح بين القصص

الشعبية وبين الخرافات التي تروى على ألسنة الطير والحيوان: فصفات الحيوان ثابتة ومحددة، لا تتغير من قصة إلى أخرى.. فالأسد قوي دائماً، وهو ملك الحيوانات في كل الأحوال. والثعلب مكّار دائماً ومحتال دائماً، على عكس الإنسان الذي قد يكون طيباً أو شريراً، عادلًا أو ظالماً.. وتعتمد الخرافات على أن يقوم كل حيوان بدوره المرسوم له في الحياة.. فلا يسبب ارتباكاً للمتلقي، ولا يُتَوَقَّعُ من الشخصيات أن تتصرف بغير طبائعها. فيكون المغزى أوضح مما في القصص التي يكون أبطالها أناساً مثلنا. لذلك فهذا النوع من الأدب يكون أكثر استقراراً وأقل تبدلًا من زمن لآخر، ولا تتغير القصة كثيراً إذا انتقلت من مجتمع لآخر. والحيوانات فيها تتكلم وتتصرف كالبشر؛ فتلفت الانتباه، لكنها لو تحوّلت إلى بشر، سيفسد القصد منها، لأننا سنتوقع عدولها عن سلوكها في أي مرحلة من القصة. وقد نناشد إنسانيتها التي قد تُحَوّل الحكاية عن مسارها أو تشوش القصد منها. لكن كونها على لسان الحيوان يجعلها أشد تأثيراً. فكل من يسمع قصة الماعز التي وقفت فوق سطح البيت وسبت الذئب وهجته، سيفهم أن وقوفها على السطح هو مصدر قوتها.. أما إذا كان الواقف فوق السطح إنساناً، والذي تعرض للسب والهجاء إنساناً آخر.. فقد يخلط المستمع بين أثر العامل الإنساني وبين الحدث.. لذلك نرى الآباء والأجداد يفضلون هذا النوع من الحكايات ويحبون أن يحكوه للصغار منذ وقت مبكر من حياتهم.

٥ - **الحِكَمُ والأمثال**: وهي عبارات موجزة تدل على خبرة تكونت على مر السنين.. وما يزال كثير من الأمثال العربية يُسْتَعمل بلفظه العربي الفصيح إلى جانب الأمثال العامية الخاصة بكل مجتمع، منها: «عاد بخفي حنين» و«إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع». وهي كثيراً ما تكون جملة مسجوعة أو جزءً من بيت شعر قيل في مناسبة معينة ثم سار مثلًا، ومنها: «تأتي الرياح بما لا يشتهي السَّفِنُ» و«أبشر بطول سلامة يا مربع». والحكم والأمثال، بما فيها من خير وشر، صورة صادقة للمجتمع، لذلك نجد لها صيغاً مختلفة باختلاف المجتمعات حتى لو كانت الفكرة واحدة.. ففي مصر مثلًا يقولون: «أجسام البغال وأحلام العصافير»، وفي الكويت يقولون: «الطول طول نخلة، والعقل عقل سخلة». وقد تعبر الأمثال عن أفكار متضاربة بسبب الأحوال المختلفة التي تكون في المجتمع الواحد؛ فهناك مثلٌ يحض على التوفير مِثل: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود». وآخر يحض على الإنفاق مثل: «اصرف ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب». وهناك قصص كثيرة تحكي قصة المثل أو سبب قوله.. بعضها يظهر فيه الافتعال بشكل واضح، لكنه يشتهر ويرتبط بالمثل.. وهناك أمثال تحول معناها بمرور الزمن وأصبحت تستعمل في أحوال مختلفة تماماً عن أصلها؛ وأشهرها: «رب أخ لك لم تلده أمك». فقد قاله رجل مر على خيمة بها امرأة، ووجد طفلها يبكي ورجل غريب

يجلس بالقرب منه، فسأل المرأة عن زوجها، قالت إنه غائب، وسألها عن الرجل الغريب، فقالت إنه أخاها. . فشك في الأمر وقال: «رب أخٍ لك لم تلده أمك». لكن الناس أصبحت تستعمل هذا المَثل لمن يتفانى في خدمة صاحبه مع أنه لا تربطه به صلة قرابة.

٦ - **الشعر والأغاني**: وهي كلام منظوم يتغنى به أهل المجتمع في أسمارهم أو مناسباتهم. مثل:

أ - **الشعر النبطي**: وهو منظوم بلغة ملحونة لا تلتزم قواعد الإعراب ولا أوزان الشعر العربي، وإن كان له أوزانه التي تناسبه. لم يعرف باسم النبطي إلا حديثاً. وهو ينسب إلى الأنباط التي يُقال إنه بدأ منها، ثم انتشرفي الجزيرة العربية كلها، ومن أقسامه:

١ - **القصيد**: ويُنْظَمُ في كل أغراض الشعر العربي.

٢ - **الرد أو الحوار**: وفيها ينقسم المجلس إلى فريقين، فيقول شاعر من أحد الفريقين بيتين. . يظل يرددهما فريقه المصاحب له، حتى يقول شاعر من الفريق الثاني بيتين آخرين في نفس الموضوع. . فيرددهما فريقه المصاحب له. . وهكذا.

ب - **الحداء**: وهو نوع آخر من الشعر الشعبي، وهو غناء يتغنى به في الأسفار، كانت تساق به الإبل.

جـ - **الموال**: وهو من أشهر أنواع الشعر الذي له طابع غنائي.. وكان منشأه في العصور الإسلامية الأولى في العراق، يتغنى به العمال والصناع والفلاحون أثناء عملهم. وكان يسمى آنذاك «المواليا».. ويسمون أحد أنواعه في الخليج العربي «الزهيري». وهناك العتابا في العراق والشام.

د - **أغاني العمل**: فلكل نشاط إنساني أغنية شعبية ترتبط به، مثل غناء الملاحين والبنائين، وأغاني المواسم مثل الزراعة والحصاد والغوص والصيد. ولكل مجتمع أغانيه الخاصة؛ فأغاني سكان الجبال تختلف عن أغاني سكان السهول مثلًا.

هـ - **الأشعار والأناشيد الدينية**: ومن أشهرها أنشودة «طلع البدر علينا».. التي يغنيها الناس إلى الآن في كل بلاد المسلمين؛ فالعرب يغنونها بالعربية، وغير العرب إما يرددونها بالعربية محافظين على نغمتها الأصلية ولو لم يفهموا معاني مفرداتها، أو يترجمونها إلى لغاتهم.

٧ - **الأهازيج والأغاني**: وهي التي يُتَغَنَّى بها في الأجواء الأسرية مثل:

أ - **المناسبات الدينية**: ومنها ليالي رمضان، ففي مصر يغني الأطفال: «رمضان كريم يا حاللو». بينما في الخليج العربي يقولون: «قرقعان.. وقرقعان».

ب - **أغاني الأمهات والجدات**: للأطفال، مثل هدهدة لطفلها: «يا الله ينام.. يا الله ينام». وبعضها فقد معناه مع الزمن لكنه ما زال مستعملًا مثل: «برجالاتك» التي تقال للمولود في الاحتفال بمرور أسبوع على ولادته.

جـ - **الأعراس**: وإلى اليوم يبدأ الاحتفال بالعرس في الكويت بنداء: «الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله... محمد».. ثم تنطلق بعده الزغاريد والأغاني.

د - **أغاني الألعاب**: التي كان يؤديها الصغار في ألعابهم، قبل غزو التلفاز؛ كالتي يرددونها وهم يتقاذفون الكرة أو يلعبون الحجلة. وهناك الألعاب الجماعية الغنائية مثل: «المرسال جاءكم»، التي تمثل التقدم لخطبة العروس.

٨ - **الأحاجي والألغاز**: (ويسمونها في الخليج العربي الحزاوي) وكان الكبار يعتقدون أنها تنمي ملكة التفكير عند الصغار. وبعض هذه الألغاز ما زال يسمعها الصغار من الكبار في كل جيل؛ مثل اللغز القائل: «أبي أعطاني فول.. بذرته من هنا إلى استانبول».. وإجابته: «النجوم».. ومن الواضح أنه نشأ في عصر الدولة العثمانية، عندما كانت استانبول هي العاصمة الحضارية للعالم الإسلامي.

ومن سمات النص الأدبي الشعبي أنه يتغير باستمرار، من زمن لآخر ومن مكان لآخر، ليناسب ظروف المجتمع ومعتقداته الدينية، ويتناسب مع قيمه الاجتماعية المتغيرة.

ومن أسباب هذا التطور الدائم:

١ - **الذوق الشخصي للراوي**: أو ذوق الجمهور الذي يسمع هذا الأدب أو يقرؤه؛ فقصة «ذات الرداء الأحمر»، كانت نسختها الفرنسية الأولى تختلف تماماً عن نصوصها الموجودة الآن. وقصة العنزات الثلاث اللاتي أرادت كل واحدة منهن أن تبني لنفسها بيتها.. كانت العنزات خنازير في نصوصها الأولى، لكنها تبدّلت في نصوصنا إلى عنزات، لتكون مقبولة فيم جتمعاتنا.. وما زال الكبار في كل أسرة يحكون لأطفالهم ما سمعوه في طفولتهم، لكنهم يطورونه ليلائم أحوالم جتمعهم..

٢ - **ظروف المجتمع المتغيرة**: مثل الشعوب التي تتعرض لعدوان خارجي يهدد كيانها أو يقيد حرياتها.. تأخذ أغانيها طابع المقاومة، وتدعو حكاياتها إلى حماية الوطن أو المحافظة على تراثه.. كما نرى في أساطير الشركس. وكما نرى اليوم في تطور التراث الفلسطيني.

٣ - **العامل الديني**: له أثره الواضح في تطور التراث الشعبي، فعندما تنتقل المجتمعات من عصور الوثنية إلى عصور الإيمان، ترتدي حكاياتها القديمة ثوباً دينياً بدلًا من أصلها الأسطوري.. ومن أشهر أساطير المنطقة العربية قصة أوزوريس؛ فقد صوره الخيال الشعبي المصري على أنه نبي الله إدريس الذي علم الناس الزراعة.. وتحول صعوده في السماء، إلى تفسيرِ لقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [سورة مريم، آية ٥٧].

ومثال آخر على أثر الدين في الأدب، ما نراه في الحكايات الشعبية التركية والأرمينية؛ فهما يتشابهان إلى حد بعيد، لا يفرق بينهما إلا الطابع الإسلامي في الحكايات التركية والرموز المسيحية في الحكايات الأرمينية.

٤ - **تحوير القصة لتناسب الصغار**: فيختفي منها الفحش وسوء الخلق، ويحور فيها ما يصادم تقاليد المجتمع.. وإن ظلت فيها جوانب العنف والشر.. فأغلب الناس لا يَرَوْنَ بأساً من بقاء العنف والشر في حكايات الأطفال. وكذلك يرى بعض علماء النفس أنه لا بأس على الأطفال، بعد سن السادسة، أن تتضمن حكاياتهم بعض صور المعاناة في الحياة؛ لأنها ترقق قلوبهم وتعلمهم التعاطف مع الآخرين. ولكن من الخطير تربوياً أن تحتوي على أفكار أو أحداث تنتهك تعاليم الدين أو تستهين بالأعراف الاجتماعية أو تحبط النزعة الوطنية.. لأن تأثير ذلك على اللاشعور لا يزول بسهولة.

٥ - **تأقلم النص مع المجتمع**: مع انتقال النصوص التراثية من مكان لآخر، تختفي منها بعض العناصر أو يضاف إليها عناصر أخرى، لتلائم المجتمع الذي انتقلت إليه.. وحكايات جحا من أوضح الأمثلة على ذلك.. فقد كان شخصية من التراث التركي، ثم انتشرت في بلاد المسلمين مع انتشار الأتراك.. واتخذت طابع كل مجتمع دخلته.. والآن نرى أن هذه الحكايات كادت تندثر بسبب تغلب الفكر الغربي الدخيل

على حكاياتنا، وانحسار أثر التراث الشعبي عنها.. ولم يعد جحا إلا شخصية هزيلة تدعو إلى الرثاء أو السخرية.

٦ - **القصص الشعبي مرآة المجتمع**: التي تعكس قيمه ومعتقدات أهله.. فنجد القصة الواحدة تأخذ في كل مجتمع طابعاً مختلفاً.. ففي تراثنا يظل الابن مطيعاً لأبيه حريصاً على رضاه طول العمر. أما في حضارة اليابان القديمة، فكانوا يحملون الأب العجوز إلى الجبل حتى لا يشارك أبناءه في رزقهم.. وفي المجتمعات التي تعاني من تسلط الحكام، نجد البطل يكون دائماً صعلوكاً مكاراً، يستخلص حقه وحقوق الناس بالحيلة. أما في شبه جزيرة إسكندنافيا؛ حيث سلطة الملك لا تتعدى حدود مزرعته، ولا يتخدل أبداً في حياة رعاياه.. نرى أهل هذه البلاد أحراراً في الحل والترحال، وفي إدارتهم لشؤون حياتهم.

٧ - **اختلاف الدين**: له أثر في اختلاف الحكايات. فالحفيدة في الحكاية الفرنسية ضاقت بتعنت جدها، فتركته وسافرت، وعملت في مزرعة بعيدة، وتزوجت، ثم عادت مع زوجها لتزور جدها. لكنها في الحكاية العربية نجدها تخدم جدها دون أجر ولا تتزوج إلا برضاه.. وفي إندونيسيا نجد الرجل يوقف حياته على رعاية أبيه المريض حتى يموت.. أما في الصين، فنرى الرجل يبيع نفسه في سوق الرقيق ليحصل على مال يجري به مراسم دفن محترمة، تناسب مقام أبيه تبعاً

لعقيدته الدينية.. وفي الهند نرى الناس يخضعون لقانون الطبقات الاجتماعية الصارم، لأنه مقدر عليهم، ولا يمكن معارضة الأقدار حسب عقيدتهم الهندوسية. ونجد قصص البوذيين تنادي بالزهد، وقصص الكونفشيوس تنادي بالحكمة.. وفي حكايات المسلمين، كثيراً ما تقع المصائب بسبب عدم الوفاء بالنذر.

٨ - **اختلاف العادات**: تجعل الآداب مختلفة. فالشعوب المحاربة تتباهى بما عندها من قوة وسلطة، والشعوب المزارعة لا تتعجل تحقيق مطالبها.. والشعوب التجارية تحرص على الأمن والسلام لأن التجارة لا تزدهر إلا بهما.. وهكذا.

وكما أن هناك أسباباً لاختلاف النص الأدبي الشعبي من مجتمع لآخر ومن زمن لآخر.. فهناك أسباب تبرر وجود النص نفسه أو فكرته الأساسية في أكثر من مجتمع بالرغم من اختلاف الظروف. ومن هذه الأسباب:

١ - **تشابه طبائع البشر الأصلية**: فنرى مثلًا التنافس بين الإخوة، والتحاسد بين الأخوات يظهر في كل المجتمعات الإنسانية.. وكذلك سوء معاملة زوجة الأب لأبناء زوجها.. لذلك تتشابه القصص التي تتعرض لهذه الخصال.

٢ - **المبادئ المشتركة**: في المجتمعات ذات الظروف المتشابهة، فحكايات المجتمعات الإسلامية كلها تتشابه في مبادئها. تتضمن الحرص على بر الوالدين، وإكرام اليتيم، وحق

الضيف في الضيافة ثلاثة أيام على الأقل، صلة الجوار فيها تكاد تقترب من صلة الرحم.. وغيرها.

٣ - **الأنا العليا**: يشترك البشر كلهم في أن نفوسهم تهفو إلى بعض المثل العليا والخصال النبيلة، كالخير والعدل والصدق.. لذلك نجد الخرافات التي تُرْوَى على ألسنة الطير والحيوان، تنتقل من جيل إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر دون تغير يذكر.. لأنها تخاطب المشاعر السامية في الإنسان.

٤ - **الهجرة**: تنتقل النصوص الأدبية الشعبية من مكان لآخر بسبب هجرة بعض الشعوب.. طوعاً أو كرهاً. فتحمل معها آدابها. فشخصية «أنانسي، الرجل العنكبوت»، تظهر في آداب أمريكا الجنوبية مع أنها أصلًا من التراث الأفريقي.. لأنها رحلت مع الأفارقة في هجرتهم القسرية في زمن الاسترقاق.. وهناك حكاية معروفة عن ملك يحب الألغاز، فطلب ذات يوم من صياد أن يبيعه سمكة صادها، لكن الصياد اعتذر لأنه سيهديها لصديق له، فأمره الملك أن يأتيه في اليوم التالي وهو «مكسي، عريان»، وإلا سيعاقبه.. فجاءه الصياد مرتدياً شبكة صيد. فأمره الملك أن يأتيه في اليوم التالي وهو «راكب ماشي».. فجاءه الصياد وهو يركب عنزة، فكانت قدماه تصلان إلى الأرض كأنه يمشي!.. فهذه الحكاية معروفة في جنوب روسيا وشرق أوروبا، وفي التراث التركي، وفي مصر وبلاد الشام.. فلا بد أنها انتشرت في

عصور الحكم العثماني، أو ربما انتقلت مع المماليك في ترحالهم إلى مصر والشام.

٤ - **تشابه ظروف المجتمعات**: قد يؤدي إلى تشابه الحكايات.. فالشعوب التي يتكرر وقوعها تحت السيطرة الأجنبية، نجد أبطالها لهم صفات متشابهة؛ مثل القوى الخارقة، والعدل والأمانة.. والشهامة مع الصديق والعدو.. ويمكن ملاحظة ذلك في أناشيد الشيشان؛ فأبطالهم أحرار مثل الصقور على الجبال، وشجعان مثل الوحوش في البرية.

٥ - **تشابه المجتمع أو البيئة**: فسكان الصحراء الذين ينتقلون باستمرار ويقدرون الحرية، تتشابه ظروفهم مع ظروف سكان الصحراوات الأخرى.. كما تختلف آدابهم عن آداب سكان السواحل الذين يرون في البحر مصدر رزقهم وبواباتهم إلى العالم.. وهكذا.. فكل مجتمع له سماته الخاصة التي تظهر بوضوح في أدبه الشعبي.

٦ - **الخوف من المجهول**: يشترك البشر، خاصة المجتمعات البدائية، في الخوف من المجهول. وفي محاولة تبرير الظواهر الطبيعية التي لا يفهمونها.. فكثير ما تأتي تفسيراتهم متشابهة، ووسائل تخلصهم من الخوف متشابهة. فمثلاً نجد الشعوب التي لا تعرف سبباً علمياً لتعرض الأطفال لبعض الأمراض، تميل كلها للاعتقاد أن السحر أو الحسد هما السبب في ذلك، ونجد وسيلتهما للحماية واحدة، فنراهم

يلجأون إلى تحصين الأطفال التمائم أو الأحجبة، معتقدين أنهما يمنعان السحر أو الحسد.

٧ - **المصدر الواحد**: قد يكون الأصل الذي قامت عليه الحكاية الشعبية حدثاً حقيقياً.. مثل قصة الطوفان في عصر نبي الله نوح عليه السلام... لذلك نجد كل حضارات العالم تتحدث عن قصةً الطوفان الذي عم الأرض بسبب أشرار البشر.

* * *

دراسة الأدب الشعبي يقصد بها دراسة الحياة الاجتماعية والروحية للشعوب، وتحقيق تراثهم، والكشف عن تاريخهم الفكري وعن تطور عاداتهم وتقاليدهم.. وقد يقوم بهذه الدراسات أفراد أو جماعات لأهداف علمية. أو يقوم بها هواة مهتمون بالتراث باعتباره نوعاً من الفن أو يتخذونه حرفة يتكسبون منها. كأن يستمدون منه قصصاً للأطفال في الكتب والمجلات، أو يؤلفون عنه مسرحيات وأغاني أو مقطوعات موسيقية.. وكثيراً ما يؤلف الناس قصصاً خيالية عن الجن والغيلان، أو خرافية على ألسنة الطير والحيوان.. أو أغانٍ على الأنماط الشعبية.. وهي في هذه الحالة تكون مستوحاة من التراث الشعبي، لكنها ليست تراثاً، لأنها معدلة عمداً لتتفق مع أفكار مؤلفها أو لتلائم أذواق الناس، ولأن مؤلفها معروف.. وقد يتحوّل بعضها إلى تراث إذا اندمج في النص الشعبي الأصلي، وفقد معالم الاصطناع التي أدخلها عليه المؤلف.. فإذا تغيّر نهائياً

وفقد نسبته لمؤلفه.. قد يتحوّل إلى أدب شعبي.. مثل بعض حكايات جوجول الروسية.

والتراث الأدبي الشعبي له أهمية بالغة وتأثير قوي على المجتمعات:

١ - **فهو وسيلة تثقيف:** مبكرة وفعّالة، فالحكايات والأمثال والأغاني التي يسمعها الطفل تؤثر في وجدانه وسولكه تأثيراً عميقاً ومباشراً.. ويستمر هذا التأثير في وعيه أو عقله الباطن طول حياته.. وكثيراً ما نرى مجتمعات تتمسك ببعض المعتقدات الخاطئة بسبب رسوخ الثقافة التراثية في وجدان أفرادها.

٢ - **وهو وسيلة تقريب:** بين أبناء المجتمع الواحد.. فهو تراثهم المشترك، الذي يعبّر عن آلامهم وأحلامهم.. فيحيي شعورهم بالفخر لانتمائهم إليه. واعتزازهم بالانتساب إلى القوم الذين حفظوه.

٣ - **وهو وسيلة لنقل التراث الفكري والديني:** من جيل إلى جيل.. ويبدأ تأثيره منذ الصغر، فيتعلم منه الطفل أن يكرم ضيفه، وأن يساعد المحتاج وأن يبر والديه.. والطفل يسمع في الحكاية الواحدة مرات ومرات أن الشاطر حسن بادر الغول قائلًا: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته». فرد الغول قائلًا: «لولا سلامك سبق كلامك، لكنتُ أكلتُ لحمك قبل عظامك»... وتسمع الطفلة أمها تهدهدها كل يوم لتنام، فتقول: «يا الله تحب الصلاة.. ياالله تحب الصوم».

٤ - **وهو يساهم في حفظ اللغة**: التي حفظت هذا التراث الأدبي.. وأحياناً يكون هذا التراث المحفوظ سبباً أو وسيلة لإحياء اللغة التي حفظته.

٥ - **وهو وسيلة لتشكيل الوعي الجماعي للأمة**: فعن طريق التراث الأدبي.. وبسببه، استطاعت بعض الشعوب أن تحافظ على هويتها الوطنية.. فمثلًا النشيد الوطني الشيشاني الذي ما زال يتردد على ألسنة الناس منذ القرن السادس عشر.. كان من عوامل شحذ الهمة لمواصلة الجهاد.. وهذا ما فعلته الجزائر في كفاحها للاستقلال عن فرنسا مدة ١٢٠ سنة. وهذا ما يقوم به الفلسطينيون الآن.

٦ - **وهو مصدر إلهام**: لكثير من أهل المجتمع.. فأغاني التراث وأشعاره وموسيقاه، تمتزج بالأغاني والأشعار والموسيقى التي يبدعها المجتمع. وحكاياته تكون مصدر إلهام للفنون الأخرى مثل الرسم والنحت والسينما والمسرح.

٧ - **وهو يُظهِر رؤية المجتمع**: لغيره من المجتمعات والأفراد.. فنرى في بلاد العرب والمسلمين أن للضيف حقاً معلوماً، ولو على حساب المضيف وأهله. بينما في مجتمعات أخرى نرى الضيف يستأذن لينام في الإسطبل أو المخزن. وهناك مجتمعات تشك في الغريب وتحتقر المختلف عنها.. أما عندنا، في بلاد المسلمين، فنرى من واجبنا أن نزيل عن الغريب شعوره بالغربة وعن المختلف شعوره بالاختلاف..

وهناك مجتمعات كانت تعتبر الرقيق المملوك كائناً غير بشري، ليس له حقوق البشر ولا أحاسيسهم. وفي مجتمعات المسلمين كان الرقيق إنساناً كامل الإنسانية، حرمته الظروف الطارئة من بعض حقوقه، لكنه يستردها كاملة عندما يتحرر.. حتى إنه يقود الجيوش ويقضي بين الناس.

والأدب الشعبي، في بلادنا كما في بلاد العالم الأخرى، أدبٌ موجه للكبار أصلًا، كانوا يتسامرون به في الأزمان السابقة. وينقلون به معارفهم ويحفظون به عاداتهم. وكان الكبار في تلك الأزمان لا يرون بأساً في أن يعرف الصغار ما يعرفه الكبار؛ باعتبارهم لا يحتاجون إلى نوع خاص من الثقافة. ثم بتطور مجتمعاتنا، فكر البعض أن ينتج أدباً خاصاً للأطفال.. ففي البداية، اكتفوا بتبسيط نصوص الكبار لتناسب الصغار.. ثم اتجهوا لإعادة صياغة الأدب الشعبي ليناسب الأطفال.. لكن نفوس الكبار كانت مقهورة بتوالي نكبات الاستعمار الأجنبي والاستبداد الداخلي، فجاءت حكاياتهم للصغار مليئة بالرعب والقسوة.. ثم تغير الحال مع بداية النهضة الحديثة وانتشار التعليم. فعاد الاهتمام بأدب الطفل، وعاد معه اللجوء للتراث ليستقي منه الأدباء ما يساعدهم على توجيه أبنائهم لما فيه خير دينهم ووطنهم.

وكانت مجتمعاتنا قديماً تصور الأطفال في الأدب الشعبي بصورة بائسة؛ كان الأطفال يرون أنفسهم مقهورين دائماً، ومعرضين للظلم وسوء المعاملة، يتحولون إلى وحوش أو حجارة.. ثم ظهر الآن

اتجاه جديد، استوردناه من الأدب الغربي الحديث، يجعل الأطفال أعقل وأنضج من آبائهم، فهم يحلون المشاكل وينصحون الكبار، بل ويسخرون منهم أحياناً.. وكلا الاتجاهين يضر بنفسية الصغار، فالأول ينشئهم ضعفاء جبناء. والثاني يهدم احترامهم لآبائهم، ويحرمهم من الشعور بالأمن والاستقرار، لأنهم لا يجدون من يعتمدون عليه في مواجهة مخاطر الحياة.

وهناك قدر كبير من الفحش وسوء الخلق والقسوة غير المبررة في كثير من النصوص الأدبية الشعبية.. ربما كان لها ما يبرر وجودها في العصور التي نشأت فيها.. لكنها لا تصلح للنشر على جمهور الناس الآن.. لذلك.. فنحن الآن، في عالمنا العربي والإسلامي، في أشد الحاجة إلى:

١ - **أن نجمع تراثنا الأدبي**: ونحفظه وندرسه، لنتعرف به على تاريخنا الفكري والاجتماعي ولنتمكن من فهم هذا التاريخ والتعامل معه.. ولنعرف نقاط ضعفنا فنعالجها، ونقاط قوتنا فنستثمرها.

٢ - **أن ننقح هذا التراث**: فنحذف منه ما لا يناسبنا، ونضيف إليه ما نحتاجه، ليناسب احتياجاتنا الحاضرة، لنستعمله وسيلة من وسائل التعلم، ولنجعله عنصراً من عناصر التعليم. فندعم به قدرتنا على مواجهة التحديات التي تهدد ثقافتنا.

* * *

مصر القديمة:

كانت الكتابة مهنة محترمة في مصر القديمة.. حتى إن رجال الدولة والأطباء والمهندسين والكهنة والقواد العسكريين. كانوا يضيفون لقب كاتب إلى ألقابهم الرسمية.. وقد ورد في بردية الكاتب «آمون من»، حافظ سجلات فرعون: «كن كاتباً؛ لتصبح سيد نفسك، ولا تكن تحت إمرة أسياد كثيرين». لذلك حرص قدماء المصريون على تسجيل تراثهم كتابة على الأحجار البرديات.

تتحدث أقدم الأساطير المصرية عن نشأة الحياة في وادي النيل.. وكان المصريين يقدسون كل مظاهر الطبيعة، ولهم حكايات كثيرة تفسر هذه المظاهر.. مثل فيضان النيل، وكسوف الشمس وخسوف القمر. ويحتفلون بأكبر عدد من المناسبات، كالأعياد الدينية، والحصاد والربيع، والزواج والميلاد، ولهم مراسم كثيرة تخص الموت، ما زالت تؤثر في تراث المصريين إلى الآن. ولهم أغاني وأناشيد يستعينون بها على أداء أعمالهم، مثل حرث الأرض وريها والصناعة والبناء والتجديف.. حتى إنه كان عندهم أنشودة خاصة لحاملي المحفات.

وكثير من الحكايات الشعبية العالمية نجد لها مثيلًا في الحكايات المصرية القديمة.. مثل قصة «رادوبي»، تلك الفتاة المسكينة التي تزوج أبوها بعد وفاة أمها، فكانت زوجته تسيء معاملتها.. فلما دعا الأميرأ هل البلاد إلى حفلٍ كبير بمناسبة عيد الربيع، ليختار

من بين الحضور زوجة له، أخذت زوجة الأب بنتيها إلى الحفل وحبست رادوبي وحدها في البيت. فجلست وحيدة تحت شجرة الورد وأخرجت الحذاء الذهبي الذي تركته لها أمها من صندوقه، وراحت تتأمله.. فجاء نسر ضخم وخطف فردة الحذاء وطار بها حتى ألقاها بين يدي الأمير.. فأعجب الأمير بالحذاء الذي هبط عليه من السماء، وخرج مع حراسه يبحثون عن الفتاة التي معها الفردة الأخرى.. وداروا في المدينة كلها حتى وصلوا إلى بيت رادوبي.. وسألها الأمير عن الحذاء، فأحضرت الصندوق الأبنوس وأخرجت منه الفردة الأخرى.. وهكذا تزوجها الأمير؛ فطلبت منه أن يعفو عن زوجة أبيها ويسمح لها بالإقامة في البيت مع بنتيها.

وكثير من هذه القصص مسجل على برديات أقدم كثيراً من أي نصوص أخرى، محفوظة اليوم في متاحف أوروبا.. فربما كانت هي مصدر الحكايات الشعبية الحديثة.. أو ربما كان أصلهما مشتركاً.

وأقدم أدب للخرافات، مسجل على برديات يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٢٨٥٠ ق.م. منها مثلًا أن الفئران تحالفت مع الكلاب لمحاربة القطط. فلما انتصرت الفئران.. لجأت القطط إلى الحيلة، فأقنعت الكلاب أن تتعاون معها لقتل الفئران، وأغرتهم بطعم الفئران اللذيذ.. وهي تشير إلى الحكمة الشهيرة «لا يُدْفَعُ العَدُوُّ بالعَدُوّ».. وكان المصريون يرمزون لكل حيوان بصفة معينة؛ فالأسد يرمز للقوة والعظمة، والتمساح للغدر، والكلب للوفاء، والثعبان للشر، والقرد للحكمة.. وهكذا.

الإغــريـق:

كانت أساطير الإغريق، وما زالت، مصدراً رئيساً للتراث الأدبي الغربي، ومنه انتشر تأثيرها في العالم كله.

كان اليونانيون القدماء يقدسون الشهرة ويهتمون بتخليد أمجادهم. كما كانوا سريعي الغضب وشديدي الانتقام.

وقد عكس الإغريق هذه الصفات على أربابهم الذين يسكنون جبل الأولمب، فجعلوهم يتحاربون ويتنازعون السلطات، وينتقمون لأتفه الأسباب، ويحكمون بأقسى العقوبات على من يرتكب أي هفوة.. ويغرقون في المتع ويقدسون الجمال ويحترمون القوة.. وليس من الصعب أن نلاحظ تأثير ذلك على الحضارة الغربية الحديثة.

وكان الإغريق وأربابهم يغالون في كل ما يفعلونه. فهيكتور مثلًا، وهو أحد أمراء طروادة؛ كان يعرف من نبوءة سابقة أن مصير طروادة إلى الدمار. ومع ذلك اشترك في حرب يعرف أن نهايتها الهزيمة وأن مصيره القتل.

وأغلب حكايات الإغريق تحكي عن أربابهم الذين يتدخلون في حياة الناس؛ فينتقمون منهم أو يكيدون لهم.

وقد أثرت الحكايات والأساطير الإغريقية في أدب أوروبا قلباً وقالباً. وما زالت إلى اليوم مصدر إلهام الأدباء والفنانين. وما زالت الأسماء والتعبيرات الإغريقية تستعمل في مجالات علم النفس؛ مثل عقدة أوديب وإلكترا. وكذلك في السياسة والاجتماع

والفن.. وغيرها.. ولا يزال الأوروبيون يستمدون منها الأفكار والحكايات وأساليب الكتابة.. حتى إنهم يطلقون على المتحف اسم (ميوزيام) museum وهو اسم مأخوذ من كلمة (ميوز) muse.. وهن الشقيقات التسع، بنات «يوس» رب الأرباب عند الإغريق.. وكن ربات العلوم والفنون.. فكانت مهمتهن أن يلهمن الفنانين.

وخرافات إيسوب فرع مهم من الأدب الشعبي الإغريقي، ويقال إنه كان عبداً مملوكاً اشتهر بالحكمة، حتى إن سيده أعتقه.. وإن هذه الحكايات كانت موجودة من قبله، لكنه كان يرويها للناس ليعظهم بها ويعلمهم.. وهناك ما يشبه هذه الخرافات في حضارات أخرى كثيرة؛ مثل المصرية القديمة والهندية والفارسية والتركية، لكنها تنسب إلى إيسوب في العالم الغربي، كما تنسب كليلة ودمنة لابن المقفع في عالم الشرق. وقد استمد منها كثير من الكتاب المحدثين قصصاً صاغوها شعراً بأسلوبهم الخاص، من أشهرهم «لافونتين» الفرنسي.

وقد ورث الرومان الإغريق، لكنهم لم يكن لهم تراث شعبي، وإنما استعاروا تراث الشعوب الأخرى، خاصة الإغريق، وأطلقوا عليه أسماء من عندهم ونسبوه لأنفسهم.. حتى إنهم لم يكن لهم أرباب محددة يعبدونها، وإنما كانوا يعبدون من يعتقدون أنه ينصرهم، فإن لم ينصرهم، تخلوا عنه وبحثوا عن رب غيره!!

* * *

الصـــين:

حرص الصينيون منذ أقدم العصور على تسجيل تراثهم الأدبي الشعبي. وكانوا يحرصون أن تُكتب كل الموضوعات بأسلوب شعري أنيق منمق.. حتى إنهم كانوا يمتحنون المتقدم للوظائف الحكومية في نظم الشعر.. و«كتاب الأغاني» هو أقدم النصوص الأدبية المسجلة في تاريخهم؛ وهو مقطوعات من الشعر أو النثر الإيقاعي مجهلوة المؤلف.. بعضها يتغنى بالحب والحرب والزراعة وغيرها. وبعضها أناشيد ترتل في المناسبات الدينية مثل الزفاف والميلاد والموت وتقديم القرابين.

ويتكون التراث الأدبي الشعبي الصيني من أربعة أنواع رئيسة: الأساطير التي تحكي عن بداية الحياة على الأرض وتاريخ الأرباب؛ الذين هم أرواح حرة تنتقل إلى أي مكان دون عائق، وتتجسد في أي شكل. وكثير منهم يحب أن يتمثل في صورة تنين؛ ذلك الكائن المقدس، وبعضهم يفضل التنقل على ظهره في غدواته وروحاته.. مثل تشي تشي، الذي علم البشر الموسيقى، وكان يتزيَّن بأحجار «الجيد» الخضراء، ويمتطي صهوة تنين. ثم هناك الحكايات التي تصف تقاليد الشعب الصيني في الحياة والموت وصلتهم بالأرباب الذين يقدمون لهم الخدمات ويكافئونهم عن أعمالهم الخيرة أو اجتهادهم أو احترامهم للتقاليد وتمسكهم بالأعراف.. وقد ترأف الأرباب بحال أحدهم، فترسل له زوجة

تعينه على مصاعب الحياة. وهذا النوع من الحكايات مليء بالحكم والمواعظ، مما يشير إلى تأثرها بالديانة الكونفوشيوسية، التي تحترم الأمانة والأعمال الخيرة وتنادي بعدل الحكام وحكمة مساعديهم.

والنوع الثالث عبارة عن حكايات تتحدث عن حياة الناس، ويظهر منها تسليمهم بالأقدار وأن فضول الإنسان وتعجله يحرمانه من النعمة المقدرة له، وهي تشبه الحكايات الشعبية عموماً في تراث الشعوب الأخرى.

والنوع الرابع من الأدب الشعبي هو الخرافات التي يوجد منها في كل الحضارات.. ومع أنها تعتبر النمر أقوى الحيوانات، إلا أنها لا تقدسه كما يقدس الإغريق الأسد، لأنهم يحترمون الحكمة أكثر مما يحترمون القوة.. فمن حكاياتهم أن النمر التقى مرة بالثعلب وكاد يفتك به، فتماسك الثعلب وادعى القوة وهدده أن يفتك هو به، لأنه ملك الغابة.. وأمره أن يسير معه في الغابة ليسأل باقي الحيوانات.. وفعلًا سارا معاً والنمر متعجب، وكانت الحيوانات تهرب من أمامهم مسرعة... لأنهم كانوا يخافون من النمر، لكن النمر تصوَّر أنهم يخافون من الثعلب لأنه فعلًا ملك الغابة، فاعتذر للثعلب.. وقَبِلَ الثعلب عذره وسامحه!.

في القرن العشرين، انفصلت الآداب الصينية الحديثة تماماً عن

تراثها الشعبي القديم؛ بسبب الغزو الفكري الغربي أولًا.. ثم سيطرة الشيوعية على الحكم هناك، فكانت تدعو الأدباء والفنانين إلى استلهام المبادئ الثورية لأعمالهم بدلًا من التراث القديم.

وهكذا كاد يضيع تراثٌ أدبيٌّ شعبيٌّ كامل، وهو درس يجب أن تعيه الشعوب التي تتعرض آدابها لمثل ما تعرض له الأدب الصيني.

* * *

الفصل الـرابـع
التفاعل الأسري

١ - التواصل الأسري.

٢ - التفاعل الأسري واستقرار الأسرة.

التواصل الأسري

يُقصد بالتواصل الأسري Family Communication لغة التفاهم والتحاور بين أفراد الأسرة، التي تنقل أفكار كل منهم ومشاعره ورغباته واهتماماته وهمومه إلى الآخرين في الأسرة، وتشمل هذه اللغة: الكلام والحركات والتعبيرات والإشارات والإيماءات وغيرها من الرموز اللفظية وغير اللفظية، التي يقوم عليها التفاعل والتوافق بين أفراد الأسرة، وتجعلهم سعداء أو أشقياء بحياتهم الأسرية.

فالتواصل الأسري الجيد Good Family Communication مفتاح سحري لسعادة الأسرة يجعل التفاعل بين أفرادها إيجابياً، Positive Family Interaction، يجلب لهم الفرح والسرور، ويؤدي إلى تماسك الأسرة وترابطها ويجعلها كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الأعضاء بالسهر والحمى.

أما التواصل الأسري الرديء Bad Family Communication فمفتاح الشقاء في الأسرة لأنه يجعل التفاعل الأسري سلبياً Negative Family Interaction يجلب لأفرادها الغضب والضيق والتوتر، ويجعل الأسرة مفككة وعرضة للهجر والطلاق، وهروب الأفراد منها، وقد يؤدي إلى العنف الأسري وتصدع الأسرة وزوالها.

مجالات التواصل الأسري:

ويحدث التواصل الأسري بين طرفين في الأسرة تربطهما علاقة:

إما علاقة زواج أو رباط دم وصلة رحم، وهذا ما يجعل مجالات التواصل الأسري الثنائية عديدة أهمها الآتي:

أ - التواصل الزواجي Merital Communication :

ويقصد به تواصل الزوجين معاً وتفاهمهما معاً حول حياتهما الزواجية والأسرية، وتبادل مشاعر الود والاحترام بينهما، ويعد التواصل بين الزوجين أهم مجالات التواصل الأسري، لأهمية الزواج في بناء الأسرة وفي الإنجاب، ودور العلاقة الزواجية في استقرار الأسرة وتماسكها، فإذا كان التواصل الزواجي جيداً كان تفاعل الزوجين معاً إيجابياً يجلب لهما ولباقي أفراد الأسرة الفرح والسرور، أما إذا كان التواصل الزواجي رديئاً كان تفاعل الزوجين معاً سلبياً، يجلب لهما الغضب والضيق والتوتر ويشقيهما ويشقي باقي أفراد الأسرة.

ب - التواصل الأبوي Father - Child Communication :

ويقصد به تواصل الأب مع ابنه أو ابنته، وحوارهما معاً وتفاهمهما حول ما يريده كل منهما من الآخر، وتبادلهما مشاعر الود والاحترام والاهتمام والرعاية والحماية. ويعد تواصل الأب مع أبنائه وبناته من أهم الركائز التي تقوم عليها التنشئة الاجتماعية، وبناء شخصية الابن أو الابنة، فإذا تفاهم الأب مع ابنه أو ابنته بأسلوب جيد فيه احترام متبادل وتشجيع في مواقف السرّاء، ومساندة ومساعدة في مواقف الضرّاء، كان تفاعلهما الأسري

إيجابياً، وتوافقهما معاً حسناً، وسعد كل منهما بالآخر وأسهم هذا التفاعل والتوافق والسعادة في تنمية الشخصية السوية عند الأبناء وحماهم من الانحراف والاضطراب.

أما إذا كان التواصل الأبوي بين الأب وابنه أو ابنته منعدماً أو رديئاً، فيه إهانة للابن أو الابنة، أو إهمال له، أو إيذاء له، أو قسوة عليه، فإن علاقة الأب بابنه أو ابنته تختل، ويتفاعل كل منهما مع الآخر تفاعلاً سلبياً، يجلب الغضب والتوتر والخوف والقلق والشقاء، ويؤدي إلى انحراف الابن والابنة أو اضطرابه النفس.

فالدراسات على الأبناء تشير إلى العلاقة الوثيقة بين التواصل الأبوي الجيد والنمو النفسي السوي عند الأبناء، وبين التواصل الأبوي الرديء والانحرافات النفسية عند الأبناء.

جـ - التواصل الأمومي Mother - Child Communication :

ويقصد به تواصل الأم مع ابنها أو ابنتها، وحوارهما معاً، وتفاهمهما حول ما يريده كل منهما من الآخر، وتبادلهما مشاعر الود والمحبة والاحترام والرعاية والحماية والاهتمام، ولا يقل تواصل الأم مع أبنائها وبناتها أهمية عن التواصل الأبوي، إن لم يكن يفوقه تأثيراً في التنشئة الاجتماعية وبناء شخصية الابن أو الابنة، وينطبق ما أشرنا إليه من إيجابيات وسلبيات في التواصل الأبوي على التواصل الأمومي، لأن الأب والأم هما الكبار في الأسرة المهيمنان في حياة الأبناء الأسرية، وتواصلهما الجيد مع الأبناء، مصدر أمنهم واستقرارهم النفسي، وإشباع حاجاتهم ونمو

شخصيتهم، أما تواصلهما الرديء معهم فمصدر اضطرابهم النفسي وحرمانهم منم إشباع حاجاتهم وانحراف شخصيتهم.

د - تواصل البنوة:

ويقصد به تواصل الابن أو الابنة مع أبيه وأمه، وحواره معهما، وتفاهمه معهما حول ما يريده كل منهما من الآخر، وتبادل الابن مشاعر الود والرحمة والاحترام مع والديه لاسيما عندما يبلغا عنده الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا يقل لهما أف ولا ينهرهما، ويقل لهما قولًا كريماً؛ أي يتواصل معهما تواصلًا جيداً، ويتفاعل معهما تفاعلًا إيجابياً في كل الأحوال.

وتواصل البنوة مثل تواصل الأبوة أو تواصل الأمومة من حيث إن طرفي التواصل هما الآباء والأبناء، إلا أنه في تواصل الأبوة والأمومة يكون التواصل من الآباء إلى الأبناء، حيث يدير الآباء التواصل، ويؤثرون في الأبناء في مواقف التنشئة الاجتماعية في الطفولة والمراهقة، ويسمى هذا التواصل «**المعاملة الوالدية**» أي معاملة الآباء للأبناء.

أما تواصل البنوة فيكون من الأبناء إلى الآباء، حيث يدير الأبناء الحوار، ويؤثرون في الآباء، لاسيما في الكبر ويسمى هذا التواصل «**بر الوالدين**» إذا كان التواصل جيداً، و«**عقوق الوالدين**» إذا كان التواصل منعدماً أو رديئاً.

ويشغل تواصل البنوة حيزاً كبيراً في الأسرة المسلمة، فقد أمر الله

أبناء المسلمين ببر الوالدين، وحرَّم عليهم عقوقهما: فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ و٢٤].

ويؤدي تواصل الابن الجيد مع أبيه وأمه، وبره بهما إلى استقرار الأسرة وتماسكها ويشبع حاجات الآباء الجسمية والنفسية والاجتماعية والروحية، وينمي صحتهما النفسية والجسمية، ويحميهما من الأمراض والأوجاع، ناهيك عن تأثيره على الأبناء والأحفاد، والبركة التي يحصلون عليها في العمر والرزق، ورضا الله في الدنيا والآخرة.

أما تواصل الابن أو الابنة مع أبيه وأمه تواصلًا رديئاً، وعقوقه لهما، فإنه يحرمهما من الاستقرار النفسي، ومن إشباع حاجاتهما، ويعرضهما للأمراض والأوجاع والانحرافات النفسية، ويحرم الأبناء من بركة العمر والرزق ويعرضهم لسخط الله.

هـ - **تواصل الأُخوة**: ويقصد به تفاهم الأخ أو الأخت مع أخيه أو أخته، وحوارهما معاً حول ما يريده كل منهما من الآخر، وتبادلهما مشاعر الود والاحترام والمساندة والمساعدة والمواساة في الضرّاء والتهنئة في السراء.

ويقوم تواصل الأُخوة على رباط الدم وصلة الرحم التي تربط بين

الأخ وأخيه وهو رباط إلزامي أو إجباري يقوم عليه الأسْر في الأسرة لاسيما في الأسرة المسلمة، التي حثَّ الإسلام فيها على «**صلة الرحم**» وتنمية العلاقات الطيبة بين ذوي الأرحام، فقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يبسط الله له في رزقه، وينسأ له في أ ثره فليصل رحمه**» [متفق عليه].

ويعد التواصل الجيد بين الإخوة والأخوات من عوامل الاستقرار في الأسرة وتماسكها، أما التواصل الرديء بينهم فيقطع الأرحام ويؤدي إلى العداوة والبغضاء والعنف الأسري الذي يشقى به قاطع الرحم وأسرته، وقد نهى الإسلام عن التواصل الرديء بين الإخوة والأخوات والأقارب فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣]، أي فهل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم، أي تتواصلوا معهم تواصلًا رديئاً، وتتفاعلوا معهم تفاعلًا سلبياً يُقطع روابط الدم التي بينكم.

تحليل التواصل الأسري:

يتطلب التواصل الأسري الجيد أن يكون أحد طرفي العلاقة متكلماً والآخر مستمعاً، وأن يكون المتكلم جيد التعبير Good Expressing عن الرسالة التي يريد توصيلها، ويرسلها بدقة ووضوح، وأن يكون المستمع جيد الإنصات Good Listening

منتبهاً للمتكلم ورسالته، وما تحويه من مضمون صريح وغير صريح الذي يظهر في كلامه، ونبرات صوته، ووضع جسمه، وتعبيرات وجهه، وحركات يديه لكي يفهم الرسالة، ثم يرد عليها بتعبيرات جيدة، يتلقاها الطرف الآخر، وينصت إليها ويفهمها، ثم يرد عليها بتعبيرات جيدة، وهكذا يستمر التواصل الأسري بين الزوجين أو بين الآباء والأبناء، أو بين الأخوة والأخوات.

ويتم التواصل الأسري بأساليب تواصل معرفية عقلية، وأساليب تواصل عاطفية وجدانية: ويقصد **بأساليب التواصل العقلي المعرفي** الكلام العادي والتفاهم الجاد حول أمور الحياة الأسرية، والإفصاح عن الاهتمامات والحاجات والأفكار والهموم، وأداء الواجبات والحقوق بين الطرفين في الأسرة.

ويقوم التواصل العقلي الجيد في الأسرة على الحوار بالكلام الطيب والنقاش المقنع، والجِدال بالتي هي أحسن، والالتزام بآداب الحديث، والمهارة في التعبير، والمهارة في الإنصات، ويؤدي هذا التواصل الجيِّد إلى التفاعل الأسري الإيجابي الذي يشرح الصدر، وينمي العلاقات بين أفراد الأسرة.

ويختل التواصل العقلي في الأسرة عندما يقل الكلام بين الزوجين، أو بين الآباء والأبناء، أو بين الإخوة والأخوات، أو عندما ينعدم الكلام ويحدث الخصام، أو عندما يكون الكلام بين الأطراف بذيئاً، أو مؤذياً، أو مهيناً، أو سخيفاً أو مخيفاً، ويؤدي إلى التفاعل السلبي ويثير العداوة والشقاق والصراع في الأسرة.

كما يختل التواصل العقلي في الأسرة عندما لا يجد المتكلم مَنْ يسمعه أو يصغي إليه ويهتم به، أو عندما يقاطعه الطرف الآخر، ويرد على رسالته قبل أن يستوعبها ويفهم معناها، مما يجعل التواصل بينهما جدالًا عقيماً، وحواراً مبتوراً، وكلاماً غير مفهوم، ويؤدي إلى التفاعل الأسري السلبي الذي يشقى المتواصلين معاً.

أما **التواصل العاطفي الوجداني** في الأسرة فيقصد به أساليب أفراد الأسرة في التعبير عن مشاعرهم في الحب والمودة والإعجاب المتبادل بين الزوجين، أو بين الآباء والأبناء، أو بين الأخوة والأخوات.

ولا يقل التواصل العاطفي الوجداني أهمية عن التواصل العقلي، لأن بدونه تكون الحياة الأسرية جافة، لا يأنس أفراد الأسرة معاً، ولا تتحقق المودة والرحمة بينهم، ولا يسكن كل منهم إلى الآخر، ولا يشبع حاجاته إلى أن يُحِبّ ويُحَبّ، أو الاستحسان والتقدير والتقبل من الآخرين في الأسرة.

ومع أن هدف التواصل العاطفي الوجداني التعبير عن المشاعر والعواطف بين أفراد الأسرة، فإن طريقة التعبير عن هذه المشاعر والعواطف تختلف وفق مجالات التواصل الأسري، وهذا ما يجعل التواصل العاطفي الوجداني بين الزوجين يختلف عنه بين الآباء والأبناء، وبين الأخوة والأخوات.

فالتواصل العاطفي بين الزوجين يقوم على كلمات الحب والغزل والإعجاب والمداعبة والملاعبة والتَّزين وبدون هذا التواصل يقل

الحب بين الزوجين، وتفتر العلاقة الزواجية، ويذهب الأمن والمودة والرحمة في الزواج، وتختفي خصوصياته وأسراره التي بين الزوجين وللزوجين معاً.

وقد حثَّ الإسلام على التواصل العاطفي بين الزوجين فقال رسول الله ﷺ لجابر عندما علم برغبته في الزواج: «**فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك تضاحكها وتضاحكك**» (رواه البخاري). وقال: «**كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا رميه عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله فهن من الحق**» (رواه النسائي).

أما التواصل العاطفي الوجداني بين الآباء والأبناء وبين الأخوة والأخوات فيقوم على الاحترام المتبادل، والإفصاح عن الحب المتبادل والإعجاب بما في الآخر من محاسن في الخلق والخلْقة، والمساندة والتعاون في السرَّاء والضرَّاء، فيجد كل منهم الإشباع لحاجاته للاستحسان والتقبل والحب عند والديه أو عند إخوانه وأخواته أو عندهما معاً.

ويتطلب التواصل العاطفي الوجداني بين الآباء والأبناء أن يظهر الأب البشاشة في تعامله مع ابنه أو ابنته، ويُسْمِعه كلمة حب واحترام، ويشعره بالتقبل والرضا، ويشاركه أفراحه بالنجاح وأحزانه بالفشل، ولا يبخل عليه بكلمة الشكر والثناء إذا أحسن العمل، ويلتمس له عذراً ويأخذ بيده إذا أخطأ أو غَلِط.

أما تواصل الأم عاطفياً مع أبنائها فلا يقل أهمية عن تواصل الأب

معهم. فالأم مصدر العطف والحنان، ومنبع الحب والرحمة بالأبناء، وتواصلها العاطفي الجيد معهم أساس نموهم النفسي السوي في الطفولة والمراهقة، أما تواصلها العاطفي الرديء معهم فيعوق نموهم النفسي ويؤدي إلى اضطراب شخصيتهم وانحراف سلوكياتهم، فالأم المولدة للفصام معروفة في الطب النفسي وعلم النفس الإكلينيكي وعلم نفس النمو، حيث تجمع الدراسات على أنها أم جافة عاطفياً، لا تتواصل مع أبنائها وجدانياً، وتسيطر عليهم، وتقسو عليهم، مما يولد عندهم الفصام وغيره من الانحرافات السلوكية والاضطرابات النفسية.

ويتطلب التواصل العاطفي الوجداني بين الأخوة والأخوات أن يعبِّر كل منهم عن حبه لأخيه، واحترامه له، وثقته فيه، ومساندته له في السراء والضرّاء، وعلاقاته لأخيه بوجه بشوش، ونفس راضية وأن يفصح له عن حبه ويتسامح معه ويتفاعل معه تفاعلًا إيجابياً فابتسامتك في وجه أخيك صدقة لأن الابتسامة لغة جيدة في التواصل الزواجي والأبوي والأموي والأخوي.

* * *

التفاعل الأسري واستقرار الأسرة

مفهوم التفاعل الأسري وأسسه:

يقصد بالتفاعل الأسري مستوى وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة والتي قد تكون متمثلة في التماسك والترابط أو في التفكك والتفرق، أو في التسامح أو الرفض، أو في الحب أو الكراهية، أو في التسلطية أو الديمقراطية. ويؤكد «تورنبل»(١) على أربع مكونات للنظام التفاعلي داخل الأسرة وهي: الأنظمة الفرعية، التماسك، . القابلية للتكيف، والتواصل.

ويشير مصطلح الأنظمة الفرعية إلى أربع أنظمة هي:

١ - زواجية (زوج وزوجة).
٢ - والدية (أب وابن، أم وابن).
٣ - أخوية (طفل وطفلة).
٤ - فوق أسرية: التفاعل مع الأسرة الممتدة، والأصدقاء والاختصاصيين والآخرين.

وتحدد الأنظمة الفرعية من سوف يتفاعل من أفراد الأسرة في حين التماسك والقابلية للتكليف تصف كيف يتفاعل أفراد الأسرة، فالأسر ذات التماسك الجيد تتصف بالتوازن والترابط القوي بين أفرادها، في حين القابلية للتكيف تشير إلى قدرة الأسرة على التغير

(١) من حلال: إيمان فؤاد كاشف، ٢٠٠٠، ص ٢٤.

استجابة لموقف الضاغط، أما التواصل فضروري جداً وهو نموذج للتفاعل مع الآخرين، ومن الطبيعي أنه كلما كانت العلاقات الأسرية إيجابية كلما ساد جو الأسرة الوفاق والترابط والتماسك بين أعضائها، في حين عندما يسود جو الأسرة التنافر والتناحر وعدم الرغبة في تحمل المسؤوليات من قبل أفرادها فإن ذلك سينعكس عليها سلفاً.

أ - علاقات الزوج بالزوجة: وهي علاقات تقوم على أساس الحقوق الزوجية والجنسية والمسؤولية المشتركة نحو الأبناء وبيت الزوجية، وما يتضمن ذلك من العناية بالأبناء وتنشئتهم وتقسيم العمل بين الزوجين وحقوق وواجبات كل منهما.

ب - علاقة الأب والابن: وهي علاقة تقوم على مسؤولية الأب نحو الابن وما تشتمل عليه من تنشئة وتعليم وما يقابل ذلك من وجوب طاعة واحترام الابن لأبيه ومن ثم تعاون الابن عندما يكبر ليساهم في حياة الأسرة الاجتماعية والاقتصادية.

جـ - علاقة الأم والابنة: وهي علاقة مماثلة لعلاقة الأب بالابن وإن كانت تدور في محيط البيت نفسه وخاصة فيما يتعلق بالشؤون المنزلية والمساعدات التي تتوقع الأم أن تتلقاها من الابنة حين تكبر.

د - علاقات الأب والابنة: وتتمثل في مسؤولية الأب تجاه حماية ابنته ومساعدتها مادياً حتى بعد الزواج.

هـ - العلاقة بين الأم والابن: وتتضمن الدور الذي تقوم به في تنشئة الابن الذكر والتصاقه بها في طفولته المبكرة، ثم استقلاله عنها، وكذلك الدور الذي يلعبه الابن في حياة الأم ومسؤوليته نحوها عندما تتقدم في السن خاصة بعد موت أبيه.

و - العلاقة بين الأخوة الذكور وهي في عموميتها علاقة أخوة وزمالة في اللعب أثناء الطفولة وعلاقة تعاون اقتصادي عندما يكبرون.

ز - العلاقات بين الأخوات الإناث: وهي تماثل إلى حد كبير العلاقة التي تقوم بين الأخ الكبير وأخيه الأصغر وإن كانت تمتاز بشكل خاص بأن الأخت الكبرى في كثير من المجتمعات يوكل إليها أمر العناية بأختها الصغرى، وبذلك يكون دورها نحوها كدور الأم فهي التي تعتني بنظافتها وتشرف على مختلف شؤونها.

ح - العلاقة بين الأخ والأخت: وهي علاقة أخوة وزمالة في اللعب أثناء الطفولة، وإن كانت تتوقف إلى حد كبير على فوارق السن بينهما، وتتطور علاقة الأخ بأخته تدريجياً بحيث يطرأ عليها نوع من التحفظ في السلوك إزاء أحدهما نحو الآخر وبما يشعر به الأخ من مسؤولية نحو أخته وخاصة عندما يموت الأب.

مظاهر التفاعل الأسري:

للتفاعل الأسري مظاهر عديدة ولا بد من الإشارة إلى وجود معايير تتصف بها الأسرة الجيدة والتي يمكن أن نطلق عليها أسرة صحية هي:

١ - المشاركة في الانفعالات: بمعنى أن أفراد الأسرة يعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم بصراحة وبطرق إيجابية.

٢ - فهم الانفعالات: بمعنى أن أفراد الأسرة يفهمون انفعالات بعضهم البعض ويتقبلونها.

٣ - قبول الفروق الفردية: تحترم الأسرة الفروق الفردية بين أعضائها من حيث قدراتهم وإمكاناتهم ونقاط القوة والضعف لديهم.

٤ - التعاون: يتعاون أفراد الأسرة ويتقاسمون المهمات والمسؤوليات فهم يتعاونون جميعاً كوحدة واحدة في تسيير الأمور من جميع النواحي المادية والمعنوية.

٥ - تقديم حاجات البقاء والأمن: إن الأسرة السوية هي التي تحقق لأفرادها سلامتهم النفسية والصحية وتجعلهم يشعرون بالأمن والاستقرار وتقدم لهم الحب والدفء والدعم المادي والمعنوي بحسب الظروف التي يتعرضون لها.

٦ - فلسفة عامة: إن الأسرة السوية تكون لها فلسفة في الحياة ونظام من القيم المستمدة من الدين والمجتمع لتشعر بأن لها قيمة في المجتمع الذي تعيش فيه وتستطيع تحقيق أهدافها.

٧ - جو من الحب: إن أفراد الأسرة السوية متحابين يحاولون تقليل خلافاتهم أو منع حدوثها ويحترمون بعضهم البعض.

٨ - حس بالمرح: إن جو المرح يجب أن يسود محيط الأسرة وهو

مظهر من مظاهر الصحة النفسية لأفرادها علاوة على ذلك فإن جو المرح يساعد أفرادها على التعامل مع بعضهم البعض بمودة واحترام ويمكِّنهم من التنفيس عن مشاعرهم ويساعدهم في حل مشكلاتهم.

دور التفاعل الأسري في استقرار الأسرة:

للتفاعل الأسري أنماط عديدة منها ما هو صحي وفعّال مما يؤدي إلى تماسك الأسرة واستقرارها، ومنها ما هو سيئ ومدمر للاستقرار الأسري. وفيما يلي نماذج للتفاعل الأسري السيئ.

* الأسر التي لا توجد حدود بين أعضائها ولا توجد خصوصيات للأفراد حيث يتدخل الأبناء في مشاكل الزوجين ويتدخل أهل الزوجين في حياتهما.
* الافتقار لاحترام الفروق الفردية داخل الأسرة فهم يتشاجرون لأتفه الأسباب.
* الاتصال بين أعضاء الأسرة سيئ وغير متكامل، وغير منسجم حيث تشتد الخلافات فقد يرسل الأب رسالة ولا يجد لها جواباً أو يكون الجواب غير مناسب.
* تتصف بمراكز القوى والتكتلات فقد يلجأ الأب للاتحاد مع الابن ضد الأم والبنت وقد يحدث العكس.
* قوانين هذه الأسرة مضطربة تتراوح بين الاستقرار والاضطراب، تحترم أحياناً وتخترق أحياناً أخرى، وعادة ما يخترق أفرادها

سلطة الوالدين ويتحمل أحد الأبناء أعباء السلطة.

* ينشد أفراد الأسرة الحاجة للإشباع العاطفي والانفعالي خارجها، ويهرب المراهقون إلى واقع آخر يحاولون من خلاله احترام حقوقهم الفردية، أو يغادرون البيت مبكراً للعمل بحثاً عن استقلالية.
* يعاني الأطفال الصغار من الفشل الدراسي، والسرقة، وتخريب الأثاث، والاعتداء على الغير لجذب الانتباه ولإشباع حاجاتهم في الحب والاهتمام.
* أفراد هذاه الأسرة مزاجيون لا يعرفون حدودهم وحدود غيرهم وهم غير متكيفين مع البيئة، ويفتقرون إلى مهارات ضبط النفس والاستقلالية والقدرة على اتخاذ القرار.

أساليب تنمية التفاعل داخل الأسرة:

لتنمية التفاعل داخل الأسرة لا بد من اتباع استراتيجيات لبناء علاقات إيجابية بين الآباء وأبنائهم تقوم على الآتي:

١ - التفاعل والتواصل: فلا بد من تقوية العلاقات الأخوية والودية بين أعضاء الأسرة بحيث يتحسس كل منهم آمال وآلام الآخر. وتبادل الآراء والمناقشات وتقديم النصح والتعاون على حل المشاكل وتقديم العون للمحتاج.

٢ - الاحترام المتبادل: بين كافة الأفراد صغيراً أم كبيراً، حتى لا تضيع الحقوق ويعلو الصراع وترتفع الأصوات لكي يحصل

كل فرد على حقوقه، وعدم الإكثار من النقد دون مبرر، فذلك يتسبب في مشاعر عدم الارتياح فيسود الأسرة جو من التوتر والعصبية ويفسد الحب داخل الأسرة.

٣ - الإيجابية: يجب أن يكون الوالدين إيجابيين في تعليقاتهما على أبنائهم، وذلك عن طريق الاستماع إليهم ومساعدتهم في حل مشكلاتهم وعدم توجيه النقد اللاذع لهم وإنما تزويدهم المعلومات اللازمة لهم والاقتراحات المناسبة لحلول مشاكلهم.

٤ - التشجيع: على الآباء تشجيع أبنائهم باستمرار فإن ذلك يساعد على بناء ثقتهم بأنفسهم ويشعرهم باللياقة وبتقوية مفهوم الذات.

٥ - إيصال الحب: إن المشاعر الأبوية تساعد الأطفال على الشعور بالأمن وعدم الخوف والشعور بالسعادة واللياقة.

٦ - تخصيص وقت للعب والتسلية مع أبنائهم: فالحياة الجامدة والمثقلة بالأعباء هي حياة قاتلة فعلى الآباء أن يسمحوا لأبنائهم بممارسة هواياتهم ونشاطاتهم والالتقاء بأصحابهم، وأن يشاركوهم في اللعب وممارسة الهوايات.

من جهة أخرى، على الأسرة الابتعاد عن بعض الممارسات السلبية والتي يمكن أن تؤثر سلباً على شخصية الأبناء ومنها على سبيل المثال:

١ - الحماية الزائدة فهي تنشأ أطفال اعتماديين لا يستطيعون تحمّل صعاب الحياة.

٢ - التسامح: فالإسراف فيه في ظل غياب قوانين لضبط السلوكيات ينشأ أطفالًا لا يقيمون وزناً للنجاح وغير مهتمين.

٣ - العقاب: الزائد عن الحد يؤدي إلى تجنّب الموضوعات التي يعاقبون عليها.

٤ - التوقعات العالية: تجعل الوالدان خائبي الأمل فتسوء مواقفهم من الطفل ويلجأون إلى معاقبته مما يولد لديه سلوكيات غير مرغوبة اجتماعياً.

٥ - التوقعات المتدنية: مما ينعكس سلباً على أطفالهم فلا يشعرون بقيمتهم أو بقدرتهم على الإنجاز.

٦ - التمييز في المعاملة: سواء كان التمييز بين الذكور والإناث وبين بعض الإناث والإناث أو الذكور وتفضيل أحد الأولاد عن غيره من شأنه أن يخلق الحسد والحقد والشعور بالظلم مما قد يترتب عليه سلوك عدم اللياقة أو رد فعل وتمرد عنيف.

٧ - عدم الانتباه والإهمال: وعدم الاستماع للأطفال وآرائهم ومشاكلهم فيحاول الأطفال جلب الانتباه عن طريق التخريب والانسحاب والانتقام.

٨ - النقد والتوبيخ: الإسراف في النقد والتوبيخ وتجريح شخصياتهم بألفاظ غير لائقة تولد لدى الأطفال شعوراً بالدونية ومفاهيم سلبية عن ذواتهم.

٩ - الرفض وعدم التقبل والحرمان: يشعر الأطفال هنا بالدونية وقلة القيمة ويجعلهم متمردين وناقمين وغير منجزين.

التفاعل الأسري وفق التوجيهات الدينية:

في قوله تعالى: ﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، تأكيد على أهمية حسن العشرة في مسار الحياة الزوجية.

ومن أوضح الأمثلة على قوة التفاعل الأسري نموذج العلاقة الزوجية بين الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجاته وعلى الأخص السيدة خديجة رضي الله عنها.

كما أن العلاقة بين الأب أو الأم والأبناء أشارت إليها آيات كثيرة تحث على بر الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وكذلك الآيات والأحاديث النبوية التي تشير إلى أهمية صلة الرحم وفضله، مثلاً: قوله ﷺ: **«لا يدخل الجنة قاطع»**(١).

أما التفاعل بين الأخوة فيتمثل في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**(٢).

* * *

(١) أخرجه البخاري ٥٩٨٤، ومسلم ٢٥٥٦.

(٢) رواه البخاري ١٣.

الفصل الخامس
مقومات الاستقرار الأسري
في الإطار العقدي

- التوافق الأسري والاستقرار الأسري.

التوافق الأسري والاستقرار الأسري

من المسلم به أن الأسرة هي المؤسسة النووية في أي مجتمع، ولاسيما المجتمع الإسلامي.. ولقد أفرد الإسلام جانباً كبيراً من تعاليمه وقواعده وتكليفاته لتنظيم أوضاع الأسرة المسلمة وضبط العلاقات فيها وتحقيق وظيفتها الرئيسية في تجديد أجيال المجتمع المسلم وإشاعة الأخلاق القويمة والاستقرار في المجتمع.

مفهوم التوافق الأسري:

يعتبر مفهوم التوافق من المفاهيم الأساسية في الصحة النفسية، حيث إن جميع سلوكيات الإنسان - الناجحة أو الفاشلة - إن هي إلا محاولات للتوافق من أجل التخفيف مما يعانيه الإنسان من توتر وخوف وصراعات وقهر.

ويعتبر علماء النفس والطب النفسي أن **التوافق النفسي والأسري** هو مؤشر على العلاقة الإيجابية بين الفرد وأسرته ومحيطه، والتوافق سواء أكان نفسياً أم أسرياً، أم صحياً، أم اجتماعياً يتضمن الإحساس بالسعادة والرضا عن الذات، والإحساس بالأمن والطمأنينة - مقابل الإحساس بالقهر والخوف والظلم والقلق - وكذلك الإحساس بالسعادة مع الآخرين، وبضرورة القيام

بالواجبات، والالتزام بالأخلاقيات، وباحترام الآخرين، والتعاون معهم، وتقبل النقد والقدرة على التعبير عن الأفكار والمشاعر دون خوف أو حرج أو قلق.

ولكن، **كيف ينشأ سوء التوافق؟**.. ينشأ سوء التوافق عندما يكون هناك عقبات في وجه الفرد لا يوافق عليها الدين، أو المنطق، أو المجتمع، أو العادات، أو القيم.. أي عندما تتعارض حاجات الفرد ورغباته مع الواقع ومع حاجات ورغبات الآخرين، مما يؤدي إلى حدوث صراع نفسي، وإحباطات، وأمراض نفسية، مثل: الاكتئاب، والانطواء، والكذب، والعناء، والانحرافات السلوكية.. وغير ذلك مما ينعكس بشكل سلبي على حياة الإنسان ومستقبله في شتى المجالات الخاصة والعامة والعلمية والعملية.

ومن الطبيعي أن يؤدي التوافق الأسري - بكل هذه المؤشرات - إلى تعزيز حالة الاستقرار الأسري، بمعنى: نشأة بيئة صحية وهادئة في الأسرة تؤدي إلى وجود حالة من الاستقرار النفسي والاجتماعي وتثبيت أركان الأسرة بعيداً عن التصدع والانهيار وضياع القيم وعدم الشعور بالأمان.. إن هذه الحالة من الاستقرار هي التي تمكن الأسرة من تحقيق وظيفتها في المجتمع كما بيَّنها الدين الحنيف وكما استقرت في وجدان المجتمع، فبدون الاستقرار لن يتمكّن الوالدان من أداء واجباتهما داخل الأسرة وفي العمل وفي المجتمع ككل.

وفي أهمية الزواج الموفق، كان رسول الله ﷺ إذا رفا[1] إنساناً قال: «**بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير**»[2].

أطراف التوافق الأسري:

لعله من المفيد أن نقف على حقيقة من هم أطراف التوافق الأسري؟.. قد يرى البعض أنه الأمر معنى بالحيز الضيق للتوافق في الأسرة بين الزوج والزوجة.. ولكن في حقيقة الأمر أن التوافق بينهما هو أساس من الأسس الهامة للتوافق في الأسرة، ولكن أطرافاً كثيرة مشاركة - رغب أم أبت - في تكريس حالة التوافق والاستقرار الأسري.. أو العكس إشاعة الخلاف والبغضاء وعدم الاستقرار في الأسرة حتى تصل إلى الانهيار والعياذ بالله.

وعلى ذلك، فالتوافق الأسري يجب أن يشارك في تحقيقه الأطراف التالية:

* **الزوج**، فهو القيم على الأسرة والقدوة لأعضائها، وهو المطالب أن يكون أكثر تحملًا لأعبائها، وأعمق حلماً في تعامله مع زوجته وأبنائه وأهله وأهل زوجته.. كلهم بشر، وكلهم معروض لعدم التوفيق في القول أو في المواقف، الأمر الذي ينتج عنه شيء من الخلاف الذي يستطيع الزوج بحكمته وسعة أفقه أن يمنع تطوره ليصبح أزمة تهدد استقرار الأسرة.

---

(١) قوله «رفا» بفتح الراء وتشديد الفاء مهموز معناه دعا له في موضع قولهم بالرفاء والبنين.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* **الزوجة**، وهي القلب الحنون الذي يلف كل أفراد الأسرة بالعاطفة والدفء، وهي معلمة الأبناء ومربيتهم، وهي الطرف الذي يتحمل مشقة خدمة الجميع وإراحتهم وتحمل ما قد يصدر عن البعض من عدم توافق في القول.. وهي في النهاية الطرف الذي يقر بوحدة قيادة الأسرة للزوج.. فلكل سفينة ربان واحد، وليس اثنين.

* **والدا الزوج**، وهما مطالبان أن يرعيا زوجة الابن كما لو كانت ابنتهما، فهي التي خرجت من أسرتها وانضمت إليهم تعيش بينهم، بعد أن كانت تعيش بين ذويها، وعليهما أن يتأكدا من حصولها على حقوقها واحترامها وعدم تعرضها للظلم من قبل ابنهما.. ذلك أحرى بهما، وهما الكبار في السن والأنضج تجربة، والمفروض أنهما يحرصان على استقرار أسرة ابنهما.

* **والدا الزوجة**، ولهما قدرة كبيرة على التأثير على ابنتهما، ويجب أن يدركا أنها هي التي يجب أن تضع للزوج مكانته الكبرى في البيت،. وأن تحافظ عليه وعلى أبنائها.. كما أنهما مطالبان في حال وجود خلافات ألا يشجعا ابنتهما على تصعيدها حتى تهد استقرار الأسرة لا سيما إذا كان الأمر ممكناً معالجته ولا يتعلق بمخالفات عميقة للزوج خصوصاً في مجال سلوكه أو في مجال التزامه بالقواعد الشرعية للتعامل مع أفراد الأسرة.

* **الأبناء**، وهم بعد سن التكليف مطالبون بإعلاء قدر والديهما وطاعتهما فيما لا يخالف أوامر الله عز وجل كما أن الراشدين منهم مطالبون بالسعي بالحسنى وبأعلى مستوى من الخلق

لرأب الصدع الذي يمكن أن يحدث بين الوالدين.. دون ما تحيز لأحدهما.. فهذا أبوهم، وهذه أمهم، وهم غير مخوّلين السلطة الشرعية للحكم بينهما، كما أنهم يجب أن يعرفوا أن الحقيقة الكاملة لأسباب الخلاف بين الزوج وزوجته لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

* **سائر الأرحام من المقربين للأسرة**، ومنهم الأجداد والإخوة والأخوات وأبناء وبنات الأعمام والأخوال.. كل هؤلاء يحيطون بالأسرة زوجاً وزوجة وأبناءً وبنات.. ولهم دور كبير في إشاعة جو التوافق والاستقرار أو العكس.

مجالات التوافق الأسري:

إذا كان هؤلاء هم أطراف عملية التوافق الأسري، فما هي مجالات هذا التوافق؟..

يمكن أن نصف مجالات التوافق الأسري نسبياً، وليس مطلقاً فكلها ذات تأثير متبادل فيما بينها.. ولكن يمكننا أن نشير إلى تصنيف مجالات التوافق الأسري كما هو مبين على النحو التالي:

مجال التوافق الاجتماعي، ويشمل :

* التقارب في السن بين الزوجين.
* التكافؤ بينهما من الناحية الاجتماعية.
* الالتزام بالأخلاقيات وبالقيم في التعامل مع الآخرين في الأسرة.
* التوافق في شأن التعاون في الأعباء المنزلية والتربوية في حالة

الاتفاق على خروج الزوجة للعمل.

* الاتفاق في شأن علاقات الأسرة مع الغير من الجيران والأصدقاء.
* العلاقة الحسنة مع الآخرين في الأسرة.
* الاعتراف بحاجات الآخرين في الأسرة.
* توفير التعاون والتكامل في إشباع الحاجات والرغبات.
* التسامح والمحبة للآخرين في الأسرة.
* تبادل الآراء والأفكار والعواطف.
* التحرر من الوحدة.
* الإحساس بالانتماء إلى الأسرة والمجتمع.
* الإحساس بضرورة إخضاع بعض الرغبات لحاجات الآخرين في الأسرة.
* احترام وتقدير أفكار ومشاعر الآخرين في الأسرة.
* عدم التسلط، أو العناد، أو القسوة على الآخرين في الأسرة.
* التحرر من الميول المضادة للآخرين في الأسرة.

مجال التوافق الثقافي، ويشمل:

* التوافق أو التقارب في مستوى التعليم.
* التقارب في الاهتمامات الثقافية والترفيهية.
* التوافق في شأن تثقيف الأطفال من حيث التوجهات والوسائل.

مجال التوافق النفسي (الانفعالي)، ويشمل:

* الالتزام بتعاليم الدين وبتطبيقها داخل الأسرة على وجه الخصوص.

* الرضا عن الذات، وتقبل الفرد لذاته.
* التوافق الجنسي بين الزوجين.
* الإحساس بمحبة الآخرين واحترامهم.
* القدرة على التعبير عن الأفكار والمشاعر.
* الانسجام في الآراء والطباع.
* الإحساس بالطمأنينة والثقة بالنفس.
* الإحساس بالواجبات وعدم الأنانية.
* عدم الخوف والقلق والتوتر.
* الخلو من الصراعات النفسية.
* عدم الإحساس بالذنب.
* عدم الإحساس بالنقص وبالدونية.
* الخلو من مشاعر الغيرة والحسد.
* الخلو من الاكتئاب أو الانطواء.
* الانسجام العاطفي مع الشريك الآخر.
* الاعتراف بالخطأ عند حدوثه، للشريك الآخر.
* القدرة على ضبط النفس.
* الإيمان بالله وممارسة الشعائر الدينية والقناعة في الحياة.

مجال التوافق المالي والمعيشي، ويشمل:

* الاتفاق في حالة رغبة أو اضطرار الزوجة للخروج إلى العمل.
* التوافق في معايير الإنفاق ومستوى المعيشة للأسرة وأفرادها.
* التوافق في شأن المسكن موقعاً وسعة ومستوىً وتجهيزاً.

* التوافق في شأن المأكل والملبس بما يتناسب مع الدخل ولا يتعارض مع تعاليم الإسلام.
* الاتفاق فيما يتعلق باستعداد وقدرة الزوجة على المشاركة في الوفاء بالحاجات المالية للأسرة إذا لزم الأمر.

أسباب التوافق الأسري:

من الضروري - وهذه هي أهمية وخطورة التوافق الأسري - أن نقف على أسبابه، أو بتعبير آخر **كيف نبني التوافق الأسري وما هي منابعه الأساسية**؟.. وهنا نقول إن التوافق الأسري يبدأ من أمور تحدث قبل تكوين الأسرة ويمتد إلى جوانب أخرى في فترة تكوين الأسرة وفي أثناء حياتها.. ومن أهم هذه المنابع التي ينطلق منها التوافق الأسري، ما يلي:

التمسك بتعاليم الدين:

مما لا ريب فيه أن التنشئة على تعاليم الإسلام تعتبر أساساً كبيراً من أسس ضمان أن يعيش الإنسان حياةً سوية خالية مما قد يصيبها من منغصات يكون الفرد ذاته السبب فيها.. ويمتد هذا إلى حياة الفرد الزوجية، فإذا ما تزوج (هو أو هي) أحسن الاختيار، واتقى الله في كل ما يفعله في الأسرة وأحسن في أدائه قدر استطاعته من حيث الرعاية وتوفير الاستقرار وأداء الواجبات وضمان الحقوق للزوجة (أو الزوج) وللأبناء.

وإذا ما نظرنا إلى بعض مما جاء به الإسلام من تعاليم في هذا

الشأن[١]، يمكننا الإشارة إلى المعاني الهامة التالية:

مؤسسة الزواج تقوم على الرحمة والطمأنينة:

يشرع البارع عز وجل أن الزواج - كمؤسسة في المجتمع المسلم - يجب أن تقوم على المودة والرحمة بين أعضائها كما أنها - بهذا التكييف - تكون مصدراً للهدوء والاستقرار النفسي والاجتماعي.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وقد يفهم البعض خطأً أن تكليف الزوجة بذلك أكثر من تكليف الزوج، لا بل التكليف للجانبين، بل إن على الزوج أن يخدم زوجته تعبيراً عن ذلك بما لا يصدقه الكثيرون من أبناء الجيل الحالي.. حيث قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الآذان خرج**»[٣].

على رب الأسرة العبء الأكبر فيها:

فرض الله القوامة للرجال على النساء.. والقوامة هنا ليست تشريفاً، بل هي بالأساس تكليف بالرعاية والإنفاق، والعمل تقويم اعوجاج سلوك الزوجة - إن حدث - بالعظة بما شرع الله سبحانه

(١) لا نسعى في هذه الحالة أن نحيط بكل ما جاء به الإسلام من نصوص وتعاليم وتوجيهات في هذا الشأن، وإنما نركز على بعض منها للدلالة على المعاني المقصودة هنا.

(٢) سورة الروم، آية ٢١.

(٣) رواه البخاري.

وتعالى وبالإجراءات الحاسمة دون قسوة وفظاظة وبغي. . وبالتالي، فالقوامة تعني الرعاية وحفظ المصالح والتوجيه والنفقة، وفي هذا حفظ لكرامة المرأة وصيانة لها ورعاية لمصالحها. . وبموجب هذه القوامة أعطت الشريعة حق الولاية للرجل على المرأة حتى يتمكّن من القيام بواجبات القوامة. . ومن هنا جاء إلزام المرأة بطاعة زوجها بصفته وليها، وهذه قاعدة مطردة في الشرع بأن الحقوق تقابل بالواجبات وأنها تتكامل في تحقيق مصالح العباد.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[1].

وحول مسؤولية الرجل هذه تجاه أسرته، يقول النبي ﷺ: «**أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول المرأة إما أن تطعمني وإما أن تطلقني ويقول العبد أطعمني واستعملني ويقول الابن أطعمني إلى من تدعني**»[2].

---

(١) سورة النساء، آية ٣٤.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

توجيه الأزواج والأبناء إلى الإحسان للوالدين:

هنا يقرن الله عز وجل الإحسان بالوالدين بعبادته وأنه أمر مكمل لها أو جزء منها.. وهذا تكليف واضح ومباشر ولا يوجد له أي ظرف مخفف - إلا عدم الاستطاعة المادية أو العقلية - وعليه فالزوجان عليهما الإحسان إلى والديهما ووالدي كل منهما.. وهم بحكم كونهم من كبار السن يمكن أن تصدر عنهم بعض الأفعال غير الموفقة لذا لزم استيعابهم وعدم جعل هذا الأمر سبباً للخلافات والشقاق وإحراج الزوج أو الزوجة.. وهو الأمر الذي يجب أن يستعين عليه كل من الزوجين بالصبر وكظم الغيظ.

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1].

الأمر الآخر هنا، أن هذه الآية الكريمة قد مدت التكليف بالإحسان إلى فئات أخرى تغطي فيما تغطي أعضاء الأسرة الممتدة، وليس الأسرة النووية فقط.. وهذا تأكيد على أن الالتزام بالتوافق الأسري أمر يمتد ليشمل سائر الأقارب والأرحام.. لسبب بسيط، وهو أن هؤلاء نحن مكلفون بصلة الرحم معهم، كما أنهم يشكلون المجتمع والبيئة الاجتماعية المباشرة التي نعيش فيها.

(١) سورة النساء، آية ٣٦.

ومسألة الإحسان للوالدين وللأقارب، يجب أن ينقلها الزوج والزوجة لأبنائهم وبناتهم، فإن شبوا وبلغوا سن التكليف ومن ثم الرشد كانوا قادرين على المساهمة في حفظ استقرار الأسرة من خلال عدم عقوق الوالدين، وإن تزوجوا كانوا واعين تماماً لهذه المسؤولية تجاه الآباء والأمهات والأقارب.

تمتع الأسرة بالنعم وشكر الله عليها:

يقرر الله سبحانه وتعالى أن المال والبنون هم أكثر ما يتمتع به الإنسان في الحياة الدنيا، وبطبيعة الحال هذا الأمر ينطبق على الأسرة التي على أفرادها وخصوصاً الزوج أن يسعى على رزق زوجته وأبنائه، وأن يعرف أن الذرية الصالحة هي من زينة الحياة.. ولكن ذلك كله مقرون بقيمة سامية، وهي أن العمل الصالح وشكر الله على نعمته يجب أن يكون الهدف الأسمى للإنسان حيث أن ذلك هو ما سيبقى معه لليوم الآخر.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[1].

المسؤولية عن حسن تربية الأبناء:

إن من أهم ما يسبب التوافق في الأسرة واستقرارها التوافق على تربية الأبناء وحسن تنشئتهم في إطار من ثقافة مجتمعهم الإسلامي..

(١) سورة الكهف، آية ٤٦.

وفي ذلك تكتسب علاقة الأسرة بالمدرسة - والتعاون بينهما على تربية الأبناء - أهمية خاصة في تجنب أحد أهم أسباب تهديد الأسرة، ألا وهو انحراف الأبناء.

حماية مؤسسة الزواج مسؤولية تمتد إلى المحيطين بها من أعضاء الأسرة الممتدة :

بحكم أن المرأة تعتبر الجنس الأضعف بطبيعة تكوينها، فقد تتعرض للظلم من قبل الزوج.. ولذلك يكلف الإسلام المحيطين بالأسرة من أعضاء الأسرة الممتدة ومن في حكمهم بالوقوف إلى جانبها والسعي لإعادة التوافق في الأسرة من خلال جعل الطرفين يقومان ببعض التنازلات سعياً وراء إعادة المياه إلى مجاريها والمحافظة على الأسرة واستقرارها.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[٢].

---

(١) سورة النساء، آية ١٢٨.

(٢) سورة النساء، آية ٣٥.

توفير أكبر قدر من السلام حتى في حالة وقوع الطلاق:

من رحمة الله أن شرع الطلاق في الإسلام حتى يكون الملاذ الأخير في حالة استحالة استمرار الأسرة.. وحتى في هذه الحالة فمفهوم التوافق يجب أن يكون مسيطراً على كافة الأطراف، فإن لم يكتب للزوجين الاستمرار، فعلى الأقل يجب أن يقرّ وكل المحيطين بهما بأن ذلك مقدّر لهما وأنه يجب أن يتم إنقاذ ما يمكن إنقاذه لصالح عنصر هام من عناصر الأسرة، ألا وهم الأبناء.. فهؤلاء يجب أن تجري عملية الطلاق بأقل قدر من الخسائر بالنسبة لهما، وانفصال الأبوين بالمعروف - مع تمسكهما باحترام الأبناء لكل من الطرف الآخر - يعفي الأبناء من الوقوع في فخ التحيّز لأحد الأبوين.. وهذا نوع من العقوق المنهي عنه شرعاً، كما أنه قد يؤدي بالأبناء حين ينضجوا أن يقدروا لأن طرفاً كان على غير حق في استعدائهم على الطرف الآخر، وبالتالي يرتد السهم عليه ويأخذ الأبناء منه موقفاً سلبياً.. وعلى العموم فإن إشاعة أجواء السلام والمفارقة بالمعروف هو أمر يجعل مسألة الطلاق تتم بأقل قدر من الخسائر.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(١).

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن

(١) سورة الطلاق، آية ٢.

كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾[1].

حسن الاختيار والتكافؤ بين الزوجين:

يمتلك الرجل من التقييم عن المرأة - التي ستكون زوجته لاحقاً - صورة في الخيال، وكذلك المرأة تتمنى من الرجل - الذي تود أن تقترن به - أن يكون ضمن مواصفات ربما تقترب إلى الخيال.. كلا الصورتين قد تتقارب عند الرجل والمرأة، وتتباعد عندهما أيضاً[2].. ومن هنا يجب أن يضبط كل منهما مواصفاته في الآخر وفقاً لما تمليه تعاليم الإسلام وقواعد الحكمة والأعراف في مجتمعه، وأن يكون اختيار كل من الطرفين وفقاً لهذه المواصفات والمعايير حتى يكون ذلك الاختيار الأحسن بقدر الإمكان ويسود الود بينهما.. وهو مفتاح التوافق بين الزوجين وقد اعتبره علماء النفس من أكثر مظاهر الحياة بعثاً على السرور والارتياح بين الزوجين.. فعندما يتحقق هذا الجانب - وتتصاعد المشاعر بين الزوج والزوجة - يجدان الكثير من المشكلات النفسية قد تحطمت في حياتهما بفعل قوة الترابط الانفعالي والعاطفي.

الأساس الآخر الذي يوفر أرضية لنمو التوافق والاستقرار في

(١) سورة الطلاق، آية ٦.

(٢) د. بشير الرشيدي، «الخريطة النفسية والاجتماعية للشعب الكويتي بعد العدوان العراقي»، مجلة الخليج والجزيرة العربية، أبريل١٩٩٤م، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

الأسرة، هو التكافؤ بين الزوجين، وهذا في حد ذاته أحد التكاليف الشرعية.. والتكافؤ هنا لا يعني التطابق، فهذا يكاد يكون من المستحيل، وإنما المقصود به انتماء الزوجين لنفس الشريحة من المجتمع من حيث الدين، والبيئة الاجتماعية، والمستويين المعيشي والثقافي.. فهذا أحرى أن يجمع بينهما، ويمنع حدوث الخلافات الأسرية التابعة عن الاختلاف في الدين والعادات والاهتمامات والأولويات المعيشية.. والتي بالتأكيد لن تؤثر على التوافق بين الزوجين فقط، بل ستمتد إلى كيفية وأسلوب تربية الأبناء.

يقول النبي ﷺ: **«الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»**(١).

ويقول النبي ﷺ: **«تخيَّروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم»**(٢).

ويقول النبي ﷺ: **«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فاظفرْ بذات الدِّين تَرِبَتْ يَدَاكَ»**(٣).

التمتع بالصحة الجسمية والعقلية والنفسية:

تمتع كلا الزوجين بمستوى مناسب من الصحة الجسمية والعقلية

(١) رواه مسلم (٣٧١٦) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) رواه ابن ماجة (١٩٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها
(٣) رواه مسلم (٣٧٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والنفسية يجنب الأسرة الأعباء المالية والنفسية الناجمة عن مرض أحد الزوجين عضوياً أو نفسياً، أو تلك الناجمة عن اختلاف النشاط العقلي لكل منهما.. وصحة هذه الجوانب توجد نوعاً من التوافق الجنسي بين الزوجين، وهو أمر مطلوب لتحقيق التوافق الأسري ونمو الأسرة واستقرارها. ولذلك يشدد عليه رسول الله ﷺ، فيقول: **«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح»**[1].

وبالمقابل يقول النبي ﷺ: **«لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم»**[2].

التربية الوالدية:

تغير العصر، وأصبحنا نعيش في ظروف مختلفة عن ذي قبل، وبدأت الحضارة المعاصرة تؤثر على مجتمعاتنا، وتتجه اقتصادياتها نحو التحديث والتشابك مع الاقتصاديات العالمية، خصوصاً بعد أن أصبح العالم يعيش بلا حدود ثقافية وتجارية.. وفي ظل هذه التحولات، تغيرت الأنظمة المجتمعية التي كانت توفر ما تحتاجه هذه المجتمعات خصوصاً في الجانب الثقافي.. فقديماً كانت الأسرة الممتدة والأسرة النووية تعيش أوضاعاً أكثر تلاحماً توفر مناخاً تربوياً فاعلاً يعد النشء لمسؤولياتهم المستقبلية.. ومن بينها:

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري عن عبدالله بن زمعة رضي الله عنه.

مسؤولياتهم كآباء في المستقبل.. هكذا كان يفعل الآباء مع الأبناء.

أما الآن، فقد تغير النمط الاقتصادي وطبيعة العمل ونظم التعليم والتثقيف، وأصبحت الأسرة أقل تأثيراً من حيث التربية خصوصاً في جانبها الثقافي والاجتماعي.. ولسوء الحظ، تركزت جهود المؤسسات التعليمية والتثقيفية (من مدارس وجامعات ووسائل إعلام ومؤسسات ثقافية) نحو التعليم والتثقيف في المجالات العلمية والإنتاجية والثقافية العامة، واختفت فرصة تربية الأبناء لكي يواجهوا مسؤولياتهم المستقبلية في عدد من الجوانب الهامة في الحياة، ومن أهمها: دور الوالدين.

لهذا السبب - ولمحورية عملية تنشئة الأبناء خصوصاً في فترة الطفولة المبكرة - نشأ تيار معاصر يتبنى فكرة إعداد برامج متخصصة لتعليم النشء في الوقت المناسب ما قد يحتاجونه لتولي مسؤولياتهم كآباء المستقبل، وأطلق على هذه البرامج التربية الوالدية Parenting Education.

وهنا، يجب أن نقف على مفهوم مصطلح الوالدية، والذي يمكن التعبير عنه بأن: الوالدية هي تربية الأبناء والقيام بجميع المسؤوليات والأنشطة ذات العلاقة بذلك[1].

Parenting is the raising of children and all the responsibilities and activities that are involved in it.

(١) من قاموس كامبريدج الدولي Cambridge International Dictionary of English (http://dictionary.cambridge.org)/

وفق هذا المفهوم، يمكن القول بأنه يخطئ من يتصوّر أن العلاقات الأسرية تكون بدايتها عند عقد الزواج.. فهي تبدأ من قبل ذلك، عندما يكون الشاب مشروع زوج، والشابة مشروع زوجة.. تلك الفترة التي يبحث كل منهما فيها عن شريك الحياة، ولا بد وأن يكون لديه تصوّر لهذه الأسرة التي يعد لتكوينها والأسلوب الأمثل لتنفيذ هذا المشروع.. وهذا ما يصطلح عليه الآن بالتربية الوالدية التي يجب أن يتلقاها الفتيان والفتيات والشبان والشابات من مصادر متعددة تأتي في مقدمتها الأسرة.

والحقيقة أنه يجب تنمية اتجاه الشباب في الأسر الحديثة نحو التعلم الذاتي في مجال إدارة الأسرة وتربية الأبناء.. ذلك أن تعقيدات العصر أصبحت تحتاج إلى اللجوء إلى مصادر مختلفة لتعزيز ما تعلموه في هذا المجال على أيدي آبائهم.. فنحن نعيش في عالم مفتوح وسيزداد انفتاحاً، وبالتالي يكون الأساس في التربية الوالدية مرتكزاً على تنمية مهارات التعلم الذاتي لدى آباء المستقبل للحصول على المعرفة عن مسؤولياتهم من خلال المصادر المختلفة.

وأهم ما يجب أن تستهدفه التربية الوالدية من حيث الموضوع ما يلي:

* كيفية تكوين الأسرة والعلاقات الأسرية.
* كيفية وصل الأبناء بإرث مجتمعهم وبثقافته.
* حقوق الأبناء.

* القدوة التي يقدمها الآباء للأبناء.
* ثقافة الأسرة وأسلوب حياتها.
* علاقات الأسرة النووية بأعضاء الأسرة الممتدة ومن في حكمهم.
* الأمور القانونية المتعلقة بالأسرة وشؤونها.
* شؤون إدارة الأسرة وتدبير أمورها واقتصادياتها.
* شؤون تنظيم الأسرة والصحة الإنجابية.

حسن ضبط العلاقات الاجتماعية للأسرة:

من الأمور الأساسية التي تحفظ التوافق والاستقرار الأسري حفظ العلاقات الاجتماعية بينها وبين المجتمع من حولها.. وخير الأمور في هذا الشأن أوسطها.. فلا عزلة، ولا تفريط في العلاقات، ولا بد من أن نشير هنا إلى أن الإسلام قد وضع مجموعة من التوجيهات الرئيسية في هذا الشأن، أهمها:

الحفاظ على صلة الأرحام:

هنا يجب أن تقيم الأسرة قدراً مناسباً من الاتصال والتواصل مع أرحامها من جانب كلا الزوجين، ويقرن الخالق عز وجل ذلك بفهم التوحيد والنهي عن الشرك، حين يقول:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ

وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[١].

التواصل مع الجيران:

فمن الضروري أصلًا اختيار حسن الجوار، ومن ثم التواصل الطيب مع الجيران والتعاون معهم، ولكن مع الحفاظ على المسافة التي تحفظ خصوصية كل من الأسرة المقيمة في جيرة واحدة.

يقول النبي ﷺ في حسن التعامل مع الجار وطيب العلاقة مع الغير: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت**»[٢].

ضبط العلاقات مع الأقارب وأصدقاء الأسرة:

العلاقة مع الأقارب من الأمور التي فيها تكليف شرعي، أما الصداقة المنزهة عما يخالف تعاليم الإسلام فهي أمر هام في تكريس جو اجتماعي ملائم لحياة الأسرة.. سواء أكانت هذه الصداقة تشمل أصدقاء أفراداً لأي من الزوجين، أم أسراً صديقة.. وهنا تجب مراعاة عدة أمور في ضبط العلاقات مع الأقارب والأصدقاء، أهمها:

- قواعد دخول المساكن بعد الاستئذان من أصحابها.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(٢) رواه مسلم (١٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- ضوابط الاختلاط وتجنب الخلوة الشرعية.
- عدم تعدي علاقات الصداقة لأحد الزوجين على حقوق الأسرة وواجباته نحوها.
- ألا تحمل هذه العلاقات الأسرة أعباء لا تطيقها.

ضبط علاقات الأبناء بأصدقائهم:

من الضروري أن تكون للأبناء صداقات، مع الأخذ في الاعتبار أن حسن ضبط هذه العلاقات يؤثر إيجاباً على حسن تربية الأبناء ومن ثم تكريس التوافق والاستقرار الأسري.. والعكس صحيح فإن علاقات الأبناء بأصدقاء السوء تدفعهم إلى الانحراف وتهديد استقرار الأسرة.. ومن أهم الضوابط في هذا المجال ما يلي:

- تجنب أصدقاء السوء.
- مراعاة التقارب في السن.
- تفضيل التقارب في المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.
- عدم تعدي هذه العلاقات على صلة الأبناء بذوي الأرحام.
- عدم تعدي أعباء هذه العلاقات على أعباء الأبناء تجاه حياتهم في الأسرة وواجباتهم الدراسية وأنشطتهم التربوية.

الرشد في إدارة الأسرة وترتيب معيشتها:

إن إقامة معيشة الأسرة على الرشد - وليس السفه - يحمي مصالحها ويخفف من تعرضها للمشكلات والخلافات والأزمات..

وخير الأمور أوسطها، والوسطية هنا أيضاً محكومة بأوضاع الأسرة وبإمكاناتها، إذ من الضروري أن تتصرف الأسرة في تدبير أمور معيشتها وفقاً لعدد من المعايير، أهمها:

- عدم الإنفاق أو التصرف فيما يخالف الشرع.
- التصرف في حدود ما هو متاح لها من إمكانات وموارد.
- الموازنة بين الاحتياجات الآنية أو الدورية، والاحتياجات المستقبلية أو غير الدورية.
- مراعاة عدم التبذير والسفه في الإنفاق.
- مراعاة عدم التقتير على الأبناء وفي الوقت ذاته تقييد ما يتاح لهم من أموال بالقدر الذي يمنعهم من القدرة على السلوك المنحرف.

معوقات التوافق الأسري:

تواجه العلاقة الأسرية بعض المعوقات الناجمة عن عدم نضج العلاقة بين الزوجين كأن يتفاوت المستوى التعليمي بينهما، أو التفاوت في المكانة الاجتماعية والاقتصادية، أو نتيجة للزواج المبكر وعدم تهيئة أحد الزوجين أو كلاهما للحياة الأسرية، أو التباين في الطباع والمزاج بين الزوجين، وقد أشار Barton Barton 1983 إلى الخلافات الزوجية والتي تُعَد معول هدم للحياة الأسرية المنشودة وذكرها في الآتي:

- عدم نسيان كلا من الزوجين أخطاء الآخر السابقة وإثارتها عند كل خلاف أو مشكلة تحدث بينهما.

- استخدام كلا الزوجين ما لديه من معلومات عن الآخر في الإساءة إلى سمعته أو إيذائه نفسياً أو بدنياً أو اجتماعياً.
- ظهور العداوة الصريحة وغير الصريحة في مواقف الخلافات، حيث يهاجم كل من الزوجين الآخر، ويحقر آراءه وأفكاره، ويقلل من شأنه ويظهر عيوبه عند كل مشكلة تحدث بينهما.
- العناد والخصام والهجر والتهديد بالطلاق والانفصال و الزواج من أخرى والتوقف عن القيام بالواجبات الزوجية نكاية بالزوج الآخر.
- تكبير كل منهما المشكلة الصغيرة بطرح مشكلات ليس لها علاقة بالخلافات الراهنة، لتأزيم الموقف، وتغذية الخلافات حتى تستمر أطول فترة ممكنة.
- المواجهة العدائية السافرة عند حدوث أي مشكلة، حيث يعمد كل منهما إيذاء الآخر بضربه أو سبّه أو قذفه، وتخريب ممتلكاته وأدواته وأعماله وتشويه سمعته وتخويفه، وتشجيع الناس على الإساءة إليه.
- الاستهانة بالمشكلة والسلبية في مواجهتها، وتسفيه كل حل لها، وتزكية الخلافات مع الزوج الآخر، ورفض الصلح أو التفاوض، والدفع نحو مزيد من العلاقة السلبية.

الخلاصة :

نخرج مما تقدم أن التوافق الأسري أساس لاستقرار الأسرة وازدهارها وفلاح أعضائها، وهو أمر يترتب على التقاء أفراد الأسرة

- وفي مقدمتهم الزوجان - على أرضية مشتركة من المبادئ والقيم والقواعد التي تحكم العلاقات بين أعضاء الأسرة وبينهم وبين غيرهم من الأقارب والأصدقاء.. وفي مجتمعنا المسلم لا ريب في أن هذه القاعدة المشتركة للتوافق الأسري تنطلق من تعاليم الإسلام وما جاء في هذا الصدد في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة المطهرة.. وهي القواعد التي جاءت العلوم الحديثة في التربية وعلم النفس والاجتماع لتؤكدها وتفسر أبعادها المختلفة.

* * *

الفصل السادس

الأدوار الاجتماعية لأفراد الأسرة

١ - الأدوار الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والصبا.

٢ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشباب.

٣ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الرشد.

٤ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الأشد (٤٠-٦٠ سنة).

٥ - الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشيخوخة.

الأدوار الاجتماعية
في مرحلتي الطفولة والصبا

المنظورالاجتماعي والقانوني للطفولة:

يجمع مصطلح الحداثة Juvenility بين مرحلتي الطفولة والصبا سواء من المنظورين القانوني والاجتماعي على السواء؛ لذلك يمكن استخدام لفظ الطفولة أو الحداثة على مقام واحد مفضلين استخدام الأول (الطفولة أو الصغار) منعاً للالتباس الشائع بوصم الحداثة بالانحراف أو التعرض له؛ رغم أن الحداثة هي صغر السن أو الفئة السكانية دون سن ١٥ طبقاً لتشريعات سبقت و١٨ سنة حسب القوانين المستحدثة. وقد تركّز الانتباه على مستوى الصعيد العالمي تجاه الأطفال ومن هم في سن الحداثة؛ وقد شغلوا قاعدة عريضة في الهرم السكاني (الفتيّ) في الدول النامية والأقل نمواً عنه في الدول المتقدمة التي ضاقت أطفالهم في قاعدة هيكلهم السكاني مما شكّل لديهم إشكالية اجتماعية إذ إنه بقلة عددهم تضيق فرص قيامهم مستقبلًا بأدوار إنتاجية استجابة لمطالب الرقي والتقدم مما أدى بهم إلى الاعتماد على القوى البشرية المهاجرة والنازحة إليهم من الدول النامية كثيفة السكان؛ خاصة إسناد العمالة غير الفنية وشبه - الفنية Semi-skilled إليهم.

والذي يعنينا هم أطفالنا وصغار السن بيننا بصدد معرفة أدوارهم الاجتماعية المتوقعة في داخل الأسرة وخارجها. لذلك تنحو إطلالة

دراسة الطفولة أو الصغار إلى إلقاء الضوء على مقدار ونصيب حقوقهم في أدوارهم الاجتماعية أكثر من واجباتهم. إذ إن هذه المراحل العمرية المبكرة هي أقرب إلى تدريبهم تدريجياً على تحمل المسؤولية وتنشئتهم اجتماعياً على الالتزام بالمعايير الأخلاقية وقيم المشاركة في مسار الحياة مع الكبار في الأسرة والمجتمع. وإن لم يحدث بات تهميشهم أمراً مؤكداً حتى بعد وصولهم إلى أعمار الشباب وسن الراشدين.

الطفولة في المواثيق والمؤتمرات الدولية:

وقد غلب الاتجاه في دراسة فئة الحداثة أو الطفولة إلى دق أجراس الخطر في المؤتمرات الدولية للأمم المتحدة عند ملاحظتها على الصعيد العالمي من تقلص دور الأسرة في مجال التنشئة التربوية وترسيخ القيم الخلاقية في نفوس الصغار، بسبب التهاء أرباب الأسر بغمرة التحضر الزائد والهجرة والتصنيع (والضغوط المتراكمة التي سببتها طغيان العناصر السلبية للعولمة)، الأمر الذي صار عبء التربية واقعاً - افتراضاً - على المدرسة أكثر مما هو محمول على عاتق الأسرة. ومما يزيد الأمر تعقيداً زيادة عند الصبية والشباب إلى حد جعل منهم أغلبية المجتمع البشري، ووجود فارق في تقييم الأمور بين معاييرهم وبين معيار الكبار، الأمر الذي تلزم مراعاته في رسم الكبار للمناهج التي يسير عليها الصغار.

وقد أوصت المؤتمرات المشار إليها منذ (المؤتمر الدولي السادس «كراكاس - فنزويويلا ١٩٨٠» لمكافحة الجريمة) والذي وضع في جدول أعماله قضية عدالة الأحداث Juvenile Justice، قبل وبعد الجناح؛ ضرورة الالتزام بالمبادئ الواردة في إعلان الأمم المتحدة لحقوق الطفل، والسنة الدولية للطفل، والمادة ١٠ من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعلى الأخص بمراعاة الحد الأدنى من الحقوق الأساسية للطفل مثل الحق في الغذاء والكساء، والحق في التعليم والحق في الحماية من الإساءة، وبألا يصير الطفل ضحية للضغط عليه من جانب الكبار أمام عجزه عن صنع القرار في المسائل التي تمسه، وبأن يشترك الصغير قدر المستطاع في صنع القرار الخاص به حتى يحسّ بمباشرة حقه في السعادة والحب والأمن العاطفي.

الدور الاجتماعي بين الحقوق والواجبات:

إن توصيف خصائص هذه الفئة العمرية تشير إلى وجود قسمات حادة للتناقض في وجه قضية الطفولة والصغار؛ حيث إن منظومة الحقوق والواجبات قد أصابها الخلل في المجتمعات النامية ومنها المجتمع العربي المعاصر، فقد ضاقت مساحة التمتع بحقوق الطفولة واتسعت بشكل مرضي مساحة الالتزام والتكليف بمسؤوليات مبكرة يفترض أن يقوم بها الكبار؛ مما أدى إلى تهميشهم إزاء التمتع بحقوقهم الطبيعية والاجتماعية وذلك بالنسبة لاحتياجات الطفولة التي استقر العالم منذ خلقه على وجودها

وإقرارها عرفاً وقانوناً وتشريعات دينية ووضعية. فكثيراً ما سلب منهم من الحقوق الغذائية والصحية والتعليمية والسكنية والاستقرار الأسري الذي يتيح لهم بالضرورة التنشئة الاجتماعية والأخلاقية.

إن أطفال الأمة هم مطلع الحياة الاجتماعية ومشرقها، ويعتبر الاهتمام بهم من قبل صناعة إنسان المستقبل لهذه الأمة والمجدد لإحياء حضارتها، ومن ثم فإن أي خلل أو قصور في مشروع صناعة الإنسان العربي، سواء وفد القصور من قبيل الدولة أو النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة سينعكس أثره على انخفاض في كفاءة القدرات العقلية والمعرفية وهبوط مستوى الأداء في الإنتاج وتميّع في الهوية والانتماء، وفقدان حاسة الاتجاه للعطاء الاجتماعي والسياسي والحضاري، وإن حدث ذلك فإن الأطفال شباب المستقبل قد تحقق أبعادهم إلى هامش المجتمع، إذ قد يستخفّ بمكانتهم وأدوارهم الاجتماعية، وتغشى أدوارهم المتوقعة الغموض، وتتسلل إلى نفوسهم السلبية واللمبالاة وتنعدم لديهم الرغبة في المشاركة وإيجابية العطاء لحضارتهم.

الدور الاجتماعي من منظور علم الاجتماع:

ويركّز علماء الاجتماع على أهمية الدور الاجتماعي من حيث كونه هو الوظيفة أو المهمة أو السلوك المتوقع للفرد في الجماعة، وغالباً ما تحدده الجماعة أو الثقافة. (فيرشيلد Fairchild).

فالدور الاجتماعي هو السلوك المتوقع من الفرد في الجماعة وهو

الجانب الدينامي لمركز الفرد؛ فبينما يشير المركز إلى مكانة الفرد في الجماعة، فإن الدور يشير إلى نموذج السلوك الذي يتطلبه المركز. ويتحدد سلوك الفرد في ضوء توقعاته وتوقعات الآخرين منه، وهذه تتأثر بفهم الفرد للآخرين للحقوق والواجبات المرتبطة بمركزه الاجتماعي، وحدود الدور تتضمن تلك الأفعال التي تتقبلها الجماعة في ضوء مستويات السلوك في الثقافة السائدة، وعادة ما يكون للفرد أكثر من دور واحد داخل النظام المجتمعي الذي ينتمي إليه، فالأب والابن والمدرس والمدير كلها أدوار اجتماعية تتطلب من شاغليها أن يلتزموا بأساليب سلوكية معينة يحددها لهم المجتمع. (أحمد زكي بدوي).

ويتنوع الدور إلى ما هو فطري ومكتسب؛ أما الفطري الموروث فهو الذي يحصل عليه الفرد بصفة تلقائية عند ميلاده، أو عند وصوله إلى مرحلة عمرية معينة، ويعتبر دور النوع (ذكراً أو أنثى) من أكثر الأدوار عمومية. كما أن المستويات العمرية المختلفة ترتبط بتوقعات متباينة. يضاف إلى ذلك أن الأدوار القائمة على عضوية الفرد في جماعة عنصرية أو دينية معينة تعتبر أدواراً موروثة. أما الدور المكتسب فإنه الدور الذي يقوم به الفرد سواء اختاره أو تعلمه، ولذلك فالذوق المكتسب يعتبر نتيجة لجهود الفرد وأفعاله. (عاطف غيث وآخرون).

ومن ثم نرى أن الحقوق والواجبات لا يمكن فصلهما عن مركز أو مكانة الفرد ودوره. لقد تحددت مسار الحقوق والواجبات من حيث الكم والكيف في شكل علاقة عكسية بالنسبة للحقوق حيث تزداد مع

صغر السن، وفي شكل علاقة طردية متصاعدة بالنسبة للالتزامات، إذ تزداد كلما تقدم الإنسان في العمر إلى أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة فيخفف عن أشخاصها كثير من الواجبات.

موقع الأطفال من النمو السكاني:

إن متوسط معدل النمو السكاني في العالم العربي يصل إلى نحو ٢,٧٥٪ مما يؤدي إلى زيادة متوقعة للأطفال واليافعين، بعد ١٥ عاماً، إلى٣٥٤ مليون من مجموع ما يزيد عن ٥٠٦ مليون نسمة من سكان العالم العربي. فإذا ظل الحال على ما هو عليه اليوم من غلبة تدني المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية بصفة عامة، فإن عشرات الملايين من الأطفال سيظلون حملًا ثقيلًا يحول دون النهوض بالمستويات الحضارية لمستقبل هذه الأمة، فبدلًا من أن يكونوا مصدراً للعطاء فإنهم قد يصبحون على هامشه ومصباً للأخذ. (عبدالمتعال ١٩٩٦).

ويشكل الأطفال والشباب ما بين ٦٠ - ٧٠٪ من سكان العالم العربي والإسلامي أي ما يقرب من ثلثي حجم هذه المجتمعات. يشكل الأطفال فيها دون سن الخامسة عشر نحو ٣٥ - ٤٠٪ من حجم السكان، قد تزيد في بعض الأقطار إليم ا يقرب من ٥٠٪ في ليبيا والجزائر والصومال والأردن وفلسطين واليمن. وتجمع هذه الفئة بين الطفولة بمراحلها المختلفة - المبكرة والمتأخرة - ومنتصف مرحلة المراهقة (١٢ - ١٥) سنة حيث يعتبر الخامس عشرة هو الحد الأقصى لسن الطفولة والحداثة طبقاً لقوانين بعض

البلاد وثمانية عشر عاماً عند غالبية الدول الأخرى. إذ تندرج هذه الفئة في معاملاتها القانونية طبقاً لقوانين الأحداث والتي أطلق عليها أخيراً قوانين الطفولة كما هو الحال في مصر؛ وذلك عندما يحدث تجاوز لبعض منهم لمخالفة القانون أو لانتهاك حرمته أو لحماية البعض الآخر منهم من احتمال وقوعهم في براثن الانحراف مثل أطفال الشوارع. (عبدالمتعال ١٩٩٦).

أهم المؤشرات الاجتماعية لحقوق الأطفال:

وإذا كان المتبع غالباً محاولة التعرف على مدى حصول فئتي الأطفال واليافعين على حقوقهم الطبيعية والاجتماعية في شتى المجالات الاقتصادية والتعليمية والصحية والاجتماعية، فإن السبيل إلى ذلك هو اللجوء إلى الاستدلال ببعض **المؤشرات الاجتماعية**: (عبدالمتعال ١٩٩٦).

المؤشر الصحي:

ويبدأ المؤشر الصحي للوفاء باحتياجات الطفولة منه، منذ ولادة الطفل بل قبلها خلال فترة حمل الأم له. لقد استطاعت معظم الدول العربية أن تتجاوز مشكلة تطعيم الأطفال ضد أمراض الطفولة، دون الخامسة، فبلغت النسبة بين ٨٥ - ٩٠٪ التي تنخفض إلى ٤٢ - ٢٦٪ في جيبوتي والصومال على التوالي. وبلغ معدل وفيات الأطفال الرضع لأقل من سنة إلى ١٣ لكل ألف طفل في أغلب الخليج العربي بالإضافة إلى سوريا والأردن بينما بلغ أعلى معدل بين ١١٧ - ١٣١ لكل ألف من مواليد جيبوتي والصومال

وموريتانيا. ويتقارب ترتيب الدول العربية على نفس المستوى لوفيات الأطفال دون الخامسة فهي تتراوح بين ١٨ - ٣٩ لكل ألف طفل في الدول الخليجية النفطية بينما تتراوح بين ٣٠ - ٨٩ لكل ألف في الجزائر والعراق وليبيا ومصر والمغرب. وتبلغ المعاناة أشدها في اليمن وموريتانيا وجيبوتي والسودان والصومال حيث ارتفعت نسب الوفيات دون الخامسة من العمر إلى ١٥٧ في اليمن و١٩٩ في موريتانيا لكل ألف طفل. لقد نجح كثير من الأقطار العربية في خفض تلك المعدلات بدرجات متفاوتة؛ ورغم ذلك فإن معدلات وفيات دون الخامسة يزيد عن ٥٠ في الألف، وهو معدل مرتفع إذا ما قورن بالدول المتقدمة.

أما مستوى التغذية لأطفال الدول العربية فهو في نفس الوقت قد يكون مؤشراً لمستوى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وتصل نسبة سوء التغذية في ضوء البيانات المتاحة أنها تتراوح بين ١٥ - ٢١٪ في دول الخليج النفطية بينما تصل النسبة في العراق أكثر من أربعة أمثالها في مصر وتونس وتبلغ في اليمن وموريتانيا ثلاثة أمثال نظيرتها في تونس. ويلاحظ أن الأقطار التي تعاني نسبة كبيرة من أطفالها من سوء التغذية من نماذج الدول التي ترتفع فيها معدلات المواليد وكبر حجم الأسرة.

ويتواكب مع ذلك انخفاض نصيب الفرد من السعرات الحرارية اليومية التي تراوح متوسط نصيب الفرد من السعرات الحرارية إلى ما فوق ١٢٠ سعراً حرارياً وينخفض إلى ٧٥ - ٨٥ سعراً حرارياً في بلاد القرن الأفريقي. ويلاحظ من استقراء البيانات في هذا

المجال أن قلة من الأقطار العربية ينخفض فيها نصيب الفرد من السعرات الحرارية عن احتياجاته الأساسية بالمقارنة بالعديد من الدول الأفريقية.

ويمكن أن تضاف مؤشرات أخرى عن مستوى الخدمات الصحية التي تقدم إلى الأمومة والطفولة كتوافر أَسِرَّة في مستشفيات الأطفال ونسبة أطباء الأطفال وخدمات التمريض؛ فضلًا عن مدى توافر المرافق الحيوية للمياه النقية والصرف الصحي في البيئة التي يعيش فيها الأطفال وأسرهم. إن توافر هذه الشروط وارتفاع نسبة الخدمات الصحية وغيرها من خدمات اجتماعية وتعليمية يعني إرساء القواعد الصحيحة للبنية الاجتماعية والاقتصادية التي تساند الأسرة لتوفير المناخ والتربة الاجتماعية الخصبة للتنشئة الاجتماعية الخالية من المعاناة والبعيدة عن تعمد تهميش الأطفال واليافعين عن حقوقهم الطبيعية والإنسانية؛ وذلك يمهد لهم الطريق للتدريب على تحمل المسؤولية وأداء واجباتهم المتوقعة منهم في المراحل العمرية التي يعيشونها والأخرى التي يرتقون إليها حسب مراحل نموهم بعد مرحلتي الطفولة والصبا.

المؤشر التعليمي:

نبدؤها بالملامح التعليمية؛ أولها إلحاق أطفال ما قبل المرحلة الابتدائية، فإذا كانت نسبة الالتحاق مرتفعة في لبنان والمغرب ودول الخليج العربية إلى نحو ٧٠٪ فإنها تتدنى في السودان إلى٢٠٪ واليمن إلى ١٪. أما المرحلة الابتدائية (التعليم الإلزامي)

فقد وصلت نسبة الاستيعاب من ٩٠ - ١٠٠٪ كما في مصر وتونس وسوريا ولبنان ودول الخليج العربي، بينما بلغت أقل النسب في السودان ٤٩٪ وأدناها في الصومال ١٥٪. وقد تساوت نسب الذكور والإناث ما عدا أقطار قليلة كالصومال واليمن والسودان. (التقرير الإحصائي السنوي لواقع الطفل العربي ص ٧٩ - ١٥٢).

وبالرغم من ارتفاع نسبة التحاق واستيعاب أطفال العالم العربي في المراحل الابتدائية، فإن الأطفال الباقين الذين لم تستوعبهم طاقة المدارس الابتدائية، يتوجهون للاشتغال بنوعيات متدنية من العمل اليدوي أو غير الفني، وبذلك تزداد العوامل السلبية التي تفرز طاقات بشرية معطلة تؤثر سلبياً على مستقبل التنمية، وإذا كان التعليم الإعدادي أو المتوسط خاصة التعليم الفني قد يؤهل للإنخراط في قوة العمل أو التعليم الجامعي مستقبلًا. ويلاحظ أن معظم الدول العربية لا تعاني فقط من انفخاض نسب استيعاب هذه المرحلة من التسرب الكبير للإناث، كما يعكس مؤشر كثافة الفصل إلى المستوى التعليمي حيث يفترض ألا تزيد الكثافة عن ٢٥ - ٣٠ تلميذاً، ولكن وصلت الكثافة في بعض الدول من ٥٠ - ٨٠ تلميذاً مما يستحيل معه الوفاء بتعليم نوعي جيد يكون أساساً لما بعده في مراحل التعليم ما قبل الجامعي.

التسرب الدراسي وعمالة الأطفال:

وينبثق من الحالة التعليمية وعدم تغطيتها لكافة تلاميذ المرحلة

الإلزامية التي تضم المرحلة الإعدادية في عدد من البلدان العربية؛ مشكلتين بينهما علاقة عضوية، الأولى التسرب الدراسي والثانية عمالة الأطفال التي تعتبر إحدى الوصمات الاجتماعية للدول التي فشلت في مواجهتها في البلدان العربية والإسلامية. إن مشكلة التسرب الدراسي لها أبعادها التعليمية والاقتصادية والاجتماعية؛ حيث هناك عشرات الألوف بل المئات منها لا يلتحقون بالمرحلة الابتدائية أصلًا رغم الإلزامية القانونية على ذويهم، ولكن بسبب عدم قدرة استيعاب المدارس على إلحاقهم فإن السلطة الإدارية تتهاون لمتابعة الحالات غير الملتحقة ويصبح قانون التعليم الإلزامي معطلًا لأسباب اجتماعية واقتصادية تتصل بعجز في ميزانيات التعليم في بعض البلاد. الأمر الآخر هو تسرب مئات الألوف من التلاميذ على مدارج المرحلة الابتدائية مما يفتح لهم الطريق إما إلى الشارع لينتموا إليه (أطفال الشوارع) أم تحتويهم أسرهم في أحضانها بسبب حاجة هذه الأسر لتشغيل أبنائها.

ومن ثم تتبدل الأدوار ويختل ميزان الحقوق والواجبات. فتبدأ العمالة بسلب حريته الطفولية وتتبخر أحلام يقظته التي يتميّز بها في هذه المرحلة العمرية ويتغيّر دوره الاجتماعي من صاحب حق إلى صاحب مسؤولية يتشارك فيها مع الكبار في الأسرة وأحياناً يعتمد عليه في رعاية الأسرة اقتصادياً، خاصة لو اعتورها تفكك بانفصال الوالدين أو وفاة الأب على سبيل التحديد، أو الكثرة الزائدة لعدد الأبناء مما يدفع بهم إلى حافة العمالة المزعومة لأطفال وقف

القانون حاسماً لعدم تشغيلهم قبيل الثانية عشرة؛ وإن حدث فبشروط متشددة لحمايتهم من أخطار المهن الخشنة.

كانت المشكلة في مصر على سبيل المثال في حقبة الثمانينات وما زالت تضم نحو مليون ونصف طفلًا في سن الإلزام من غير الملتحقين ومن المتسربين دراسياً حيث بلغت نسبتهم من إجمالي المقيدين نحو ١٥,٢٪ خلال تلك الحقبة. ويقع كثير من هؤلاء فريسة للمنتجين الزراعيين والصناعيين والحرفيين الذين يستغلونهم بأجور زهيدة. وفضلًا عن امتصاص رحيق طفولتهم فإنهم محرومون من فرص التعليم الأساسي أو على الأقل لا تتاح لهم فرص التدريب الفني الملائم لمستوى عصر تكنولوجي متقدم. (عبدالمتعال ١٩٩١، ص ١٧٢).

ورغم استهجان عمالة الأطفال على المستوى الدولي وفي ضوء المواثيق الدولية والعربية لحقوق الطفل، يبرر آباء العاملين الصغار في بعض الدول النامية، تشغيلهم لضرورة مشاركتهم لإعالة الأسرة ككل بسبب أحوال الفاقة؛ وأيضاً على سبيل المثال الصارخ عمالة الطفل الفلسطيني، في ظل ظروف العدوان الإسرائيلي المستمر على الشعب الفلسطيني وتشتيت وتفكيك الأُسر والعائلات مما جعل ظاهرة عمالة الأطفال مشكلة سياسية واقتصادية واجتماعية.

إن العمالة المبكرة في عدد من البلدان العربية لم تكن مسؤولة وحدها عن فقدان حق الصغار العادل للاستمتاع بطفولتهم أو

صباهم، بل مهّد لها وأوجد التربة الخصبة لنموها تدهور الأوضاع التعليمية التي جعلت من الطفولة المدرسية عامل طرد أكثر ممن جذب بسبب تكدّس كثافة الفصول وعدم ملاءمة البرامج التعليمية لمرحلتهم العمرية؛ أو حرمانهم من حق اللعب والنشاط الرياضي والاجتماعي خلال اليوم الدراسي؛ كذلك عدم توافر الساحات الشعبية والمساحات الخضراء لاستثمار وقت فراغهم وتوجيه ترويحهم إلى مقاصد تربوية يتدربون من خلالها على أدوارهم الاجتماعية في المستقبل.

المؤشر الثقافي والإعلامي:

لا تقل الاحتياجات والحقوق الذهنية والنفسية للطفولة أهمية عن الاحتياجات الاقتصادية والتعليمية والصحية والوجدانية في الأسرة. لقد أصبحت للاحتياجات الذهنية والوجدانية للطفولة مصادر متنوعة للوفاء بها. ويخطئ من يظن أن هذه الاحتياجات تقتصر فقط على تغذية القدرات والمثابرات العقلية بل تتواصل بشكل أو بآخر بتغذية القدرات النفسية والمعنوية والروحية. ويطل علينا الدين، من هذا المنفذ، بعطائه الروحي لملء الفراغ الوجداني والروحي الذي له أهمية بالغة في تنمية الإنسان والمجتمع بشكل متوازن. (عبدالمتعال ١٩٩٦).

ويعتبر الأطفال واليافعون من أكثر الفئات الاجتماعية حساسية لوسائل الاتصال الحديثة وذلك إزاء الرسائل الصادرة عن الإذاعة

المرئية بصفة خاصة؛ حتى أمسى التليفزيون عضواً له كيانه في شبكة العلاقات الأسرية، يليه في الأهمية مختلف المواقع في الشبكة الإلكترونية للحاسب الآلي (الكمبيوتر)، بل إنه عند بعض الأطفال واليافعين الذين يتكاثرون الآن يمثل الأهمية الأولى في منظومة الاتصالات. بعد ذلك نجد الإذاعة ثم كتب الأطفال ومجلاتهم القاصرة على بعض القادرين منهم على الشراء.

وعلى الرغم من أهمية الإذاعة فإن تأثيرها يتضاءل أمام التليفزيون الذي اتسعت فيه مساحات برامج الأطفال اليومية عن مثيلاتها في الإذاعة. بل إن ثمة محطات فضائية الآن مخصصة للأطفال ولكن بلغات أجنبية، ولا تعدو نسبة مساحة برامج الأطفال في التليفزيونات الرسمية عن ١٠٪ من جملة ساعات إرسال التليفزيون اليومية، في أغلب الدول العربية تزداد عن ذلك إلى ١٣٪. أما فيما يتعلق بكتب الأطفال ومجلاتهم ومراكز ثقافة الطفل فإن البيانات التي حاولت رصدها الأجهزة العلمية جاءت قاصرة للغاية وغير متاح قراءتها إلا من استطاع الدخول على بعض المواقع المتخصصة المنتمية إلى بلدان أخرى. وتبين في ضوء بعض البيانات المتاحة رغم مرور عقد من الزمن عليها؛ أن عدد كتب الأطفال السنوية في تونس ٦٦ كتاباً تليها العراق ٤٢ كتاباً، ثم الأردن ٢٣ كتاباً، و١٢ كتاباً لكل من سوريا وليبيا ومصر، بينما انخفض في السودان. ومن الواضح أن عدد المجلات الأسبوعية والشهرية قليل للغاية، وخاصة في البلاد ذات الكثافة السكانية

العالية من الأطفال كمصر وسوريا. أما مكتبات الأطفال فقد بلغ عددها في سوريا ١٦١، والأردن ٢٩ وتونس ٢٨ بينما لم تزد في السودان واليمن عن ١٤، ١٢ على التوالي؛ إلا أن مصر في العقد الأخير بدأت حركة إحياء المكتبات الفرعية في المناطق السكنية بعد أن تلاشت تقريباً في الثلث الأخير من القرن العشرين. (التقرير الإحصائي السنوي لواقع الطفل العربي).

لقد رجّحت المؤشرات الاجتماعية الدالة على المستويات الصحية والتعليمية والثقافية والإعلامية استمرار قصور كثير من البلدان العربية والإسلامية عن الوفاء الكامل لاحتياجات الطفولة، فيحرمهم من حق التدريب على مسؤوليات وواجبات في مراحل الشباب والرشد، وذلك قد يزيد من احتمال تهميشهم مستقبلًا مما قد يحول بينخم وبين قيامهم بأدوارهم الاجتماعية المنوط لها القيام بمسؤوليات في مسار التنمية والتقدم والنهوض بهذه الأمة.

* * *

الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشباب

البُعد الحضاري لأدوار الشباب:

لقد راعى الإسلام في استخلاف الإنسان لعمران الأرض عدالة التكليف في المسؤوليات ومنح الحقوق طبقاً لفطرة التقسيم العمري(الطفولة والشباب والرشد والشيخوخة)؛ والتقسيم النوعي (ذكوراً وإناثاً)؛ إذ إن لكل فئة عمرية ونوعية خصائصها البدنية والعقلية والنفسية وميولها الاجتماعية. فلكل فئة قدراتها ومميزاتها الفطرية ومكتسباتها الاجتماعية من البيئة التي نشأت فيها.

إن التعرّف على خصائص كل فئة عمرية ونوعية، وفهم أبعاد قدراتها يسهم بشكل أو بآخر في توظيفها إلى الحد الذي يمكن به تفعيل وتنشيط أدائها للوصول لأعلى معدّل في تنمية الموارد البشرية للمجتمعات العربية والإسلامية من أجل إزالة عثرات التخلف وتحقيق التنمية المستدامة حتى يليق بهذه الأمة أن تكون في طليعة الدول المتقدمة لتكون أهلًا لحمل رسالة الهداية والتوحيد.

وإكذا كان الشباب (١٨ - ٣٥) سنة يمثلون الطاقة المحركة للأمة فإن الراشدين (٣٥ - ٥٥) سنة يمثلون عصب وهيكل القوى البشرية والفكرية والإنتاجية، وتقع عليهم مسؤولية أكبر لإعالة الفئات الأخرى، فأولى لهاتين الفئتين أن يوجَّه الاهتمام العلمي والاجتماعي إليهما، لأن صحة قوامهم وسلامة أذهانهم واتزان

وجدانهم من الشروط الجوهرية لنهضة أي مجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً.

البُعد الاجتماعي:

إن الشريحة العمرية للشباب ١٨ - ٣٥ لا يمثلون شريحة سكانية لها خصائص حيوية وبدنية فقط تختلف عن شرائح الطفولة واليافعين والراشدين والمسنين، بل بخصائص اجتماعية وسمات نفسية ووجدانية؛ تجعلهم يتميّزون بقسمات الحيوية والقوة والنشاط الزائد في مجالات الحركة والعمل والإبداع والإقبال على الحياة؛ وتوقعات المجتمع أو الآخرين لهم لأداء أدوار وتحمّل مسؤوليات، عليهم الالتزام بها إزاء الأجيال الأصغر والأكبر منهم سناً. إن تلك التوقعات لأدوار الشباب الاجتماعية والإنتاجية ليست وليدة العصر الراهن، بل هي من قبيل المعايير التي استقرت عليها التقاليد والأعراف الاجتماعية منذ قِدَم التجمعات الإنسانية بأشكالها البسيطة (البدائية) أو التقليدية أو الحديثة التي أخذت تصوغها في قوالب قانونية مكنونة.

لقد أخذ مسار أدوار الشباب للدفاع عن حياض الأرض أو الأوطان في المجتمعات التقليدية أو البسيطة إلى أشكال من الطقوس الاجتماعية والدينية من أجل تكريس دور الرجولة التي وصل إليها اليافعون بإجراء اختبارات بدنية قاسية عليهم اجتيازها، ذلك للاعتراف برجولتهم والسماح لهم للانضمام لصفوف

المدافعين أو المحاربين. وتتحد أغراض المجتمعات الحديثة مع الأخرى التقليدية السابقة عليها بأنواع أخرى من الطقوس الاجتماعية لإعطاء شبابها إجازة للعمل والترخيص به من خلال الاختبارات التعليمية التي تمنحهم شهادات علمية أو شهادات بخبرات حرفية تمنحهم حق الاعتراف بأدوارهم ووظائفهم التي يمكنهم القيام بها؛ هذا فضلًا عن فترات التجنيد العسكري الإجباري في بعض الدول والطوعي في بلاد أُخر، تجعل منهم رصيداً ومخزوناً بشرياً للدفاع عن الأمة، وذلك بمقتضى قوانين منظمة لعمليات الجنيد.

إذن فإن الشباب الذين افترض استمتاعهم بحقوق كثيرة ومتعددة خلال فترة الطفولة؛ تبدأ مساحة حقوقهم في الانحسار، بينما تزداد مساحة المسؤوليات الواجبات التي تسند إليهم. ولا يعني الانحسار النسبي لحقوقهم الإقلال من الأهمية الكيفية لهذه الحقوق بل إن الوفاء بإشباع احتياجات هذه الشريحة المحورية هو مفتاح نجاحهم لإنجاز مسؤولياتهم الاجتماعية والإنتاجية، فبدون الوفاء بالحقوق والالتزام بالواجبات والمسؤوليات فإن أمراضاً اجتماعية وشيكة الانتشار والتوطن إن لم يدرك المجتمع ومؤسساته أن يضع سياساته للوقاية من هذه الأمراض أو مخططاته لعلاج الانحرافات الاجتماعية التي يقع ضحيتها غالباً الشباب.

ملامح ديموجرافية في العالم العربي:

وإذا كان الصغار دون سن الخامسة عشر يقعون في فئة المعالين اقتصادياً مثلهم كفئة من المسنين فوق ٦٤ سنة فإن الفئتين الصغار والمسنين ينسب مجموع فئتيهما إلى الأشخاص في سن الإنتاج ١٥- ٦٤)، ومن الممكن عقد مقارنة بين فئات السن العريضة دون الخامسة عشر (الأطفال واليافعين - دون سن العمل) ومن الخامسة عشر حتى الخامسة والستين (الشباب والكهول والراشدين) ثم من هم فوق ٦٥ وذلك في ضوء تقسيمات فئات العمر العريضة التي وردت في (مكتب التقرير السكاني لسنة ٢٠٠٤) على مستوى العالم حيث لم يفصّل تقسيمات فرعية حسب شرائح الشباب والراشدين أو طبقاً لأحاد السن.

لقد بلغ سكان العالم إلى نحو ٦ مليارات و٣٩٦ مليوناً يمثل الشباب والراشدون من ١٥ - ٦٥ (٣٦٪). وبلغت نسبتهم (٨٦٪) بين سكان الدول المتقدمة (ملياراً و٢٠٦ مليوناً) وهم من يعولون الأطفال واليافعين والمسنين. وهي ٦٢٪ في الدول النامية، والأقل نمواً (خمسة مليارات و١٩٠ مليوناً)، أما في البلاد العربية وبعض الأقطار الإسلامية فنسبة الشباب والراشدين ١٥ - ٦٥ سنة وصلت إلى نحو ٦٠٪ في (الجزائر ومصر وليبيا والمغرب والأردن وإيران وبنجلاديش وأندونسيا وماليزيا). كما تنخفض نسبتهم إلى ٥٠٪ بالمقارنة إلى الدول المتقمة والنامية، وذلك في (السودان وموريتانيا وجيبوتي والصومال وتشاد واليمن والعراق وفلسطين في الأراضي

المحتلة والسعودية وباكستان)؛ فإذا طرحنا منهم المسنين بين ٥٥ – ٦٥ في هذه الأقطار نجد أن الأقلية تعول الأكثرية في الدول النامية والأقل نمواً، على عكس أن الأكثرية التي تعول الأغلبية في الدول المتقدمة. وتختلف أغلب دول الخليج العربي النفطية بالإضافة إلى تونس ولبنان عن سابقتها العربية والإسلامية بالنسبة للتركيبة العمرية وقوة العمل؛ أي أن نسبة الشباب والراشدين ارتفعت إلى نحو ٧٠٪ من سكان هذه البلاد ولا يستغرب ذلك بالنسبة لغلبة قوة العمل بسبب كمّ القوى العاملة الوافدة.

البُعد الإنتاجي بين العمالة والبطالة:

يدخل المراهقون واليافعون إلى مرحلة الشباب أبعادها الجسمية والنفسية والاجتماعية، بدءاً من تصاعد المرحلة العمرية بعد الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة، وذلك بنفوذهم إلى الحلقة الثالثة من العمر والتي تضم فئتي (٢٠ – ٢٥) و(٢٥ – ٣٠) عاماً، وينكمش في هذه المرحلة – كما أشرنا – حجم الحقوق ويزداد حجم الواجبات وإسناد التكاليف التي تؤهلهم لتحمل مسؤوليات الرجولة والشخصية الجسورة المدافعة عن الموطن والمنتجة له. وتحدد الخامس عشرة سنة وما بعدها في معايير الإحصاءات السكانية بداية الإلتحاق بالوعاء الرئيسي للقوى البشرية العاملة التي تعتبر مصدراً للكسب والنشاط الاقتصادي؛ غير أن المسوح الإحصائية بالعينة لقوة العمل بالعينة أيضاً اتخذت سن بدء النشاط الاقتصادي ١٢ سنة وهو سن أقرب واقعية من السن المتفق عليه دولياً كحد أدنى

لسن العمل وهو ١٥ سنة. ويلاحظ هنا طيف من التداخل بين مرحلة الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة مع عتبة مرحلة اليافعين والشباب.

وإذا اتخذنا (مصر) مثلًا حياً بالنسبة لمجموع أفراد قوة العمل فيها نجد أنها هي الفئة العائلة لمجموع الأفراد الآخرين خارج قوة العمل. إذ ارتفعت نسبة الإعالة في مصر لتصل إلى ٢٥٪ وهذا يعني أن كل فرد من قوة العمل المنتجة كان يعول حسب إحصاء السبعينيات ٢,٥ فرداً بالإضافة إلى نفسه بينما يتوقع زيادة المعدل عن ذلك في ضوء التضخم السكاني وزيادة شريحتي الصغار والمسنين أكثر من ذي قبل، فضلًا عن انتشار مشكلة البطالة بين خريجي التعليم العالي والجامعات في السنوات الأخيرة. ولم يقتصر الأمر على مصر فقط، فهي في الأقطار العربية والإسلامية المصدرة للمهاجرين ترتفع نسبة الإعالة العمرية إزاء انخفاض نسبة الفئات العمرية المنتجة من الشباب والراشدين.

ويتّصف التركيب السكاني للأقطار المصدرة للعمالة بانخفاض كبير في نسب الذكور بين فئتي الشباب والراشدين (١٥ - ٤٩) سنة، وذلك مثل اليمن وسوريا وموريتانيا والمغرب وتونس والجزائر والسودان ومصر والأردن، إذ كانت أدنى نسبة ١٩,٥٪ في اليمن - وذلك قبل أزمة العدوان على الكويت حيث استغنى على إثرها كم هائل من العمالة اليمنية في السعودية - يقابل ذلك ارتفاع كبير في نسبة الذكور في نفس الفئة العمرية في الأقطار المستوردة للعمالة مما ترتب عليه انخفاض للنسب المقارنة للإناث؛ إذ بلغت

نسبة النوع في الفئة العمرية (١٥ - ٣٥) ٢٥٧ ذكراً لكل ١٠٠ أنثى في (قطر)، على سبيل المثال، و٣٢١ ذكراً لكل ١٠٠ أنثى في الفئة العمرية (٣٥ - ٤٩) على نفس النسق في البحرين والسعودية والكويت والإمارات كدول نفطية جاذبة للعمالة المهاجرة. فمثل هذا التباين في التركيب النوعي في مرحلة الشباب العمرية والراشدين بالمثل يعكس أثره على العديد من أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل من الأقطار المصدرة للأيدي العاملة الشابة وتلك من المستوردة لها.

البطالة وتهميش الشباب:

ولم تفلح العمالة المهاجرة من الشباب وغيرهم لحل مشكلة البطالة بين القادرين منهم على العمل؛ لأن هذا النوع من الحراك المهني نحو الخارج كان عاملًا انتقائياً من قوة العمل الكائنة بالفعل. ولم يتناقص رصيد المتعطلين بل أخذ في التراكم بعد التوقف النسبي للبلدان النفطية عن الاستمرار في برامج ومشروعات التنمية والعمران نتيجة للهبوط الحاد في أسعار النفط آنذاك والتكلفة الباهظة بمليارات الدولارات لأزمات الخليج (إيران/ العراق/ الكويت/ العراق/ أمريكا). لقد كانت للهجرة المعاكسة آثار سلبية بدت في مظاهر عدم التكيّف والضجر والقلق وعدم الاستقرار بسبب العودة إلى التعطل فضلًا عن العمل بأجر منخفض انتظاراً للهجرة مرة أخرى. ويتضح ذلك من عزوف الشباب من عمال الزراعة عن العودة للاشتغال بالزراعة مرة أخرى كما حدث في

الريف المصري، وكذلك أيضاً وضوح آثار الخسائر المادية التي لحقت بالريف السوري المهمل.

إن ارتفاع نسب البطالة بين الشباب الذكور والإناث، يعني زيادة العرض من القوى العاملة، خاصة بين الشباب، دون أن تقابله زيادة مماثلة في الطلب، لقد بلغ معدل البطالة بين الشباب في الفئة العمرية ١٥ - ٢٤ في النصف الثاني من التسعينيات؛ في الجزائر والمغرب إلى نحو ٣٨٪ ومصر ٣٤,٤٪ ولبنان ٢٨,٦٪ والبحرين ١٢,٦٪. وبلغ نصيب الشباب من مجموع المتعطلين يتراوح في أغلب هذه البلاد بين ٦٥ - ٧٥٪. أما إذا أردنا أن نكشف عن معدلات البطالة السافرة فوق ١٥ سنة طبقاً للبيانات المتاحة في النصف الثاني من التسعينات، من المصادر الإحصائية الرسمية فضلًا عن وزارات العمل ومنظمة العمل الدولية؛ فإننا نجد أن عدد المتعطلين تعدى المليونين في الجزائر والمليون ونصف في كل من مصر والمغرب ونحو نصف مليون في تونس. ويتراوح عددهم بين ٣٥٠ - ٤٠٠ ألف في كل من سوريا واليمن والإمارات ودون ١٢ ألف في كل من ليبيا ولبنان. وقد يكون عرض الأرقام غير كاف لأهمية تنسيبها إلى العدد الكلي من السكان في سن العمل. ومن ثم يتبين أن معدلات البطالة بلغت أقصاها في الجزائر ٢٩,٠٪ في الجزائر، وأكثر من ١٧٪ في كل من المغرب وعمان، ونحو ١٤ - ١٥٪ في كل من السعودية وتونس والأردن. و١١,٢٪ في ليبيا و٨,٧٪ في كل من مصر ولبنان ودون ذلك في قطر ٥٪ والبحرين ٣,١٪ والإمارات ٢,١٪.

لقد أدت هذه المشكلة إلى آثار اجتماعية بدت في مزيد من الاضطراب الاقتصادي واتساع رقعة التفكك الاجتماعي ووهن علاقات الشباب بالآخرين مما قد يجعل من بعضهم أشخاص هامشيين أقرب إلى ضعف الانتماء واللامبالاة.

معادلة الحقوق والواجبات:

وترتبط الأدوار الاجتماعية التي يفترض ويتوقع أن يقوم بها الشباب بحدّي معادلة الحقوق والواجبات؛ فبالرغم من زيادة رقعة المسؤوليات في هذه المرحلة العمرية أكبر من سابقتها في الطفولة واليافعين، فإن القيمة النسبية لحقوق الشباب قد تجعل الوفاء بها من قبل المجتمع والدولة يكاد يكون مكوّناً جوهرياً لقدرتاهم علياالتزام بهذه المسؤوليات؛ بل يسبق ذلك تدعيم إحساسهم بقوة الانتماء الذي له نفس قوة الارتباط بالوفاء باحتياجات الشباب الجوهرية لتكوين شخصياتهم الاجتماعية واندماجهم وتوحّدهم مع الوطن والمجتمع. إن هذا الإحساس بقوة الانتماء والرغبة في الاندماج والتوحّد مع الآخرين له علاقة وطيدة بدرجة الوعي والإدراك الذي يصاحب نمو الشخصية الاجتماعية أكثر مما كان في مرحلة الطفولة السابقة.

إذاً فإن الحكم على مدى صلاحية الشباب لأداء أدوارهم الاجتماعية يرتبط إيجابياً بمدى صلاحية السياق الاجتماعي الذي نشأوا فيه لإعدادهم للقيام بأدوارهم الاجتماعية. ومعنى صلاحية

السياق أو التربة الاجتماعية، يتجلى في المؤشرات الإنتاجية والسياسية والاجتماعية التي تضم منظومات التعليم والصحة والإسكان والفنون والدين والثقافة والترويح. فإذا كانت المؤشرات الاجتماعية وغيرها تضع السياق الاجتماعي الذي يعيش بين جنباته الشباب يحقق لهم احتياجاتهم الأساسية والأخرى التي تؤدي إلى تحسين نوعية الحياة؛ فإننا نتوقع نجاحهم لأداء أدوارهم في مختلف المجالات التي تسند إليهم فيها المسؤوليات. وإن لم يحدث فتوقع الفشل في أداء الأدوار وارد بالضرورة وليس احتمالاً.

شواهد من الواقع العربي:

يمكن أن نسترشد ببعض الدراسات الميدانية كشواهد تجريبية لأهم ما يعيق إعداد الشباب لحسن قيامهم بأدوارهم الاجتماعية المتوقعة؛ وذلك دون التعرض للتفاصيل القمية التي استدلت بها هذه الدراسات على قضايا تحققت من افتراضاتها العلمية. من هذه الدراسات ما اقتصر على عينة بلغت ٣٧١ مفردة لبحث (طلبة مرحلة التعليم الثانوي في مصر). وعينة أخرى بلغت ٣١٩ طالباً وطالبة كويتية، ثم دراسات أخرى عن (الشباب في مجتمع متغير) (٢٤٨٥) مفردة. وهناك أيضاً عينة بلغت ٢٣٠٤ شاباً وشابة في المجتمع الأردني عن مشكلات الشباب. وأخيراً بحث الشباب والمجتمع في مصر بلغت عينته ١٠ آلاف مفردة.

لقد تربعت المشاكل التعليمية والأسرية والاقتصادية على قمة

المشاكل الأخرى؛ إذ يعاني الطلبة من تشتت الذهن في التحصيل الدراسي وسيادة القلق حول الالتحاق بالجامعة والمصير المهني والوظيفي بعد التخرج، وعدم رضاء الملتحقين بالتعليم الفني عن نوعية تعليمهم ومستواه وشعورهم بانخفاض مكانة تعليمهم عن التعليم النظري، وكان شباب في زمن إجراء البحث من يترفع عن احتراف العمل اليدوي (وقد خفتت حدة هذا الترفع في الوقت الراهن بسبب تفاقم مشاكل البطالة)؛ ومن أهم النتائج أيضاً أن التعليم من وجهة نظر الشباب لا ينمي القدرة على الابتكار ولا يضع في الاعتبار احتياجات المجتمع، إنه عزل الشباب عن الفئات الاجتماعية الأخرى كما عزلهم عن المشاركة في سوق العمل.

وقد تبيّن من نتائج بحث الشباب في مجتمع متغير؛ معاناة الشباب من الخلافات الأسرية وإهمال الوالد للأسرة عند البعض منهم، ويشتكون من إهدار وقت فراغهم في الشوارع والمعاناة من الاضطرابات الجسمية ومشاكل المراهقة والشباب في نفس الوقت الذي يحرمون فيه من فرص المشاركة السياسية (٩٠٪) والثقافية (٤٧٪) والرياضية (٧٠٪).

أما الوضع الاقتصادي كما ورد من نتائج البحث المقارن لاتجاهات الشباب ومشكلاتهم؛ فإن مظلة الفقر تنتشر فوق حياة الأغلبية، إذ إن دخل الأسرة قليل وتنتشر ظاهرة ضيق المسكن الملائم وعدم حصول الكثيرين على مصروف يومي يكفي احتياجاتهم اليومية. كما تبيّن إيجابية الارتباط بين المستوى

التعليمي والاقتصادي وقيمة تسامح الآباء تجاه أبنائهم في المرحلتين الثانوية والجامعية؛ فكلما ارتفع المستويان التعليمي والاقتصادي كلما زاد تدعيم قيمة تسامح الآباء نحو الأبناء؛ وتقل مساحة هذا التسامح بانخفاض المستويين المذكورين.

ويستطلع بحث مشكلات الشباب في الأردن في منتصف الثمانينات حول تأثير البعد الديني عند الشباب فتبين من دراسة عينة ٢٣٠٤ مفردة ارتفاع نسبة الاتجاه الدال على التمسك بالدين. يؤكد ذلك بحث آخر عن خصائص الشباب الأردني في عقدي السبعينيات والثمانينيات يظهر تمتع الكثيرين منهم بالقيم الدينية والأخلاقية؛ إلا أنه يتحفظ على ذلك بوجود فجوة بين التفكيرين النظري والتطبيقي، فإذا كان التدين واضحاً على المستوى النظري إلا أن التصرف العملي غير ذلك. وإذا كانت هذه الفجوة قد تعني المخالفة العملية للقواعد النظرية في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ أو بعبارة أخرى عدم التطابق بين المبادئ والسلوك عند شطر كبير من الناس وبخاصة الشباب، فإن هؤلاء الشباب قد أحيط بهم بنظم عالمية غير عادلة وضاغطة على أنفاس دولهم ومجتمعاتهم ويعيشون مغتربين أو متمردين أو منعزلين بين واقع أنظمة سياسية واقتصادية بتخلفها المركّب وتناقضاتها الحادة، وبين تقديس مزعوم لقيم الحرية والعدالة والمساواة وإهدار معلن أو خفي لحقوق الإنسان. والغريب أن الشباب المعاصر لا يوجه هذه الأزمات بشكل مفاجئ، بل إنه

يعايشها منذ مرحلة الطفولة فمنهم من توافق معها مجبراً لا مختاراً، ومنهم من تمرد عليها أو انسحب منعزلًا أو مغترباً.

أدوار الشباب الاجتماعية بين الفشل والنجاح:

عوائق النجاح:

إذ لا نتوقع نجاح الأدوار الاجتماعية في مجتمعات راكدة بسبب انتشار أمية متوطنة أو نظام تعليمي منشطر إلى نظري أكاديمي وآخر فني حرفي يجذب خريجيه إلى قاع التقدير الاجتماعي مقابل منح خريجي التعليم الأكاديمي مكانة اجتماعية أرفع شأناً حتى ولو كان أقل دخلًا من زميله الحرفي أو الفني. لا نتوقع توفيق الشباب لأداء أدوارهم كمؤسسين لأسرة إنجابية وقد ضاقت بهم السبل للحصول على عمل في ظل بطالة متضخمة؛ أو أن يلتحقوا بأعمال لا يتناسب أجرها مع مستلزمات الحياة؛ إضافة إلى ذلك استحالة الحصول على عش الزوجية بحدوده الدنيا أي بسكن قادر على شرائه أو استئجاره، كما لا يمكن أن نتوقع لهم مستوى النجاح المطلوب لأدوارهم السياسية، وقد تشوهت أمامهم معايير الشورى والديموقراطية مما يجعل عزوفهم عن المشاركة السياسية هو القاعدة لا الاستثناء فيخلو السبيل لاحتكار السلطة وتهميش أدوارهم للمشاركة في التصويت أو الترشيح وتتوالى بعد ذلك تهميشهم لأهم أدوارهم الاجتماعية، وهي المشاركة الإيجابية في عمليات التنمية بمختلف مستوياتها المحلية أو القومية.

ولا يمكن أن نتوقع لهم النجاح، وقد تدنت مستويات الخدمات الصحية أو ارتفعت أسعار الأدوية والعلاج مما يجعل أغلبهم غير قادرين على الاستشفاء، ومن أخطر الأمور الذي يجب أن يحتاط إزاءها هو تسلل مرض نقص المناعة (الإيدز) إلى المجتمعات العربية والإسلامية، وهو أشدّ أمراض العصر فتكاً؛ فبحمد الله بسبب تعزيز الحصانة الأخلاقية والدينية أكثر من دول أخرى لم تدخل أي قطر منها في مصفوفة أعلى الدول إصابة منها ١٥ دول إفريقية و١٥ دولة خارجها، التي يرتفع فيها معدل الإصابات بشكل وبائي ففي مقدمة البلاد الأفريقية (سوازي لاند وبستوانا) وفي ذيلها (الجابون وكوت دي فوار) وفي مقدمة الدول خارج إفريقيا (هاييتي وترينداد) وفي آخرها (جامايكا واستونيا).

وبالرغم من ذلك فإنها ليست بمنأى عن زيادة المعدل لأن الإصابة به ليست فقط عن طريق الممارسات الجنسية الملوثة بفيروسه، بل عن طريق نقل العدوى بأدوات نقل الدم والحقن وغيرها، خاصة بين فئة المتعاطين والمدمنين للمواد المخدرة والمنشطة. ومن ثم فإن هذا الوحش الرابض على أطراف الحدود والذي يتسلل بسبب الحراك السكاني عبر الحدود سيفرغ طاقة ملايين الشباب على مستوى العالم والآلاف من الأقطار العربية والإسلامية من قدرتهم على القيام بأدوارهم الإنتاجية والاجتماعية المتوقعة. لقد بلغت أرقام الإصابة حتى نهاية ٢٠٠٣ إلى نحو ٤,٨ مليون إصابة على مستوى العالم منها ٢٥٪ في القارة الآسيوية أي

أن ثمة ٧ ملايين آسيوياً قد أصابهم مرض الإيدز. وطبقاً لتقديرات الأمم المتحدة فإن ١,١٪ من شريحتي الشباب والراشدين ١٥ - ٤٩ سنة ٢٠٠٣ مصابون بالمرض والذي قد بلغ ذروته في المناطق شبه الصحراوية في أفريقيا إلى ٧,٦٪ سنة ٢٠٠١ وانخفض طفيفاً إلى ٧,٥٪ سنة ٢٠٠٣.

نتائج الفشل وثقافة الشباب:

إن الأخطار التي تحيط بالشباب المعاصر لا تقف عند ما سبق الإشارة إليه من إغفال حقوقهم أو تهميش أدوارهم الاجتماعية، بل باستمرار التحديات الداخلية التي تتفاعل بها حياتهم الاجتماعية وغالباً ما تشكل عقبات أو على الأقل صعوبات قد تصل بهم إلى درجة الإحباط واعتمال الغضب قد يتحول إلى أشكال من التمرد تجاه الأسرة أو المنظومات التعليمية أو الإنتاجية، وأخطر من ذلك أن تتجه إلى ذات الشباب فيتعرض لأمراض نفسية واضطرابات سلوكية وأعراض هروبية يتعاطى المواد المخدرة أو بأعمال عنف أسري أو سياسي أو اجتماعي؛ منتهكاً قواعد الدين والقانون والأخالق والذوق العام فيقع في دوائر السوء في أشكال العدوان ضد الأنفس والأموال.

لقد أصبح هذا العَرَض الانحرافي والعدواني ظاهرة شائعة بين الشباب على الأصعدة الإقليمية والعالمية. وقد تكون ثورة الاتصالات والإعلام المرئي والفضائي مما ساعد على سرعة انتشار الأنماط السلوكية الانحرافية مثله كالذيوع السريع للموديلات الحديثة

وصرعة الفنون الشبابية في الملبس والمأكل والموسيقى الصاخبة وأفلام الفيديو كليب؛ واتخاذ وسائل الاتصال هذه خاصة بعد شيوع استخدام الشبكة أو النت وسيلة رخيصة وسريعة لتسويق الأساليب الجديدة في الحياة التي هيمنت عليها أذواق العولمة. إن تأثير ذلك لن يكون فقط على المدى القريب، بل على أبعد من ذلك، وسيدفع شباب الأمة الثمن غالياً عندما يجد الشاب نفسه في جيله القادم قد فَقَدَ أَهم مقومات هويته التي تركها البعض تذوب في هوية الآخرين.

ويمكن أن نستدل من مسوح دراسية غربية على معاناة شبابهم في مجتمع الرفاه من الوقوع في حمى الانحلال والجريمة وشرورها وتمرد نسبة يعتد بها منهم تجاه نظام عدالتهم وإهدارهم للقيم الاجتماعية في مجالات الأسرة والزمالة والمؤسسات التعليمية بل ضد أنفسهم بارتفاع معدلات الانتحار أو القيام به. إذ يشير مسح دراسي سنة ١٩٩٩ إلى أن نسبة الانتحار بلغت ٨,٣٪ بين طلبة الصفوف العليا ومحاولات الانتحار ١٩,٣٪. وتبين أيضاً من مسح آخر أن من كل عشرة من اليافعين والشباب تم القبض عليهم في حوادث العنف فإنه يقابلهم عشرة مثلهم إما جريحاً أو قتيلًا، إن ٩٪ من جرائم القتل ارتكبها من هم في سن الثامنة عشر أو دونها خلال سنة ٢٠٠٠. كما ازدادت حوادث التهديد والاعتداءات والتحرش فوصلت نسبتها إلى معتدٍ واحد لكل ستة من الطلاب، وإذا كان العنف البدني والتورط في مشاجرات يتخللها الإيذاء والجرح بين اليافعين والشباب فقد بلغت نسبته إلى ٣٥٪ من مجموع الطلاب في المسح الذي أجرى

سنة ١٩٩٩ فضلًا عن أن ٢٤٪ من اليافعين الطلاب يتيسر لهم إمكانية حمل السلاح نظراً لتوافره في بيوتهم.

لقد تنامت في العقود الأخيرة ثقافة خاصة للشباب تفصح عن عدم رضائهم بسبب التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القومية والعالمية مما جعل البعض أو الكثير منهم لديهم القابلية للاستهواء لسلبيات العولمة الاستهلاكية الرأسمالية المتوحشة، إلى درجة الاستعداد للاندماج الأعمى في الهوية الحضارية لآخرين خاصة بعد الخبرات الأليمة لأزمتي الخليج الأولى (العراق/ إيران) والثانية (العراق/ الكويت) فخفت نجم الهوية العربية وأصبح الآخر الغربي هو منار الليبرالية والتحرر وانقلبت الصورة على وجهها الآخر مناشدة العودة إلى الهوية بعد الهجوم على العالم الإسلامي إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ واستمرار المذابح الصهيونية في أراضي فلسطين المحتلة. وانفلت العديد من الشباب من عقالهم واختلطت المقاومة المشروعة لسلطات الاحتلال بهجمات هستيرية على مواطنين من العرب والمسلمين بمبررات تدخل في دائرة اللامعقول من وجهة النظر الوطنية والشرعية. ومن ثم اختلط لدى البعض من الشباب الصواب بالخطأ والمنطقى بغير المنطقي؛ أي أن الشباب قد فقد بوصلة التوجيه الصحيح في أمر دينه ودنياه كما فقد القدوة المستنيرة إلا من رحم ربك.. خاصة أن السياق الاجتماعي والسياسي قد اعتوره الجمود والحرص على استمرار القديم من النظم والأفكار التي تعرقل مسيرة الشباب وتحرمهم من المشاركة وجهود الإصلاح.

وإذا كان قد كتبت الحيرة على مثل هؤلاء الشباب الذين يرغبون في الانطلاق للمشاركة الإيجابية؛ فإن الجانب الأشد خطراً الشباب الآخرين الذين بدأوا ينسلخون من هويتهم ويغرقون في دوامات السلبية والانتماء وينشغلون بسفاسف الأمور وتوافهها ويبتعدون عن دائرة التزامهم بأداء الأدوار الاجتماعية المتوقعة منهم حتى تتردد أقوال البعض منهم (أنها ليست بلدهم) التي وعدتهم بتوفير العمل ولم توف بذلك، وإذا عملوا فبقدر أجورهم ورواتبهم المتدنية (على قدّ فلوسهم) وبذلك تنفتح أمامهم أبواب البدائل غير المشروعة والتورط في ضروب من السلوك الانحرافي أو الإجرامي بارتكاب جرائم النصب والتزوير والتحايل والإهمال والتحرش الجنسي.

أدوار بديلة مشبوهة:

وهناك آخرون يطرقون أبواب البدائل المشبوهة بالزواج العرفي الفاسد، ومدرسون يهملون عمداً مسؤولياتهم التربوية والتعليمية ويتكالبون على دروس خصوصية أدت إلى الإخلال بميزانيات الأسر متوسطة الدخل وما دونها؛ وثمة أطباء تناسوا قسم وشرف المهنة فيبتزون مرضاهم بأساليب تصل إلى افتعال عمليات جراحية لا حاجة للمريض لها مثل التعجل بإجراء عمليات الولادة القيصرية لأنها أوفر وقتاً وأكثر كسباً. إن مثل هذه العينات من الأمثلة تدخل في دائرة التخلي عن المسؤوليات المنوط بها الطبيب أو المدرس أو الزوج المزعوم في زواج عرفيّ فاسد.

لقد أدى ذلك التلوث الاجتماعي إلى إفراز ثقافة سلبية تهدر القيم

الأخلاقية البناءة وأعلى من شأن القيم السلبية الهدامة في شؤون التعليم والإنتاج والاستهلاك والأسرة والترفيه التجاري الرخيص وضخ لهجة شبابية خاصة تسود فيما بينهم في أساليب التخاطب الهزلية والجادة التي لا تصلح للتخاطب مع جيل الآباء والأمهات. لقد أخذت هذه الثقافة في التكاثف بدرجة أقلقت المجتمع والمربّين؛ غير أنها موجة ستنحسر إذا ما تم التغيير الإصلاحي في شتى مجالات التنمية واجتهدت نخب المجتمعات العربية والإسلامية لبلورة أهداف مشتركة لمشروع يجمع بين الأجيال لتجاوز التخلف الحضاري وانقاذ الأمة من كبوتها وتحقيق نهضتها والأخذ بيدها إلى سبل التقدم. وفي هذه الحال ستصبح بدائل تهميش الشباب بمشروعات التنمية المستدامة هي المخرج من أزمة الشباب الذين إذا أسند إليهم مسؤوليات النهضة فإنهم لا محالة سيتحولون إلى طاقة وشعلة متوهجة تحوّل السكون إلى حركة والتخلف إلى نهضة وتقدم.

* * *

الأدوار الاجتماعية في مرحلة الرشد

الرّشد:

الرشد أكمل مراحل الأهلية، ومعناه في اللغة: (خلاف الغيّ، وقد رَشَدَ يَرْشُدُ رُشداً ورشد بالكسر يَرْشَدُ رشداً لغة فيه). ويعني الرشد في الفقه المالكي والشافعي (حسن التصرف في الوجهة الدنيوية ولو كان فاسقاً من الوجهة الدينية). ويتوافر بتحقق الخبرة المالية بتدبير الأموال وحسن استثمارها، وهو أمر يختلف باختلاف الأشخاص والبيئة والثقافة. أما الرشد في الفقه الشافعي (فهو الصلاح في الدين حتى تكون الشهادة جائزة وإصلاح المال...). لأن الفاسق غير رشيد؛ ولأن إفساده لدينه يمنع الثقة به في حفظ ماله كما يمنع قبول قوله، وثبوت الولاية على غيره، وإن لم يعرف منه كذب ولا تبذير. وليس للرشد سن معينة عند جمهور الفقهاء، وإنما الأمر متروك لاستعداد الشخص وتربيته، وبيئته، وليس في النصوص الشرعية تحديد له.

وتكتمل معالم شخصية الإنسان ويصل إلى درجة سوية من الرشد والنضج في أوج النشاط العاطفي والفكري عند سن الأربعين، وتمتد مرحلة الرشد لتشمل سنوات العمر ما بين الشباب والشيخوخة، أي ما بين سن العشرين والستين عاماً. وتبدو مظاهر مرحلة النضج بقدرة الإنسان على تأمل نفسه داخلياً، وهي «البصيرة» التي تمكن الإنسان من إدراك مدى إمكانياته وحدود طاقاته، ومحاولة تنمية قدراته.

والإنسان صاحب البصيرة الناضجة إنسان واقعي، حيث تبعده بصيرته عن التمادي في الأماني والأحلام، وتدفعه إلى اتخاذ الخطوات العملية للوصول إلى أهدافه المحددة، ويضع الشخص الرشيد لنفسه أهدافاً وغايات يسعى بكل الطرق وبجدية للوصول إلى تحقيقها، وتذليل العقبات والصعوبات التي تقف في طريقه، أو تعيق تقدمه، ويبحث عن الوسائل الممكنة والمشروعة، مهما كلفه ذلك من تعب ومشقة، لأن النجاح في الوصول إلى هدفه وتحقيق غايته يرضي نفسه ويجعل لحياته معنى. وتتميز مرحلة الرشد بالشعور بالمسؤولية والاعتماد على النفس، ويعتمد عليه غيره ممن يتولى رعايتهم، وكما في الحديث الشريف: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**». والشعور بالمسؤولية لا يأتي فجأة بدون مقدمات، بل ينمو هذا الشعور تدرجياً ويكتسب الإنسان خبرة من التجارب التي تعنّ له في الحياة، ويعرف حقوقه وواجباته ويتحمل مسؤولية أخطائه ويتعلم منها: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت: ٤٦]. والقدرة على التحكم في العواطف من مظاهر الرشد ومن سمات الإنسان الراشد، وعلى العكس يصعب على الطفل والمراهق التحكم في عواطفهما، وتتسم تصرفاتهما بالاندفاع العاطفي، والشخص الراشد يحكم العقل والمنطق في حل المشاكل التي تعترضه، وفي هذا يمتدح القرآن الكريم هذه الصفات: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الراشـــدون:

وإذا كان الشباب (١٨ - ٣٥) سنة يمثلون الطاقة المحركة للأمة فإن الراشدين (٣٥ - ٥٥) سنة يمثلون عصب وهيكل القوى البشرية والفكرية والإنتاجية، وتقع عليهم مسؤولية أكبر لإعالة الفئات الأخرى. لقد اتسعت مساحة الاهتمامات العلمية والاجتماعية بفئات الطفولة والشباب والمسنين؛ أما الراشدون فلم تحظ بقدر الاهتمام اكتفاء بالمرحلة الشبابية عصب الحيوية الاجتماعية والإنتاجية وأن الراشدين امتداد لهم، ومن ثم يجدر توجيه المزيد من العناية لفئات الراشدين لأن صحة قوامهم وسلامة أذهانهم واتزان وجدانهم من الشروط الجوهرية لنهضة أي مجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً.

وبالرغم من دمج مرحلتي الشباب والرشد في فئة عريضة عند بعض الآراء وكذا في تصنيفات الإحصاءات الدولية إلا أننا يمكن أن نتخذ تحديداً إجرائياً بأن بداية مرحلة الرشد هي التالية على مرحلة الشباب. إذ يفصل بينهما ويوصل في نفس الوقت الفئة العمرية (٣٠ - ٣٥) وقد يكون سن الأربعين قمة النضج العقلي والنفسي استناداً إلى الإشارة القرآنية.. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وبلغ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى

ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وتضع الآية الكريمة الخطوط العريضة للانتقال من مراحل الانتهال من الحقوق التي كفلتها الأسرة والمجتمع إلى مرال حمل الأعباء والتكليفات بدءاً من مرحلة الشباب واستمراراً إلى مرحلة الرشد وما بعدها حتى سن الشيخوخة التي تخفف عنها الأعباء بل قد تعفى منها. ومن ثم فإن التوصية بالإحسان إلى الوالدين هو من باب تكليف الراشدين الذين تبوؤا مراكزهم في الحياة وقدرتهم على العمل والكسب في وقت تضاءلت على والديهم القدرة بسبب الكبر والشيخوخة.

المتّصل الاجتماعي بين الشباب والراشدين:

وهنا يتحقق الوصل بين مراحل الشباب والرشد في نص الآية ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ في زهو الفتوة والشباب ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ قمة النضج وبداية الإنطلاق نحو الاستمرار في الأدوار الاجتماعية لا في نطاق الأسرة والعائلة فقط، بل امتداداً إلى باقي الجماعات التي ينتسب إليها الراشد ويقوم بدور ومسؤولية فيها. وكأن الأسرة التي ينتسب إليها الراشد هي البيئة الحاضنة لتدريبه في طفولته وفتوته على القيام بدور الحماية للأسرة والوالدين ورعايتهما، مما يثبت بها فؤاده للاستمرار في مختلف الواجبات الأخرى في المجتمع والدولة.

وتعتبر هذه الأدوار الاجتماعية التي تسند إلى الراشد أو يسنده

إلى نفسه؛ هي من النعم التي يتمتع بها الإنسان ويقتضي أن يقدم الشكر لله تعالى لحصوله عليها، فإن أعطاها حقها في الأداء وأحسن العمل فيها فهي من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها ويطلب التوبة إلى الله عند تقصيره فيها لأنه ليس فرداً منعزلًا بل ينتمي بالضرورة هو وذريته إلى أمة الإسلام لا بصفة الإحساس بالانتماء فقط بل بشروط العمل الصالح في أسرته ولذريته وجيرانه ومجتمعه الكبير.

لقد أدمجت، كما ذكرنا سلفاً، مرحلتا الشباب والرشد من السن (١٥ – ٦٥) وذلك في المصادر الرئيسة الدولية للإحصاءات السكانية حيث يمثلون – كما ذكر عن الأدوار الاجتماعية للشباب – نحو ٦٣٪ على مستوى العالم، تزداد نسبتهم في البلدان المتقدمة إلى نحو ٦٨٪ وتنخفض النسب عن ذلك في الأخرى النامية والأقل من ذلك إلى ٦٢٪ من مجموع سكانها. وترتفع هذه النسبة إلى ٧٠٪ في تونس ولبنان وبعض الدول النفطية الخليجية بسبب الهجرة الوافدة للعمل مما وسع رقعة فئة الشباب والراشدين فاختلفت عن مثيلاتها في التركيبة العمرية وقوة العمل. أما بعض البلاد العربية كمصر والمغرب والأردن وليبيا فانخفضت النسبة فيها إلى ٦٧٪ وإلى ٥٠٪ في العراق والسعودية واليمن وفلسطين والصومال. وإذا استخلص من طرح فئة المسنين (٥٥) فأكثر من نسب ٦٠٪ أو ٥٠٪ لوجدنا أن الراشدين هي الفئة الأقل عدداً التي تعول الأكثرية من الأطفال والمسنين وجحافل العاطلين من اليافعين والشباب.

أدوار الراشدين وتقسيم العمل:

إذا اعتبر الشباب هم القلب النابض للأمة - إذا جاز التشبيه - فإن الراشدين هم (كبدها) الذي يشكل الجهاز المناعي للوقاية والحماية لهوية الشخصية القومية العربية أو الإسلامية. إذ استقر الأمر نسبياً لأحوال الراشدين بالنسبة لقدراتهم على تكوين أسرة أو الالتحاق بعمل، أو تأسيسه أو المشاركة فيه سواء كان تجارة أو زراعة أو حرفة أو صناعة، وذلك تحت مظلة التضامن العضوي وقانون تقسيم العمل الاجتماعي. هذا يعني أن الراشدين هم عماد هذا التضامن، وأنهم كغيرهم من فئات الأطفال والشباب والمسنين يدخلون بالضرورة في طرفي المعادلة الصعبة للحقوق والواجبات حتى يستطيعوا القيام بأدوارهم الاجتماعية بمعناها الواسع الذي يشمل الدوائر الإنتاجية والسياسية والثقافية والخدمات الصحية والتعليمية والترويحية أيضاً.

وهنا تتجسد وتتعاظم المسؤوليات على الراشدين أكثر من غيرهم وتقل مساحة حقوقهم عن مثيلاتها في المراحل العمرية السابقة (الطفولة والشباب) واللاحقة (الكبار والمسنين). وإذا كان تضحيات الشباب في الصدارة وأكثر وضوحاً في مواقف الاستنفار العسكري خلال تجنيدهم والدفاع عن الوطن؛ فإن الراشدين هم الصامتون في بذلهم وتضحياتهم خلال آدائهم لمسؤولياتهم الإنتاجية والاجتماعية خاصة في حياتهم الأسرية والتزاماتهم العائلية والقرابية. ومن ثم فإن إخلال بعض الراشدين لمسؤولياتهم والتقصير فيها عمداً

أو إهمالاً يؤدي إلى خلل اجتماعي لا على صعيد الوحدات الاجتماعية التي ينتمون إليها، بل على صعيد الأمة كلها.

إذ إنهم كما ذكرنا سلفاً أشبه بكبد الأمة وجهازها المناعي الحامي لمن دونهم من الأطفال والشباب ومن يعولونهم من الكبار والمسنين، فإذا تنازل البعض منهم عن بعض عناصر منظومة القيم الأخلاقية الحاكمة لسلوكهم فإن الانحراف الاجتماعي رابض للانقضاض ليس على أشخاصهم فقط، بل سيطول ذويهم وأسرهم ومجتمعهم الذي يعيشون في كنفه. فيدب الفساد ويستشرى في نسيج مجتمعهم وتتداعى قمم البناء الاجتماعي لا على رؤوس المنحرفين منهم فحسب، بل على قواعد الوطن ككل. ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً...﴾ [الأنفال: ٢٥]. وتشير التقارير الدولية للكشف عن الفساد في دول العالم أن أغلب البلاد العربية للأسف الشديد قد حظى أغلبها بدرجة أقل من ٤/ ١٠ من مقياس شفافية الفساد الذي تبلغ فيه الدرجة النهائية عن الامتناع عن الفساد عشر درجات.

القدوة بين الراشدين:

وهذا واحد من المؤشرات التي تدل على سلامة واستقامة العملية التنموية الإنتاجية والسياسية والاجتماعية التي تتضمن مدى الكفاءة المجتمعية للراشدين بوجه خاص أكثر من غيرهم؛ حيث إنهم في مقام القدوة للمراحل العمرية الأصغر سناً منهم؛ أطفالاً ويافعين وشباباً. ولذلك فإن قوام عملية التنشئة الاجتماعية وسلامتها بالنسبة

لأبنائهم تتوقف على مدى التزام الراشدين بالقيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية التي استقر عليها المجتمع للاحتكام إليها كمعايير ضابطة لضروب السلوك المختلفة. وكمثال معروف فإن تلقين الطفل بعدم وجود الأب في البيت عند السؤال عليه في مكالمة هاتفية هو بمثابة إلقاء بذور الخديعة والكذب حتى تحت مسميات - عند البعض - الكذب الأبيض. وتتضخم المشاكل أكثر من ذلك عندما يفقد الراشد رشده ويغيّب عقله عامداً متعمداً بتعاطي الكحوليات أو المخدرات، فيورث الشيطان بينه وبين من حوله العداوة والبغضاء وتصبح أسرته وأبناؤه ضحايا تغييب العقل أو الوعي فتتفكك الأسرة ويحل الانفصال. أما الراشدون الآخرون وهم كثر فإن التزامهم بمسؤولياتهم الأسرية في الإنفاق ورعاية الزوج أو الزوجة وأبنائهم والإصرار على تعليمهم ورعاية صحتهم يؤدي بالضرورة إلى التوافق الأسري وتثبيت القيم الأخلاقية في الأنفس وممارسات السلوك.

وترتبط نماذج سلوك الراشدين في أسرهم وبين أهليهم وجيرانهم بنماذج سلوكهم في الجيرة والعمل ومؤسسات المجتمع السياسي والمدني. إذ إن شخصية الراشد وحدة لا تتجزأ عند القيام بأدوار الاجتماعية المتباينة في وحدات اجتماعية مختلفة إلا من أصابته علة أو مرض نفسي كالانفصام في الشخصية أو السيكوباتية وهو (خلل مرضي مدمّر للعلاقات الاجتماعية) أو البارانويا كالشعور بالكبريا والعظمة أو الاضطهاد. إن إعفاء أصحاب هذه الأعراض النفسية أ

العقلية من الراشدين الذين يصابون بها من مسؤوليات الأداء لأدوارهم الاجتماعي رهين بشفائهم وإعادة تكيّفهم وتوافقهم مع المجتمع. ومن ثم فإن قوام شخصية الراشد ليس مرتبطاً بمرحلته العمرية، بل إن لها جذوراً في المراحل العمرية المبكرة التي عولجت فيها الأبعاد الحضارية والاجتماعية للأدوار الاجتماعية لدى الطفولة والشباب.

معادلة الحقوق والواجبات:

ولكن قيام الراشدين بأدوارهم بما يتطابق مع مسؤولياتهم يجعل من الوفاء باحتياجاتهم من قبل المجتمع والدولة حقاً عاماً يشمل بدوره حقوقاً فرعية ولكنها أساسية كحقوق العمل والسكن والرعاية الصحية لأسرته والمساندة التعليمية لأبنائه وعدم تلوث البيئة وحق التعبير وصناعة القرارات التنموية؛ والمشاركة السياسية وتفعيل أدواره في مؤسسات المجتمع المدني أو المنظمات أو الجمعيات الأهلية. ومن هنا نعود مرة أخرى إلى المعادلة الصعبة لطرفي الحقوق والواجبات.

لقد بدأ الإسلام بإسناد الواجبات والتكاليف منذ أن استخلفه الله سبحانه وتعالى على عمارة الكون كجزء لا يتجزأ من حكمة الخلق وهو عبادة الله والتقرب إليه؛ وكان التحدث عن حقوقه من أمور الفطرة الإنسانية باعتبار أن الحقوق هي النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، ليشكر لا ليفجر، حيث اصطنع إساءة استخدامها والتفريط فيها بإشاعة الظلم وإهدار قيم العدل.

مقياس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

ولم يأت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨ إلا للتأكيد على قدسيتها وعدم المساس بها أو خرقها، والراشدون عند قيامهم بأدوارهم الاجتماعية المسندة إليهم لهم حق التمتع بالحقوق الإنسانية كغيرهم من الفئات الأخرى، ومن ثم كان واجب الدولة والمجتمع كفالتهم للوفاء بهذه الحقوق والاحتياجات الإنسانية، مادية كانت أو معنوية أو فكرية ومعرفية، لقد أكد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في (المادة ٢٩) على واجبات كل فرد نحو المجتمع، وخضوعه في ممارسته حقوقه لتلك القيود التي يقرره القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته، واحترامه ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العام والأخلاق في مجتمع ديمقطراطي.

فالراشدون متساوون مع غيرهم في المجتمع بالحرية والكرام والحقوق دون تمييز (مادة ١ و ٢) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وليس لأحد أن يتدخل في حياة الفرد الخاصة أو مسكن أو أسرته (مادة ١٢) وله الحق في تكوين أسرة طبيعية لها حق التمتع بالحماية من المجتمع والدولة (مادة ١٦)، وإذا كان لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره، فإنه لا يجو تجريده من ملكه تعسفاً (مادة ١٧).

أما الجوانب الفكرية والعقدية والاجتماعية والسياسية فقد أكّ

الإعلان العالمي على الحق في حرية التفكير والضمير والدين (مادة ١٨)، والحق في حرية التعبير والرأي (مادة ١٩)، وحق كل الاشتراك بحرية في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه (مادة ٢٧)، والحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية (مادة ٢٠)، فضلًا عن حقه في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً (مادة ٢١)، وكذلك الحق في الضمان الاجتماعي (مادة ٢٢).. وحق العمل والحماية ضد البطالة (مادة ٢٣)، يرتبط بذلك حق العامل في الراحة، أو في أوقات الفراغ، ولاسيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر (مادة ٢٤).

وأما المواد التالية (٢٥، ٢٦) فهي تعالج حقوق الإنسان في الاحتياجات الأساسية - الغذائية والصحية والطبية والتعليمية حتى الالتحاق بالتعليم العالي وتوفير خدمات التأمين لمعاش في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.

مؤشرات الوفاء بالحقوق والالتزام بالواجبات:

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء حقوق وواجبات الراشدين كشريحة سكانية واجتماعية عريضة؛ هل يقومون بأدوارهم الاجتماعية وقد استوفت الدولة والمجتمع حقوقهم، وأنهم في

ذات الوقت يؤدون ما عليهم من مسؤوليات؟ قد تحتاج الإجابة على هذه التساؤلات كتب ومؤلفات؛ ولكن يمكن إنتفاء بعض الأبعاد المحورية التي لا تغوص بنا في أدق التفاصيل، ولكنها مجرّد مؤشرات اقتصادية واجتماعية وإنسانية تفصح عن الواقع الاجتماعي لمساحة عريضة من الوطن العربي تختص بأدوار الراشدين الاجتماعية؛ وذلك أيضاً في إطار السياق الاجتماعي والاقتصادي والمعرفي الذي يحيط بالبلدان العربية.

يقتضي معالجة دور الراشدين من منظور مستقبلي للأمة العربية والإسلامية حيث نعلم بالضرورة أن أغلب مجتمعاتها ما زالت تغوص في مستنقع التخلف الاقتصادي والسياسي، ولا مناص من الخروج منه إلا بنهضة إنتاجية وتوجه سياسي مخلص نحو الحرية والشورى والديموقراطية، وأنه لن يقوم بذلك إلا طلائع من الشباب وقيادات ونخب ثقافية من الراشدين. وإذا كان الهدف من التغيير لن يبلغ مراده بمجرد تحسينات وإصلاحات في المجالين الاقتصادي والسياسي؛ إنما بهدف التطلع إلى مجتمع معرفي تتلاشى منه الأمية وترتقي فيه مناهج وأساليب التعليم المستمر الذي لا يقف عند مخرجات التعليم العالي فقط، بل بتحفيز مدخلات الدراسات العليا خاصة التعليم التقني والحاسوبات الإلكترونية.

وقد نجد باستقراء المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية في العالم العربي أن الشوط قد يبدو بعيداً إلا أن إرادة التغيير الجمعية قد تختزل الوقت والزمن ولنا في النمور الآسيوية أسوة حسنة، ومنها دولة ماليزيا

الإسلامية، ولا تخدعنا مقولة غنى الموارد العربية، فإنها مؤشر وهمي بسبب تدفق الثروة النفطية منذ أكثر من ثلاثة عقود، إذ إن قشرة التقدم الخارجية تخفي تحتها مظاهر استهلاكية أكثر منها اتجاهات إنتاجية أو تقنية أو معرفية؛ يمكن عن طريقها تجاوز التخلف واللحاق بالتقدم.

مؤشرات اقتصادية:

إن حجم الناتج القومي العربي محدود للغاية فمجمله لا يعدو أكثر من ٦٠٤ مليار دولار، في حين تبلغ أسبانيا وحدها ما يقرب من هذا الإجمالي (٥٥٩ مليار دولار) وإيطالية (١٠٤٧ مليار دولار) طبقاً لتقرير الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٢.

ويعد انخفاض الإنتاجية أحد التحديات الأساسية في مضمار النمو الاقتصادي والتنمية بوجه عام في العالم العربي. وحسب بيانات البنك الدولي فإن معدلات النمو في الإنتاجية (الناتج للعامل) في البلدان العربية كانت سالبة للغاية منذ مطلع الثمانينات وبدرجة ضخمة ومتزايدة على نطاق واسع في البلدان المنتجة للنفط، وإذا نظرنا للناتج القومي للفرد في قوة العمل بلغت طبقاً لبيانات البنك الدولي سنة ١٩٩٨ تقل في مجمل الدول العربية عن نصف مستواه في كوريا الجنوبية والأرجنتين.

وإذا قارنا مؤشر الناتج المحلي للعامل في عشرة بلدان عربية ببعض البلدان الأسرع نمواً في الفترة من سنة ١٩٨٠ - ١٩٩٧ (تقرير التنمية في العالم ٩٨/١٩٩٩) لتبين لنا أن معدل الإنتاجية

فاق ١٥٪ في الصين و٦٪ في كوريا و٦٪ في الهند، والمقابل لم يتعد معدل نمو الإنتاجية في أفضل البلدان العربية أداءً ٤٪ (بالترتيب حسب القيمة ٣ - ٤٪ في عمان ومصر، و٢ - ٣٪ في الأردن والجزائر وأقل من ١٪ في الإمارات والسعودية. وبناء عليه يظهر أن تعافى النمو الاقتصادي في الوطن العربي وزيادة الإنتاجية هما شرطان لازمان لقيام نهضة معرفية، ولكنهما غير كافيين.

تداعيات الفقر والقهر:

لن يتحقق التقدم إلا بتقدم معرفي في شتى مجالات العلوم الإنسانية والقدرة على توظيف العلوم الطبيعية في تقنيات الآلية الرقمية (الأتمتة) والتحدث بلغات الحاسوب الإلكترونية والارتباط بشبكة الاتصالات والمشاركة في ثورة المعلومات. يعتمد ذلك على رأس المال البشري من الراشدين والشباب وكل القادرين ذهنياً على التعلم والممارسة، حتى بين أوساط المسنين. إن ذلك لا بد أن يسبقه حرث الأرض الاجتماعية بإزالة الأمية المنتشرة بين مختلف الفئات العمرية والنوعية وخاصة في صفوف الشابات والراشدات من نساء العرب. وتقليص الفقر إلى أقصى حد ممكن لأنه وصمة اجتماعية من صنع قوى الاستئثار بالثروة وسوء توزيع الدخول. إذ يصعب تحقيق نمو اقتصادي مرتفع ومطرد في ظل وجود عشرات الملايين - تحت خط الفقر - التي تتراوح نسبتهم في أغلب البلدان العربية باستثناء الدول النفطية في الخليج العربي، ما بين ٢٦٪ إلى ٤٠٪ وربما أكثر من ذلك، مما يمتد أثره ويتواكب معه تدهور

الإنتاجية والبطالة وتفاقم سوء توزيع الدخل والثروة والقوة. كما أن افتقار توزيع الدخل والثروة إلى العدالة يلحق الضرر بفرص اكتساب المعرفة غير إهدار فرص النمو الاقتصادي، وتداعيات تدهور السلطة السياسية خاصة إذا ما أبتليت المجتمعات العربية بأنظمة الحكم الشمولي الذي امتطى السلطة بالقوة باسم التخلص من الفقر وإشاحة الظلم وإشاعة العدالة وتحرير الأمة من الخطر الإسرائيلي وتحرير فلسطين. ولم تحقق بقدر الحد الأدنى أي من هذه الأهداف خاصة عندما أفرز القهر السياسي الفساد والإفساد الذي أغرق مشروعات التنمية التي يفترض أن تقوم على أكتاف الشباب والراشدين بمآسي البطالة والانحراف والعنف والجريمة والمخدرات.

القيم والتعليم والثقافة:

وللأسف فبالرغم من ارتفاع أمواج المدّ التعليمي كمّاً فإنه تراجع كيفاً، وكان من الأطراف الفاعلة لهذا التراجع العديد من الراشدين العاملين في مجال التعليم حيث اخترق سياجهم القيمي والأخلاقي باسم تحقيق رفع مستواهم المعيشي من أجل سدّ احتياجاتهم الاجتماعية والأسرية لانخفاض رواتبهم التي لا تكفيهم. وهنا تزداد صعوبة حل المعادلة الصعبة بين طرفي الحقوق التي تقصّر فيها الدولة والنظام الاجتماعي؛ والواجبات التي زلزلت كيانها انخفاض مكانة القيم الأخلاقية والدينية عمّا كان في الأزمان التي كان المعلمون وغيرهم يقومون بأدوارهم التي كان لها مكانة رفيعة أشبه بالقداسة في نظرهم ونظر غيرهم.

في تلك الأزمان كانت الثقافة أكثر عمقاً والتعليم أكثر رسوخاً وتأثيراً والابتكار والإبداع الفكري والفني أرقى مقاماً، ولكن ليس ثمة وقت للبكاء على اللبن المسكوب الذي تدنت فيه ميزانيات البحث العلمي إلى درجة يخجل منها المواطن العربي إذا ما قارن مخصصات البحث العلمي في إسرائيل التي تفوق مخصصات الدول العربية مجتمعة بأكثر من مائتي مرة.

فإذا ما قارنا متوسط سنوات التعليم بالنسبة لسكان ٢٥ سنة فأكبر (سنة ٢٠٠٠) نجد أنها ٥,٦١ للذكور في البلاد العربية مقابل ١٠,٧٣ سنة في هونج كونج وكوريا الجنوبية وتيوان وبالنسبة للإناث، على التوالي ٣,٤٦ سنة مقابل ٨,٨٨ سنة.

أدوار الراشدين في مجتمع المعرفة:

وثمة مؤشرات كثيرة لها دلالتها في تقييم الوزن الحضاري لمجتمع المعرفة كمتوسطات سنوات التعليم كما ذكرنا وعدد الصحف أو أجهزة الراديو أو التلفاز أو الكتب أو أجهزة الحاسوب أو الهاتف المحمول؛ وذلك لكل ألف من السكان؛ وكذلك عدد العلماء والمهندسين والمشتغلين بالبحث العلمي والتطوير ثم عدد طلبات تسجيل براءات الاختراع، وذلك لكل مليون من السكان. ويمكن الاكتفاء بالمؤشرين الأخيرين لأهمية وزنهما النسبي للمقارنة التي لن تدخل فيها الدول المتقدمة، بل بعض الدول الناهضة منذ عهد قريب. لقد تبين بالنسبة لعدد العلماء والمهندسين أنهم في

البلدان العربية تراوح عددهم لكل مليون من السكان بين أقل من ٣٠ عالماً أو مهندساً في سوريا و١٢٤ في تونس و٢١٤ في الكويت وما يقرب من ٥٠٠ في مصر ومثلهم في الصين غير أن الصورة تختلف في كوريا الجنوبية وإسرائيل فهي ٢١٣٩ و١٥٧٠ على التوالي. أما تسجيل براءات الاختراع لكل مليون من السكان فهي إن كانت في الصين ٤٨,١ طلباً وفي هونج كونج ٣٤٥,٢ وفي مصر ١٧,٨ فهي في إسرائيل، التي تدعمها رؤوس الأموال الأمريكية ومساندة النفوذ الصهيوني بضخّ وتهجير العلماء والباحثين اليهود إليها لتدعيم رأسمالها البشري، فقد بلغت تسجيل براءات اختراع إلى ٥٠٥٧,٣ طلباً.

نحو مستقبل لأدوار الراشدين الاجتماعية:

ماذا ننتظر من سياق التخلف الحضاري الذي يعيش بين طياته الشباب والراشدون خاصة لو تحالف القصور في المعرفة والإنتاجية والتنمية مع ضغوط القهر التي تفرزها الأنظمة الاستبدادية وإشاعة أجواء الخوف والرعب وسلب الحريات تحت ألوية قوانين مصنوعة تتيح لأصحاب المصالح إساءة استخدام السلطة، مما يحرم إرادة الشباب والراشدين من القدرة على التعبير وحرية الرأي والمشاركة الإيجابية في صنع القرارات السياسية والتنموية. ترتبط أطراف معادلة قدرة الراشدين على الالتزام بمسؤولياتهم والحصول على حقوقهم بكل عناصر البناء الاجتماعي المعرفي والإنتاجي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. فإذا كانت الدلائل تشير إلى

تراجع الراشدين وقبلهم الشباب عن القيام بأدوارهم الاجتماعية التي يتوقعها منه المجتمع، فإن هذا لا يعني استقالة الراشدين والشباب من إرادة التغيير واستنهاض الأمة، بل العمل على استعادة استقلال إرادتهم. كما لا يعني انسداد طرق الخلاص في جميع الاتجاهات، بل ثمة بدائل لمعالجة القصور المعرفي والإنتاجي والسياسي والاجتماعي؛ وذلك بمحاولات التفعيل الذاتي للقدرات الكامنة في فئتي الشباب والراشدين. فبالرغم من سلبيات وقصور النظم الاقتصادية والسياسية وإساءة استخدام السلطة من القائمين عليها، فإن الأبواب لم تغلق تماماً أمام الإرادة الاجتماعية لتفعيل دور طلائع الشباب وقيادات ونخب الراشدين وذلك في مجالات العمل الاجتماعي والمنظمات الأهلية أو غير الحكومية. فيمكن بالجهود الذاتية والاعتماد على الذات من خلال منظومة الزكاة وإحياء الوقف الإسلامي بعيداً عن سيطرة الحكومات؛ حماية الأسرة والأطفال وأمهاتهم وسد الثقوب في النظام التعليمي وتطويره. وفتح آفاق جديدة للعمالة والتشغيل الحرفي والفني واستثمار أوقات الفراغ في نفس الوقت والترويح الموجّه وتنشيط الثقافة والتعبير الحر وأشكال التعبير الفني الهادف، وأخيراً وليس آخراً تدعيم مؤسسات تحفيظ القرآن وحماية التراث وترشيد الخطاب الديني بما يلائم مستجدات العصر.

* * *

الأدوار الاجتماعية في مرحلة الأشد (٤٠ - ٦٠ سنة)

اختلف الباحثون في تقسيمات النمو لدى الإنسان ومن أقدم ما حصلنا عليه من هذه التقسيمات هو تقسيم ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ) (١١١٤ - ١٢٠١م) في كتاب تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر[١]، ففي باب ذكر مواسم العمر يذكر ابن الجوزي خمسة مواسم للعمر: الأول منذ الولادة إلى زمان البلوغ ويحدده ابن الجوزي بخمس عشرة سنة. والثاني من زمان بلوغه إلى نهاية شبابه وذلك في خمس وثلاثين سنة والثالث من الخامسة والثلاثين إلى الخمسين وهو زمان الكهولة. والرابع من بعد الخمسين إلى تمام السبعين وذلك زمان الشيخوخة والخامس من بعد السبعين إلى نهاية العمر وهذا زمن الهرم[٢].

وأما في الغرب فقد وجدنا أحد التقسيمات مثل Bromley كمثال وفيه يبدأ البلوغ أو بداية حياة الرشد في العمر ١٨ إلى ٢١ ثم الرشد المبكر من ٢٢ إلى ٢٥ وأواسط البلوغ أو الرشد من ٢٦ إلى ٤٠ ومن هنا ما يهمنا في هذه الدراسة أنه من ٤١ إلى ٥٤ يعتبر رشد متأخر ومن ٥٥ إلى ٦٠ الانتقال إلى ما قبل التقاعد ومن ١٦ إلى ٦٥ قبل

(١) عبدالرحمن بن الجوزي، تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر، دمشق (مكتبة التراث) ١٩٩٣، تحقيق أحمد شوحان.

(٢) نفس المرجع السابق ص ص ١٥ - ١٦

التقاعد ومن ٦٦ إلى ٧٥ صغار الكبار ومن ٧٦ إلى ٨٥ كبار الكبار ومن ٨٦ إلى ١٢٠ كبار جداً[١].

كما وجدنا التقسيم التالي في كتاب كل من Tennant, Mark . Learning and Change in the Adult Years. Pogson, Philip

الطفولة والمراهقة: منذ المولد حتى سن الـ ٢٠.

النضج أو الرشد المبكر: منذ الـ ٢٠ وحتى الـ ٤٠.

ثم أواسط العمر من ٤٠ حتى ٦٥.

والرشد المتأخر: من ٦٠ إلى آخر العمر[٢].

وما يهمنا في هذه التقسيمات هو ما عرف علمياً باللغة العربية بمرحلة أواسط العمر.

مفهوم مرحلة الأشد:

أما بالنسبة لمصطلح الأشد فقد تم استخراجه من استخدامات قرآنية نحو قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا

(١) Bromley, D (1990). Behavioural Gerontology, New York: John Wiley & Sons. p. 42

(٢) Tennant, M. & Pogson P. (1995) Learning and Change in the dult Years, San Francisco: Jossey - Bass Publishers, pp. 71 - 72.

تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي قوي وشب وارتجل. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال أنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين، قال أبو بكر بن عباس عن الأعمش عن القاسم بن عبدالرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك.

وقال الحافظ أبو العلي الموصلي... قال محمد بن عمرو بن عثمان عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ الأربعين سنه خفف الله تعالى حسابه، وإذا بلغ الستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنب وما تأخر، وشفعه الله تعالى في أهل بيته، وكتب في السماء أسير الله في أرضه[٢].

وهناك خلاف على تسميه هذه المرحلة بالأشد فحسب لسان العرب لابن منظور الأشد هو ما بين (١٨ - ٣٠) وأما بالنسبة لتفسيره للآية:

---

(١) سورة الأحقاف: آية ١٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، ط. ٢، بيروت: (مؤسسة الريان) ١٩٩٦ ص ص ١٩٨ - ١٩٩.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ فإنه يقول أن ذلك أقصى نهاية بلوغ الأشد[١].

وقد اختلف فؤاد أبو حطب وآمال صادق (١٩٩٠) مع هذا التعريف إذا يعتبران الأشد هو ما بين ٤٠ - ٦٠[٢] ص (٤٩٩ - ٥٠٠).

تعريف المرحلة علمياً أواسط العمر:

مرحلة العمر بين الـ ٤٠ والـ ٦٠ سنة تسمى مرحلة وسط العمر وهي جزء من مرحلة الكبار وتسمي مرحلة الأشد والشيخوخة وتمتد من ٢١ إلى آخر العمر. وتسمى المرحلة بين ٢١ إلى ٤٠ سنة مرحلة الرشد المبكر والمرحلة بين ٤٠ و ٦٠ سنة هي مرحلة وسط العمر أما المرحلة ما بعد الستين فهي مرحلة الشيخوخة.

وتعتبر المرحلة من المولد إلى ٢١ سنة تعتبر مرحلة التكوين، وتعتبر مرحلة الرشد المبكر (٢١ إلى ٤٠) في تقسيم مراحل العمر من حيث العمل والإنتاج نقول تعتبر هذه المرحلة ذروة الإنتاج أما مرحلة وسط العمر (٤٠ - ٦٠) فهي مرحلة الإنتاج المتناقص وأما المرحلة الأخيزة (ما بعد ٦٠) فهي مرحلة الراحة ومرحلة الإحالة على المعاش[٣].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، .http://Lexicon.sakhr.com/intro/authles.asp

(٢) فؤاد أبو حطب، وآمال صادق، نحو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين. ط ٢، القاهرة: (مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٩٠، ص ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٣) فؤاد البهي السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، ط ٢، القاهرة: دار الفكر لعربي ١٩٦٨، ص ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

سمات الجانب الاجتماعي للفرد في هذه المرحلة:

في هذه المرحلة عادة يكون الأفراد فيها قد حققوا كثيراً من الإنجازات حيث إنهم يكونون غالباً متزوجين ولهم أبناء كبار وربما تزوج بعض هؤلاء الأبناء ولديهم أبناء أي أحفاد لأفراد هذه المرحلة، فيتحررون نوعاً ما من تبعات وظيفة الأبوة والأمومة ويتخففون من الأعمال التي تدعو إلى شدة المنافسة حيث إن الفرد غالباً ما يكون قد حقق أهدافه التي رسمها في بداية حياته، أو قد يكون تخلى عنها لأنه أدرك أنه لن يحققها وقد مضى به العمر على هذا الوجه. وبالرغم من أن الضغوط العائلية تخف في هذه المرحلة من ناحية الأبناء المباشرين إلا أنها تعاود الاهتمام بالأحفاد. وقد يبدأ الفرد في محاولة تحقيق ما لم يستطع تحقيقه من هوايات وإبداعات حيث إن لديه وقت أكثر.

ويلاحظ عالمياً حديثاً، زيادة عدد أفراد هذه المرحلة بسبب ارتفاع المستوى الصحي في المجتمعات الحديثة. ويمتاز أبناء هذه المرحلة بأن لديهم خبرة طويلة وهم مفيدون وعادة يتصفون بالحكمة وهم ناضجون فيجب استغلال هذه الخصلة ولا يجب أن نهملهم. فلديهم مهارات ومن الممكن إعادة تأهيلهم وتعليمهم ومن هنا نشأ الاهتمام بتعليم الكبار وتدريبهم على مهارات جديدة(١).

وقادة مجتمعات العالم عادة ما يكونون من هذه الفئة العمرية.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩١.

وقد دلت الدراسات سنة (١٩٤٩) أن الشيوخ (أعمارهم ٧٠ سنة) لا يقلون مهارة وقدره عقلية عن الشبان بل أنهم يبرزون تهماً أحياناً[١]. كما يقول السيد (١٩٦٨) بأنه بينما معدل سرعة التعلم ينخفض عند الكبار إلا أن القدرة على التعلم لا تتأثر بزيادة العمر من الأشد إلى الشيخوخة[٢].

الأدوار الاجتماعية في مرحلة الأشد (٤٠ - ٦٠) سنة:

الدور:

تركز دراسة الدور على الحقوق والواجبات لشخص ما في مكانٍ ما أو وضع ما على التوقعات السائدة في مجتمع ما لهذا الفرد في مكانه أو وضعه فيلاحظ لينتون Linton أن الوضع الاجتماعي هو مجموعة من الحقوق والواجبات بينما يمثل الدور المظهر الحركي للوضع الاجتماعي[٣]. فالأب مكانة اجتماعية ولكن الاهتمام بالأبناء ومتابعتهم دراسياً وصحياً واجتماعياً. .إلخ هي ما يتوقعه المجتمع من هذا الأب تجاه أبنائه.

النضج والحكمة كميزة لهذه المرحلة:

الحكمة تتطلب نمو في القوى الإدراكية وسيطرة من الشخص

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩١.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٢.

(٣) مان، ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية الكويت: مكتبة الفلاح ترجمة عادل مختار الهواري ومسعد عدالعزيز مصلوح (١٩٩٤) ص ٦١٢.

على عواطفه وهذه القدرة تحصل مع كبر السن. فالحكمة خليط من الخبرة والاستبطان والفحص للأفكار والدوافع والتأمل والحدس والتعاطف والمعايشة الذهنية، وهذه القدرات التي يمكن التمكن منها على مر سنوات طويلة ومن الممكن دمجها وتكاملها مع تفاعلات الفرد مع بيئته.

والحكمة ممكن الحصول عليها بالتسامي على محددات أو معوقات Limitations للحاجات الأساسية مثل الدخل والصحة والسكن. والحكمة تعني ألا يتصرف الشخص تصرفات اندفاعية وإنما يستطيع أن يتأمل ويتفحص جميع جوانب وضع معين بموضوعية. كما أنها تعني القدرة على تفسير المعرفة والفهم للعالم بطريقة أعمق وأرقى[١].

بالإضافة إلى (١٩٩٠) «P 302 Bromley» يرى بأنه من الأشياء الإيجابية في هذه المرحلة هي الحكمة.

كما قلنا سابقاً تتسم هذه المرحلة اجتماعياً بكون الراشد الكبير قد سار قدماً في الحياة وحقق الكثير من الإنجازات إلى جانب أنه كوّن علاقات اجتماعية كثيرة مثل الصداقات والمعارف والرفاق مع زملاء الدراسة والعمل إذا كان يعمل وإذا كان رجلاً خارج نطاق العمل كالمعارف العابرة ومعارف الأنشطة المختلفة التي يقوم بها في حياته الطويلة وخلال حياة الرشد المبكر ويكون له علاقات مع الجيران

(١) Hooyman, N. & Kiyak, H. A. (1999) Social Gerontology Boston: Allyn & Bacon (P. 149) + Bromley, (1990) p. 302.

كما أنه يكوّن علاقات حميمة مع أحد أفراد الجنس الآخر في علاقة زوجية تنتج أسرتهما، وقد يكون في هذه المرحلة تزوج أكثر من مرة وقد يكون ترمل أو طلق وفي مجتمعنا قد يكون الذكر في هذه المرحلة له أكثر من زوجة وفي جميع هذه الحالات تكون هناك أدوار له يتخذها.

ويكون الفرد في هذه المرحلة قد تزوج منذ زمن طويل أو تزوج تواً، وهنا قد يكون التغير في الأدوار يحتاج إلى تأقلم وتكيف كبيرين خصوصاً بأن هناك أحداث في حياة الفرد عادة ما يحدد لها عمر معين فالطفل في السادسة إلى ١٨ سنة يكون متوقعاً أن يلتحق بالمدرسة وفي العشرين إلى الخامسة والعشرين يتوقعاً له أن يتزوج ويبدأ في تأسيس حياته عملياً واقتصادياً واجتماعياً وأسرياً. لذلك فمن يتزوج في العشرين من الرجال ودون العشرين من النساء يتوقع له في سن الأربعين أن يكون له أبناء على وشك الزواج لذلك فبعد هذه السن يكون له أحفاد وهكذا يحدث التغير في الأدوار من طالب إلى موظف ومن ابن أو ابنه أم أخ أو أخت إلى زوج أو زوجة إلى أب أو أم ثم إلى صهر ثم إلى جد. أما بالنسبة للحياة العملية فبعد عمر طويل قضاه ابن هذه المرحلة في العمل قد يبدأ التفكير في الاستعداد للتقاعد والقيام بدور مختلف تماماً عن ذلك الدور الذي تعود عليه مدة العشرين أو الثلاثين سنة الماضية.

مجالات التفاعل ومعاييره:

أولًا الصداقات:

أما بالنسبة للصداقات فدوافع أبناء هذه المرحلة للصداقة قد تكون بسبب التشابه بالشخصية، أو الدعم النفسي وفتح القلب أو الجاذبية الفيزيقية أو الكفاءة والذكاء، وقد تكون هناك أسباب أخرى كالأشباع الوجداني أو الذين يمكن أن يوفروا لنا خبرات سارة أو مع الذين يكونون بقربنا. . . أو الذين نجدهم وقت أن نحتاجهم. . إلخ[(١)]. وفي مجال مقارنة تفاعل أبناء هذه المرحلة مع الأصدقاء ومع الأقارب قد نجد اختلافات بين الثقافات. فمثلًا في أمريكا نجد أن تفاعل أبناء هذه المرحلة للتغلب على بعض المشاكل كالمرض أو التقاعد أو الوحدة يتم مع أصدقائهم أكثر مما يتم مع أبنائهم الراشدين[(٢)].

ولعل الانطباعات الشخصية في مجتمعنا تشير إلى أن أبناء هذه المرحلة على صلة أوثق بأبنائهم وأقاربهم كما نستشف ذلك من آيات في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[(٣)].

(١) Schultz, R & Ewen, B. Adult Development and Aging N. Y. MacMillan Publishing Comp. 229

(٢) Ibid. p. 281.

(٣) القرآن الكريم سورة النحل، آية ٧٢.

كذلك ما نجده من علاقة النبي ﷺ بحفيديه الحسن والحسين رضي الله عنهما.

ويقول كل من Schultz & Ewen إن الصداقات والعلاقات الاجتماعية مهمة للصحة النفسية والعقلية، ولا يريا أن الصداقات يقل عددها عند أبناء هذه المرحلة في أمريكا حسب البحوث التي راجعاها[١].

ثانياً: الحب والزواج والطلاق:

(الارتباط بالجنس الآخر) في هذه المرحلة:

الحب والزواج:

في هذه المرحلة يكون الحب قد ظهر في حياة الفرد ربما قبل الزواج ربما بعد الزواج واستقر نوع من الحب الناضج الهادئ الذي يمكن أن يستمر مدى السنين الطويلة بالرغم من تقلبات الحياة ومشاكلها. .إلخ، وإذا لم يكن ذلك قد حدث فربما يكون الطلاق حدث وسوف نناقش هذا الموضوع فهناك نوعان من الحب للجنس الآخر الذي يؤدي إلى الزواج: الحب المنفذ العنيف والحب للرفقة وحتى الحب العنيف كيف يستمر في علاقة زوجية لابد له أن يتحول إلى حب الرفقة Companionate Love والصداقة.

ونحن نقدر فرص قدرتنا على فتح مغاليق أنفسنا لمن نحب ولمن

(١) Schultz, & Ewen (p. 232).

له نفس مستوى النضج الانفعالي وبعد ذلك ينمو الشعور بالمودة والارتباط قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[(١)].

ولو حدث طلاق في هذه المرحلة فإن المعاناة تكون أكبر من لو أنها حدثت في مراحل الحب الأولى وإن كان وقت العاطفة المشبوبة.

على أي حال الزواج في مجتمعنا قد يحدث بطريقة تقليدية تماماً. كأن تبحث الأم لابنها أو الأخت لأخيها عن زوجة من معارفها وتحدث المحبة لاحقاً. ولكن لابد للمحبة أن تحدث، فعندما أخبر المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - الرسول ﷺ أنه خطب امرأة فقال له: «اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» أي تدوم بينكما المودة والعشرة»[(٢)].

والزواج الذي يستمر إلى هذه المرحلة لابد أن يكون قد حقق لنفسه استقراراً عميقاً إما عن طريق صداقة عميقة بين الزوجين وحب متبادل وتقدير واحترام وإعجاب، أو تحمل أحدهما أخطاء الآخر حفاظاً على وحدة البيت وعدم تشرد الأبناء، أو لعدم قدرة الزوجة على دعم نفسها اقتصادياً، فكثرة الطلاق حديثاً ناتجة جزئياً عن قدرة المرأة على العمل وبالتالي أن تنفق على نفسها فلا تبقى مع زوج لا تحبه أو لا يقدرها أو يظلمها. . .إلخ من أسباب الطلاق التي ستذكر لاحقاً.

(١) سورة الروم، آية ٢١.

(٢) السيد سابق، فقه السنة، ط. ٨، جزء ٢، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨٧، ص ٢١.

وفي أمريكا كما يقول كل من Schultz and Ewen (1988) الأزواج والزوجات قد يتحملون الكثير من الأمور من شريك الحياة إلا أنهم لن يغفروا أو ينسوا الخيانة، فالخيانة الزوجية سبب هام من أسباب الطلاق[١]، أما لدينا فأسباب الطلاق قد تكون مختلفة وكثيرة فمنها تدخل الأهل في حياة الزوجين خصوصاً إذا كانا جديرين ومنها عدم التوافق التعليمي ومنها الفرق في السن إلى آخره من أمور مثل زواج الرجل من امرأة أخرى فيمثل تعدد الزوجات أحد أسباب الطلاق وسيأتي ذكره لاحقاً.

الدور في العلاقة الزواجية:

حسب Schultz and Ewen (1988) حتى في أمريكا إذا كان الزواج أثمر أطفالًا فسرعان ما يعود تقسيم العمل داخل البيت الزوجي إلى التقسيم التقليدي للعمل الأب خارج البيت وإذا كانت هناك أعمال داخل البيت يؤديها الزوج فهي مثل إصلاح الكهرباء أو أعمال «الصحي» أو «الزراعة» في حديقة البيت أما الزوجة فلها العمل كل العمل داخل البيت من طهي وتنظيف وغسيل وكي وتربية أطفال.

أما إذا لم ينجبوا أطفالًا فتكون الأدوار متبادلة والواجبات متبادلة والمساواة تكون أوضح في الزواج بدون أطفال[٢].

---

(١) Schultz, & Ewen p. 236.

(٢) Ibid. p. 237.

الطـلاق:

الطلاق يحدث أكثر بين (٣٠: ٤٥ سنة) حسب Schultz and Ewen (1988)[١]. ولكن هذا لا يعني أن الطلاق لا يحدث بين الكبار (٤٥ سنة وأكبر) وإنما يحدث بصورة أقل.

ومن أسباب الطلاق في الغرب السكر، الهجر، القسوة والزنا. ولكن طبيعة الشخصية مهمة هنا حيث أنه يعتمد على الشخصية أن تتسامح في هذه الأشياء أم لا. وكما قلنا الاستقلال الاقتصادي للمرأة ساهم في ألا تبقى امرأة برفقة رجل قد يسيء إليها فتستطيع في هذه الحالة الخروج من هذه العلاقة.

وطبعاً الطلاق يحتاج تأقلم لحياة جديدة، كما لاحظنا سابقاً أنه في الحياة الزوجية تقسم الأدوار الاجتماعية بين الرجل والمرأة إما تقليدياً أو غير تقليدياً حسب ما إذا كان لديهم أطفال أم لا. ولكن بعد الطلاق يتعين على كل واحد منهم تعلم القيام بالأدوار التي كان يقوم بها الآخر له. كما أن الطلاق عادة خبرة سيئة قد يحتاج الكبير في هذه السن أن يتأقلم معها وقد يكون لهم حاجة إلى البحث عن زوج آخر أو زوجة أخرى.

مما سيتطلب إعادة تأقلم لحياة جديدة بمشاركين جدد مختلفين عمن تعودوا عليهم.

---

(١) Ibid p. 237.

الجنس: العلاقة الجنسية بين الزوجين لها علاقة بالقدرة الفيزيقية ولا ينتهي الجنس في هذه المرحلة وإنما يقل، ويقل لدى المرأة أكثر مما هو لدى الرجل، ولأن النساء تعودن أن يتزوجن ويتوفون قبل زوجاتهم فتظل حياة المرأة الجنسية خاوية، ولكن أيضاً لانقطاع الحيض نسبياً مبكراً لدى المرأة عن تراجع القدرة لدى الرجل في الإنجاب فإنه يعتقد بأنها ليست نشيطة جنسياً. والحقيقة أن النشاط الجنسي والرغبة في الجنس يظل لدى بعض النساء فترة طويلة بعد تراجع قدرتهن على الإنجاب.

الترمـل:

في هذه المرحلة أيضاً قد يفقد الفرد شريك حياته بالموت، ويكون التكيف لهذا الوضع صعب جداً. وكما قلنا سابقاً لأن الرجال يتزوجون عادة نساء أقل سناً منهم فإنا نجد نساء في هذه السن مترملات أكثر مما نجد رجال مترملين.

علاقات بين الأجيال:

أ - الوالدية:

في هذه السن يعتمد الكبار على أبنائهم الكبار إلى حد ما بسبب تعرضهم للمرض، وقد يهمل الأبناء آباءهم الكبار ليس لأنهم لا يهتمون بهم بل لأنهم يؤسسون حياتهم ويهتمون بأطفالهم الصغار أكثر.

وطبعاً هذا يختلف من ثقافة إلى ثقافة، وفي ثقافتنا الإسلامية يتعين

علينا الاهتمام بوالدينا أكثر مما هو في الثقافات الأخرى، بسم اللّه الرحمن الرحيم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[١] ولكن المهم هنا ليس وجود علاقة فقط ولا عدد مرات الاتصال وإنما نوعيته والخدمات المؤداة في هذا الاتصال والفائدة منه..

وفي هذه المرحلة قد يحتاج الكبير إلى أن يتكيف للدور المنعكس الذي يقوم به حيث كان يقوم بالاهتمام بصغاره الآن عليه أن يتقبل أن صغاره يرعونه كما يرى ذلك Bromley (1990) أن على الراشد هنا أن يتقبل النقلة بالأدوار والمسؤوليات العائلية[٢].

الجدودية: في هذه المرحلة يكون دور الجدودية جديداً تماماً ويتطلب تواصل مختلف حيث قد تخلص الفرد في هذه المرحلة من ضغط الواجبات الوالدية لصغار السن والأطفال من العناية بهم والسهر عليهم وتعليمهم إلخ.. إلى أن أصبح الاستمتاع برفقتهم والحصول على رفقة صحية مع طفل أو أطفال عزيزين، وغالباً هذه علاقة ممتعة يتعلم فيها الأطفال الكثير من السلوك والطبائع وأنواع من اللعب والاهتمام... كما أنها تمثل إشباعاً للجد في علاقة دافئة حميمة كما أن الجد في هذه المرحلة يلعب دور الناصح والحكيم المجرب.

(١) سورة الإسراء، آية ٢٣.

(٢) Bromley (1990).

ثالثاً: العمل والتقاعد:

التقاعد:

وهذه المرحلة مرحلة التقاعد من العمل أو الاستعداد له لدى العاملات من النساء والرجال عموماً.

ومرحلة التقاعد تشكل مشكلة لدى أبناء هذه الفئة العمرية حيث إنها تتطلب تغيراً في الأدوار وقد يشعر فيها المتقاعد خصوصاً من الرجال بأنهم بلا فائدة ويقل هذا الشعور إذا كان الرجل لديه علاقات اجتماعية وأخرى عائلية وطيدة حيث ترى M. Carter و K. Cook (1995) إن الرضا في التفاعل العائلي يؤدي إلى الشعور بالأمن في سن التقاعد، بينما يؤدي جزء من مجموعة الأصدقاء إلى الشعور بالفائدة[1]. كما أن التقاعد قد يكون أسهل للمتزوجين ذوي العلاقات الزوجية الطيبة والمرضية من مجرد الزواج.

والدعم الذي يقدمه الأصدقاء والعائلة يقلل من عدم التكيف للدور الجديد في التقاعد، كذلك الأنشطة المختلفة لأوقات الفراغ ومع الجماعات التطوعية والأعمال التطوعية تسهِّل من عملية التأقلم للدور الجديد الذي يمارسه أبناء هذا السن.

---

(١) Carter, M & Cook, K. (1995) "Adaptation to Retirement: Role Changes and Psychological Resources. The Career Development Quarterly, Sep Vol. 44, No, 1, pp. 67 - 82

بينما الأغلبية التي وصلت سن التقاعد ترحب بالتقاعد كمكافأة مكتسبة بعد فترة عمل طويلة من أجل متابعة أنشطة يحبونها ولكن لانشغالهم لم يكن لديهم وقت للقيام بها. ولكن لابد من التأقلم لكون ما يكسبونه من مال أقل مما تعودوا عليه في حياتهم العملية، فضيق ذات اليد قد يكون نتيجة للتقاعد.

النظريات التي تفسر التفاعل الاجتماعي في هذه المرحلة:

فمثلًا أبو حطب، وصادق (١٩٩٠) يقولان بأنه كما أن مرحلة المراهقة يحدث في بدايتها تغير يستدعي التأقلم والاستعداد لحياة جديدة وأدوار جديدة ووظائف حياتية جديدة، كذلك يحدث في بداية حياة أواسط العمر تغير يستدعي تأقلم واستعداد لحياة وأدوار ووظائف جديدة. وهناك الكثير من النظريات الاجتماعية التي تفسر التفاعل في هذه المرحلة ولسوف نبدؤها بنظرية الدور.

نظرية الدور: تعتمد هذه النظرية على الحقيقة أن الكبير يبدأ يفقد أدوار هامة كان يقوم بها في سني رشده المبكر وعليه فهم يفقدون الكثير من رضاهم، وعليه (على المسن) أن يتأقلم لأوضاع ليست من صفات مراحل الحياة الأخرى. وهذا الفقدان للدور يكون تحت:

١ - الإقلاع أو الهجر لعدد من العلاقات الاجتماعية والأدوار النمطية المعتمين.

٢ - القبول بالعلاقات الاجتماعية المرتبطة مع حياة الكبير في سني حياته المتقدمة أي أن عليهم أن يتقبلوا التغير في

أدوارهم حسب ما يتوقعها لهم المجتمع[١].

نظرية فك الارتباط Disengagement Theory:

وتؤمن هذه النظرية بأنه تحت ظروف طبيعية وجيدة اجتماعياً وشخصياً من الطبيعي بل لابد للفرد من أن يقلل من نشاطه عندما يكبر، وينسحب عاطفياً من البيئة كي يستطيع أن يتأقلم بنجاح مع انخفاض قدراته الفيزيقية عندما يكبر مما يؤدي إلى أن يقلل من علاقاته وارتباطاته وتفاعلاته الاجتماعية. وذلك الارتباط يتم من الجهتين: من الفرد ومن المجتمع، والهدف من فكرة الارتباط هذا الحفاظ على توازن النظام الاجتماعي حيث لابد للصغار من أن يتولوا القيام بمهام الكبار وهذا لابد منه لانتقال السلطة بهارمونية. وفكرة الارتباط هذا تُحَضِّر أو تُعد للانخفاض في القوة الجسدية والعضوية المتوقعة لكبار السن[٢].

نظرية الاستمرارية Continuity Theory:

وتؤمن هذه النظرية بأن الشخصية واحدة تستمر هي نفسها لا تتغير، فالمنطوي في صغره يظل منطوياً في كبره. واتجاهاته وطبيعته ومعتقداته لا تتغير على امتداد العمر. وطبيعة الشخصية لا تتغير بل تتضح أكثر في الكبر كرد فعل للضغوطات التي تتسم بها

(١) Fry, p. (1992) "Major Social Theories of Aging and Their Implications for Counseling Concepts and Practice: A Critical Review" The Counseling Psychologist Vol. 20 No. 2 April. pp. 246 - 329 & Hooyman, and Kiyak (1999) pp 230 - 232.

(٢) Fry (1992) pp. 251 - 253.

هذه المرحلة من التغيرات التي تطرأ على الجسد وعلى الحياة الاجتماعية وعلى ما يحيل إلى أن يفقده الكبار في هذا السن[١].

نظرية الأنشطة أو النشاط Activity Theory:

وهذه النظرية علاجية أكثر منها تأويلية حيث ترى أنه كي لا يعاني الكبار مما يعانون منه في سن الشيخوخة والهرم عليهم أن يحافظوا على مستوى نشاطهم، فبهذا يستطيعون أن يتأقلموا أفضل اجتماعياً ومعنوياً. وكما قلنا هذه نظرة علاجية حيث يحصل الشخص على نوع من الامتنان العاطفي والاجتماعي والشخصي عندما يقوم بأنشطةٍ ويساهم في حياة المجتمع، وكذلك يستفيد المجتمع من كبير السن النشط تربوياً وأسرياً. ولكن هذه النظرية تفشل في تحقيق السعادة حسب رؤاها للأفراد والذين يعانون من أمراض الكبر فينقطعون أو يتخلون عن أدوارهم وأنشطتهم وحياتهم الاجتماعية رغماً عنهم[٢].

نظرية التخلي Abandonment Theory:

وبينما ترى نظرية النشاط أن كبير السن هو الذي يحدد متى ينعزل ويتخلى عن أدواره التي كان يؤديها في سني شبابه، فإن نظرية التخلي هذه تنظر إلى الكبير على أنه ضحية، وهي توضح ملمح سلبي من ملامح عامل الكبر ألا وهو العزلة الاجتماعية فكون الشخص كبير

(١) Ibid. pp. 281 - 283

(٢) Ibid. pp. 263 - 265.

في الوقت الحديث يؤدي به إلى درجة من الحرمان، وذلك لأن المجتمع الصناعي ليس لديه حاجة لكبار السن والإفادة منهم. فالمعرفة والمهارات تتقدم وتتغير بسرعة فائقة لدرجة تسلبهم قدراتهم التي اكتسبوها وتحيِّد معلوماتهم التي تعلموها وتصبح غير ذات علاقة[١].

وهذه عموماً النظريات التقليدية تقريباً التي تخص مرحلة كبار السن وأواسط العمر، أما بالنسبة للنظريات الاجتماعية الحديثة البديلة التي تشرح المراحل المتأخرة المبكرة للحياة ضمن سياقها الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي ومنها التفاعلية الرمزية والثقافات الفرعية للكبر والظاهرانية والنظرية النقدية والنسوية نوجزها فيما يلي:

أولًا: التفاعلية الرمزية وثقافة أواسط العمر:

ترى هذه النظرية أن الكبار يسنون ضمن سياق اجتماعي متغير، وقدرتهم على التكيف مع المتغيرات الجديدة سواء كان تعلمهم استخدامهم للكمبيوتر أو وضعهم الجديد في الحياة يعتمد على تفاعلهم مع مكونات بيئتهم. فالنشاط قد يعطي قيمة كبيرة في سياق اجتماعي وثقافي ما، بينما لا يعطي هذه القيمة في سياق آخر وذلك يعتمد على العادات الاجتماعية، كما يعتمد على معطيات الشخص من صحته ووضعيته الاجتماعية الاقتصادية والدعم الاجتماعي.

(١) Ibid. pp. 257 - 259.

وهناك عدة نظريات تنضوي تحت هذه النظرية منها: نظرية التصنيف ونظرية التدرج الاجتماعي حسب السن ونظرية التبادل الاجتماعي، وبينما ترى نظرية التدرج الاجتماعي حسب السن بأنه كما أن هناك تدرج اجتماعي حسب الاقتصاد وآخر حسب الجنس وآخر حسب العرق، فهناك تدرج اجتماعي حسب السن، وترى نظرية التبادل الاجتماعي بأن هناك ما يسمى الاقتصاد السياسي لكبار السن حيث إن قواهم السياسة تبدأ بالانحدار، وكذلك هناك ما يسمى مجرى الحياة حيث إن ما يحدث لهم هو من ضمن سياق الحياة الإنسانية.

ثانياً: النظرية الظاهرانية والبناء الاجتماعي:

وهي غالباً تتناول الموضوع على المستوى الفردي وتتساءل أسئلة ذاتية مثل نتائج البحوث في هذا الموضوع على أي أساس توصلنا إليها ومن تخدم ولم ظهرت على هذا الوجد؟، وكي نقرب وجهة النظر هذه للقارئ العادي، نقول هذه النظرية تحاول فهم كيف يفترض المشرعون وصانعي القرار فيما يخص الكبار على أي أساس يقررون الزيادة أو التقليل من العناية الطبية بهم أو زيادة تأمينهم الاجتماعي أو تقليله أو زيادة أو تقليل معاشاتهم.

وأخيراً النظرية النقدية والنسوية:

وهذه النظرية تنتقد النظريات السابقة وتحاول بناء نظرية جديدة للكبار تؤكد على نماذج إيجابية من الكبر وتؤكد على القوة والتنوع

في ملامح حياة الكبار فمثلًا التأكيد على أن التقاعد عملية تحرير للكبير مما كان مرتبط به على مدى سني حياته. وتؤكد هذه النظرية على البعد الإنساني لعملية الكبر.

ولأن النساء تكوّن الأغلبية من كبار السن حيث أن متوسط العمر للنساء أكبر من متوسط العمر للرجال فتهتم النظرية النسوية بكبار السن من النساء في هذه المرحلة حيث أنهن بطبيعة حياتهن يعانين أكثر، خصوصاً في المعاش التقاعدي وملحقاته حيث أنهن عادة لا يعملن ويصلن إلى مراحل أواخر العمر أكثر من الرجال بدون دعم اقتصادي[(١)].

ويرى البعض أن هناك عوامل متداخلة تؤثر على مدى التأقلم للتغيرات الاجتماعية والنفسية في هذه المرحلة مثل الحرمان في فترة الطفولة قد يكون له تأثير سيء على قدرة الفرد على التأقلم في هذه المرحلة[(٢)].

كما يرى كل من Fiske and Chiriboga (1990) بأن المرونة لها تأثير إيجابي على التأقلم مع هذه المرحلة أكثر من الصراحة والصلابة. أما Tobin, S (1991) فترى بأن للتدين أثراً إيجابياً في الحفاظ على الرضا في هذه السن[(٣)].

(١) Hooyman, & Kiyak (1999) p. 234 - 242.

(٢) Fisk, M. & Chirioga, D. (1990), Change and Continuity in Adult Life. San Francisco: Jossey - Bass Publisher.

(٣) Tobin, S. (1991) Personhood in Advanced Old Age, Springer Publishing Company.

أبناء هذه السن قديماً:

يرى كل من Schultz and Ewen 1988 بأن في العصور القديمة كان متوسط عمر الإنسان قصير جداً حيث أعطيا مثالًا على الرومان فمتوسط أعمارهم لا يتجاوز الـ ٢٢ سنة أما في عصور ما قبل التاريخ فقد كان ١٨ سنة وفي العصور الوسطى وصل متوسط العمر إلى ٣٣ في إنجلترا وفي عام ١٩٠٠ وصل متوسط العمر في أمريكا إلى ٤٧ سنة[١]. وفي الواقع لا تتوفر لنا إحصاءات تشير إلى متوسط العمر في منطقة الشرق الأوسط سوى عن معرفتنا عن أناس كثيرين من العلماء والأنبياء والفلاسفة والمشاهير الذين توفوا بعد هذا المتوسط من العمر (٣٣)، إلا أننا لا نعرف عن العامة من الناس كم عاشوا من العمر وجدير أنه لدينا حديث نبوي يشير إلى أعمار الأمة الإسلامية، ففيما رواه الترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك**»[٢].

ومما لا شك فيه أن التقدم العلمي والطبي والصحي قد زاد من متوسط العمر في القرن الماضي وأصبحت المرحلة العمرية تحت الدراسة في هذا الجزء (٤٠ - ٦٠) لا تعتبر مرحلة متأخرة وإنما هي كما نسميها أواسط العمر ويصلها أغلبية الناس وكما يشير كل من (١٩٩٩) Hooy man, N&Kiyak, H.A في كتابيهما Social

---

(١) Schultz & Ewen, (1988) pp. 5 - 7.

(٢) السيد سابق، فقه السنة، بيروت: (دار الكتاب العربي) ١٩٧٨ ط ٨ مجلد ١ (ص ٤٥٠).

Gerontology. يقولان أنه في عام ١٩٠٠ كانت نسبة الذين وصلوا الفئة العمرية ٦٥ وأكثر لا تتعدى ٤٪ في الولايات المتحدة الأمريكية وفي عام ١٩٩٩ كانت نسبة لفئة (٦٥ سنة وأكثر) ١٢،٨٪ في الولايات المتحدة الأميركية.

أما في الكويت فنجد في آخر احصائية (٢٠٠١) بأن الفئة العمرية (٤٠ - ٥٩) تمثل ١٣٪ من جميع السكان وهذه تعتبر نسبة كبيرة.

أما بالنسبة للتعليم فعادة ما نجد أن كبار السن الأقل تعليماً بين فئات الأعمار المختلفة. فمثلًا في تعداده ١٩٧٥ للكويت وجدنا أن ١،٠٪ فقط من أبناء هذه العمر لديهم شهادة ما بعد الجامعة.

كما وجدنا أن ٧٨٪ من أبناء فئة ٤٠ سنة فاكثر أميين.

وقد انخفضت هذه النسبة إلى ٥٥٪ في تعداده ١٩٨٥ كما انخفضت إلى ٣٦٪ في تعداد ١٩٩٥. أما بالنسبة للفئة العمرية ٤٠ - ٥٩ في عام ١٩٩٥ فقد كان ٢٩٪ منهمن أميين[١].

أما بالنسبة للجنس أي النوع في هذه المرحلة: فعدد النساء فيها أكبر من عدد الرجال حيث أن متوسط أعمار النساء أعلى من متوسط أعمار الرجال.

كما يلاحظ أن هناك فرق كبير بين تعليم النساء وتعليم الرجال في هذه المرحلة. حيث شكلت النساء ٥٦٪ من جملة هذه الفئة في عام

(١) Hooyman, N. & Kiyak, H. (1999) pp. 10 - 9.

٢٠٠١. كما شكل الذكور في هذه الفئة ١١٪ من جملة الذكور للسكان بينما شكلت النساء ١٤٪ من جملة الإناث[1].

أما بالنسبة لموضوع العولمة في هذا المجال وتأثيرها على هذه الفئة العمرية، فهناك عدة ملاحظات فمثلّا ربما يكون زيادة أعداد هذه الفئة العمرية ناتج عن التقدم العلمي والنضج والوعي الصحي والأمصال المختلفة للأمراض المعدية والوبائية ويعتبر ذلك من تأثيرات العولمة.

والشيء الآخر الذي يمكن أن يكون من تأثير العولمة هو انتشار افكار معينة لثقافة معينة وتبنيها من قبل مجتمعات أخرى وهذا ربما من الصعب مقاومته بالنسبة للأجيال الصغيرة. أما بالنسبة لأبناء هذه المرحلة فإنها مسألة صعبة تجعلهم يغتربون بين أبناءهم وذويهم وتجعلهم ينطوون على أنفسهم حيث كما قلنا سابقاً التقدم العلمي السريع يُحيِّد من معلوماتهم وتصبح غير ذات جدوى، وهذا ما تفعله العولمة لهم إلا إذا بذلوا جهداً أكبر في الترقي بمعلوماتهم وأنشطتهم وثقافتهم كي يصبحوا جزءاً من المجتمع وهذا صعب جداً بالنسبة للبعض منهم خصوصاً المرضى منهم.

* * *

(١) المجموعة الإحصائية السنوية ٢٠٠١ العدد الثامن والثلاثون، ط ٣٨، دولة الكويت: وزارة التخطيط قطاع الإحصاء والمعلومن ص ٤٤ جدول ٢٢.

الأدوار الاجتماعية في مرحلة الشيخوخة

هناك تقرير لمنظمة الصحة العالمية توقع الخبراء فيه أن ٥٠٪ من الأطفال الأصحاء سوف يمتد بهم العمر للاحتفال بعيد ميلادهم المائة، وذلك في ظل الثورة العلمية التي أدت إلى تطور أساليب التشخيص والعلاج، مما جعل كثيرين يعيشون بيننا عمراً جديداً Third Age بعد سن التقاعد في سلامة تامة.

إن ممارسة الفرد للعديد من المناشط الذهنية والبدنية والاجتماعية من شأنه أن يجعل حياته في بهجة مستمرة، كما أنه يدعم لديه الشعور بالثقة والحيوية ويجعله ينظر إلى تقاعده على أنه هبة ومكافأة.. فهناك الكثير في هذه الدنيا ينتظره كي يكتشفه ويستمتع به، وهو ما لم يكن متاحاً له في السابق أثناء سنوات العمل.

يذكر عالما النفس Tirsly, Eldredg في دراسة حديثة لهما أن هناك على الأقل ٣٠٪ من الرجال والنساء لا يطيقون فكرة التوقف عن العمل، وهم يصابون أثناء العطلات بما يسمى غثيان وقت الفراغ Leisure Sickness حيث يعانون من صراع نصفي، آلام في العضلات، الغثيان، إحساس بالتعب، بالإضافة إلى الإصابة بنزلات البرد.

لقد أفاد البروفوسير طارق يوسف - جامعة جورج تاون - وهو الذي أعدّ التقرير الذي أطلقه البنك الدولي تحت عنوان [إطلاق فرص

العمل في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا] أن المنطقة تواجه تحديات جديدة، وأن المطلوب إيجاد (١٠٠) مليون وظيفة بحلول عام ٢٠٢٠، وأن الكبار لهم مكان واضح في هذه النسبة، من جانبٍ آخر، يجمع المفكرون الاستراتيجيون في علوم الإدارة والاقتصاد أن التحدّي القائم الآن في الدول النامية والمتقدمة على السواء هو معاونة «الكبار» على إتقان عملية تنشيط القدرات وتحقيق الذات وتدعيم نواحي الإيجابية في الحياة.

وفي المقابل فإن طول العمر حجّة - كما قال الصحابي الجليل قتادة[(١)]، كما أن الحافظ ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[(٢)] يقول أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم، وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - قال: قال رسول اللّه ﷺ «أعذر إلى اللّه عزو وجل إلى امرئ أخّر عمره حتى بلغه ستين سنة»[(٣)]، وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أيضاً: قال رسول اللّه ﷺ «من عمّره اللّه تعالى ستين سنة، فقد أعذر إليه في العمر»[(٤)]، أي أزال عذره ولم يبق له موضعاً

(١) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة - الطبعة العاشرة - دار البشائر - بيروت.
(٢) سورة فاطر، الآية ٣٧.
(٣) ١١ : ٢٣٨.
(٤) ٢ : ٤١٧.

للاعتذار، إذ أمهله طول هذه المدة المديدة من العمر.

من هنا فقد أقسم الله بالزمن لما فيه من الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، ولأن العمر لا يقوّم بشيء نفاسة وغلاء قال تعالى في سورة العصر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

إن الواحد من هؤلاء عندما يسترجع ماضيه يجد فيه:

- نقاء السريرة فليس عنده ظاهر وباطن ومن ثم فيشعر بالراحة.
- طهارة السيرة فليس في سجل حياته ما يشين ومن ثم فيحمد الله تعالى.
- الحفاظ على شرف المهنة: فلم يفش سراً، ولم يقصر في عطاء.

ولذلك فإن الفطن من كان برنامج حياته وهو شيخ، امتداد لبرنامج حياته وهو شاب وكان ابن عقيل لا يضيع ساعة من عمره وكان يقول: إنّي لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا متطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطّره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في سن الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين إن الحفاظ على الوقت مدعاة لترك جليل الآثار، وإطالة الأعمار أو كما قال أمير الشعراء:

دقات قلب المرء قائلة له		إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها		فالذكر للإنسان عمر ثاني

إن «أحمد أمين» صاحب «ضحى الإسلام» يضع المجال الحقيقي للدور الاجتماعي لمن بلغ الستين فيصرح بأن أوقات الفراغ إذا كانت خاضعة لحكم العقل كأوقات العمل، فإننا في العمل نعمل لغاية، فيجب أن تصرف أوقات الفراغ بعد الستين لغاية كذلك، إما لفائدة صحية كالألعاب الرياضية المشروعة وأما للذة نفسية كالمطالعات العلمية، وإما لغذاء روحي كالقيام بقراءة القرآن الكريم والحديث الشريف ونوافل الطاعات والعبادات. أما أن تكون الغاية هي قتل الوقت، فليست غاية مشروعة لأن الوقت هو الحياة، فالذين يصرفون أوقاتهم الطويلة في نرد أو شطرنج أو لغو أو لهو غير مشروع والذين يتسكعون في المقاهي والأندية والطرقات لا يطلبون إلا قتل الوقت، والناظر في سير الأولين من الأنبياء والمصلحين يلحظ آداباً عالية للعلاقات بين الشيخ وولده وهذا استعراض قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1]، سوف نجد ما يلي:

١ - الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، ومن ثم كان القول إلى قبوله أقرب.

---

(١) سورة البقرة - الآية: ١٣٢.

٢ - إنه - عليه السلام - خصص بنيه بذلك، لأن شفقة الشيخ على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم من الأرحام، فلما خصصهم بذلك في آخر عمره علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.

يقول ابن كثير في تفسيره عن الآية السابقة موضحاً وصية الشيخ لبنيه: (أي أحسنوا في حالة الحياة، والزموا هذا ليرزقكم اللّه الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه).

إن العلاقات التبادلية بين الشيخ الفاني وذريته، سواء الصالح منها والطالح تحتاج إلى مسح دقيق لهذه الأحوال فيما سبق من القرون الغابرة، واستخلاص العبر والعظات منها للأجيال القادمة بغية الاستفادة منها لدى الشيوخ والذرية على السواء خاصة وأن هناك جهلًا أو تجهيلًا ببعض القصص الواردة في صريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة، ومن ثم فإن الباحث المحايد يحتاج إلى استفراغ الجهد كي يشمر عن ساعديه في هذا المجال.

ومن جهة أخرى في حالة عدم رزق لآباء بأبناء بررة، فلنا في قصة نوح عليه السلام مع ابنه الكافر أسوة لمن لم يوفق بأبناء بررة، أو ببعض منهم، لا يسلكون مدارج الإيمان، ولا يرتدون حلل اليقين، فيرتدّون على أعقابهم خاسرين، ويدبرون عن الهدى مستكبرين منعزلين في موجات الانحلال والضلال، فما تنفعهم

قرابات المقربين، أو شفاعات الشافعين، وعلى هذا جاء التشريع الحكيم في القرآن العظيم إلى يوم الدين، فالبعد عن الدين يقطع الصلات النسبية، وليس له من قرابة المؤمنين حماية ولا نفقة واجبة، ولا ميراث، وهذا هو تفصيل وتكميل يدريه نفر من العالمين، والخلاصة فيه أن العقيدة هي العروة الوثقى الكبرى التي تلتقي فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، فإذا أنبتّت وشيجة العقيدة، أنبتّت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك في نسب، ولا لقاء بعد ذلك في صهر، ولا لقاء بعد ذلك في قوم، ولا لقاء بعد ذلك في أرض.. وإما إيمان باللّه فالوشيجة الكبرى موصولة، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها، وتلتقي بها، أو لا إيمان، فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان[١].

على الآباء والأمهات الاهتمام بأولادهم وأحفادهم، ومتابعة أخبارهم، سواء أكانوا يعيشون معهم أم بعيدين عنهم، كي يوجهوهم إلى الصالح من القول والعمل، ولنا في سيدنا إبراهيم عليه السلام النموذج للتأسي به، «فبالرغم من بعد المسافة بين الشام ومكة، ورغم بدائية المواصلات في ذلك الزمان، ورغم الإرهاق والتعب والمشقة التي كانت تلحقه عليه السلام في رحلاته - خاصة وأنه كان كبير السن في هذا الوقت - إلا أنه دائم التردد على زوجه هاجر وابنه اسماعيل بمكة، لمراعاة أحوالهما والاطلاع

(١) انظر المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام - الجزء الأول - اللجنة الاستشارية العليا.

على أمورهما، ولكي يحسّس ابنه أنه في أمان، وأن هناك من يتابعه، ويهتم بشؤونه ويراقبه ويخاف عليه»[1]، كما أن هناك أمراً آخر وهو رغم كبر سن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وشيخوخته، إلا أنه جدّ واجتهد بنفسه مع ابنه إسماعيل - عليهما السلام - في بناء الكعبة، كي يقدم له القدوة الصالحة في التقرب إلى الله عز وجل، ببذل الجهد والطاقة في طاعته سبحانه حتى يقتدي الابن به، وليس هذا أول عمل صالح يقوم به الأب أمام ابنه للاقتداء به، لكن سبقه أشياء كثيرة قدمها الأب أمامه، تجمعت لتكون منهجاً تربوياً كريماً. مما سبق يتضح أن هذه النماذج التي يزخر بها تراثنا الإسلامي تحتاج إلى تجلية وبيان، كما أنها تحتاج إلى ربط هذه الأمثلة بالواقع الذي نعيشه بعيداً عن تنظيرات المدارس الفكرية الأخرى التي تهمل هذا التراث والاستفادة منه.

وقد ذكر مرسي (١٩٩٧م) أن الحاجات التي يشبعها الإنسان في عملية التنشئة الاجتماعية عديدة منها جسمية ونفسية، واجتماعية، ودينية، ويهدف إشباع الحاجات الجسمية إلى تنمية الجسم وحفظ حياة الفرد واستمرار نوعه، أما الحاجات النفسية فيهدف إشباعها إلى تزكية النفس وتنمية قدراتها وحفظ صحتها، في حين يهدف إشباع الحاجات الاجتماعية إلى ربط الإنسان بغيره من الناس ويدفعه إلى التعامل معهم والانتماء إليهم، أما إشباع الحاجات

(١) المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام - الجزء الأول - مرجع سابق.

الدينية فيهدف إلى تنمية علاقة الإنسان بربه وتدعيم صحته النفسية من خلال إشباع البُعد الروحي عنده. ويفصِّل الباحث هنا أن الحاجات النفسية هي حاجات غير عضوية ذات صبغة نفسية وإشباعها يهدف إلى حماية الذات وتنمية قدراتها ومهاراتها وإثبات كفاءتها وجدارتها ومن أهم هذه الحاجات:

الحاجة إلى الشعور بالأمن: حيث يؤكد أن مصادر الأمن في الطفولة: الوالدان والمعلمون، وفي المراهقة: الوالدان والمعلمون والأقران، وفي الرشد: الزوج أو الزوجة والأهل والأصدقاء، وفي الشيخوخة: يكون الأبناء مصدر أمن لآبائهم عندما يصلون إلى أرذل العمر.

وفيما يتعلق بالحاجات الاجتماعية فيعرفها بأنها حاجات غير عضوية ذات صبغة اجتماعية هدفها ربط الإنسان بغيره من الناس بالحب والتقدير والانتماء والمساندة، ومن أهم هذه الحاجات: الإحساس بالوجود وتقديرهم وذكر مناقبهم وإطرائهم والقيام على أمور معايشهم وإعداد التسهيلات الشاملة لشؤون حياتهم، ومرافقتهم في الأماكن التي يقيمون فيها، ومصاحبتهم للجهات التي يترددون عليها، والنزول على تحقيق رغباتهم، ومجالستهم في المجالس، ومسامرتهم بالأحاديث والطرف، ومؤانستهم بما يطيب لهم من سماعه وعدم استيحاشهم أو وحشتهم بالفراق المؤقت.

إن البيئة والتعليم ومستوى المعيشة عوامل تؤثر سلباً أو إيجاباً في

الأدوار الاجتماعية التي يمكن أن يقوم بها من بلغ مرحلة الشيخوخة ونحسب أن هناك تناسباً طردياً بين تقدم مستوى المعيشة وبين تحقيق هذه الأدوار، كما أن الأمر ذاته إذا كان مستوى التعليم مقبولاً أو متقدماً، كما أن البيئة لها تأثير في مدى كفاية هذه الأدوار...

وفي كل الحالات فإن الإنسان إذا بلغ هذه المرحلة يكون نهباً للهواجس - إلا من رحم الله تعالى - ويكون أسيراً لذكرياتٍ، بعضها غير مريح، ومن ثم وجب على من يعول أولئك أن يتحلى بالصبر والمصابرة وأن يحتسب معاناته مع هذه النوعية في سبيل الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٣].

* * *

الفصل السابع
الخلافات الأسرية والمشكلات الاجتماعية

١ - الخلافات الأسرية: المنشأ والاستدامة.

٢ - الخلافات الأسرية: الوقاية.

٣ - الخلافات الأسرية: العلاج.

الخلافات الزواجية: المنشأ والاستدامة

مفهوم الخلافات الزواجية:

يندرج مفهوم الأسرة في علم النفس الاجتماعي تحت تصنيف «الجماعة» بأنها شخصان (أو أكثر) يتفاعلان في إطار تعرّف أهداف مشتركة واعتراف بتبادل في الاعتمادية وإقرار بوجود هذه العلاقة ودوام ذلك التفاعل.

ولا شك أن دوام هذا التفاعل رهن بوجود الكيانين مستقلين ومتكاملين، في حين يؤدي ذوبان أحدهما في الآخر إلى نهاية ذلك التفاعل، بمعنى أن التفاعل بين الزوجين يجب أن يستمر في إطار اعتراف كل منهما بوجود الآخر، وأن لكل منهما كيانه الفكري والنفسي، ومع اختلاف الآراء وتباين الرؤى نجد ثراءً في ذلك التعامل وتعزيزاً لنواتجه في استباق الخيرات، كما نجد في إيجابياته استدامة للتعارف والتراحم. ومع انحراف الرؤية لهذه الأبعاد يتحول الاختلاف إلى خلاف تتأصل فيه الحساسية المفرطة لدى الفرد تجاه الآخرين وتؤججها الظروف المحيطة به، ومن ثم تصير الخلافات الزواجية أصلًا من أصول العلاقة في نطاق الأسرة سواء الصغيرة أو الكبيرة.

والخلافات الزواجية هي مشاحات بين الزوجين تجاه موضوعات تشكل محاور أساسية بالنسبة لهما أو في مواجهة إجراءات أو عمليات

تستوجب القيام بها - قد تصل إلى مرتبة الصراعات وربما أوصلت «الأسرة» إلى التصدع أو الانهيار.

واستناداً إلى ما يثيره الدارسون في مجال الإرشاد النفسي الوقائي فإن الأفراد مهما اختلفت ثقافاتهم وتباينت معتقداتهم - لديهم ميل فطري لتكوين قناعات حول:

١ - أفكار لا عقلانية تدفعهم إلى حالات متطرفة من الانفعال والتصرف غير السوي. أو مترتباتها السلبية على حياتهم.

٢ - أفكار عقلانية تساعدهم على فهم حياتهم وإعطاء معنى إيجابي لكل ما يقابلونه وما يأتونه، فتصير الحياة في نظرهم أكثر إشراقاً وأدعى للسعادة.

ولأن النوازع السلبية والإيجابية جزء من شخصيتنا؛ فإن مهمة الإرشاد النفسي الوقائي تتمثل في «تعليم» الناس و«توجيههم» إلى التصرفات العقلانية والانفعالات السليمة والسلوكيات الصحيحة التي تحول «خلافاتهم» إلى مصادر إيجابية للسعادة المنشودة، إنها عملية توفيق بين واقع تدركه وآخر نفضله وثالث نقبل به، ومنشأ الخلافات الزواجية يكمن في سوء الإدراك وأنانية التفضيل وعدم الرضىٰ بما نتوصل إليه. إن لكل فرد الحق في أن يحقق أقصى قدر من السعادة في حياته، وأن يجد متعة شخصية في كل ما كدح من أجله، ومكانة مميزة لنفسه مقابل ما يقوم به، أو حتى لمجرد أنه أُتي به لهذه الحياة، ولكنه يجب أن يعي تماماً أن للآخرين نفس الحق

فلا يُبنى كمال حقه على نقصان حق الآخرين، وإنما يحاول تحقيق السعادة لنفسه في إطار سعادة الجماعة التي اختارها أو قبل بها ابتداءً؛ أي أن كلا الزوجين عليهما أن يدركا أن سعادة كل منهما في سعادة الآخر، وأن سعادة أسرتهما الصغيرة في سعادة الكبيرة، وهكذا باتساع الدوائر، دون سوء إدراك لمفهوم التنازلات أو التضحيات أو الحلول الوسط.

وتأسيساً على ما سبق، فإن من الممكن تعرّف بعض مثيرات الخلافات الزواجية من الناحية النفسية:

١ - ميل الأفراد إلى تكوين أفكار ومعتقدات لا عقلانية أو استنادهم إلى إدراكات خاطئة: «حماتي لا تحبني، وزوجتي تحب أمها أكثر مني، ومن المؤكد أنهما يتوافقان في مشاعرهما».

٢ - ارتباط تلك الأفكار بوجدانيات غير مناسبة: «إنني أكره تطفل شخص يكرهني في حياتي الشخصية، أو محاولته استقطاب زوجتي».

٣ - تحوّل هذه المعتقدات وما يرتبط بها من وجدانيات إلى سلوكيات غير سوية: «إنني أخيّر زوجتي بيني وبين أمّها، وسأمنعها من ملاقاتها..».

ثم تأخذ هذه الارتباطات والتأكيدات في التداعي إلى بعضها البعض لتكون في النهاية جزءاً من الشخصية، وبدلاً من أن توجّه نحو شخصيته بعينها أو قضية ما أو موقف معيّن، تصبح معياراً

للتعامل مع غيرها وتمثل أساساً لاستدامة الخلافات.

أسباب الخلافات الزواجية:

يعود نشوء الخلافات الزواجية واحتدامها إلى أسباب تتعلق بالتكوين الجبلّي للفرد (الزوج أو الزوجة) وتكوينهما النفسي والمعرفي، وإلى الظروف التي ينشأ فيها، وأخرى تتعلق بالموقف الذي يكون فيه «الخلاف» والموضوع الذي يكون عليه الخلاف.

- وجود بعض الأفكار اللاعقلانية والتي ترقى عند البعض إلى مستوى الحقائق أو المعتقدات مع تناقضها مع الواقع، وتشكل هذه الأفكار والمعتقدات مرجعية التفسير والتأويل لمفردات الخلافات، كما أن التعميمات الزائدة والتطرف في الحكم على الأمور يؤدي في النهاية إلى تكوين نمط تفكير فعالٍ لدى الفرد فيستغرق في بُعد واحد من أبعاد القضية أو يتمحور حول ذاته، فيطلق حُكمه بأن ما يراه هو الصواب (الأوحد) وهو ما يجب أن يراه الآخرون وإلا كانوا على باطل.

- غياب الموضوعية في رؤية إنجازات الآخر، مقابل تضخيم إنجازات الذات، واعتبار كل «ما أفعله كزوج أكثر مما هو مقرر عليّ» في حين يهمل الآخر في عمله ويقصّر في واجباته تجاهي.

- سوء فهم العلاقة بين الحقوق والواجبات، فعادة ما يعتبر الزوج قيامه بحد أدنى من الرعاية والتفهم تفضلًا في مقابل التقصير

«الكبير» الذي يلقاه من زوجه فيما له من حقوق. وأن ارتباط الواجبات بالحقوق يجعل من «العدالة» وجوب مقابلة الجور بالجور والتقصير بالتقصير، دون التفرقة بين ما هو مقصود وما هو غير مقصود، وذلك يسهم في جعل التربة والمناخ مهيأين لبروز الخلافات الزواجية وتكوين «الأنفس الشح» التي تنال من الآخر قبل أن تعطي تقويماً مناسباً للذات، يعززها إحساس زائف بالظلم وتخيل غير حقيقي بالاضطهاد.

- وجود مخاوف مسبقة - لدى أحد الزوجين - من احتمالات التقويم من قبل الآخر، وأنه موضع اختبار في تناوله للموقف، بما يثير حفيظة الفرد تجاه تعقيبات و تعليقات أو ردود أفعال من قبل الآخر؛ «إن زوجتي تمتحن قدرتي على تناول هذا الأمر، وقد تأخذ ذلك مؤشراً لعجزي أو ضعفي أو تسيّبي أو سذاجتي أو. . . ، فيجب عليّ ألا أتنازل عن قرار أو وجهة نظر حتى وإن كانت خطأ». كما أن وجود الفرد بين الجماعة (مع زوجة أو بين أفراد الأسرة) يمكن في حد ذاته أن يكون مثيراً لاحتمالات ظهور الأفعال والأقوال أو الاستجابات المهيمنة أو الرغبة في البروز الشخصي، مما يجعل مجرد عدم الموافقة على الرأي تسفيهاً للرأي وصاحب الرأي معاً.

- اعتبارات المحيط المادي حيث ازدحام الحيّز المكاني بالأفراد والأثاث يجعل المكان مُطبقاً على نفوس الذين يعيشون فيه منشئاً لخلافاتٍ بينهم، ومع ضيق الشقق وكثرة أعداد ساكنيها

يسود التوتر بين الزوجين وتزيد احتمالات الخلافات الزواجية، أو إعطاء سمة الخلافات الزواجية لموضوعات لا ترقى إلى هذا المستوى، فكم من الأزواج اختلفوا حول موضوع تافه وتطورت لتصل إلى تصدع الكيان الأسري، وكان السبب الأساسي التوتر الشديد وكراهية المكان غير المناسب: «متى نكون بمفردنا. إنني أحسّ وكأن البيت ليس بيتي. لن تكون لنا الخصوصية. لو أننا بمفردنا!». إضافة إلى ذلك، نجد التلوث البيئي مؤثراً على الدورة الدموية ومؤججاً للانفعالات السلبية ومثيراً للخلافات بمكوناتها الفكرية والوجدانية والسلوكية. فمما لا شك فيه أن التلوث الضوئي والضوضائي والهوائي يستثير توجهات سلبية نحو تقّبل الذات وتقّبل الآخر؛ وهي بدايات الخلافات الزواجية.

- ولمفردات الموقف الذي يوجد فيه الزوجان أثر بالغ في نشأة الخلافات الزواجية ومترتباتها السلبية، إن تناول القضية بين الزوجين دون غيرهما يختلف عن تناولها في حضور أفرادٍ بعينهم، بل إن وجود بعض الأفراد يمكن أن ينشئ خلافاً لا أساس له، أو يؤجج خلافاً خامداً أو شبه خامد. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[1] والإرادة للمثنى الحكمين والتوفيق للمثنى

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

الزوجين. فمفردات الموقف البشرية والمادية تقوم بدور هام في توجيه دفة الخلاف حيث يتحول الاختلاف إلى خلاف في محاولة لدعم الذات أمام الآخرين. إن مناقشة موضوع يخص الزوجين في لقاء يقتصر عليهما يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية في إطار من التقبل وتبادل «التنازلات» من أجل استمرارية العلاقة، في حين أن مناقشته في موقف يضم غيرهما - وإن كانوا من الأبناء أو الوالدين - ربما يدفع إلى التشدّد بدلّا من التسامح، والمعاندة بدلّا من المساندة.

عوامل استدامة الخلافات الزواجية:

إذا كانت الاختلافات في الرؤى والتوجهات أمراً طبيعياً، وكانت الخلافات الزواجية شأناً واقعاً، فمن المؤكد أن التعامل معها وإنهاءها سبيل فاعل للتوافق الأسري، ويعتمد إنهاؤها على تعرّف عوامل استدامتها والتركيز عليها، واختبار - أي من الزوجين - اتخاذِها مؤشراً للحياة «لا يوجد بيت إلا وفيه خلافات». إن لدينا حرية الاختيار في أن نكوّن بيتاً يعجّ بالخلافات أو بيتاً تسوده المودة والتراحم، ومن ثم فإن شكل الاختيار بين الاستدامة أو الوأد يعتمد على تعرّف عوامل تؤدي إلى جعل الخلافات الزواجية نمطاً حياتياً في بعض الأسر، منها:

أ - تخزين مفردات الموقف الخلافي في الذاكرة طويلة الأمد، ودعمها بمنشطات تسهّل من استدعائها في مواقف لاحقة،

بصورة إرادية.

ب - تسرّب مفردات الموقف الخلافي إلى «اللاوعي»، ومن ثم برزوها إلى منطقة الشعور وتأثيرها بصورة لا إرادية في التعامل مع المواقف الجديدة.

جـ - عدم تعديل نمط التفكير اللاعقلاني يدفع به وبمكوناته إلى تكوين الشخصية فيصير جزءًا منها، ويتكلّس الفرد في قناعات سلبية وأساليب تفكير غير منطقية يترجمها في سلوكيات غير مناسبة.

د - استمرار «الجمر تحت الرماد»، بمعنى إبقاء موضوع الخلاف معلقاً، ومن ثم اجتراره يوماً بعد يوم، وتراكمه مع غيره، ليكون الخلاف أصلًا من أصول التعامل في الأسرة.

هـ - استمرارية المحيط «السيئ»، وعدم العمل على تعديله أو التخلص من سلبياته أو التقليل من آثارها.

بعض الأفكار اللاعقلانية المنشئة للخلافات الزواجية:

١ - عدم وضوح مفهوم الزواج: مفهوم الزواج ليس واحداً عند الجميع، ومرجع ذلك عدم وضوح الهدف الأساسي من الزواج، وعدم تفهم الدور المناط بكلا الزوجين وترتيب الأولويات وتوزيع المسؤوليات والتكامل في البذل والعطاء ووحدة الغاية وإن تعددت الأساليب والسُبُل.

٢ - القناعات السلبية «المتوارثة» عند البعض؛ مثل:

أ - العداء لأهل الزوج أساس تكوين الكرامة.

ب - السكن المستقل مؤشر لعدم التبعية.

جـ - الحقوق المفترضة التي يصطنعها الفرد لنفسه.

د - «من حقي أن أتنازل عن حقي»، الفصل بين المسؤولية والمحاسبية.

هـ - النبش في الماضي وسلبياته يجعل المستقبل أكثر وضوحاً.

و - «الغير» يعرف المصلحة أكثر من الفرد نفسه، وتدخله في الخلافات مدعاة لإحراز «النصر».

ز - الشحّ العاطفي والمادي يؤدي إلى تقوية الأساس للأسرة.

* * *

الخلافات الأسرية : الـوقـايــة

أساليب درء الخلافات الزواجية (الوقاية):

درء الخلافات نعني بها تجنّب كل ما يثير النزاع قبل وقوعه وهذا مما يعطي الحياة الزوجية قوتها ومتانتها، ويضاعف خبرة الزوجين في التعامل مع الخلافات إذا ما وقعت.

دور الزوجين في درء الخلافات الزواجية:

وجود الخلافات بين الزوجين يعتبَر أمراً مهماً في حياتنا، وإلا كانت الحياة جامدة وعجز كل طرف عن فهم الطرف الآخر، لأنه من خلال الخلافات تتكشف جوانب القوة وجوانب الضعف في شخصية كل من الزوج والزوجة، ومن ثم إذا تمكن الطرفان أو أحدهما من التعامل بحكمة مع الخلافات لا بد وأن يؤدي ذلك إلى تقليلها أو توجيهها الوجه الإيجابي، وهناك أساليب يمكن للزوجين استخدامها إذا كانا ينشدان الاستقرار الأسري ويسعيان إلى تحقيقه منها:

أساليب لدرء الخلافات:

لا شك أن هناك أساليب كثيرة لدرء الخلافات الزواجية تبعاً للبيئة المحيطة وللظروف الاجتماعية السائدة وكذلك نوعية التعليم ودرجته وأخيراً الأعراف والتقاليد التي تحكم العلاقات، ومن أهم الطرق المعاصرة في درء الخلافات:

أولًا: التفسير الإيجابي للسلوك:

شيء جميل أن يبني الإنسان علاقته مع الآخرين على حسن الظن فهذا أجدر أن يقوي العلاقة ويزيدها متانة خاصة بين الزوجين والمولى عز وجل يؤكد هذه الحقيقة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١).

والقرآن يعطينا صورة للتفسير السلبي. فهذا سيدنا موسى عليه السلام يقول للرجل الصالح كما جاء في سورة الكهف: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾(٢) ما كان الرجل الصالح هذا هدفه وغايته، بدليل أنه في نهاية الموقف أكّد أن السبب في خرق السفينة هو حفظ حق المساكين من استيلاء الملك عليها كما ذكر في القرآن ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾(٣). فالملاحظ أن التفسير السلبي يثير الجدل ومن ثم النزاع، في حين أن التفسير الإيجابي «حسن الظن» يقوي التواصل ويزيد إمكانية التفاهم، فلو مارس الزوجان هذا الأسلوب أي التفسير الإيجابي لكان أحرى بهما أن يكونا أكثر هدوءاً وراحة، وكان هذا سبيلًا إلى تولد المحبة والود بينهما.

ثانياً: تكبير الحسنات وتصغير السيئات:

أسلوب إيجابي آخر في التعامل الزواجي يحفظ للأسرة كيانها، ويثبت قواعدها. في الواقع إن غالبية البشر درجوا على تسليط النظر

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢. (٢) سورة الكهف، الآية: ٧١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

على السلبيات وتجاهل الإيجابيات وهذا يحول الود إلى كره، والسعادة إلى شقاء والهدوء إلى إزعاج، ولو درج أحد الزوجين أو كلاهما على سلوك العكس وذلك بالتركيز على الإيجابيات وتجاهل السلبيات، وتكبير وتعظيم الإيجابيات مهما كانت صغيرة، وتصغير ونسيان السلبيات مهما كانت كبيرة لكانت حياتهما خلاف ما هي عليه، وتذكر هنا قصة زوجين اعتمدا هذا الأسلوب، فاعتمدت الزوجة هذا الأسلوب فكانت النتيجة أنه يمر الشهر دون أن يكون بينهما خلاف بل زادت المحبة والود بينهما.

ثالثاً: استبدال القناعات الإيجابية بالقناعات السلبية:

مرَّ في محور أسباب الخلافات الزواجية وجود قناعات سلبية لدى الزوجة أو الزوج والتي تكون سبباً مباشراً في إثارة الخلافات، مثال ذلك عداء الزوجة لأهل الزوج، أو بالأصح وضع حاجز بينها وبينهم حتى لا يؤدي ذلك إلى خلق مشاكل كما تعتقد، هذه القناعة هي أساس كثير من الخلافات بين الزوجين.

والأفضل التوسط في التعامل مع أهل الزوج، ويعني ذلك ألّا يصل الأمر أن نضع الحاجز فنكون غرباء بينهم، فنتعامل معهم بطريقة رسمية بحتة، ولا يصل الأمر إلى فتح الباب على مصراعيه بيننا وبينهم مما قد يؤدي إلى أن يجيزوا لأنفسهم التدخل في حياتنا الخاصة بأدق جوانبها. ماذا يلبس أولادنا، ومتى ينامون، وكيف

يوزع أثاث بيت أو شقة، حتى غرفة النوم لا تسلم، فلا يجد أحد منهم حرجاً في دخولها في أي وقت كان، وكيفما شاء.

نقول التوسط في كل أمر خير، نعم نكون أبناء لهم ولا نعتزل عنهم كالغرباء، ولكن في نفس الوقت لكلٍ منا كينونته الخاصة، لهم حق إبداء رأي حول موضوع ما، ولكن لا يصل إلى درجة الإلزام، تنسيق بيوتنا واختيار الأثاث هو من حق الزوج والزوجة ولا نمانع من إعطاء رأيهم فيه. نجعل من أمهات أزواجنا أمهات لنا نتجاوز عن ما يصدر عنهن من تصرفات هي في نظرنا تثيرنا، ولكن لا نجعلهن المتصرفات في أمورنا جميعها ونحن كالمتفرجين لا نملك من تغيير الموقف شيئاً.

أما القناعة السلبية بالنسبة لوجود شقة أو بيت مستقل عن أهل الزوج. نقول إذا كان المكان لا يسع فمن الممكن، ولكن إذا كان الأمر خلاف ذلك فالأفضل السكن مع أهل الزوج خاصة إذا كانت الزوجة موظفة، وتتضاعف أهمية السكن مع أهل الزوج إذا شاء الله عز وجل وجاء الأولاد فهنا تكون الزوجة أكثر اطمئناناً على أولادها والأولاد أكثر راحة واستقراراً من نقلهم من مكان إلى آخر من باب الحرص على رعايتهم، فالمشكلة أساساً ليست في السكن مع أهل الزوج ولكن نوع القناعات التي تؤمن بها الزوجة.

كما لا يفوتنا بيان القناعة السلبية عند أم الزوج أو أهل الزوج عامة

في وضع حاجز بينهم وبين زوجة الابن، ولا يعني رفع الحاجز التجاوز إلى الأمور الخاصة، كأن تجيز أم الزوج أو أحد أفراد أسرته لأنفسهم التدخل في شؤون ابنهم الخاصة دون وضع اعتبار للزوجة، أو أن تحسب على الزوجة حركاتها وأنفاسها دون التفات إلى خصوصياتها، ورفع الحاجز نعني به أن تعامل أم الزوج زوجة الابن كما تعامل ابنتها بأن تشجعها على المشاركة والتحرك في إنجاز المطلوب منها دون تكلف. وأن تضع يدها بيد شقيقات الزوج أو بيد أم الزوج إذا لم يكن في الأسرة بنات، لعل في ذلك مساعدة لها في التخلص من الخجل نتيجة قدومها إلى أسرة جديدة عليها.

أما العصبية إذا تغيرت القناعة اتجاهها وتأكد أن الإنسان هو الذي يخلقها لنفسه وليس رغماً عنه سيكون من السهل التخلص منها كما أوصى رسول الله ﷺ حين قال: «**لا تغضب**» للرجل الذي سأله الوصية، ومما يساعد على تغيير القناعة حول العصبية التفكير بمضارها وكيف يتولد عنها كثير من الأمراض، السكر، الضغط، القولون العصبي، القلب، المعدة والصداع وغيرها.

رابعاً: عمل ما يريد الطرف الآخر لا ما أعتقد أنه يريد:

كثير ما نسمع من الزوجات، ماذا أصنع لقد أفنيت حياتي في خدمة هذا الزوج ورعاية بيته وأولاده، عملت كل ما يريد وكل ما يحب، ولكن في النهاية أجد نفسي عاجزة عن إرضائه. نقول لمثل

هذه الزوجة لعلك كنت تفعلين ما تعتقدين أنه يريد، لا ما يريد في الحقيقة. تساؤل قد يطرح في هذا الموضع من قبل الزوجة. إذن ماذا يريد؟ وكيف يتم معرفة ما يريد؟

أما ماذا يريد الزوج. فكل زوج له شخصيته المميزة يحب أموراً ويكره سواها وهنا يأتي الشق الثاني من التساؤل.. كيف يتحقق للزوجة معرفة ما يريد؟ يتحقق ذلك بمحورين من محاور التعامل البشري:

أولًا: الأسلوب اللفظي.

ثانياً: الأسلوب غير اللفظي.

الأسلوب اللفظي:

أما الأسلوب اللفظي فهو معروف ومستعمل بكثرة بين العباد عامة وبين الأزواج خاصة. والأسلوب اللفظي في الواقع أسلوب سهل الاستعمال وقد يعتقد البعض أنه أفضل وسيلة للتعبير عما يريد الإنسان، لذلك فعلى الزوجة الإنصات وتسجيل ما يقوله الزوج في حال الاستحسان أو الرفض ومن خلال كلمات المدح أو الذم، فمثلًا عند تقديم صنف من الطعام، أو تنظيم البيت بطريقة معينة أو الاهتمام بأهله، يمكن تسجيل ملاحظات حول ما سبق للاستفادة منها فيما بعد أو في الوقت المناسب.

الأسلوب غير اللفظي:

ويعرف «بلغة الجسم» تعبيرات الوجه ونغمة الصوت وحركة اليد والرأس وحركة الجسم عامة. هنا ينبغي أن تكون الزوجة دقيقة في معرفة ما يريد الزوج.

في الحقيقة الأسلوب اللفظي أكثر دقة في توصيل ما يريد، فلعله يقول بلسانه ما ليس في قلبه فينعكس ذلك على تعبيرات وجهه أو نغمة صوته. كأن يمتدح بلسانه ما ترتديه الزوجة وتعبيرات وجهه تؤكد استياءه، أو عندما تعود الزوجة مثلًا متأخرة إلى البيت، أو في حال استخدامها للهاتف بوجوده، ماذا تلاحظ عليه من ردود أفعال، الأفضل ألا تعتمد فقط على ما يقول الزوج، ولكن عليها أن تراقب حركات جسمه وتعبيرات وجهه لتعلم مدى تقبله لهذا التصرف أو ذاك.

وفي النهاية ستجد الزوجة نفسها إن شاء الله خبيرة بنفسية زوجها ما يريد وما لا يريد، ما يحب وما لا يحب، ولن تكلف نفسها عناء سؤاله عما يريد أو ما يحب.

خامساً: دور الأهل في درء الخلافات:

يبرز دور الأهل في تدريب الشاب والفتاة منذ الصغر على قواعد سلوكية وقناعات إيجابية معينة تؤهلهم لبناء أسر صحية التكوين.

التنشئة الوالدية الصحية:

يقصد بها تلك التنشئة التي تتلافي ابتداءً منابع الخلافات والتدخل في نطاق الوقاية أيضاً.

أهم عمل يقع على عاتق الوالدين؛ بيان الهدف من الزواج المتمثل في بناء أسرة متينة الأركان عمادها وتعاون قائم على الود والتراحم، وتفاهم أساسه التقدير والاحترام، ثقة بأن لكلٍ دوره ولكلٍ حقه، توازن في الأخذ والعطاء ولن يتحقق ذلك إلا إذا جعل الزوجان أساس ارتباطهما مرضاة الله تعالى والسير على هدىٰ خير البشر ﷺ.

وهذا العمل لا بد له من وسائل ومن أهمها القدوة كوسيلة فعّالة لتحقيق هذا الهدف، ولا يغيب عنا وسيلة التوجيه والإرشاد القائم على الحوار الهادئ ويمكن الاستفادة من خبرات الآخرين من خلال الكُتُب والأشرطة والمحاضرات.

فحين يحرص كل من الزوج والزوجة على إبداء معاني الاحترام والتقدير وحسن الإنصات للطرف الآخر فهذه أفضل وسيلة لنقل الخبرة بطريقة سهلة وسريعة للأبناء.

فمن مهمات الوالدين تدريب الشاب والفتاة على تكوين قناعات إيجابية حول تحمل المسؤولية وترتيب الأولويات وتوزيع الأدوار، واتخاذ القرار، والتقدير والاحترام والإنصات إلى الرأي الآخر.

ولو جرب كل من الزوج والزوجة في أن يتحمل كل منهما

مسؤوليته كما أرادها المولى عز وجل وبيَّنها المعلم الأول رسول الله ﷺ ولو عمد كل منهما إلى ترتيب الأولويات أيها أهم في حق أسرتي أن أعمل كذا أو كذا؟ ولو أخذ كلٌ دوره دون تهاونٍ أو فتور. . وكان مبدأ اتخاذ القرار واضحاً كل الوضوح عند كل من الزوج والزوجة، لمن يكون القرار؟ ومتى يكون؟ هل القرار دائماً بيد الزوج أم الزوجة؟ أم في الغالب للزوج لكونه صاحب القوامة؟ ولا يمنع أن يكون بعض الأحيان للزوجة.

ما مدى إنصات الزوج لوجهة نظر الزوجة؟ وما مدى إنصات الزوجة لوجهة نظر الزوج؟ وكل هذا قائم على التقدير والاحترام لو حدث هذا ولو في غالب الأحيان، لتنعمت الأسرة بجنة الله تعالى في أرضه. .

دور المجتمع في درء الخلافات الزواجية:

المؤسسات التعليمية: سواء الحكومية أو الأهلية دورها يتمثل في تحديد الأهداف التي تنبني عليها المناهج الدراسية. ولو تضمنت هذه المناهج إبراز مفهوم الزواج والهدف الأساسي منه، من منطلق ما أكده المولى عز وجل في التمكين في الأرض وإعمارها بما يعود على البشرية بالخير لاختفت كثير من الخلافات، ولا يخفى على أحد دور المدرسة في بناء أو تعديل أو تغيير القناعات، والتأكيد على دور الرجل والمرأة في البناء البشري.

كما يمكن أن تتضمن المناهج الأسلوب الفعّال في التعامل الزواجي المأخوذ من الكتاب الكريم والسيرة المطهرة كيف كان رسول الله ﷺ يتعامل مع المواقف كزوج وكأب.

القرآن الكريم حوى كل قضايا الزواج بالإيجاز أو التفصيل، ولا أدل على ذلك من قضية الطلاق حيث نجد المولى عز وجل يراعي الحالة النفسية للمطلقة فأعطاها الكثير من الرعاية والعناية حتى وصل الأمر إلى درجة أن تخير في إرضاع مولودها، كذلك من خلال الآيات نلاحظ مدى حرص الله عز وجل على حفظ العلاقة الزواجية حيث نهى الزوج وكذلك الزوجة في حال الطلاق الخروج من بيت الزوجية كما قال في أول سورة الطلاق: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وعلى الزوجة الاستمرار في بيت الزوجية فترة العدة ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ كما ذكر في كتابه الكريم، وقد رأينا لذلك نماذج كثيرة حين تستجيب الزوجة لربها فيكرمها المولى عز وجل ويعيد لهما الحياة كأحسن ما تكون عليه وكما يتمنى العبد.

وحتى تظهر لنا أهمية اعتماد مناهجنا على كتاب الله تعالى لتكوين علاقة متينة بين الزوجين، ولعظم المهمة الموكولة بهما، يكفينا نظرة إلى طبيعة العلاقة بين الزوجين التي لم تصل إليها علاقة بين شخصين مهما كانا كما وصلت بين الزوجين، حتى ولو كانت علاقة الأم بوليدها علاقة أعطيت كل صور ومعاني التواصل البشري. يقول

الحق تبارك وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]. وهذا يؤكد مدى القرب الروحي والنفسي والجسدي بين الزوجين.

المؤسسات الحكومية والأهلية ودورها في درء الخلافات الزواجية

ولعل أكثر الجهات الحكومية فاعلية في درء الخلافات الزواجية قبل وقوعها، وزارة الإعلام وذلك بما لديها من أجهزة وإمكانات إعلامية بها تتمكن من تغيير أو تعديل القناعات وذلك من خلال إبراز الجوانب الإيجابية للحياة الأسرية، وتجنب قدر الإمكان عرض الجوانب السلبية التي يكون لها انعكاسات سيئة على الحياة الزوجية، كإظهار الزوج في صورة المتسلط والزوجة ضعيفة التي لا حول ولا قوة لها، وتعليل ذلك بأنه عصبي لا يملك أمر نفسه.

ومن الأهمية بمكان التأكيد على أهمية ارتباط الزوج أو الأب ببيته وأسرته وجعلها من الأولويات، فتكون الديوانية أو الشاليه ولقاء الأصحاب من مكملات حياته وليست هي حياته. وتكوين قناعة أن ما نجده من سعادة مع أفراد أسرنا يفوق ما نجده مع أصدقائنا ورفقائنا، والتأكيد على أن المردودات النفسية على ارتباط الزوج والأب ببيته تفوق بكثير المردودات النفسية بارتباطه بأصدقائه ورفقته.

أما جمعيات النفع العام فتمثل دورها في طرح ومناقشة قضايا الزواج بتقديم برنامج منهجي للمحاضرات والندوات وإصدار النشرات التوعوية من خلال تفهم أكبر لما جاء به المنهج الرباني

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

المنزَّل من السماء لسعادة الإنسان من خلال التجسيد الواقعي لهذا المنهج في حياة سيد البشر محمد ﷺ وكيف حقق لنفسه ولمن حوله السعادة الزوجية والاطمئنان النفسي.

وسائل الإعلام ودورها في التعامل درء الخلافات الزوجية:

يقوم الإعلام بدور كبير في صياغة عقلية الشباب، فبحسب نوعية الطرح الإعلامي تكون القناعات، وكما يعلم الجميع فالقناعات هي المحرك الأساسي للسلوك، فكم من شاب صرف النظر عن الزواج لأنه تشكلت لديه فكرة سلبية أكد له أن الزواج ليس فيه إلا المشاكل والهموم، ولعل تكوين «علاقةٍ» في نظره أفضل من الزواج، فالشاب في هذه الحالة معفى من تحمل المسؤولية، متى ما شاء قطع العلاقة، ومتى ما شاء عاد إليها أو لغيرها دون أن يطالبه أحد بحق.

ولو كان للطرح الإعلامي سواءً في الإذاعة أو التلفزيون مسار إيجابي في تعزيز القناعات التي تؤكد أهمية الزواج في حياة الشباب، وكيف أنه الوسيلة الوحيدة للاستقرار والشعور بالاطمئنان للشاب وللفتاة على حد سواء، لارتفعت نسبة الزواج وقلت نسبة الطلاق وتنعم الزوجان بل الأسرة بكاملها بجمال الحياة الزوجية الهانئة، ولو حل محل المسلسلات التلفزيونية والإذاعية التي تظهر الحياة الزواجية والأسرية بصور سلبية كالشك، والعلاقات المحرمة، والعصبية التي تجعل أي أمرٍ بسيطٍ أمراً جللًا يهتز له

أركان البيت، وتعلو معه الصيحات وينتهي الحال إلى توتر الجميع، وانفصال الزوج والزوجة كل في غرفته الخاصة، نقول: لو حل محل هذه الصور صورة ترسم معاني التقدير والاحترام والثقة بين الزوجين وسائر أفراد الأسرة، لعلم الشباب ماذا تعني الحياة الزوجية، وبصفة عامة عرض مسلسلاتٍ ذات الطابع الإيجابي في تعزيز القيم الإسلامية في بناء الأسرة، كما يمكن لوسائل الإعلام التلفزيونية والإذاعية عمل برامج في صورة استشارات زواجية ومنها يمكن الاستفادة من خبرات المتخصصين في محال الإرشاد النفسي.

أما الصحف فيمكن أن يكون دورها في عمل تحقيقات ودراسات حول الأسرة عامة، والتعامل الزواجي الفعّال خاصة، وهذا كله من الممكن أن يساعد على استبدال القناعات السلبية بالقناعات الإيجابية حول مفهوم الزواج والحياة الأسرية وبنجاح، مثل هذه التحقيقات والدراسات الهادفة يمكن تحويل الواقع الذي يرى فيه الشباب الجانب القاتم من الحياة الزواجية إلى رؤية أكثر صدقاً، وأشد تفاؤلًا في بيان الواقع الحقيقي للحياة الزواجية القائم على المودة والرحمة كما أكّدها المولى عزَّ وجل في سورة الروم.

* * *

الخلافات الأسرية : العــــلاج

التعامل مع الخلافات الزواجية (العلاج)

يحتاج التعامل مع الخلافات الزواجية إلى أبعاد عملية وترجمة تطبيقية للأسس النظرية. ومع الإقرار بأهمية تلك الأسس إلا أن التركيز على التعامل الواقعي لا يمنع إرجاعها إلى مظانها التنظيرية، وينقسم التعامل مع الخلافات الزواجية إلى تحديد أدوار وممارسات المتعاملين في هذا المجال.

الخلافات الزواجية ودور الزوجين:

إن أول من يحتاج للإنصات لنا والتعاون معنا الزوجان ذاتهما لكونهما المستفيد الأول. والأمر لا يتعدى التدريب على أساليب معينة في التعامل وبعدها سوف تتحول حياتنا بعون الله تعالى إلى شيء جديد، حياة يعمها الهدوء، ويكسوها الرضا، ويرطبها الود والحنان، يشملها التقدير والاحترام بين سائر أفراد الأسرة فيكون أطيب أوقاتهم لحظة اجتماعهم. والخلافات حين تحدث تحتاج إلى أساليب معينة تساعد على تهدئتها.

أسلوب «خير الكلام ما قلّ ودلّ»: التقليل من استخدام الأسلوب اللفظي، نعني به الكلام بما حوى من ألفاظ وعبارات فخير الكلام ما قلّ ودلّ. الواقع أن أسهل وسيلة للتفاهم بين البشر استخدام الألفاظ كما ذكرنا، وقد يعتقد البعض أن استخدام الألفاظ هو الأفضل في التعبير عما يريد الشخص وخاصة بين الأزواج، لكن في الحقيقة

الألفاظ غالباً ولعلها في كثير من الأحيان إذا زادت عن الحد المطلوب للموقف فإنها تكون سبباً في اتساع رقعة المشكلة، وقد تجعل التفاهم صعباً فكل طرف سوف يستخدم ذخيرته اللغوية في توضيح صحة موقفه، مع العلم بأن أحد الطرفين لا بد وأن يكون مخطئاً أو قد يكون الطرفان مخطئين. لذا وحتى لا تتفاقم المشكلة ويزداد الموقف سوءاً على أحد الطرفين أن يستخدم أسلوب «**خير الكلام ما قل ودلّ**». يعطي إجابة محددة ثم يصمت مهما حاول الطرف الآخر إثارته بالمحاسبة أو اللوم أو العتاب أو السخرية.

ويكون مصاحباً لأسلوب «**خير الكلام ما قلّ ودلّ**» أسلوب آخر ونقصد به أسلوب الصمت، وهذا يحتاج إلى تدريب حتى لا يخرج الشخص عن صمته نتيجة استفزاز الطرف الآخر له فيعود ثانية إلى الأسلوب اللفظي المدمر، عليه في هذه الحالة أن يجمع بين الصمت والذكر، أي يردد شيء من القرآن أو الأذكار أو الاستغفار، هنا سيجد نفسه أكثر هدوءاً إضافة إلى ما يرصد له من حسنات، وليكن أكثر حذراً من أن يسمع الطرف الآخر ما يتلفظ به من الأذكار.

الأسلوب غير اللفظي «لغة الجسد»: وكما ذكرنا آنفاً فالأسلوب غير اللفظي أكثر فاعلية من الأسلوب اللفظي. وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

وكما قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» بكل سهولة يمكن للإنسان من خلال «لغة الجسد» استخدام الرأس أو اليد أو الكتف أو نغمة الصوت في توصيل ما يريد إلى من يريد، فتعبيرات الوجه تساعد الزوجة وكذلك الزوج على شرح ما يعاني من مشاعر أي كان نوعها دون أن يكلف أحدهما نفسه التلفظ بكلمة واحدة.

سيدة فاضلة بدأت في تطبيق الأسلوب غير اللفظي مع زوجها الذي اشتد الخلاف معه إلى درجة قاربت الطلاق واستمرت عليه فترة بسيطة فما كان من الزوج إلا أن عاد إليها راغباً وقد صارحها بقوله: «رغم أن كلامك معي كان قليلًا وبسيطاً إلا أنني شعرت بنبرة الحزن والألم وهذا أشد ما أثر في نفسي وشعرت معها بالذنب».

لعل في هذه الحادثة دليل ثابت على أن الأسلوب غير اللفظي يعطي نتائج إيجابية على النقيض من الأسلوب اللفظي الذي يوسع دائرة الخلاف وإن بدا الخلاف بسيطاً.

أسلوب التجاهل: هذا الأسلوب لا بد أن يفهم جيداً فهماً صحيحاً. ويحتاج الأمر إلى التدريب عليه إلى أن يصبح سلوكاً ثابتاً يمكن ممارسته بتلقائية ودون تكلف. لعل في بداية ممارسته قد لا يوفق فيه، ومرجع ذلك إلى عدم استيعاب الشخص لهذا الأسلوب أو عدم فهمه كيف ينفذ، ولكن وبعد أن يفهم فهماً صحيحاً كما ذكرنا، فسوف يأتي بنتائج مبهرة خاصة بالنسبة

للأشخاص الذين يعانون من ضعف في إقناع الطرف الآخر بوجهة نظرهم.

هذه الطريق لها فاعليتها فقد استخدمت وأعطت نتائج إيجابية، المهم الاستمرار في استخدام هذين الأسلوبين أسلوب «خير الكلام ما قلّ ودلّ» وأسلوب الصمت المصاحب للأذكار حين تبدأ علامات الخلاف تلقي بظلالها على الموقف.

ومن الحالات التي يمكن ورودها هنا؛ سيدة حين سُئِلَتْ السؤال المعتاد في أول جلسة إرشادية لها، ما الشكوى الرئيسية؟ قالت: أريد الطلاق من زوجي حيث إن الأمر وصل إلى درجة أنه مد يده عليَّ بالضرب. هنا أدركت كيف تطور الموقف إلى أن وصل إلى هذا الحد. الزوج لم يصل إلى درجة ضرب الزوجة إلا بعد ما أخذ الجدال يحتد بينهما - كلمة منه وكلمة منها ولا أحد منهما يلوذ بالصمت - وبتكرار هذا الأمر يزداد الجدال حدة إلى درجة يبدأ الزوج بالسب والشتم، وهذا مما يثير الزوجة أكثر فيتضاعف الموقف وينتهي إلى رفع يده عليها بعدما عجز عن إسكاتها.

علماً بأن هذه الزوجة بعد مضي أربع جلسات في تدريبها على أسلوب التعامل الإيجابي مع الزوج، وحين تم الاتصال بها لتحديد موعد الجلسة التالية اعتذرت وقالت: لقد تغير كل شيء وأصبحت أكثر فهماً لزوجي.

والتجاهل قد يعتقد البعض أنه خصام بمعنى وضع حاجز بينه وبين الطرف الآخر في الخلاف، فيتخذ الزوج أو الزوجة موقف به يتجنب كل ما له صلة بالطرف الآخر وينقطع الاتصال بين الزوجين بكافة أشكاله، البعض يظن أنه بهذا الأسلوب يتمكن من الانتصار على خصمه ويجعله يستجيب له بالقوة.

هذا مناف لما جاء به القرآن الكريم عندما قال المولى عز وجل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

والبعض يعتقد أنه دليل على القوة والتحدي وهو في الحقيقة دليل على الضعف والعجز مما يساعد على زيادة قوة الطرف الآخر الذي يراد أخذ الحق منه.

نقول التجاهل خلاف الخصام، فالتجاهل في حقيقته يتمثل في أن يتسلح من يريد استخدامه بقوة الإرادة، والقدرة على التحكم في الانفعالات، بحيث لا يلتفت إلى المثيرات من حوله، ولا يعيرها أدنى اهتمام، ويبدو عليه تماماً أنه غير منتبه لها، مما يجعل الطرف الآخر يتخلى عن موقف المستعد للحرب والدخول في نزاع.

ويتمثل هذا الأسلوب في أن تؤدي الزوجة مثلًا كل ما يطلب منها الزوج في حدود مرضاة الله تعالى، لا كما تفعل بعض الزوجات إذا غضبت من زوجها توقفت عن الاستجابة لكل طلباته، حتى الحديث معه تحرّمه على نفسها، وهنا كما قُلنا هو «الخصام» وليس التجاهل.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

فالتجاهل إعطاء الزوج كل حقوقه ولكن التوقف عن عرض الخدمات التي لم يطلبها الزوج. ويمكن للزوجة أن تقلل من اهتمامها الزائد به، كأن توقف الاتصالات المستمرة به إلا للضرورة، كما تحاول أن لا تسأله أين أنت؟ ومتى ستعود إلى البيت؟

علماً بأن التجاهل لا يستخدم في كل الأحوال وكل الأوقات، وإنما إذا حدث خلاف وشعر أحد الزوجين أنه لم يعط حقه، يمكن بهذه الوسيلة جعل الطرف الآخر ينتبه لما صدر عنه من مضايقة فيعدّل من سلوكه. هذا الأسلوب يحتاج إلى وقت كاف حتى يُتقن ويؤتي ثماره الطيبة.

وأسلوب التجاهل يمكن أن تستخدمه الزوجة مع زوجها أو الزوج مع زوجته، المهم في الأمر الطرف الضعيف هو الذي يستخدمه، أقول الضعيف وقد يعتقد البعض أن الزوجة هي الضعيفة، والزوج يرفض لنفسه هذه الصفة. وفي الحقيقة أن بعض الأزواج لشدة طيبته، الزوجة تعتقد ذلك ضعفاً فتزيد من تسلطها وفرض رأيها ولا تقبل لرأيها بديلًا.

وقد يكون الأمر نفسه مع الزوجة كأن تكون طيبة بدرجة كبيرة فيفسر الزوج الطيبة بالضعف فيستغلها بأن يسيِّرها كيفما يشاء دون التفات إلى بشريتها. هذا الأسلوب يعطيها القوة التي فقدتها بتسامحها اللامحدود مع الزوج، فهو الآمر الناهي وليس لها أي قرار مهما كان.

هذا الأسلوب يمكن للزوج استخدامه إذا كان يعاني من تصلب رأي الزوجة إزاء بعض الأمور. حيث تعتقد بعض الزوجات بأنها أفهم من غيرها في سائر الأمور، لذا لا بد من أخذ الجميع برأيها حتى الزوج ينبغي أن يستجيب لها، فهو لا يفهم كفهمها أو لديها قناعة بأنها أدرى بمصلحتها، ومن ثم أي وجهة نظر للزوج تعني تدخله في خصوصياتها، وتسلط عليها.

مثل هذه الزوجة ينبغي على الزوج استخدام أسلوب التجاهل معه، مثال ذلك حين يظهر الزوج استيائه ورفضه لصديقة معينة للزوجة أو الرفقة بكاملها، هنا تحاول الزوجة عدم الالتفات لطلب زوجها والاستمرار في هذه العلاقة، من باب أنها بلغت من النضج ما يؤهلها من معرفة الصواب من الخطأ، وليست بحاجة إلى من يرشدها.

فعلى الزوج هنا بعد ما وضّح وجه نظره بعبارة مختصرة «خير الكلام ما قل ودل» تجنب فتح الحوار معها حول الموضوع مهما كان السبب. حتى تعلم مدى جديته، حيث إن الحوار قد يضعف موقف الزوج ويقوي موقف الزوجة. كما أن عليه أن يقلل اهتمامه المعتاد بها، كالممازحة أو أي أمر يشعرها باهتمامه بها، إضافة إلى ذلك يظل موقفه ثابتاً أمام هذا القرار. وهذا يعني أن الزوج لم يتخذ هذا القرار إلا بعد دراسة وإحاطة شاملة بالموضوع.

أسلوب الرسالة: يتميز هذا الأسلوب في كونه أكثر فعالية من أسلوب المواجهة الذي يكثر استخدامه بين الأزواج، والذي في

الغالب قد يتحول من حوار هادئ إلى نزاع، للمواجهة عادة تبدأ بهجوم من طرف يقابله دفاع من الطرف الآخر ومعه يشتد النزاع، وقد يكون هناك طرف الحق معه، ولكن قد يضيع حقه في خضم هذا النزاع المدمر، وينتهي إلى اتساع الفجوة بين الزوجين واستمرار المشكلة، بل وتتضاعف لعدم إمكانية الطرف صاحب الحق من أخذ الوقت الكافي لتوضيح وجهة نظره، وبيان قصده بعرض كامل لما حدث وكيف حدث.

أما في حال الرسالة فبالإمكان تسجيل كل ما يراد طرحه بدون مقاطعة من الطرف الآخر، ومن ثم لن يكون هناك مجال لنسيان ما يراد توضيحه، بل يكون تسلسل وترتيب الأفكار ترتيباً يساعد الطرف المتلقي للرسالة من فهم المقصود منها، والهدف من كتابتها.

هذا أهم ما يميز أسلوب الرسالة عن أسلوب المواجهة الذي يحول الموقف البسيط إلى حالة تشتد صعوبتها مع مرور الوقت.

أما كيف تكون الرسالة؟ فهذا أمر هام جداً ينبغي على الأزواج تعلمه، قد يستعمل بعض الأزواج أسلوب الرسالة، وقد يصدر البعض حكمه على هذا الأسلوب بأنه غير مجدي ولا يغير من الحال شيئاً؟ لمثل هؤلاء نقول: إن أسلوب الرسالة له قواعد وأصول لذلك نجد المرشد النفسي حين يضع ضمن خطته العلاجية أسلوب الرسالة نجده يطلب من المسترشد كتابة الرسالة ثم بعد ذلك تعرض على المرشد ليقوم بالتعاون مع المسترشد بتعديلها بما يناسب الموقف ويحقق الهدف المحدد.

قواعد كتابة الرسالة بين الزوجين:

- مقدمة لطيفة فيها يمكن فتح قلب الزوج أو الزوجة.
- ذكر محاسن الزوج وامتداح ذلك، قد تقول الزوجة لا أعتقد أن في زوجي شيء منها، نقول هذا من المستحيل لأن كل إنسان له محاسن كما له مساوئ.
- ذكر بعض المواقف التي تحمل صفة الذكريات الجميلة عند الزوجين.
- تحديد ماذا تريد الزوجة من الزوج ولعلها تسجل أكثر من ثلاثين نقطة هنا عليها أن ترتبها حسب الأولويات ثم تختار منها الأهم ولا تتعدى ثلاث أو أربع نقاط.

قبل أن تسجل هذه النقاط، عليها أن تؤكد للزوج أنها بسيطة حتى يمكن للزوج تقبلها، مهما كانت هذه السلبيات صعبة.

يفضل ألا تسلّم باليد وإنما تضعها له في ملابسه وقبل خروجه مباشرة من البيت.

هذا الأسلوب استخدم وأعطى نتائج بعيدة المدى. منها زوج كان من النوع المتصلب لرأيه، ويصعب تنازله عن موقفه مهما كان الأمر، ولكن وبعد أن استلم الرسالة وأبدى بعض التعليقات عليها في البداية إلا أنه بعدما استوعب ما فيها عمل المطلوب منه، وكانت مفاجئة للزوجة غير متوقعة والأمثلة على ذلك كثيرة.

أسلوب المعالجة الذكية: أساس هذا الأسلوب أن تكون الزوجة أو الزوج أكثر حكمة في التعامل مع الموقف، وحتى يتحقق ذلك لا بد من وضع هدف لهذا الأسلوب «أريد الحفاظ على بيتي وأسرتي» ولكي يعطي هذا الأسلوب النتائج المرجوة ينبغي الالتزام بالآتي:

أن يجعل الزوج أو الزوجة صاحب المشكلة نفسه طرف محايد في النظر إلى المشكلة، ويحاول جمع المعلومات الكافية للوصول إلى الأسباب الرئيسية لحدوث هذا الأمر، ولا يقتصر النظر من زاوية واحدة ولكن من كل الزوايا، فلو كانت المشكلة في الظاهر ترجع إلى الزوج، فعلى الزوجة حتى تساعد نفسها على الوصول إلى معالجة صحيحة، عليها أن تعيد النظر في طبيعة تعاملها مع زوجها وأن تضع نفسها موضع المتهم، وبهذه الطريقة يمكن جمع معلومات مهمة تساعد في حل المشكلة.

وحتى يوفق الزوجان في حفظ أسرتهما عليهما ملازمة الدعاء بالثبات، فإذا وقعت المشكلة تولاهما الله تعالى بحفظه، فيكونا أكثر قدرة على استيعاب ما حدث ومعالجته بطريقة هادئة.

يقول المولى عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(١).

ولكون هذا الأسلوب يستخدم خاصة عند اشتداد الأمر وتأزم الحال، هنا تبرز أهمية استعانة الزوجين أو أحدهما بالله تعالى

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

بطلب التوفيق إلى الحل الأفضل، ويكون هذا باللجوء إلى صلاة الاستخارة. وملاحظة ينبغي التنبيه إليها أن من علامات الاستخارة تسهيل الأمر إذا كان فيه خير للعبد، وعرقلته إذا كان خلاف ذلك، وليس كما يعتقد البعض الشعور بالارتياح أو الرؤيا في المنام.

وكنموذج لهذا الأسلوب لو أن الزوجة اكتشفت حقيقة وليس ظن كما تفعل بعض الزوجات، التي أشغلت نفسها في مراقبة زوجها، أو الزوج الذي أشغل نفسه في مراقبة زوجته وهي من أطهر العباد وأصدقهم، نقول اكتشفت حقيقة ودون محاولات منها في البحث والتحري، أن لزوجها علاقة. هنا عليها طلب الثبات من الله تعالى أولًا لأن الأمر صعب، ومن ثم تحاول الابتعاد عن المواجهة لأن المواجهة تعطي الزوج فرصة للدفاع عن نفسه وإن كان مخطئاً. ثم تأتي مرحلة جمع المعلومات، انطلاقاً من السؤال الآتي. لماذا زوجي كوَّن هذه العلاقة ولا تعتمد فقط إلى إصدار الأحكام على الزوج واتهامه، وإنما كيف هي معه، هل هي ممن يسترشد بما تمليه عليها الصديقات والزميلات والأهل والمعارف في التعامل مع الزوج؟ أم تتعامل معه بمقتضى ملاحظاتها بمراقبة أسلوبه اللفظي وغير اللفظي وإحاطتها بما يحب وبما لا يحب؟

السرية في احتواء الخلاف: على الزوجين أن يكونا أكثر حرصاً في احتواء الخلاف بسرية تامة، وهذا مما يساعد على تحديد نقاط الخلاف، فيكون بين شخصين ومن ثم يسهل معالجته بهدوء، وبه يمكن أن تصفوا القلوب. ولو اتبع الزوجين مبدأ «لا تجعلا

حياتكما كتاباً مفتوحاً يقرأ» لتميزت حياتهما الزوجية برباط متين، ولقوى التواصل بينهما، ولصعب اختراقه.

يلاحظ أن الزوج عادة يرفض اطلاع الآخرين على حياته الخاصة ولو كانوا من أقرب الناس إليه، وهذه معلومة ينبغي على الزوجة أن تضعها في الحسبان، وفي نفس الوقت نجد بعض الأزواج لا يجد حرج في التحدث عن أمور بيته الخاصة مع أهله أو أصحابه، وهذا مما يؤلم الزوجة، ولعل ذات الشخص يرفض أن تمارس زوجته نفس الدور، يعني تتحدث مع أهلها بأمور بيتها الخاصة، فعلى الزوج مراعاة ذلك. نقول لكلا الزوجين تعاملا بسرية حتى لا تصلا إلى حلٍ للمشكلة بسرعة وهدوء.

عدم إتاحة الفرصة للآخرين في التدخل: مما يزيد الخلافات بين الزوجين اشتعالاً، خروج الزوجة من بيتها إلى بيت أهلها، ومن ثم طلب الأهل من الزوج الاجتماع به للنظر فيما حدث، أو حتى اتصالها التلفوني بأهلها طلباً للتدخل، ولعل الأمر ليس ذا أهمية ولكن جهل الزوجة، وقلة وعيها بالأسلوب الأمثل في إدارة حياتها الزوجية، يجعلها تتصرف بهذه الطريقة.

دخول الأهل أو سواهم في الخلافات خاصة في بدايتها يضاعف المشكلة، حيث تتعدد وجهات النظر، فكل ينظر إلى المشكلة من زاويته، ومما يزيد الموقف سوءاً أن قلوب الزوجين قد تصموا وقد تطيب، وفي نفس الوقت نجد ترسبات تركت في قلب الأم أو الأب ما أن تجد مناسبة حتى تظهر على السطح.

دور الأهل في التعامل مع الخلافات الزواجية:

اتخاذ أسلوب الحياد: في الغالب نجد أهل الزوجة يميلون إلى موقف ابنتهم، وأهل الزوج في صف ابنهم، ويزداد تعاطف أهل الزوجة مع ابنتهم برؤية دموعها، ودعم أهل الزوج لابنهم لما لديه من مهارة في الإقناع، وترتيب الكلام، يجعلهم أكثر تمسكاً بصحة موقفه، وهنا تتسع رقعة النزاع ليصبح بين عائلتين بعدما كان بين شخصين، ويفترض أن يدخل المحكمين بين الزوجين وقد صفت قلوبهم، وحسنت نياتهم، وصدقت أفعالهم. قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[1]. واتخاذ موقف الحياد يعني الإنصات الدقيق لكل ما تقوله الزوجة، وكل ما يقول الزوج، مع الربط والتحليل والاستنتاج وأهم من هذا كله قراءة ما بين السطور.

استخدام أسلوب التهدئة: عادة حين تشتكي الزوجة، تكون ثائرة أو متوترة. هنا يأتي دور الوالدين في التهدئة من خلال امتصاص غضب الزوجة بإعطائها بعض الكلمات التي تقوي نفسها، وتريح قلبها، كلمات فيها شيء من المدح والثناء وذلك بتسليط الضوء على سلوك إيجابي صدر عنها، وكذلك بالنسبة للزوج، فحالة الانفعال بالنسبة للزوجة أو الزوج تمنع الآخرين من الإحاطة بملابسات الموقف، ومن ثم الوصول إلى حل يرضي الطرفين. ويشمل أسلوب التهدئة التأكيد على أن الخلافات أمر طبيعي بين الزوجين، لسبب بسيط، إن كلّا من الزوج والزوجة قد أتى من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

بيت له معاييره وأساليبه وقناعاته الخاصة في التعامل بين أفراد الأسرة، ولكن مع توالي الأيام والشهور والسنوات يبدأ الزوجان تفهماً أكبر لحياتهما الخاصة، نتيجة تبلور القناعات، ووضوح المعايير، وثبات الأساليب، وبتركيز على الإيجابيات مع تجاهل السلبيات، مثل هذه المعاني يمكن للوالدين توصيلها للزوجين حال الخلاف بهدف التهدئة.

التعامل مع الخلافات الزواجية ودور المجتمع:

مراكز الإرشاد النفسي: ويبرز دور المجتمع في مجال الخلافات الزواجية فيما تقدمه مراكز الإرشاد النفسي الحكومية والخاصة على حد سواء من خدمات، منها الدورات التدريبية للمتخصصين لتأهيلهم للقيام بدور فاعل في مجال الإرشاد النفسي، ودورات إكساب مهارات في التعامل الزواجي للمقبلين على الزواج أو الراغبين بالزواج.

ودورات أخرى لمن يعانون من المشاكل الزواجية وكيف يحولون حياتهم إلى سعادة. حتى الذين تميّزت حياتهم بالاستقرار وقلة الخلافات، يمكن أن يكون لهم حظاً من هذه الدورات، لكي يكونوا أكثر استعداداً لمواجهة أي خلافات إذا ما وقعت.

وإلى جانب الدورات هناك المحاضرات والندوات العامة والخاصة التي تجعل الزوجين أكثر وعياً في تسيير حياتهم الأسرية، ويمكن أن يكون للشباب نصيبهم من هذه المحاضرات والندوات معها

يتمكنون من تغير قناعاتهم السلبية تجاه الزواج إلى قناعات إيجابية.

وأهم ما يميز المراكز أو المكاتب الإرشادية ما تقدمه من جلسات إرشادية فردية أو جماعية، تحديد المشكلة أولًا، ومن ثم وضع خطة علاجية مناسبة في ضوء المعلومات المدونة من قبل المرشد ومن خلال ما يدلي به المسترشد. والهدف من الخطة العلاجية مساعدة المسترشد على أن يكون أكثر فاعلية في التعامل مع المواقف، وإكسابه خبرة في اختيار أفضل الحلول، ومن ثم يصل إلى مراحل نقل الخبرة إلى غيره ممن يعاني نفس الأعراض، بعد ما يكون قد حقق النجاح لنفسه.

الاستشارات الهاتفية: وهي خدمة هاتفية تقدم لمن يريد، سواء كانت هناك خلافات أو لم تكن وإنما لزيادة الوعي في التعامل الزواجي. هذه الخدمة تفيد تلك الشريحة التي تجد صعوبة في الوصول إلى المراكز أو المكاتب الإرشادية، وكذلك الذين يحتاجون إلى استشارة سريعة وعاجلة لتدارك الموقف.

وتعتبر دولة الكويت من الدول المتقدمة في الإرشاد الزواجي، ولعل بعض الدول قد حذت حذوها، واقتبست الفكرة، بل كان لها زيارات لدولة الكويت لمعاينة التجربة في الواقع، ومن الجهات الحكومية التي عنت بالإرشاد الزواجي مكتب الإنماء الاجتماعي التابع للديوان الأميري، وشاركه في هذه المهمة مكتب الاستشارات الأسرية التابع لوزارة العدل وبدعم من الأمانة العامة للأوقاف. والذي تركز عمله في معالجة حالات الطلاق وقد حقق

نِسَباً عالية في الإصلاح. وفي كل عام نجد النسبة تتضاعف بشكل كبير، وإن دلّ ذلك على شيء إنما يدل على مدى نجاح هذه الفكرة والتي عنونت بـ (إصلاح ذات البين)، إضافة إلى المكاتب الاستشارية الخاصة، والتي أثبتت فاعليتها في معالجة المشاكل الاجتماعية وما ينتج عنها من أعراض نفسية، مثل هذه المكاتب الحكومية والخاصة ينبغي على الأهل تشجيع الزوجين على الاستفادة منها، وتأتي الكويت كثالث دول العالم في هذا المجال، بعد الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة.

وأخيراً دور وزارة العدل المتمثل في العناصر الفاعلة في معالجة الخلافات الزواجية ووضع نهج شرعي مدروس وهم القضاة والمحامون وأهمية دورهم في تهدئة الأوضاع وبناء الثقة بين الزوجين بهدف المحافظة على متانة البناء الاجتماعي لأمتنا الإسلامية، وتجنب إصدار الأحكام التي من شأنها تحقيق المصالح الخاصة دون الالتفات إلى الصالح العام، المتمثل في حفظ استقرار وأمن الأمة والحقيقة أن حفظ الأمم إنما يتم بالعدل.

* * *

ختام وصلة

يصدر هذا العدد وقد حمل بصمات أخوات فاضلات، شاركن في صياغته، وتمثل نسبة مساهماتهن (٤٦٪) - ستة وأربعين في المائة - وهي نسبة تمثل الحد الأعلى فيما صدر من أعداد... وقد أتى هذا الأمر - قدراً - دون ربط بأحداث لاحقة أو سابقة.. وهو يعطى مؤشراً بأن هذا الإسهام - والذي نرجو أن يزداد - يمثل معايشة الأخوات لقضايا الأسرة ومشاركتها في التقعيد والبناء.

إن موسوعة الأسرة يزينها دائماً إسهام الأخوات جنباً إلى جنب - مع الأخوة الأفاضل - في أحد الميادين.. بل في أهم الميادين.. وهو ميدان الأسرة.. والذي يمثل في النهاية جهداً مشتركاً لصالح الأسرة المسلمة.

إن هيئة التحرير وهي تودّع المولود المبارك ذا السنوات الثلاث - ترجو أن يحبو هذا الوليد على عتبات الحياة وأوائل العمر في سنته الرابعة، وقد حمل بصمات كافة المستكتبين بمختلف أطيافهم حتى يغدو في قابل الأيام - قادراً على التعايش مع الذات ومع الآخرين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

هيئة التحرير

كشاف المفاهيم

الموضوع	الصفحة
آداب	٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٨٥، ٣٩٨، ٤١١، ٤٢٠، ٤٣٥، ٤٤٣
أب	٥٣٦، ٦٥٧
ابن	٥٣٦، ٥٣٧
ابنة	٥٣٦
أرمل (الترمل)	٦٤٠
استخلاف	٣٦
استقرار	٥٣٩، ٥٤٧
الأشد	٦٢٧
إشهار	١١٢
أعياد	٩٠، ٩٤
أم	٥٣٦، ٥٣٧، ٦٣٤
الإنفاق	٦٧، ٦٨
بر (الوالدين)	٣٥
بيئة	٢١٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٣٣
تباين	٥٢
تضامن	٥٦
تفاعل	٥٣٥، ٥٤٠، ٦٣٥، ٦٤٦
تقاعد	٦٤٢
تكافؤ	٥٦١
تكافل	٣١٥، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٤١
الجد (الجدودية)	٦٤١
جماعة	٥٥، ٥٦
جنس	٦٣٦، ٦٤٠
حداء	٥٠٢
الحداثة	٧٣
حدث (أحداث)	٢١١، ٢٦٨
حفيد (أحفاد)	٦٥٧
حق (حقوق)	٧٠، ٥٩٨، ٦١٨، ٦١٩
الحماية	١٨٨، ١٨٩
الحياء	١٨٧
ختان	١٢٠
ختمة	١٢٢
الخطبة	٤٢
خلاف	٦٦١، ٦٦٣، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧٢، ٦٩٧
درأ (درء) وقاية	٦٧٢، ٦٧٨، ٦٨٠
دور	٣٢، ٣٣، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٧١، ٦٥٢
الرّشد	٦٠٩، ٦١١، ٦١٢، ٦١٤، ٦١٥، ٦٢٤

سكن .... ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥
شباب ... ٥٩٠، ٥٩٦، ٦٠٢، ٦٠٤
شكل .... ١٦٣، ١٦٩
شيخ (شيخوخة) .... ٦٥٢، ٦٥٥
صبا ٥٧٥
الصحة .... ٥٦٢، ٥٨١
صور ٤٨٨
ضبط ٥٦٨
طفل (طفولة) .... ٥٧٥، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٤
عادة (عادات) .... ٥٠٤، ٥٢٤
العاملة .... ٦٨، ٦٩
عقيقة .... ١١٤، ١١٧
علاج .... ٦٨٥، ٦٩٤
عمران ٣٦
العولمة ٧٤
فطرة ٣٩
قرابية ٣٧
القيم .... ٤٤، ٤٦، ٤٩
كارثة (كوارث) .... ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢
لباس .... ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤
لعب (ألعاب) .... ٤٤٦، ٤٥٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٧
المجتمع الأهلي (المدني) ..... ٧١، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٥
ممتدة .... ١٣٣، ٢٨٠
المناسبات ... ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٩٠، ٩٤، ١٠١، ٣٧٤
موروث (موروثات) ... ٤٨٦، ٤٨٨
نسق ٤٤
نسل ١١٣
نشأة ٤٠
نمط .... ١٢٩، ١٣١، ١٣٢
نواة .... ١٣٤، ٢٨٠، ٣٣٤
الوالد (الوالدية) ٥٦٣، ٦٤٠، ٦٧٩
وصل (تواصل) ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٢
وظيفة .... ٦٤، ٢٧٢

قائمة المراجع والمصادر

أولًا: القرآن الكريم.

ثانياً: تفسير القرآن الكريم وعلومه:

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، (مصر: عيسى البابي الحلبي، دار إحياء الكتب المصرية) (د. ت)، و(بيروت: مؤسسة الريان، ١٩٩٦م).
- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، (لبنان: مؤسسة بيروت، الرسالة).
- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، (القاهرة وبيروت: دار إحياء التراث العربي).
- عبدالباقي، محمد فؤاد عبدالباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ط (١)، (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦م).
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، طبعة مصورة بالأوفست عن طبعة دار الكتب المصرية، ط (٣)، (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).
- قطب. سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط (١٣)، (مصر: دار الشروق).

ثالثاً: كتب السنة النبوية وشروحها:

- ابن حجر، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري**،

(*) الترتيب بناء على الأحرف الأبجدية، من غير احتساب أل التعريف.

شرح صحيح البخاري، ط (٢)، (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٩هـ - ١٩٩٤م).

- ابن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، **الطبقات الكبرى**.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، **زاد المعاد في هدى خير العباد**، (مصر: دار التقوى للتراث).
- ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجة**، ترقيم وعناية محمد فؤاد عبدالباقي، (القاهرة: عيسى الحلبي، دار إحياء الكتب العربية).
- أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، **سنن أبي داود**، مراجعة وضبط محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: دار الفكر)، (د. ت).
- أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، **سنن أبي داود ومعه معالم السنن للخطابي**. تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد، (سوريا: حمص، دار الحديث).
- أبو شيبة، أبو بكر، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، **المصنف**، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط (١١)، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ).
- أبو يعلى الموصلي، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي، **مسند أبي يعلى**.
- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني، **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، ط (٢)، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، ط. دار الفكر. وط المنيرية، ط (٥)، (بيروت: دار عالم الكتب، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني، ط (١)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ).
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط (١)، (القاهرة: مكتبة الحلبي. ١٣٥٦هـ)، وتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط (٢)، (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م).
- الدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمولي وخالد السبع العلمي، ط (١)، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ).
- الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، **نيل الأوطار**، (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م)، (د. ت).
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي السلفي، ط (١)، سلسلة إحياء التراث الإسلامي (٣١)، وزارة الأوقاف، (العراق: مطبعة الوطن العربي، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- عبدالباقي، محمد فؤاد عبدالباقي، **اللؤلؤ والمرجان**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط (١)، (القاهرة: دار الحديث، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م). وط دار الفكر.
- منصور، سعيد بن منصور، **سنن سعيد بن منصور**، تحقيق سعد بن عبدالله آل حميد، ط (١)، (الرياض: دار العصيمي ١٤١٤هـ).
- النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، **سنن النسائي، ومعها شرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي**، ترقيم عبدالفتاح أبو غدة، ط (٤)، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **تهذيب الأسماء**، طبعة مصورة عن الطبعة المنيرية، (بيروت: دار الكتب العلمية)، (د. ت).
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **رياض الصالحين**.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، ط (٣)، (بيروت: دار القلم)، (د. ت).
- الهيثمي، علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ).

رابعاً: معارف عامة:

- إبراهيم، سعد الدين إبراهيم، **المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي**، ضمن كتاب: الكويت.. دراسة في آليات الدولة القطرية والسلطة والمجتمع، (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، ص: ٥ - ٣٩، ١٩٩٥م).

- إبراهيم، سعد الدين إبراهيم، **النظام الاجتماعي العربي الجديد**، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢م).
- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، **العبودية في الإسلام**، ط (٤)، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ).
- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن الجوزي، **تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر، تحقيق أحمد شومان**، (دمشق: مكتبة التراث ١٩٩٣م).
- ابن خلدون، **المقدمة**، (مصر: ط مصطفى محمد)، (د. ت).
- ابن قدامة ، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، **المغني**، ط (١)، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، ط (١)، (دمشق: مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م). وعناية بسام الجابي، ط (١)، (بيروت: دار البشائر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- أبو حاكمة، أحمد مصطفى أبو حاكمة، **تاريخ الكويت الحديث**، (١١٦٣هـ - ١٣٨٥هـ، ١٧٥٠- ١٩٦٥م)، ط (١)، (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٤م).
- أبو حطب، فؤاد أبو حطب، وآمال صادق، **نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين**، ط (٢)، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١م).

- أبو زهرة، محمد أبو زهرة، **الأسرة في الإسلام**، حلقة الدراسات الاجتماعية (البيت العربي)، جامعة الدول العربية.
- أبو زيد، أحمد أبو زيد، **البناء الاجتماعي** (الأنساق)، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م).
- أبو غزالة، حسن فريد أبو غزالة، **أمراض لها تاريخ**، قراءة مرضية في سفر التاريخ.
- أحمد، علي عسكر، ومعصومة أحمد، **الاتجاه النفسي نحو تولي المرأة للوظائف الإشرافية بمنظمات العمل المختلفة في المجتمع الكويتي**، (الكويت: مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت ٢٠٠٣، مجلد ٣١، ص ٨٥٧ - ٨٨٠).
- الإستانبولي، محمود مهدي الإستانبولي، **تحفة العروس، أو الزواج الإسلامي السعيد**، (بيروت).
- الأسود، نزار الأسود، **الحكايات الشعبية الشامية**، (١٩٩٥ - ١٩٩٧م).
- الألباني، وهبي سليمان الألباني، **المرأة المسلمة**، (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٧٥م).
- الأمم المتحدة UNDP، **تقرير التنمية الإنسانية**، ٢٠٠٢م.
- الأنصاري، بدر محمد الأنصاري، **آثار العدوان العراقي على السمات الشخصية لطلاب جامعة الكويت من الجنسين**، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة (الكويت: الكويت ٢ - ٦ أبريل ١٩٩٤، (الكويت: مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٦م).

- الأنصاري، بدر محمد الأنصاري، **دراسة عاملية للحالات الانفعالية للشباب الجامعي في الكويت بعد العدوان العراقي**، في: **الأبعاد النفسية لآثار الغزو العراقي على دولة الكويت**، (الكويت: جامعة الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٦م).
- بانيكار، ك، مادهو بانيكار، **الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقيا**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة).
- بخاتي، محمد عثمان بخاتي، **اتجاهات الشباب ومشكلاتهم**، (مصر: دار النهضة العربية، ١٩٩٢م).
- بدر، عبدالباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنورة**، ط (١)، (السعودية: المدينة المنورة، ١٤١٤هـ).
- برستيد، جيمس هنري برستيد، **عجز الضمير**، ترجمة سليم حسن، (مصر: الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة).
- بركات، حليم بركات، **المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في** تغير الأحوال والعلاقات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٦م، و٢٠٠٠م).
- بشير، رفعت إبراهيم بشير، **التغير الاجتماعي والتنمية في دول الخليج العربية**، (الكويت: منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٧م).
- بيومي، صلاح بيومي، **التنشئة والشخصية، الطفل بين الواقع والمستقبل**، سلسلة اقرأ، (القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢م).
- التميمي، عبدالمالك التميمي، **المجتمع المدني في الكويت منذ الاستقلال حتى الاحتلال**، في: ريما الصبان ومنيرة أحمد وفخر ومتروك الفالح، قضايا وهموم المجتمع المدني في دول مجلس

التعاون: المؤسسات، التشريعات، الأوليات، اللقاء السنوي التاسع عشر ١٩ - ٢٠ فبراير ١٩٩٨ بدبي - الإمارات العربية المتحدة، (الكويت: دار قرطاس، ص: ١٠١ - ١٣١، ١٩٩٨م).

- تيمور، أحمد تيمور باشا، **الأمثال العامية**، (مصر: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- الثاقب، فهد الثاقب، **التحضير وأثره على البناء العائلي وعلاقة العائلة بالأقارب في العالم العربي**: عرض وتقييم لنتائج البحوث، مجلة العلوم الاجتماعية، (الكويت: ١٩٨٦م).
- الثاقب، فهد الثاقب، **حول حجم وبنية العائلة العربية والكويتية**، مجلة العلوم الاجتماعية، (الكويت: ١٩٧٦م).
- الثاقب، فهد الثاقب، **الروابط العائلية - القرابية في مجتمع الكويت المعاصر**، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨٢م).
- الجرداري، عبدالرؤوف الجرداري، **الهجرة والعزلة الاجتماعية في المجتمع الكويتي**، دراسة ثقافية لآثار التغير الاجتماعي والهجرة في مجتمع حضري، (الكويت: دار الربيعان، ١٩٨٤م).

جريدة الرأي العام الكويتية، **أيام الجراد على الأرض أصبحت محدودة**، (الكويت: جريدة الرأي العام، العدد (11147)، الأحد ٢٨ ديسمبر ١٩٩٧م).

- جعيط، هشام جعيط، **أوروبا والإسلام، صدام الثقافة والحداثة**،

(بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٥م).

- جلال، سعد جلال، وعماد سلطان، **بحث طلبة المرحلة الثانوية**، المجلة الاجتماعية القومية، (القاهرة: ١٩٦٦م).
- جلال، محمد نعمان جلال، **دراسة حول قواعد البروتوكول وآدابه بين التقاليد الإسلامية والمجتمع الحديث**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م).
- جمال، محمد عبدالهادي جمال، **الكويت وأيام الاحتلال**، (الكويت: مطابع الخط، ١٩٩٢م).
- جمعية الإصلاح الاجتماعي، **٢٥ عاماً من التأسيس**، (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٨٨م).
- جولمان، دانييل جولمان، **الذكاء العاطفي**، ترجمة ليلى الجبالي، (الكويت: عالم المعرفة ٢٠٠٠م، ٢٠٠٣م).
- الحامد، محمد بن معجب الحامد، **الشراكة والتنسيق في تربية المواطنة**، لقاء قادة العمل التربوي، (السعودية: الباحة، ٢٦ - ٢٨/٢/١٤٢٦هـ).
- حبيب، كمال السعيد حبيب، **الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى سقوط الدولة العثمانية**، من رسالة ماجستير من قسم السياسة بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة، بعنوان (الأقليات والسياسة من الخبرة الإسلامية، دراسة حالة للدولة العثمانية)، (القاهرة: مدبولي، ٢٠٠١م).
- حجازي، مصطفى حجازي، **ثقافة الطفل العربي بين التغريب**

والأصالة، (الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩٨م).

- الحداد، محمد سليمان الحداد، **مؤسسات المجتمع المدني في مواجهة العنف**، في: العنف تحدي خطير للدولة والمجتمع، موسم عبدالعزيز الصرعاوي الثامن والعشرين لرابطة الاجتماعيين، (الكويت: منشورات رابطة الاجتماعيين، ص ١٢٩ - ١٤٩، ٢٠٠٣م).
- الحجي، يعقوب يوسف الحجي، **الكويت القديمة صور وذكريات**.
- حسن، سليم حسن، **مصر القديمة**، ط (١)، (مصر: القاهرة، مطبعة الكوثر).
- حسيب، خير الدين حسيب، **كلمة الافتتاح لندوة المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية**: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص: ٣٣ - ٣٨، ١٩٩٢م).
- حسين، عليه حسن حسين، **الطلاق في المجتمع الكويتي**، (الكويت: وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، ووزارة التخطيط، ١٩٧٨م).
- حطب، زهير حطب، **تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة**، (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٧٦م).
- الخشاب، سامية الخشاب، **النظرية الاجتماعية ودراسة الأسرة**، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م).

- الخلف، غازي الخلف، **انتصار الإرادة الكويتية**، ط (١)، (الكويت: مكتبة الحكمة، ١٩٩١م).
- خليفة، إبراهيم خليفة، **المربيات الأجنبيات في البيت العربي الخليجي**: عرض وتحليل لبعض الدراسات الميدانية، (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٦م).
- خليفوه، علي عبداللطيف خليفوه، **المقاومة الكويتية من خلال الوثائق العراقية**، تحرير ومراجعة يوسف عبدالمعطي، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٣م).
- الخولي، سناء الخولي، **الأسرة والحياة العائلية**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م).
- الخولي، سناء الخولي، **مدخل إلى علم الاجتماع**، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢م).
- دراز، محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن** (١٩٥٠م)، تعريب عبدالصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م).
- الدمخي، علي محمد الدمخي، **كويتي تحت الاحتلال** «كتاب وثائقي»، ط (١)، وط (٣)، (دولة الإمارات العربية المتحدة: دبي، مطبعة دبي، توزيع مكتبة دبي للتوزيع، مايو ١٩٩١م).
- الدمشقي، محمد منير الدمشقي، **الكلم الطيب**، (القاهرة: مكتبة صبيح)، (د. ت).
- دوركيم، إميل دوركيم، **قواعد المنهج في علم الاجتماع، وتقسيم العمل الاجتماعي**، Division of Labar، ترجمة محمد قاسم).

- الديوان الأميري، **البناء القيمي في المجتمع الكويتي**، (الكويت: مكتب الإنماء الاجتماعي، إدارة البحوث والدراسات، ١٩٩٧م).
- ديورانت، وول ديورانت، **قصة الحضارة**، (مصر: مكتبة الأسرة).
- الربيعان، غازي فيصل الربيعان، **أسرى الكويت ومصارعة السوء**، (الكويت: الجمعية الكويتية للدراسات والبحوث التخصصية، ١٩٩٦م).
- رجب، مصطفى رجب، **القيم التربوية والسيكولوجية للعب الأطفال**، مجلة الخفجي، العدد ٤٣٤، (مايو، يونيه ٢٠٠٤م).
- رضا، محمد جواد رضا، **معركة الاختلاط في الكويت: دراسة في الفكر الاجتماعي الكويتي**، (الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م).
- الرميحي، محمد غانم الرميحي، **الخليج ليس نفطاً: دراسة في إشكالية التنمية والوحدة**، (بيروت: دار الجديد، ١٩٩٥م).
- الرميحي، محمد غانم الرميحي، **مدخل لدراسة الواقع والتغير الاجتماعي في مجتمعات الخليج المعاصرة**، (الكويت: مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٧٥م).
- الزبن، دلال فيصل الزبن، **مفهوم العمل عند المرأة الكويتية**، (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٩م).
- زهران، حامد عبدالسلام زهران، **علم النفس الاجتماعي**، ط (٤)، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٧م).

- الزيات، أحمد حسن الزيات، **العيد أيام زمان**، (مصر: مجلة الرسالة، عدد ٢٦ مارس، ١٩٤٣م).
- سابق، السيد سابق، **فقه السنة**، (دار الكتاب الإسلامي). وط(٨) (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م).
- سايرس، وليم سايرس، **فما هي الأسرة على أي حال**، ترجمة محمود الزواوي، شؤون اجتماعية، العدد (٣١)، السنة (٨)، (الشارقة: خريف ١٩٩١م، ٢٠٠١م).
- ستيفنسون، ريتشارد لويس، **انطباعات الأمريكين العاملين في الكويت حول الغزو العراقي**، ترجمة مركز البحوث والدراسات الكويتية، ط (٣)، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٩م).
- السهل، راشد السهل، **آثار العدوان العراقي على حالة النوم وما يصاحبها من سلوك عند الأطفال**، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة الكويت، الكويت ٢ - ٦ أبريل ١٩٩٩م، (الكويت: مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٩م).
- السيد، سيد حسن السيد، **التطبيق المعاصر لفن الاتيكيت والبروتوكول وأثره على السلوك الاجتماعي وسلوك العمل**، (القاهرة: دار الجمهورية)، (د. ت).
- السيد، فؤاد البهي السيد، **الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة**، ط (٢)، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م).

- السيد، مصطفى كامل السيد، **مؤسسات المجتمع المدني على المستوى القومي**، في: المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص: ٦٤٣ - ٦٨٢، ١٩٩٢م).
- الشافعي، أحمد محمود الشافعي، **الزواج في الشريعة الإسلامية**، (مصر: الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٠م).
- الشربيني، **مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج**، (بيروت: دار الفكر)، (د. ت).
- الشطي، عدنان عبدالكريم الشطي، **الاتجاه نحو بعض وظائف الأسرة الكويتية**، حوليات كلية الآداب، الرسالة ١٢٧، (الكويت، ١٩٨٢م).
- شكري، عليا شكري، **الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة**، (القاهرة: مطابع سجل العرب، ١٩٨١م).
- الشلال، خالد أحمد الشلال، **تفضيلات الاختيار الزواجي ومعوقاته في المجتمع الكويتي**، حوليات كلية الآداب، الحولية الثامنة عشر، الرسالة ١٢٥، (الكويت: جامعة الكويت مجلس النشر العلمي، ١٩٩٨م).
- شلتوت، محمود شلتوت، **الإسلام عقيدة وشريعة**، (القاهرة: مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر).
- الشلهوب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، **كتاب الآداب**، ط (١)، (الرياض: دار القاسم، ١٤٢٣هـ).

- الشملان، سيف مرزوق الشملان، **من تاريخ الكويت**، ط (٣)، (الكويت: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع).

- الصباح، أمل يوسف الصباح، **النفط والنمو الحضاري بدولة الكويت**، دراسة حصرية، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشر، الرسالة السابعة والستون، (الكويت: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٩٩٠م).

- الصباح، أمل يوسف الصباح، ومصطفى حنفي الشلقاني، **سكان الكويت الماضي - الحاضر - المستقبل**، دراسة سكانية تحليلية مقارنة، (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٦م).

- الصبان، ريما الصبان، **مؤسسات المجتمع المدني في دول الخليج العربي**، في: ريما الصبان ومنيرة أحمد فخرو ومتروك الفالح، **قضايا وهموم المجتمع المدني في دول مجلس التعاون: المؤسسات، التشريعات، الأوليات**، اللقاء السنوي التاسع عشر ١٩ - ٢٠ فبراير ١٩٩٨ بدبي - الإمارات العربية المتحدة، (الكويت: دار قرطاس، ص ٩ - ٢٧، ١٩٩٨م).

- صبيح، صلاح عطية صبيح، **العادات الاجتماعية لدورة الحياة في المجتمع الكويتي**، (الكويت: مؤسسة الصباح، ١٩٨٠م).

- طاهر، أحمد جمال طاهر، **مشكلات الشباب**، (الأردن: الزرقاء، دار الأمل، ١٩٨٥م).

- الظفيري، عبدالوهاب الظفيري، وعبداللطيف محمد خليفة، وحسني

حمدي، **دراسة ميدانية لأسباب الطلاق الاجتماعية والنفسية في الكويت في مطلع الألفية الثالثة**، (الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١م).

- عبدالحميد، جابر عبدالحميد، **نظرية الشخصية**، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠م).
- عبدالخالق، أحمد عبدالخالق، وعويد المشعان، **إدراك الآثار النفسية للعدوان العراقي لدى طلاب الجامعة الكويتية**، (الكويت: مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٧٤)، ١٩٩٤م).
- عبدالرحمن، محمود عبدالرحمن، **تاريخ القوقاز**، (لبنان: بيروت، دار النفائس، ١٤٢٠هـ - ١٩٩م).
- عبدالعظيم، محمد عبدالعظيم، **البُعد السيكولوجي في عملية التطوع لدى الأطفال**، المحددات والفوائد، مجلة الطفولة والتنمية، العدد (١٠)، المجلد (٣)، (القاهرة: المجلس العربي للطفولة والتنمية، صيف ٢٠٠٣م).
- عبدالغني، أحمد عبدالغني، **دولة الرفاهية وتنظيمات المجتمع المدني**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة (بني سويف)، ٢٠٠٥م).
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **أثر التغير الاجتماعي في البناء الاجتماعي للأسرة المصرية** (رسالة دكتوراه)، (كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧١م)، غير منشورة.
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **بحث المشكلات النفسية والاجتماعية في مجال التربية** - الكويت، (القاهرة: ١٩٩٠م).

- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **تنظيم المؤسسات**، (مصر: بني سويف، دار الثقافة العربية).
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **التنمية الحضارية والفئات المهمشة، الطفولة والشباب**، ندوة التنمية في إطار تجديد الفكر الإسلامي، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م).
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **مستقبل التنمية، نحو منظور إسلامي**، (مصر: القاهرة، دارالشرق الأوسط، ١٩٩٠م).
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **مستقبل التنمية، نحو بديل حضاري إسلامي**، (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٩١م).
- عبدالمتعال، صلاح عبدالمتعال، **مقدمات في علم الاجتماع**، (مصر: بني سويف، دار الثقافة العربية، ٢٠٠١م).
- عبدالوهاب، محمد بن عبدالوهاب، **مختصر سيرة الرسول ﷺ**، تحقيق محمد حامد الفقي، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٦م).
- عبوشي، صلاح عبوشي، **كتاب المراسم**، (بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- عجوية، مختار إبراهيم عجوية، **تأثير كارثة الغزو العراقي على الأسرة الكويتية**: دراسة استطلاعية لثمان من الأسر الكويتية النازحة إلى المملكة العربية السعودية قبل الحرب البرية، (الكويت: مجلة العلوم الاجتماعية، ١٩٩٤م).
- عزب، خالد عزب، **فقه العمارة الإسلامية**، ط (١)، (مصر: دار

النشر للجامعات، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

- العقل، محمد رشيد العقل، **سكان الكويت**، (الكويت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٦٩م).
- عكاشة، أحمد عكاشة، **عذابك له علاج**، كتاب اليوم الطبي، (القاهرة).
- علوان، عبدالله ناصح علوان، **تربية الأولاد في الإسلام**، ط (٩)، (القاهرة: ١٩٨٥م).
- العنزي، فريح العنزي، **علم نفس الشخصية**، (الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).
- العوضي، مريم عبدالكريم العوضي، **العدوان العراقي على الكويت: الحقيقة والمأساة**، ط (٤)، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٠م).
- الغانم، غانم يوسف الشاهين الغانم، **كويتنا جوهرتنا**، (الكويت).
- الغبرا، شفيق الغبرا، **الكويت: دراسة في آليات الدولة القطرية والسلطة والمجتمع**، (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، ١٩٩٥م).
- الغزالي، أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
- الغزالي، صلاح محمد الغزالي، **موسوعة الكويت تحت الاحتلال العراقي: سور الكويت الرابع**، ط (١)، (الكويت).
- غلوم، محمد حسين غلوم، **الاحتلال العراقي: الممارسات والوقائع**

من شاهد عيان، في: الغزو العراقي للكويت: المقدمات الواقع وردود الفعل - التداعيات، ندوة بحثية، (الكويت: عالم المعرفة، عدد ١٩٥، ص ١٥٧ - ٣٠٠).

- غلوم، يوسف غلوم، **تأثير الديوانيات على عملية المشاركة السياسية في الكويت**، مجلة العلوم الاجتماعية، (١٩٩٦م).
- الغندور، أحمد الغندور، **الأحوال الشخصية في التشريع الإسلامي**، (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٩٢م).
- غيث، عاطف غيث، **قاموس علم الاجتماع**، (مصر: القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٨م).
- الفلاح، نوره الفلاح، **التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط: مجتمع الكويت**، (الكويت: حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الرسالة السابعة والخمسون، ١٩٨٩م).
- الفليج، عصام عبداللطيف الفليج، **ذكريات كويتية.. يوميات الاحتلال والتحرير ومعلومات كويتية** (أجندة ٢٠٠٠م)، (دولة الكويت: صندوق التكافل لرعاية أسر الشهداء والأسرى، جمعية الإصلاح الاجتماعي، ٢٠٠٠م).
- فريدمان، توماس فريدمان، **السيارة الليكزس وغصن الزيتون**.
- القرضاوي، يوسف القرضاوي، **غير المسلمين في المجتمع المسلم**، (القاهرة: مكتبة وهبة).

قطب، سيد قطب، **الإسلام ومشكلات الحضارة**، (القاهرة: دار الشروق).

- قطب، سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي**، (القاهرة: دار الشروق).
- قطب، سيد قطب، **السلام العالمي والإسلام**، ط (١٢)، (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- القناعي، يوسف بن عيسى القناعي، **صفحات من تاريخ الكويت**، ط (٥)، (الكويت: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- كريم، عادل شكري كريم، **دراسة مقارنة للمخاوف الشائعة لدى عينة من الطلاب الكويتيين قبل الغزو العراقي وفي أثنائه وبعده**، المؤتمر العالمي عن آثار العدوان العراقي على دولة (الكويت: الكويت ٢ - ٦ أبريل ١٩٩٩، (الكويت: مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ١٩٩٦م، ص ١٧٩ - ٢٣٤).
- كريم، سيد كريم، **الكاتب المصري**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م).
- الكندري، يعقوب يوسف الكندري، **الديوانية الكويتية: دورها الاجتماعي والسياسي**، (الكويت: دار البلاغ، ٢٠٠٢م).
- الكندري، يعقوب يوسف الكندري، **الصحة الجسمية وعلاقتها ببعض المتغيرات الاجتماعية الثقافية عند المسنين في المجتمع الكويتي**، مجلة بحوث كلية الآداب - جامعة المنوفية، عدد (٤٧)، ص ١ - ٢٩، (٢٠٠١م).
- الكندري، يعقوب يوسف الكندري، **معدلات انتشار زواج الأقارب**

وعلاقته ببعض المستويات الثقافية في المجتمع الكويتي (تحت النشر)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، (الكويت: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي).

- الكندري، يعقوب يوسف الكندري، وحمود فهد القشعان، **علاقة استخدام الإنترنت بالعزلة الاجتماعية على طلاب جامعة الكويت**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، (دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ١ - ٤٥).
- لجنة بشائر الخير، **تجربتنا في علاج المدمنين بالطريقة الإيمانية**، سلسلة بشائر الخير رقم (٢)، (الكويت: لجنة بشائر الخير، جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٨م).
- ليلة، علي ليلة، **الشباب في مجتمع متغير**، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، (القاهرة: ١٩٩٠م).
- المؤتمر الدولي السادس لمكافحة الجريمة، (فنزويلا: كراكاس، أغسطس، سبتمبر ١٩٨٠م).
- ماليري، ستانلي ج ماليري، **الطبيب في البحرين والكويت**، (١٩٠٧ - ١٩٤٧م) الكويت قبل النفط، مذكرات س.، ترجمة وتقديم أ. د. محمد غانم الرميحي.
- ماهر، جون ماهر، وجودي جروفز، **اللغة والسياسة**، نعوم شومسكي، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣م).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، **أدب الدنيا والدين**.

- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، أبحاث المؤتمر العاشر، بعنوان (**الإسلام والقرن الحادي والعشرون، قضايا غير المسلمين من البلدان الإسلامية**)، (مصر).

- المجلس العربي للطفولة، **التقرير الإحصائي السنوي لواقع الطفل العربي**، (مصر: ١٩٥٩م).

- مجلس الوزراء، إدارة الفتوى والتشريع، **قانون الأحوال الشخصية**، (الكويت: ١٩٨٤م).

- مجموعة من المختصين بإشراف د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح، **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**، ط (١)، (السعودية: جدة، دار الوسيلة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

- مجموعة من المستشرقين، **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة أدب، للمستشرق الإنجليزي جولد تسهير.

- محمود، عبدالله محمود، **دور الأسرة في تكوين شخصية الطفل وتنميته**، بحث ضمن مجموعة أبحاث في كتاب الأسرة والطفل، ط (١)، (الشارقة: دار الثقافة والإعلام، ١٩٩٤م).

- المذكور، خالد مذكور المذكور، **دراسة آثار الظواهر السلوكية والأخلاقية المستجدة في المجتمع الكويتي**، ضمن: محاضرات الموسم الثقافي الخامس بمركز البحوث التربوية والمناهج بعنوان: الظواهر السلوكية والأخلاق المستجدة في المجتمع الكويتي والسمات الشخصية الكويتية المرغوبة، (الكويت:

وزارة التربية - الموسم الثقافي الخامس، ١ - ٣ مارس ١٩٩٨م، ص ٧٧ - ١١٤).

- مراد، محمد مراد، **العائلة وعلاقات القرابة في المجتمع العربي الحديث والمعاصر**: دراسة في التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، (بيروت: دار الفارابي، ١٩٩٨م).
- المرسي، عبدالرسول علي المرسي، **التغيرات الاجتماعية وأثرها على الإسكان: دور التخطيط في مواجهة هذه التغيرات - النموذج الكويتي**، (الكويت: ١٩٨١م).
- مرسي، كمال إبراهيم مرسي، **التأصيل الإسلامي للإرشاد والعلاج النفسي لاضطرابات ما بعد الصدمة**، المجلة التربوية، جامعة الكويت، العدد (٥٠)، المجلد (١٣)، (الكويت).
- مرسي، كمال إبراهيم مرسي، **السعادة وتنمية الصحة النفسية**، (الكويت: دار القلم، ٢٠٠٠م).
- مرسي، كمال إبراهيم مرسي، **العلاقة الزوجية والصحة النفسية في الإسلام وعلم النفس**، (الكويت: دار القلم، ٢٠٠٣م).
- المركز الإعلامي الكويتي بالقاهرة، **روايات شهود العيان لمجازر صدام حسين في الكويت**، (القاهرة: المركز الإعلامي الكويتي).
- مركز البحوث والدراسات الكويتية، **دور مركز البحوث والدراسات الكويتية في توثيق جرائم العدوان العراقي والرد على ادعاءاته**، (الكويت: ١٩٩٥م).
- المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، **المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري**، (مصر: ١٩٨٥م).

- المديرس، فلاح عبدالله المديرس، **المجتمع المدني والحركة الوطنية في الكويت**، (الكويت: دار قرطاس للنشر، ٢٠٠٠).
- المشعان، عويد المشعان، **العدوان العراقي والآثار النفسية والمادية على المواطن الكويتي**، ط (١)، (د. م)، (مؤسسة العلم الحديث، ١٩٩٣م).
- المطوع، محمد عبدالله المطوع، **التلاحم الاجتماعي في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي**، مجلة العلوم الاجتماعية، ص ٩٩ - ١٢١.
- معرفي، فاتن عبدالجبار معرفي، **أين أسرى الكويت؟** ط (١)، (الكويت: المطبعة العصرية، ١٩٩٣م).
- مكتب الإنماء الاجتماعي الكويتي، **البناء القيمي في المجتمع الكويتي**، (الكويت: إدارة البحوث والدراسات، ١٩٩٧م).
- منصور، طلعت منصور، **دراسة في الآثار النفسية والاجتماعية للغزو العراقي لدولة الكويت**، في: الغزو العراقي للكويت: المقدمات - الوقائع وردود الفعل - التداعيات، ندوة بحثية، (الكويت: عالم المعرفة، عدد ١٩٥).
- الناصر، فهد الناصر، **دراسات في عملية الاجتماع العائلي في الأسرة**، (الكويت: دار الكتاب الجامعي، ١٩٩٧م).
- ناصف، مصطفى ناصف، **اللغة والتفسير والتواصل**، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت).
- النجار، باقر النجار، **المجتمع المدني في الخليج والجزيرة العربية في المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية**،

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠م).

- الندوي، أبو الحسن الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، (القاهرة: مكتبة السنة، ١٩٩٠م).
- الهاجري، منصور الهاجري، **لقاء مع السيد علي الهزيم** ورحلة مع الطيف والجندل والباسجيل والبارية، (الكويت: جريدة الوطن، العدد (٩٣٠٩)، ١١ يناير ٢٠٠٢م).
- هادي، فوزية عباس هادي، **تأثير العدوان العراقي في الجوانب الانفعالية والمعرفية للأطفال**، في: **الأبعاد النفسية لآثار الغزو العراقي على دولة الكويت**، (الكويت: جامعة الكويت - مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، ١٩٩٦م).
- هاشم، وحيد حمزة هاشم، **العلاقة بين التنشئة الوطنية والاستقرار**، ندوة المجتمع والأمن، (الرياض: كلية الملك فهد الأمنية، ٢/٢١ - ٢٤/ ٢/ ١٤٢٥هـ).
- الهذلول، صالح بن علي الهذلول، **أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية**، (السعودية: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ).
- همس، بليث همس وآخرون، **علم الاجتماع**، تعريب محمد مصطفى الشعيني، (الرياض: دار المريخ).
- وافي، علي عبدالواحد وافي، **الأسرة والمجتمع**، (مصر: دار النهضة، ١٩٧٧م).

- وزارة الإعلام، **الكويت حقائق وأرقام**، (الإصدار السادس)، (دولة الكويت: ١٩٩٧).
- وزارة التخطيط - قطاع الإحصاء والمعلومات، **المجموعة الإحصائية السنوية**، (دولة الكويت: ١٩٨٥م). والعدد (٣٨)، ط (٣٨)، (دولة الكويت: ٢٠٠١م).
- وزارة الثقافة، **نحو نظرة جديدة للإسكان في مصر**، (مصر).
- اليافي، عبدالكريم اليافي، **الهجرات وتحركات السكان**، المجلد الخامس، عدد (٤) الصادر عام ١٩٧٥م، سلسلة عالم الفكر، (الكويت).

خامساً: الموسوعات:

- البعلبكي، منير البعلبكي، **موسوعة المورد**، (لبنان: بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٣م).
- حسن، سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م).
- طه، جمانة طه، **موسوعة الأمثال الشعبية العربية**، (الدار الوطنية الجديدة للنشرو التوزيع).
- مان، فيشيل، **موسوعة العلوم الاجتماعية**، ترجمة عادل مختار الهواري، ومسعد عبدالعزيز مصلوح، (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٩٤م).
- **الموسوعة العربية العالمية**، ط (٢)، (السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ١٩٩٩م).

- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، **الموسوعة الفقهية**، (دولة الكويت: دار الصفوة، وذات السلاسل).

سادساً: المعاجم والقواميس:

- ابن منظور، محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور، **لسان العرب**.
- بدوي، أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، (لبنان: مكتبة لبنان، ١٩٨٢م).
- زكريا، أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبدالسلام هارون، ط (١)، (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ - ١٩٩١م).
- الفيروز آبادي، محمد ين يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ط (٢)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، وط (مصر: المطبعة والمكتبة الحسينية المصرية).
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، **المصباح المنير**، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧م).
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوجيز**، (القاهرة: ٢٠٠٠ - ٢٠٠١م).
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، (دمشق: مكتبة النووي).

سابعاً: مواقع الإنترنت:

- إسلام أون لاين، **موسوعة جامع الفقه الإسلامي**، شركة حرف على موقع www.al_islam.com
- إسلام أون لاين، **النشيد القومي الشيشاني**.
- الخولي، كوثر الخولي، **يوم الأسرة العربية، والبحث عن الهوية الغائبة**، www.islamonline.net/Arabic.
- الشربتلي، ناصر الشربتلي، **كيف ينمو الضمير لدى الطفل، وكيف تكون التنشئة**، www.balocgh.com/womoc
- صقر، عطية صقر: **شم النسيم، اليهود والمسيحيون والفراعنة**، إسلام أون لاين (١٩٩٩م – ٢٠٠٥م).
- هابي فالنتين، **الجزيرة نت**.
- هابي فالنتين، **عيد الحب**، ١٤ فبراير، شبكة الفوائد الإسلامية.

ثامناً: المراجع باللغة الإنجليزية:

- Abdel Salam, Seham: Male Genital Mutilation (circumcision): A Feminist Study of a Muted Gender Issue. Post-master Fellowship Research, American University, Cairo. Source: www.noharm.ogr/muted1.htm.
- Acker, S. M., Stoer, P. L., Datta, M., Szabo, R., Short, R., (2000). How does circumcision protect against HIV infection. British Medical Journal, 320: 1592 - 1594.
- Al-Thakeb, F. (1985). The Arab Family and Modernity: Evidence from Kuwait. Current Anthropo9logy 26: 575-580.
- American Academy of Pediatrics, (1999). Task Force on Circumci-

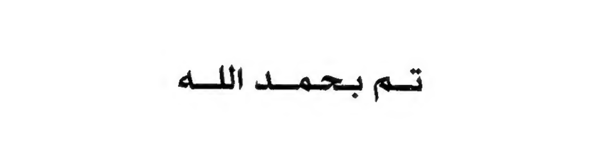
sion: Circumcision Policy Statement (Re 9850), Pediatrics, 103: 686 - 693.

- Ammar, H. (1954). Groweing Up in an Egyptian Family. London, Routlege & Kegan Paul Ltd.
- Aolio, L., (1991). Clitoral hypertrophy. The Medicine Net. Edermatology.
- Bertschinger, Jolia (1991). Circumcision choices. Midwifery Today, 17 - 22 - 23.
- Brunner, J. S. (1963): The Process of Education. Cambridge Mass, Harvard tuniverity Press.
- Burgess, E. & Locke, H. (1945). Family. N. Y. American Book Co.
- Caprio, F. S. (1966). The sexually adequate female. A Facet Gold Medal Book. Facet Publication, Inc. Greenwich, Conn. USA.
- Chapin, H. D. (1915). A Plea for accurate Statistics in infant institutions. Transactions of the American Pediatric Society, 27, 180.
- Craig, J. C., Knight J. F.; Suresh, Kumar P., Mantz, E.; Roy, L. P. (1996). Effect of Circumcision on incidence of U.T.I. in Preschool Boys. J. Pediatrics; 128: 237.
- Crapo. Chley H. (1994). Cultural Anthropology: UnderstandingOurselves and Others. Madison: Brown and benchmark.
- David. Morgan. (1991). Ideologies of Marriage and Family Life. In: Marriage, Domestic. Life and Social Change: Writings for Jacqueline Burgoyne (1944 - 88). David Clark (edt.) London and New York: Routledge.
- Duvall, Evelyn, & Miller, Brent C. (1985). Marriage and Family Development. New York: Harper Collins Publishers.
- Eckland, B. (1968). Theories of Mate Selection. Eugenics Quarterly, 15: 71 - 84.

- El-Saadawi, Nawal (1980). The hidden face of Eve: Women in the Arab World. London: Zed Press.
- Fiddens, Antonym (1997). Sociology, (3d ed), U. K: Oxford. Polıty Press.
- Focus on Circumcision: The medical Pros and Cons. The Medicine Net.
- Fromm, E. (1956). The art of loving. N. Y.: Harper.
- Fromm, E. (1964). The heart of man. N. Y.: Harper.
- Goldman, Ronald (1999). The psychological impact of circumcision. BJU International, Vol. 83, suppl. 1, Janurary, p. 93 - 102.
- Gollwitzar, P. M. et al. (Eds.), (1996). The Psychology of action: Linding Cognition and motivation to behavior. N. Y.: Guilford Press.
- Heath Desmond (1984). An Investigation into the origins of a Copious Vaginal Discharge During Intercourse. Journal of Sex Research. 20: 2; 194ff.
- Hutter, Mark. (1988). The Changing Family: Comparative Perspectives. New York: Macmillan Publishing Company.
- Murdock, G. P. (1949). Social structure, N.Y. Macmillan Co.
- Niku, S. D., Stock, J. A., Kaplau, G. W. (1995). Neonatal Circumcision. Urol. Clin. North Am. 22: 5765.
- Ospipov, V.,: Balanoposthitis. The Medicine Net. E-dermatoloty.
- Strong, Bryan and De Vault, Christine, (1989). The Marriage and Family Experience. St. Paul: West Publishing Company. Sussman, M. & Burchınal, L. (1962). Parental Aid to Marriage Children. (M. F. L.) V. 24.
- Sussman, Martin, (1954). Family Continuity. J. Marriage and Family

Lιving (M. F. L.) V. 16.

- Sussman, Martin, (1956). Juvenile Delinquency in Modern Society. N. Y. D. Vannenstrand Co. Inc.
- Traditional practices affecting the health of women and children,: Report of a Seminar, Khartou, 10 - 15 February 1979.
- WHO (1995). Female genital mutilation: Report of a WHO technical working group, 17 - 19 July 1995, WHO, Geneva.
- WHO (1997). Female genital mutilation: A joint WHO/UNICEF/ UNFRA statement, World Health Organization, Geneve.
- WHO (1998). Female genital mutilation: An overview, World Health Organization, Geneva.
- Wikelmann, A. KI., (1959). The Erogenous Zones: Their Nerve Supply and Significance. Proceedings of the staff meetings of Mayo Clinic, V. 34, No. 2, 39 - 47.
- Zwang Gerard: From Demystifying Circumcision. www.enfant. org.



تم بحمد الله